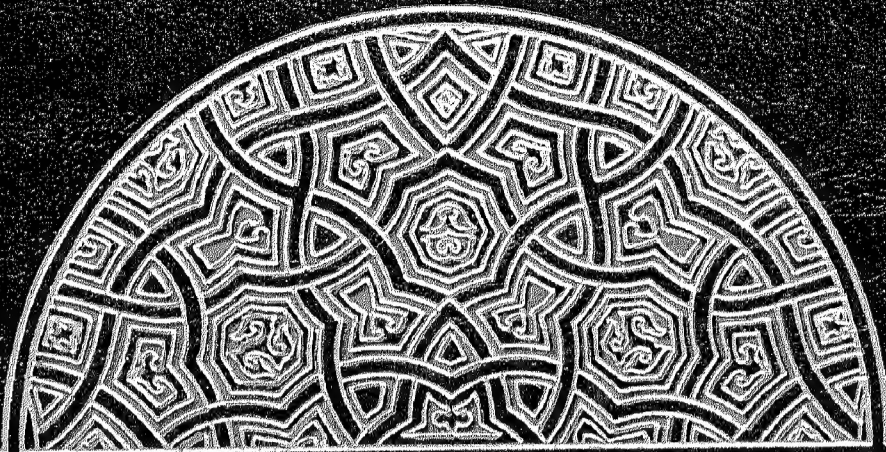


ترجمة المختار: العالمية الأولى



الحكماء من العالمين

المجلد

تأليف

د. محمد جعفر الخليلي



دار الأضواء



الحكومة العالمية
المشلى

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ
الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك - شارع دكاش - صرب ١٠٤٥ - برفيتا، غبيري - حسنكو - بيروت - لبنان

مَوْسُوعَةُ الْحُكْمِ الْعَالَمِيَّةِ الْمُشْلَى
« ١ »

الْحُكْمُ الْعَالَمِيَّةُ الْمُشْلَى

تَأَلِيفُ
د. جَمَّالِ جَعْفَرِ الْخَلِيلِيِّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

بقلم : د. محمد عبدالمنعم خفاجي
أستاذ وعميد بجامعة الأزهر الشريف - القاهرة

حمداً لله عز وجل ، والفضل منه وإليه ؛ وصلى الله على أشرف خلقه ، وأعظم رسله ، وخاتم أنبيائه ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وذريته وصحبه وسلّم ..

وبعد :

فبيني وبين أسرة الخليلي صلة مودة وصداقة قديمة ؛ ومن أجل من عرفتهم من أعلامها وعلمائها : جعفر الخليلي ، وابن عمه جواد جعفر الخليلي .

وجواد جعفر الخليلي أديب ، وكاتب ، وشاعر ، وطبيب ، وقانوني .. وهو قبل كل شيء مفكر إسلامي جليل بحكم ثقافته العربية الإسلامية الواسعة ، وبأصوله الجليلة الخالدة الماجدة العريقة ؛ وبطول تجاربه وممارسته للحياة ولشؤون الفكر في مختلف المجالات والاتجاهات .

وبين يدي هذا الكتاب النفيس العميق ، الذي يدلُّ على سعة اطلاع ، وعمق فهم وتصور ، وعظمة فكر ، وشمول نظرة ..

عنوان الكتاب : (الحكومة العالمية المثلى) .

وهو بصفحاته الأربعمائة ، وأبوابه الخمسة ، التي سمى كل باب

منها : كتاباً . . وعادته العلمية العالية الرفيعة . . جدير بالقراءة ، بل بأن يطبع على نطاق واسع ويوزع في كل مكان ، ويترجم إلى كل اللغات .

لقد بحث المؤلف في أصول الحياة والاجتماع والمذاهب والعقائد والأديان والرسالات . . ورأى أن الحكومة العالمية المثلى هي من أقدم أمنيات المفكرين والفلاسفة ، بل سعى إلى تحقيقها أولو العزم من الرسل وجاء الإسلام ، فكان أعظم رسالة يصح أن تكون هي دستور هذه الحكومة العالمية المثلى ، يقول المؤلف : « الإسلام اذن جاء ديناً وشريعةً كاملة أصلح ما وجدناه على حد ما جاء به أهل الأديان السماوية من أهل الكتاب وأهل الآراء والأهواء من الناحية العقلية والفطرية الطبيعية ، وأيدته التجارب العملية ، ديناً جمع أحدث ما قال به أفلاطون وجماعته من الموحدين نظرياً ، وعجز من تطبيقه عملياً ، وقد طبقه صاحبه محمد عملياً فأخرجه كأصلح ما يمكن أن يسير عليه البشر لإقامة حكومة عالمية - ص ٢٠٦ .

والمؤلف يرى أنه في وسع العالم اليوم إقامة الحكومة العالمية المثلى ، إذا توفرت بين حكام البشر حسن النية واتباع المنطق السليم ، ونبد الخلافات العقائدية والعنصرية (ص ٤) .

إن المؤلف يسلك بالبحث بهذا المؤلف العظيم منهجاً جيداً لم يسبق لأحد أن سلكه ، وهو يقيم آراءه على أسس قوية من البحث العلمي الجاد ، والفكر المنطقي العالي ، والنظرة النافذة العميقة إلى الحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وإني لأحيي هذا الكتاب الرائد ، ومؤلفه العظيم . . وأقول له في غربته : حيّ على الفلاح ، وبارك الله في خطواتك الرائدة ، وإننا معك ، نشدُّ على يدك ، بكل حب وتقدير وإكبار . . وفقك الله تعالى .

د . محمد عبد المنعم خفاجي

تقديم

من الطموحات الإنسانية التي شغلت الفلاسفة والمفكرين منذ عهود بعيدة ، ذلك الطموح الذي يتشوف ويتطلع إلى إقامة حكومة عالمية واحدة تأخذ بيدها زمام أمور البشرية جمعاء ، وتجد هذه الطموحات من تناظر الجنس البشري وتمثاله مسوغاً لوحدة النظام العام تساوقاً مع وحدة الجنس الذي يراد له ذلك النظام ، مع أن الإنسان في حركته وتوجهاته التطبيقية لم يظهر تعاطفاً مع الداعين إلى توحيد نظامه ، فهو يؤصل دائماً التقسيم على أسس عرقية أو لونية أو دينية أو أي فوارق تستطيع أن تظهره في حالة انقسام يتطلب التشرذم والتوزع بين نظم يخترعها هو للاستقلال التام عن حقيقة كونه بشراً لا بد له من نظام عام معبر عن وحدة البشرية في جانبها التكويني .

إن وحدة البشر التكوينية ليست موضوع خلاف بين الأمم ، فتلك بديهية علمية يعرفها حتى الذين لا علم لهم ، ولكن موضوع الخلاف هو في ما يترتب على ذلك الموضوع ، فالعلماء والمفكرون « المتحررون من التبعية » يؤكدون على ضرورة قيام نظام عام لا يفرق ولا يمزق بل يجمع الناس على صعيد واحد كما جمعهم الله سبحانه على صورة واحدة يوم خلقهم .

إن وحدة التكوين البشري سهلت مهمة العلوم المتصلة بالكائن

البشري ، جسمه وعقله ونفسه ، فلم تكن هناك فوارق في الدراسات الطبية تقتضيها أصول تكوين الإنسان ، اللهم إلا ما يتعلق بفوارق البيئات الجغرافية كدراسة أمراض المناطق الحارة أو الصحراوية ، وتلك لم تكن لاختلاف الإنسان في خلقه بل لاختلاف البيئات التي يعيش فيها فحسب .

لقد عالجت الأديان السماوية والدين الإسلامي على وجه الخصوص موضوع وحدة البشر وحدة تقتضي وحدة النظام ، ولكي لا تلعب الأهواء بالنظام الواحد المقترح فقد أنزل الله سبحانه ذلك النظام وأحكمه وكلف الناس باتباعه إلى يوم الدين ، تأكيداً من الخالق العظيم على صلاح الدين لكل زمان وكل مكان ، وكانت مهمة المصلحين بيان الحقائق التشريعية الضابطة لحركة الإنسان في عباداته ومعاملاته ، للحيلولة دون تسرب الإنسان في مسارب القوانين الوضعية التي أفسدت ولم تصلح وخربت ولم تعمر .

وهذا الكتاب الذي بين يديك ، أيها القارئ الكريم ، يواصل التشبث بالطموحات الإنسانية التي تعلق بها الفلاسفة والمفكرون وجاهدوا في سبيلها وما زالوا يجاهدون ، فمؤلف الكتاب مفكر صرف جهده في استقصاء الحياة الإنسانية وما فيها من شقاء وتعاسة يرجعها المؤلف الجليل إلى انصراف الناس عن منابع السعادة الحقيقية ، وهو في هذا الكتاب القيم يقدم أطروحة علمية موسعة بمساحة الأهمية التي للموضوع الخطير الذي يعالجه ، ويلاحظ القارئ الكريم النفس الموسوعي في الكتاب ، وهو واحد من أجزاء أخرى .

إن المنهج الذي ارتضاه المؤلف الجليل لا يتخلص من ملاحظات المتبعين من حيث التبويب والترتيب ومن حيث الإحالات إلى مصادره ومراجعته ، إذ يخلو الكتاب منها تماماً ، مما يفوت على القارئ فرص التعرف عليها والإفادة والاستزادة منها .

ومهما تكن الملاحظات حول لغة الكتاب وبعض شواهد ، فإنه كتاب غني وغزير ، ومن شأنه أن يعطي الكثير من الثمرات للمهتمين بالدراسات الإنسانية عامة والاجتماعية خاصة ، وحسب القارئ من هذا البحث أن مؤلفه رجل خبر الحياة وتجاربها وتزود من العلوم القديمة والحديثة حتى صار عطاؤه عظيم القيمة كبير الأهمية ، فحياء الله ونفع بعلمه هذا الجيل والأجيال القادمة إنه سميع مجيب .

د. عبدالصاحب الموسوي
رئيس مركز البحوث
الإسلامية العربية في كندا

مونتريال في منتصف
شهر رمضان المبارك ١٤٠٨ هـ
٢ - ٥ - ١٩٨٨

الحكومة العالمية المثلى

هي من أقدم أمنيات مثقفي وعلماء الاجتماع وفلاسفة البشر وحكمائهم ، كلما صادفتهم وأقلقتهم الحروب الطاحنة والنعرات العقائدية والطائفية والتعصبات العنصرية ، وعلى أثر النزعات التوسعية ، بدافع بسط العدالة ورفع الحيف والظلم عن كاهل الأفراد والمجتمعات ، ونشر السلام والطمأنينة في كافة الربوع والأمصار ، وبغية إغاثة المنكوبين والمضطهدين ، وسوق البشرية أفراداً وجماعات من عالم الذلة والفقر والمسكنة والجهل ، إلى السعادة والثروة المادية والمعنوية ، وحفظ حقوقهم الطبيعية والمكتسبة ، والقضاء على المفساد الأخلاقية والاقتصادية والسياسية . بهذا نزلت الكتب السماوية ، وعنه عبّرت الآية القرآنية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٣] . وبهذا أراد القرآن جمع شتات الموحدين بقوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٦٤] .

وهكذا دعا الناس أولو العزم من الرسل وأعظم الرجال من كافة الأديان والملل في تعاليمهم وتوصياتهم إلى المحبة والعلم والمعرفة معتبرين أن بهذا يمكن انقاذ البشرية من ويلاتها ، وسوقها إلى السعادة والسلام ، وانقاذها من الحروب والمجازر الوحشية والتعديات ، ووقايتها

من الجهل والفقر والمرض . لذلك لفتوا البشر إلى الثروة العقلية والبدنية والسلامة الجسمية والفكرية الكامنة فيهم . ولم يفلح الكل فلاحاً كاملاً مطلقاً لتحقيق هذه الأمنية ، فالناس أصناف في تحقيق ذلك من حيث التخطيط والتصميم العلمي والعملي ؛ فمنهم من يرى أن ذلك لا يتم إلاً بحد السيف ، ومنهم من يرى أنه يمكن تحقيق ذلك بالتوجيه والتربية والتعليم ، ومنهم من يراه بالجمع بين الاثنين ، فمنهم من وضع هذه الأمنية وصاغها صياغة أدبية وفلسفية وخيالية كأفلاطون ، وعاد بعد حين وخطأً قسماً منها ، إلا أنها لم تتجاوز حدود الأدب ، ومنهم من وضعها وصاغها بخطط عملية مقرونة بالقوة ولفترة قصيرة فانتهت بموته ، مثل الإسكندر المقدوني واضرابه . ومنهم من أقامها على المنطق والعقل ، ودافع عنها بالمنطق لمن أقره ، ويحد السيف لمن اعتدى وتجاوز عن ادراك وقبول المعقول ، كمحمد (ص) . ووضع لها أسساً عالمية وشريعة كاملة فطرية سماوية^(١) ، ومنهم من اكتفى ببعض ذلك وحث على الأخلاق السامية ، والمسامحة والبر والإحسان كعيسى (ص) ، ومنهم من قال بالارستقراطية كأفلاطون ، ومنهم بالديمقراطية ، وآخرون بالفاشية وبالشيوعية وهكذا . . .

ومن الطبيعي أن يسعى كل صاحب نظرية برهنة صحة نظريته وخطأ النظريات الأخرى ، وعند تطبيقها يكون هناك المستفيد وهناك المتضرر . لذلك يقبلها البعض ويرفضها البعض الآخر . ولم تخل أية نظرية أو عقيدة في جميع ما مر ، من موافق ومخالف ، وظالم ومظلوم ، وغاصب ومغصوب ، وشبعان وجائع . لذا فإنني أقدم قبل التفصيل بضع أسئلة :

(٣) الآية ٥٣ من سورة فصلت : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ والآية : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . . . ﴾ [الروم ، الآية : ٣٠] .

١ — هل بالإمكان إقامة حكومة عالمية دائمة تفرض سيطرتها وتسن القوانين وتطبقها على أسس عادلة وكيف ذلك؟ .

٢ — هل بالإمكان منع الحروب ونشر السلام بصورة دائمة؟ .

٣ — إذا أمكن فما هي السبل للوصول إليها؟ .

٤ — وإذا لم يمكن ذلك هل بالإمكان تخفيف هذه المخاصمات ونشر سلام نسبي؟ .

٥ — ما هو أقرب سبيل وأوضح طريقة لهذا؟ .

٦ — من أين يجب أن نستمد قوانيننا كي تكون عادلة وثابتة ، ولا يحق لفرد أن يغيرها أو يتلاعب بها؟ .

٧ — هل هناك قوانين جزائية فردية وجماعية؟ ومثلها حقوقية من مدنية وأخلاقية واقتصادية وإدارية . الخ ، ثابتة كالقوانين الطبيعية؟ . وإذا صحَّ وجود مثل هذه القوانين ، أليس الأجدر البحث عنها للاستفادة منها والسير عليها؟ وهل بالإمكان الاستفادة من سلوك وحياة الأحياء؟ وأقربها لنا هي حكومة أنفسنا؟ .

٨ — هل بإمكاننا المقارنة بين جسم الفرد الإنساني ، وما يحويه من عناصر طبيعية وقوى مختلفة جسمية وفكرية ، وما يضمه من حجيرات وأنسجة ، وما يحويه من أعضاء رئيسية باطنية ، مثل عضلات الحس والحركة ، الجهاز البولي والهضمي ، الدورة الدموية وأعضاء التناسل ، والجهاز التنفسي ، والجهاز العصبي ، أجهزة السمع ، البصر ، الشم ، الذوق ، المخ ، والمخيخ والنخاع الشوكي ، الغدد الصماء وغيرها؟ وما يختص كل جهاز وعضو من الأعضاء الخاصة والعامة به ، وكيف تتعاون هذه الأجهزة مع بعضها؟ ، وحسن قيامها بأعمالها وحركاتها وتأثير سلامة كل واحدة على الأخرى؟ ومن ثم وهو الأهم سلامة هذه الأعضاء ، والأجهزة وأمراضها ، وتأثيرها في السلامة العامة للجسم ، مناطق الهجوم

المكروبي وغير المكروبي ومنافذ ولوجها في الجسم ، وطرق الدفاع والهجوم البدني والعقلي . الأمراض المادية والأمراض الروحية وتأثير الأمراض في الجسم والنسل ، تأثير كل مرض وعواقبه في البدن والفكر ، طرق الوقاية ، طرق العلاج ، وكيف يجب أن نقارن بين هذا الجسم الصغير وما يحويه من ود وضد ومساعد ومعاند ، مادة ومعنى ، وكيف أن حسن الوقاية تبقى نشاطاً قوياً سعيداً ، والمعالجة تعيد له صحته ، ثم نعود لفصل كل قسم وجهاز ونقسمه إلى أجزائه الصغيرة حتى نبلغ الحجرة الصغيرة ، وكيف تفنى هذه افراداً وجماعات ليبقى الجسم سالماً . وهذا الفناء على قسمين : قسم طبيعي لا بد منه ، وقسم مرضي يكون على أثر هجوم ودفاع مرضي . ونقارن كل ذلك مع الإنسان ، ونقر ونطبق القسم العملي الطبيعي الموجود في الجسم لتشكيل الحكومة العالمية . وكلما احتجنا إلى إصلاح أو إنشاء أمر للمجتمع الإنساني ، عدنا إلى مثله في البدن الإنساني وطبقناه ونظرنا كيف أن الطبيعة أحسنت سيرها وأبدعت سبلها ، فتتخذ من ذلك درساً بليغاً : بل وأبعد من ذلك نفصل كل أمر يؤدي إلى حياة فردية أفضل ، وكيفية التعاون الجسمي ، فنسير على مثله في التعاون الجماعي في المجتمع الإنساني .

إن ما أقوله هو المثل العملي الذي أرى بلزوم السير عليه وهو حقيقة واقعية ، وإن بعملنا هذا نتوصل إلى طريقة أصح إلى تكوين حكومة عالمية ، وسوف نسهب في بحثنا هذا مفصلين فيما بعد ما يقربنا أكثر إلى حل رموز هذا الشكل .

الحل العملي لإقامة حكومة عالمية تضمن من كل الوجوه في إقامتها وسيرها الحثيث وإدامتها . هل يمكن ذلك؟ على الأخص في العصر الذي قرب فيه البعيد واتصل البشر سمعاً وبصراً وحركة ببعضهم ، واتصلوا وتقاربوا عقلاً ومنطقاً ، هل يمكن ذلك؟

لا شك بإمكان ذلك ، إذا توفرت بين حكام البشر حسن النية ،

وأجمعوا على اتباع المنطق السليم ونبذ المنازبات العقائدية والعنصرية والأناية الفطرية^(١) ؛ اعتقد بإمكان ذلك . وإن بناء هذه الحكومة سيبقى سالماً وقوياً وسعيداً بقدر ما يبدي قاداته من التدابير الوقائية لمجابهة الأخطار الوبائية والعوارض الطبيعية من جهة ، وما يبدونه لمعالجة وصد هجمات الأوباء المنطقية المحلية والقضاء عليها بمقرها وقبل تأزمها ، بحصر منطقي من جهة ونفير عام في الجسم كله من جهة ثانية ، مثلما يعمل الجسم الإنساني تجاه العوارض الخارجية والداخلية .

ولا بد لنا إذا أردنا التوصل إلى كل ذلك أن نتخصص في كل داء وعارضة كما في البدن الإنساني ؛ أن نجهز أطباء متخصصين لوقاية وعلاج المجتمع الإنساني^(٢) ، ومن جهة العمل على التقوية الوقائية الدفاعية والهجومية^(٣) ، لأن التقوية العامة بالطعام والنظام للبدن ، والعلم للفكر ، أهم السبل لحفظه وإبقائه سعيداً ، وعندئذ نأمن بقاء المجتمع الإنساني قوياً سعيداً إلى الأبد ، إن لم يُصَبَّ بعارضة طبيعية خارجة عن نطاق إرادته وقدرته .

ولا ننسى أن السمنة في البدن آفة تجب الوقاية منها وعلاجها ، ومثله في المجتمع الإنساني اتخاذ الوقاية والعلاج لهذه السمنة ، بتحديد النسل وما يلزم لاتقاء وعلاج ذلك الذي سنفصله في محله .

والآن وبعد هذا علينا أن نبحث عن العناصر التي تحكم البدن الإنساني ككتلة واحدة والعناصر التي تحفظه قوياً وسعيداً ، ولا يهمنا أبداً أي عقيدة ولو خالفت عقائد الأكثرية القوية ، علينا اتباعها ولو كان منتهياً مجاهل أفريقيا الوحشية . لذا نقسم بحثنا إلى :

(١) راجع القرآن ، وبخاصة سورة الحجرات .

(٢) ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [سورة النحل، الآية: ٤٥] ، وسورة الأنبياء، الآية : ٧] .

(٣) الآية ٦٢ من سورة الأنفال ، قوله تعالى : ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

الكتاب الأول : حكومة الطبيعة ، وأقرب مصداق لها ، الجسم الإنساني .

الكتاب الثاني : أمثلة تطبيقية .

الكتاب الثالث : أهم مَنْ بحث وسعى لإقامة حكومة عالمية بما في ذلك من حكماء وساسة وقواد وأنبياء .

الكتاب الرابع : البحث والتحقيق في أرقى المجتمعات الحيوانية ذات الحياة المنظمة كالنحل والنمل والأرضة .

الكتاب الخامس : الجنسية والتابعة .

الكتاب الأول

حكومة الطبيعة، وأقرب مصداق لها
الجسم الإنساني

حكومة الطبيعة^(١)

تعلموا الحياة من الطبيعة ، من الحياة الفطرية الطبيعية ، من الأحياء وكافة القوانين الطبيعية الأخرى . وقد أعدت الطبيعة لكل تجاوز قصاصاً ، ولكل داء دواء ، ولكل أمر علة ومعلولاً وقواعد وأصولاً ولم تتركه سدى . فهناك قوانين طبيعية وغرائز فطرية لا تعد ولا تحصى ، وحيث نجهلها نترك الأمر ونؤوله باسم الصدفة والظروف . وما علينا لكي توجد القواعد والأصول والقوانين والأنظمة بين البشر إلا أن نذهب باحثين عن تلك الحقائق الموجودة ، تلك التي فيها الشفاء الخلقي والخلقي ، المادي والمعنوي ، ولكي نتقرب إلى الموضوع يلزمنا البحث في المواضيع التالية :

حد القوانين الاجتماعية بعد تطبيقها على القوانين الطبيعية :

القوانين الاجتماعية : بما فيها الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والحقوقية والعرفية والشرعية . . الخ .

(١) حكومة الطبيعة هي حكومة الفطرة وما تحويه من أنظمة وقوانين كما أشارت إليه الآيات المارة في حاشية الصفحة الأولى مما ورد في القرآن الكريم ﴿ سريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم... ﴾ ، و ﴿ فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم... ﴾ [سورة الروم ، الآية : ٣٠] .

القوانين الطبيعية : لقد استطاع الكائن البشري منذ الفطرة أن يدرك القوانين الطبيعية الملموسة لحد ما ، أكثر من معرفة القوانين الاجتماعية ، باعتباره كان بعيداً عن المجتمعات ويعيش عيشة بدائية . لذا نراه وهو في إبان حياته يتوقى خطرهما ويستغلها لأغراضه . فهو يتقي من القاء نفسه من أعلى الجبل الشاهق إذا ما أراد أن ينزل ، لأنه يعرف بالفطرة أنه سيحطم . وهو يتوقى من القاء نفسه في نار مستعرة ، ويهرب الأصوات الصاخبة والرياح العاصفة . لذا نراه بالنظر للحاجة الماسة والرغبة الملحة يتوصل شيئاً فشيئاً لكشف القوانين الطبيعية بما فيها من فيزيائية وكيميائية ، مثل : قانون الجاذبية ، وقوانين السوائل والغازات ، وقوانين النور والصوت والحرارة ، و... الخ . من القوانين الطبيعية التي بنى عليها وشاد حضارته ، وتقدم في الآونة الأخيرة بخطواته الواسعة ، هذا التقدم العظيم . فالمحركات بما فيها في أعماق البحار وسطح الغبراء وكبد السماء ، بما فيها من غواصات ومراكب وسيارات وطائرات بأنواعها وأصنافها ، والأدوات الكهربائية على اختلاف أصنافها وأشكالها ، ومختلف ما استخدم من الأجهزة البصرية والصوتية والحسية وغيرها ، تلك مما توصل إليه من القوانين الفيزيائية . وأما ما أدركه من تركيب وخلط وتفريق في علم الكيمياء فلا يقل أهمية عما سبقه .

وقد توصل البشر إلى كل تلك القوانين الطبيعية واستخدمها ، ووضع لها أسساً وقواعد لا تحيد قيد شعرة ، عندما يضع تصميماته في بناء سفينة أو آلة أو عمارة أو أي عمل وصناعة ، حصل لكل فرع منها متخصصون ومهندسون وعلماء ، ولا زالوا يوماً بعد يوم يتوصلون إلى حقائق جديدة وكشف قوانين أخرى بعد أن أجهدوا أنفسهم في وضع النظريات ، فخاب جمع وتوصل آخرون إلى الحقيقة ، فكانت نظريته بعد تمحيصها ودرسها قانوناً ثابتاً يسير عليها الناس من بعده . وقد أدرك البشر أن هناك قوانين تشد أزر بعضها البعض ، وأخرى تخالف بعضها بعضاً ، ومنها ما لا رابطة

خلاف أو وفاق بينها ، فكان له في ذلك العلم أيضاً وسائل جديدة لحل مشاكله الحيوية في مختلف أعماله وشؤونه .

القواعد الاجتماعية : توصل البشر للقواعد الطبيعية الثابتة التي تسيّر طبق أسس وأنظمة لا تتغير ، بيد أنه لا زال يتخبط في سيره في وضع القواعد والقوانين الاجتماعية الثابتة ، رغم ما بحثه الفلاسفة ورجال القانون والشرائع ، وما جاء به الأنبياء والحكماء والأدباء . وقد أشار كثير منهم على سبيل المثال بتشبيه القضايا المعنوية بالمادية . قال الشاعر :

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخذة فيما تمر به نتناً من التّن أو طيباً من الطيب
وقال ابن الوردي :

خذ بنصل السيف واترك غمده واعتبر فضل الفتى دون الحلل
أو تشبيه حياة اجتماعية على حياة مادية كقول الشاعر :

اضرب حديداً حامياً لا خير فيه إن برد
ولابن الوردي :

حبك الأوطان عجز ظاهر فاغترب تلقى عن الأهل بدل
فبمكث الماء يبقى آسناً وسري البدر به البدر اكتمل
وجاء في الأمثال : ما لذغ العاقل من جحر مرتين . وما خفق
الشراع على رأس عاقل مرتين .
وقول الشاعر :

إلى الماء يسعى من يغص بلقمة إلى أين يسعى من يغص بماء
وقول الآخر :

يقولون إن الملح يصلح فاسداً فما حيلتي يا قوم إن فسد الملح

ومن التشابه البديعية في القرآن المجيد ، قوله تعالى لتمثيل حالة اجتماعية بحالة مادية الآية الكريمة : ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾^(١) . الخ .

وقوله تعالى أيضاً في كتابه المجيد :

﴿ فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾^(٣) . الخ .

ومن الأمثال أيضاً : لا تكن ليناً فتعصر ولا يابساً فتكسر .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام :

« كن في الفتنة كابن لبون ، لا ظهر فيركب ، ولا ضرع فيحلب ، ولا وبر فيسلب » .

وما أكثر الأشعار والأمثال والروايات والآيات التي طبق فيها الأمور المعنوية على المادية لتقرب الأذهان ويؤخذ بها .

الغاية من تطبيق الشؤون الاجتماعية على الطبيعية :

الغاية من هذا البحث هو تطبيق كافة الشؤون المعنوية الاجتماعية باختلاف أنواعها وفروعها على الأمور الطبيعية والمادية المحسوسة ، ومن ثم وضع قاعدة ثابتة كالأصول والقواعد الثابتة في الشؤون الطبيعية ، مهما جاءت تلك منفردة قائمة بالذات دون معارض ، آخذين بذلك المصادر الطبيعية الأصلية ، ثم تطبيق ما يناسبها من المعنوية^(٤) ، ثم المضى بما

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٦١ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٦ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٤) اذكر القارئ الكريم ، ان القوانين المكتوبة في الأمور الجزائية مثلاً في الضرب أو =

يُحصل عند حصول عوارض تغير المجرى الطبيعي من تقويته أو تضعيفه أو توقيفه أو تغييره ، إلى غير ذلك ، وتطبيق الأمور المعنوية المماثلة والمشابهة على كل منها .

وعلى سبيل المثال نضرب مثلاً ، وما أكثر الأمثال الفيزيائية والكيمائية ، كقانون الجاذبية ، وقانون أرخميدس ، والقوى المركزية ، وقوانين الحرارة والنور والصوت وغيرها . وكذلك القواعد التي تحصل بها المركبات من العناصر أو العناصر من المركبات . فمثلاً : إن الأصل في حركة جسم من سرعة واتجاه أن يبقى مستمراً في حركته واتجاهه إلى الأبد ما لم يطرأ عليه طارئ . ومن الطوائف قوة جاذبية الأرض أو القوى والاجرام السماوية الأخرى ، ومن العوائق فوق سطح الأرض ، الهواء والذرات والأجسام والقوى الأخرى . وللحرارة والرطوبة أثر في تغيير تلك الحركة ، كما أن هناك قوى مخالفة لقوة جاذبية الأرض كالمطبعة والمستخرجة من قانون أرخميدس على الأجسام الغازية ، والاستفادة من البالونات أو قوانين الحركات اللولبية ، كما في الطائرات أو القوى الاندفاعية الحاصلة من مفرقات ، كما في القنابل . أو الاندفاعية كما في الصواريخ والطائرات النفاثة .

ولا ننسى كم هناك في آن واحد من قوانين تتضارب مع بعضها ولا تكون النتيجة إلا للأشد أثراً ، وذلك أيضاً له قواعد وأصول . ونحن نريد

= السرقة ، لها قصاص ذو حدين لا يستطيع القاضي تحديدها ، ولها موارد محدودة مهما تعددت ، بينما إن الضرب والسرقة قد يمكن القول بأنها لا تعتبر من حيث درجتها وكيفيةها من الفاعل (المجرم) والمجني عليه وظروف القضية وتأثيرها الاجتماعية والباعث على تكوينها ، وكلما يتعلق بها من مطابقة ومشابهة كل الانطباق لغيرها ، حتى نجعل لها الحد والقصاص الخاص بها ، كما نعمل ذلك في الأمور الطبيعية ، وما إننا نبحث هنا عن سد هذه النقيصة والاختلال الاجتماعي من كافة وجوهه والقيام بعلاج واقعي لا يحصل لنا بعده نتائج مشينة قريية ولا بعيدة .

في كل مرة وفي كل قضية طبيعية ايجاد قضية اجتماعية ومعنوية مشابهة لها وتطبيقها على مثلتها ، وعندئذٍ نتوصل إلى حل محكم ودقيق ومضبوط ونتيجة أكيدة .

وإذا بدأنا بذلك فسوف نتوصل إلى مقاييس تضبط لنا الحلول والنتائج ، كما يعمل ذلك المهندسون في شتى الأمور ومختلف الأعمال والصناعات ، لهذا أقدم الأسئلة الآتية وأبحث عنها كمقدمة للبحث ، وهي من المشاكل التي تواجه كل فرد مفكر في مثل هذه الأبحاث :

١ - هل توافق القوانين الاجتماعية القوانين الطبيعية في جميع المراحل والشؤون ؟ .

٢ - هل توافق القوانين الطبيعية جميعها أو بعضها المنطق؟ وما هو المنطق؟ أهو ما يلائم عاداتنا أو عقولنا ونحن متباينون؟ أم ما يلائم المنطق السليم لمجموع العقلاء أو غالبيتهم؟ .

٣ - هل توافق القوانين الاجتماعية الفعلية جميعها المنطق؟

٤ - هل من القوانين الاجتماعية ما يخالف الطبيعة والفطرة؟

٥ - كيف نفسر الحالة الطبيعية الفطرية في الحيوانات . في حياة الضواري ، وانها تعيش على سلب حياة الآخرين؟^(١) .

(١) هل نستدل بهذا ونقول طالما الطبيعة أجازت هذا وجعلته قانوناً ، فيجب قبوله على علاقته ، أم نجعل له حداً . ولا بد من حد . فالحيوان الضاري يكتفي بسد جوعه وحسب ، كالأسد الذي يشبعه اقتناص ضحية وأكلها لا يتجاوز على أخرى إلا متى جاع ولا يعتدي بعدها على غيره إلا في مقام الدفاع وما شاكل . بيد أن الإنسان العاقل لا يكتفي بسد رمقه ولا يسد جشعه ما في الأرض ، وعندئذٍ لا بد وأن يتجاوز ويعتدي ، فيجب وضع قانون يستمد من ذلك العقل الذي به ميز الله الإنسان عن باقي مخلوقاته .

٦ - كيف تسيطر الواحدة على الأخرى ، الكبيرة على الصغيرة أو قل القوية على الضعيفة ، إذ ربما كانت الصغيرة أقوى وبالعكس؟ وتطبيق ذلك في الأحياء وغيرها؟.

٧ - هل يطبق ذلك في الأرواح والعقول والآراء؟ وما تأثير ذلك؟ وكيف يجب أن يوضع الحل المعقول لذلك؟.

٨ - ما هو الجزء لمن يخالف ذلك طبيعياً ومنطقياً؟ وهل يجب أن توافق الطبيعية المنطقية أو المنطقية الطبيعية؟ وهل يجب أن توافق هذه تلك أو تلك هذه؟.

وقبل أن نجيب عن هذه الأسئلة نسأل : هل ان النتيجة الواقعية ، كافتراس القوي للضعيف (وهو أمر طبيعي إذ لا يمكن لأكلة اللحوم الحياة بدون ذلك) ، هو أمر منطقي ومقبول؟ على العقل أن لا ينكره ولا يستنكره؟.

فإذا كان الجواب إيجابياً فمن العبث وضع قوانين تخالف هذا السلوك في البشر أو وضع قصاص له ، وما هي إذن فائدة العقول؟ ونجيب عن هذا السؤال الأخير مستشهدين بقول الشاعر :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

فالعقل أثمن ما في الوجود ، لذا رفعت هذه العقول الإنسان عن مصاف الكائنات والأحياء وأعطته زمام قيادها ، زمام قيادة كل ما على وجه البسيطة ، واستثمارها ، فهو أقوى قوى الكون بعقله الجبار . وجميع القوى الكونية من صغيرها إلى كبيرها إن هي إلا تحت إمرته ، إن لم تكن اليوم فغداً ، أو بعد غد .

فالإنسان بعقله يخالف الحيوانات الضارية بطموحه ، وسيطرته وأنانيته التي لا تحد ، فقد يسد جوع الحيوان المفترس أسداً كان في الغاب سائراً ، أو نرساً كان في الأجواء طائراً ، الأول « وعلاً أو نعاماً » ، والثاني

« أرنباً أو حمامة وحسب » . والبعوضة قد تكتفي بامتصاص كمية من الدم يكفي لسد جوعها . ولكن الإنسان العاقل لا يسد جشعه ما في الأرض ، ولا السيطرة على خزائنها . فهو اليوم يحاول مد نفوذه إلى الفضاء الخارجي وإلى الكواكب ، غافلاً أو متناسياً قول الشاعر :

ملك كسرى عنه تغنى كسرة وعن البحر اكتفاءً بالوشل
لقد أُعطي الإنسانُ العقل الجبار ، ولكن أُعطي غرائزَ فطرية تُسخر العقول لسد جشعه ونهمه وغرائزه . والعقل ، رغم سلطانه ، لا يستطيع المقاومة أمام هذا التيار الجارف ، والقوى المفكرة الجياشة ، فالعقل السليم لا يرضى الاعتداء أو لا يقبل إنهاك القوى لجمع المال ، وبسط النفوذ غير المشروع ، والتكالب والتضارب والمعارك والحروب والقضاء على الافراد والجماعات البشرية ، بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان باسم القومية والوطنية والعقائدية والدين ، وحتى باسم الإنسانية ، وبشتى الكلمات والمعاني التي خلقها هو ، فما هي الحيلة؟ وما هي القوانين الاجتماعية التي يجب اتباعها للقضاء على هذه الخصومات؟^(١) . ولكي يستطيع الإنسان أن يحيا قرير العين ، آمناً شر غيره ، قانعاً بما يأتيه ويحصل عليه بحق؟ .

الجواب على الأسئلة المارة :

نحجب أولاً على الأسئلة المارة ، ثم نعود بعدها لتطبيق القوانين الطبيعية على الاجتماعية ، والاجتماعية على الطبيعية في مختلف الشؤون ، ويكون ذلك بطريقتين :

إما بشرح القضايا والقوانين الطبيعية ثم العود إلى ما يقابلها من الاجتماعية ، والاستفادة من الحدود والمقاييس لضبطها ، أو طرح قضية اجتماعية ثم العود إلى ما يقابلها من الطبيعة .

(١) راجع سورة الحجرات في القرآن الكريم وانظر الحد من وقاية وعلاج .

وبعد معرفة حدودها وأوضاعها ونتائجها القيام بالعمل اللازم .

● السؤال الأول :

هل توافق القوانين الاجتماعية الطبيعية في جميع المراحل والشؤون؟ .

الجواب :

ندرس المواضيع الطبيعية والاجتماعية المارة الذكر من وجوه عدة لنعرف :

أولاً : ماذا يحصل من شأن عند حدوث الحادث الطبيعي والاجتماعي؟ .

ثانياً : طريقة اجرائه أو الوقاية منه .

ثالثاً : طريقة الاستفادة من الأعمال الاصلاحية ، وأصول مجازاة المضرة عند حدوثها .

فالجرائم أو المكارم من الحوادث الاجتماعية التي نبحثها ونريد أن نجد لها مشابهاً في الأمور الطبيعية كالضرب مثلاً . والضرب لجماد أو حيوان أو إنسان ، عمداً وغير عمد ، بقصد التأديب أو التأنيب أو الاصلاح أو التخريب ، والضرب من إنسان أو حيوان أو جماد ، بسبب الغير أو الذات وغير ذلك ، ولكل بحثه . ونبدأ بقانون الجزاء .

فالأمر الاجتماعي التي لا يمكن أن تجد لها مثيلاً في الموارد الطبيعية (كتلك الفاقدة للعقل أو الفكر النامي أو التي عند غير الإنسان) ، تلك التي من الفكر ، أمثال جرائم النصب والاحتيال والخيانة وسبق الاصرار في القتل ، وجميع الموارد المسبوقة بتفكير سابق ، أو المكارم التي هي عكس الجرائم كالبر والإحسان والعفو والكرم والصدق والأمان والمعونات المادية والمعنوية ، وطبعاً لكل واحدة من سيئة وحسنة رد فعل وانعكاس .

لقد عثرنا على أهم المميزات بين الطبيعية والاجتماعية ، وذلك إنما هو وجود الفكر والعقل النامي في الاجتماعية . وإذن عندما يخالف العقل الفطرة ، أو الفطرة الطبيعية العقل ، فبأيهما يجب أن نأخذ؟ .

فإذا أخذنا بما يدل به العقل دون أن نهتم بالفطرة الطبيعية أو بالعكس ، فماذا سينتج من رد فعل وما هو الانعكاس؟ وما هي الأضرار والعواقب الضارة أو النافعة؟ وكيف نتلافى الأمر بالوقاية أولاً قبل العمل ، أو العلاج أخيراً بعد حصوله؟ وهل في الإمكان وضع حد وسط؟ وهل أن لمخالفة كل منها رد فعل وانعكاس .

لو عدنا للفطرة الواقعية لوجب أن نبحث عنها ، مثلاً في الحيوان وفي الحيوان غير المدرب وغير المعلم ، في الحيوان غير العاقل^(١) ، فالحيوان إنما يقتل أو يؤذي بقصد إشباع غريزة من غرائزه الفطرية ، وكفى . فهو يقتل حيواناً آخر بقصد سد الجوع أو للدفاع وما شاكل فحسب ، وبعد أن يشبع أو يأمن شر غيره لا يتعب نفسه لاقتناص فريسة أخرى ، إلا متى شعر مرة أخرى بالجوع أو اضطر للدفاع .

ويقوم بالدفاع عن نفسه من ضرر مداهم كما لو غلقت باب الغرفة على هر لضربه ، فقد يهم بالدفاع بمهاجمة الضارب تخلصاً من شره مدفوعاً بغريزة حب البقاء والدفاع عن النفس ، أو ضغطت على ذيل كلب أو رميته بحجر فهو قد يعضك ، هذا وضع طبيعي . أما الكلاب المدربة عند الرعاية أو الحيوانات الأخرى المدربة ، فعملها التدريبي غير فطري ، أو الإنسان نفسه الذي لا يسد جشعه وأنانيته ما في الأرض لا من مال ولا

(١) لا يمكننا أن نقول عن الحيوان كما نقول عن الجماد واصفين إياه بعدم العقل لأن الحيوان يختلف عن الجماد بغرائزه وعقله المحدود ، ولهذا عند وضع قصاص أو حد أو مقياس لجرم أو سلوك يجب اعتبار درجة تلك الغريزة والعقل والإدراك عنده . وقد تبلغ الغريزة في خدمة بعض الحيوانات والحشرات كما في النحل والنمل والأرضة درجة ربما لم يتوصل لغورها الدقيق البديع أقوى العقول .

من جاءه ، أو سطوة أو نفوذ . فالتى في الحيوان بحكم التطبع والتدريب الذي دربه عليه الإنسان ، وهذه التى فى البشر فبحكم الفكر والعقل الذى امتاز به الإنسان على النمو والتوسع ومازجت من نفسه غرائزه الفطرية ، فاستخدمت هذه الغرائز الفطرية تارة الفكر والعقل لحدود بعدت عن الفطرة الطبيعية ، أو استخدم العقل الغرائز الفطرية الطبيعية تارة أخرى وحكمها لحدود تجاوزت الحالة الفطرية .

العلاج فى الاثنين ، الحل الوسط والعودة ما أمكن إلى الفطرة الطبيعية .

وإذا حصل خلاف ذلك حصلت عوارض رد الفعل ، وهذا ما نشاهده فى الأمراض الروحية (النفسية والعقلية) من الإفراط فى الغرائز أو الأحجام فيها ، كأنواع النورستانيا والهستريا والقلق^(١) . هذا فى الفرد ويقابل ذلك أمراض مماثلة عامة فى المجتمع .

فالطبيعة دوماً تعطي الفرد الحل الوسط الطبيعي ، إلا فى الإنسان فقد تركت فيه الغرائز وأعطته هذه الفكرة المتوقدة والعقل النامي .

العلاج :

يجب دوماً العودة إلى الحقائق الفطرية والطبيعية المشابهة وتطبيق الأمور عليها ، وما جاء المصلحون والأنبياء إلا ليرجع الإنسان إلى حالته الطبيعية ، وليفهموه اضرار جشعه وتعسفه وإفراطه فى استعمال غرائزه .

قال الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وهو أعلم أهل زمانه ، قال لابنه الإمام جعفر الصادق عليه السلام : (وهو أعلم الأمة بعد أبيه) .

(١) تجد ذلك فى كتابي مجموع العلوم النفسية . فالنورستانيا تأتي فى الإفراط من استعمال الغريزة الجنسية ومن ثم انهالك الأعصاب . والهستريا والقلق يتولدان من العقد النفسية والامتناع عن استعمال الغريزة الجنسية .

قال : يا بني خذ الحسنة من بين السيئتين^(١) .

يريد بذلك الحل الوسط وهو حد الاعتدال وهي الحسنة ، إذ ان كل أمر زاد أو نقص أصبح سيئة .

نعم تلك هي الحقيقة التي يجب أن نبني عليها آراءنا ، ولا تخلو من صعوبة في أكثر الموارد التي نريد بها تعيين الوضع الطبيعي أو الحل الوسط الذي يجب أن يتبع .

ونورد مثلاً عن رد فعل ينتج من التمسك بالعقل الأسمى ونبذ الحالة الفطرية والطبيعية .

إن لهذا نتائج قريبة وبعيدة ، فالقريبة هي الحاصلة من مخالفة الحالة الطبيعية الفطرية ، والنتائج البعيدة هي الحاصلة من رد فعل الافراط بالمثل العليا والعقل الأسمى ، وهذا الافراط بالمثل العليا إنما جاء نتيجة الافراط بالغرائز الفطرية التي استخدمت لمآربه الافكار ، وأحسن شاهد على مثل هذه في القضايا الاجتماعية العامة هي مثل النهضة الفكرية لسقراط الحكيم ، والحملات الوجدانية المنطقية للسيد المسيح عليه السلام ، وقيام أبي عبدالله الحسين عليه السلام ، أمام مظالم بني أمية وطيغانيهم ، وأمثالهم الذين أفرطوا باتباع العقل الأسمى ، وتجاوزوا الحل الوسط للفطرة الطبيعية ، عندما وجدوا امتهم أفرطت في استعمال الغرائز الفطرية النفسية ، وهم يعلمون أي خطر يواجهون . وكان لا بد من التضحية الفردية للمجتمع ، فكان عاقبة الأمر اندحار وتحطيم فردي آني لهم أحياناً وانتصار آني لأعدائهم . ولكن عقب تلك النتيجة القريبة ، نتائج أعظم هو انتصار للمجتمع وانتصار أبدي لهم ، واندحار أبدي لأعدائهم .

(١) الآية القرآنية : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ٣٩] .

وكانت أعمالهم المجيدة ، وما بذلوه من تضحية وبسالة ، وآراؤهم وأعمالهم موضع التمجيد والخلود ، وأصبحوا قدوة للأبطال والأفذاذ^(١) .

وتختلف الحيوانات في أحوالها الفطرية الطبيعية ، فحياة الوعل تختلف عن حياة الأسد ، وهذا عن حياة الحوت ، والثاني عن النمل ، وتلك عن الذباب والصراصير والنحل ، وكل تختلف في طرز معيشتها وسلوكها وأعمالها . فمنها ما تعيش فرادى وأخرى جماعات متعاونة وغير متعاونة ، ومنها من تدخر من صيفها لشتائها أو تدخر لفراخها ، ومنها من لا تعرف معنى الادخار . ولكن كل نوع وصنف إنما يسير في حياته على نمط واحد وسلوك له لم يتغير ولا يتغير منذ بدء الخليقة ، والإنسان إن أراد فبإمكانه أن يستفيد من حياة كل منها ، وعليه أن يجعل لنفسه الشروط المناسبة لتلك التي يسلك سلوكها ، لكي يكون قريباً من الفطرة الواقعية والحياة الطبيعية التي لا يشوبها ضير ، ولا بد لنا بعد التلميح إلى ذلك من الاسهاب والتفصيل في الفصول القادمة .

صفات الإنسان هناك صفتان في الإنسان :

- (١) الحالات الفطرية التي توجد أيضاً في الحيوانات .
- (٢) الصفة العقلية والفكرية .

(١) وربما معترض يقول : متى اندحرت قوى الشر في المجتمع الإسلامي؟ ومتى قامت دول شرعية بعد بني أمية؟ وهل إذا استطاع يوماً ما الصحابة المخلصون قبيل مقتل عثمان فضح الأعمال المنكرة والنهوض في وجه الظلم الذي زحزح كيان الحقيقة التي أمر الرسول الأعظم باتباعه هما سنته وآل بيته وبدأوا بقتل عثمان وإقامة الحق بتسليم الأمر إلى علي في تلك الفترة التي تألبت عليه قوى الشر وانتهت بقتله ولم تقم دولة إسلامية واقعية إلى هذا اليوم بعده .

الجواب : لا ينكر الانتصار المعنوي الدنيوي بكشف الحقائق ، والانتصار الأبدي الأخروي ، هذا إلى أن الحياة تتقدم ولا بد وأن تعود بعد هذه الفترات العvisية لعودة دولة الحق المنتظرة تلك هي الحكومة العالمية المثلى التي تسلم زمامها النخبة المرموقة من صفوة البشر .

هاتان الصفتان قد تؤيد الواحدة الأخرى أو تناقضها ، فإذا الحوادث والتصرفات الناتجة إما مادية أو معنوية أو مشتركة . فالإنسان بقدر ما يهتم بأحدها قد يصل إلى ذلك الهدف ، فالأهداف المادية غالباً تعود إلى الغرائز الفطرية ، والمعنوية تعود للفكر والعقل ، والوسطى ما جمعت من هنا وهناك . وإن زادت مرة من واحدة على أخرى ، وإن لكل محاسناً ومساوئاً ، وإن كانت موافقة أو مخالفة ، فلكل محاسن من جهة ومساوئ من جهة معاكسة . كما أن الموافقة والمخالفة لكل جهة لهما نتائج ، وهي مادية في المادية ، ومعنوية في المعنوية ، وكلاهما في كليهما ، وأشدها في أشدها . وتختلف وجهتها في الإنسان من حيث الشدة والضعف بحسب أنواع البشر من حيث الطبيعة والتربية والمحيط ، وما يتأثر به الفرد من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والطقس وغير ذلك . ونتائج تلك إما آنية أو بعيدة أو متوسطة مختلفة المدى يختلف أمدها من لحظة إلى شهور وسنين وقرون وأحقاب . وقد تسبب الحوادث نتائج وحوادث أخرى متشعبة ، وهذه تنتج وتعكس نتائج وحوادث أقوى وأشد أو أقل وأدنى ، كما تحصل تموجات من حجر يسقط في حوض ماء أو غدير أو بحيرة أو محيط ، تبقى تستمر حتى تصطدم بعائق يوقفها وتموت بعد فترة من الزمن ، وهذه في المادية ، أما المعنوية أطول بقاء وأمد حياة ، وربما أمكنني القول بعدم فناء المعنوية^(١) .

(١) إن القوي يتغلب على الضعيف حتى في الجهاد ، فالحجر الكبير إذا اصطدم بأصغر منه ، وكانا متساويين في الخواص المادية والسرعة حطمه ، ولكن الأشد صلابة وقساوة أكثر مقاومة أمام الأضعف ، ولهذا نجد المعادن الصلبة تستعمل لطرق الأقل صلابة ، وإذا تساوت في الصلابة اختلفت في درجة الحرارة تغلبت الباردة الصلبة على الحارة الأقل صلابة ، إلا إذا كانت الصلبة لها قابلية التفتت ، فقد تنحطم قبل الثانية أو كلاهما معاً . كذلك البشر كالمعادن ، ورب معترض يقول : وهل المجتمع الإنساني مجموعة من المواد والمركبات الكيميائية حتى تطبق عليها

نحاول تنظيم قوانين اجتماعية شتى من القواعد والقوانين المادية .
تكون قوانين واقعية مستخلصة من قانون أرخميدس والجاذبية وغيرها ،
نطبقها في الأصول القضائية والاقتصادية والسياسية والادارية والأدبية
والصحية وغيرها ، مستمدة جميعها من القوانين الطبيعية التي فرضتها
الطبيعة .

قوانين لا يمكن أن يحيد عنها البشر أو ينكرها ، كما لا يستطيع أن
ينكر النتائج الرياضية من جمع $1 + 1 = 2$ ، ولا الرد على قانون الجاذبية
وأمثالها ما أمكن . قوانين تسير طبق مقاييس ومعايير ، وبهذا نكون قد وفقنا
في حل المشاكل الاجتماعية ، تلك التي لا زلنا نتعثر لوضع قواعد أقرب
إلى الواقع لها .

ولا أظن أن ذلك مستحيل ، حتى لو تعسر كشفه اليوم كشفاً تاماً
فسيكشفه الإنسان إن اهتم بذلك وشعر بالحاجة الماسة إليه ، وعندئذٍ
تستقر به الأمور^(١) . وإذا أردنا أن نضع قواعد وقوانين لتنظيم أمر ، فلا بد

= النظريات والقوانين الطبيعية مع اغفال الطبيعة النفسية والنزعات الروحية في
الإنسان؟ .

فأقول : من ينكر أن في الأرواح تمايزاً واضحاً من حيث القوة والضعف والكبر
والصغر والتوافق والتنافر والمرونة والصلابة ومثلها العقول؟ ومن ينكر من تأثير القوة
على الأضعف من تحطيمها أو تفتيتها أو صقلها أو ضمها أو إبعادها؟ وكم وجدنا رجالاً
تغلبوا بأرواحهم القوية على أرواح متجمعات؟ بل وامتدت بقدرتها إلى أزمنة بعيدة
وخضعت لها مجتمعات لا تكاد تحصى . وما هو إذن معنى التشابه؟ .

(١) لا يشابه قانون الجاذبية من حيث ثبوته واستمراره بالقانون الرياضي كجمع $5 + 5 = 10$
ولا يشابه قانون أرخميدس . فالقانون الرياضي ثابت في كل الظروف ولكن قد
يطرأ طارئ على قانون الجاذبية لتأثيرات أخرى غير مسيرها- ، وكذلك قانون
أرخميدس وما شابهها ، فالجاذبية شيء فرضته الطبيعة في الأجسام ، بأن تجذب
الكبيرة الصغيرة وهذا الإبداع الذي أودعته الطبيعة إذا عرفنا تأثيره فلا نزال لا نعرف
كنهه ، ومثلها الضياء وقوانينه المودعة الموجودة التي هي في الحالة الواقعية ثبتت =

وأن نحسب لكل ما مر من قوانين طبيعية وغرائز حيوانية وبشرية ، كأمر واقعية ثابتة يجب أن يحسب حساب كل منها ، فإذا أهملنا وصرفنا النظر عن القوانين الطبيعية والغرائز البشرية وقمنا بعمل يخالف أي منها ، فلا بد أن يكون لكل منها إنعكاس ورد فعل فيما خالف لمهيتها وأصوله قد يؤدي إلى نتائج يلزم اجتنابها ، وعلينا مراعاة الدقة من التورط في ما يوافق جهة ويناقض أخرى ، كأن يوافق غريزة ويناقض العقل ، وعندها ستظهر آثار رد الفعل من الجهة المخالفة ، فإن أمكن اتخاذ الحل الجامع بين الاثنين فإيا حبذا ، والا اتخذنا اهونها انعكاسا ، ولا بد لنا هنا العود الى الحلول الطبيعية في الجوامد ما أمكن ، والاستمداد من القوانين الطبيعية الأخرى لتطبيقها على الأوضاع الحية ثم العودة بها إليها .

وأرى أن القوانين الطبيعية الموجودة في الجمادات أقل إشكالا من التي في ذوات الحياة ، ومن الاحياء تأتي النباتات وتلي هذه في التعقد تلك التي في الحيوانات ، واشدها تلك التي في الانسان ، ولكل منها أنواع واقسام ، ولكل غرائزه وحياته ، منها البسيطة ومنها المعقدة ، وأعظمها تعقيدا الانسان .

فالعرائز والمؤون والقواعد الطبيعية ، منها ما توافق العقل والمنطق السليم ، ومنها ما تخالفها ، وحتى انها تتضارب فيما بينها في الجماد

= قوانينها ، بيد أننا لم ندرك كنهها . أو الحرارة كذل . وكلها بالنسبة لنا مجهولة المبدأ ولكنها من حيث الواقع والتأثير لها قواعد ثابتة والنسبية ، ونتقرب فننقل ما أودعته الطبيعة في الجماد إلى ما أودعته في النبات والحيوان ، فالغرائز الموجودة في كل حيوان حقائق واقعية موجودة وثابتة وباقية بالنسبة لحواسنا ، ولكننا لم نتوصل إلى كنهها ، وهذه لا تشابه ما جاء في الجماد إلا من حيث حقيقتها الواقعية الثابتة . ومثلها الغرائز البشرية والعقول البشرية وأفكار البشر ، وكل تلك بصرف النظر عن مبدأها وكنهها ومنشأها ، فهي حقائق موجودة وواقعية بالنسبة لنا يجب أن يعتد بها ويحسب حسابها إلى الساعة التي تمكنا فيه أدمغة البشر لحل لغز يتغلب به على ما كان مستحيلاً كما عمل في الناحية المادية .

والاحياء ، وفي كل منها على انفراد ، وفي كل صنف تتضارب في افراده ، ففي الحيوان تختلف باختلاف الحيوانات ، وحتى في النوع الواحد اختلاف ، وحتى في الذات الواحدة كذلك ، فالانسان تتضارب امانياته وآماله واحواله ، فالانسان يحب الراحة ويكره العناء ويحب نفسه ، فلا يريد ان يضره التعب والنصب والجوع والحر ، وتحركه غريزة أخرى كحب الظهور وغريزة حب البقاء للتخاصم والتكالب والجمع والاثراء ، والتسابق والعناء والتعب ، يريد أن تطول حياته ، ومن جهة أخرى ينتظر بفارغ الصبر انقضاء الايام والليالي للقاء أو الوصول الى غاية أو رغبة أو هدف ، يحب الراحة والسكينة والاقتصاد ، ويحب نفسه ويخشى ان يعتوره الضعف والوهن ، ويفرط من جهة أخرى في الغريزة الجنسية ويزيد سنه يوما بعد يوم وينجب أولادا يزدونه هما وكدحا وعناء ، ويحب الحرية وإذا بيده يغل يده في العيال والاطفال ، فإذا به مسلوب الراحة البدنية والفكرية ، أسير قيود ومكبل بأصفاد نفسية ، في حالة تضارب وتخاصم نفسي بين غرائزه فيما بينها وبين وغرائزه وعقله من جهة أخرى ، في تخاصم وتخالف مع أفراد آخرين ، وفي معرض خصوم حيوانية ونباتية وجماد وعوارض الطبيعة بما فيها ، تعينه وتوافقه هذه ، وتخاصمه تلك ، وكيف يمكن توافق الموارد الاجتماعية الطبيعية وقد وقفت الاجتماعية باسم المنطق والعدل والعرف وامثالها ، امام أكثر الغرائز الطبيعية وكبتها وضيق عليها الخناق وحرمتها في أكثر الاحيان من القيام بأية بادرة تنهه بها عن ضيقها ، وإذا ما خالفها يوما لمجرد انها تريد أن تنطلق حرة الى حياتها الطبيعية لتسعى وراء أغراضها التي خلقها لها الله كما خلق ذلك في غيرها ، قام بإيقاظها حراس العقل والاجتماع بأسماء ذكرناها سابقاً ، ووضعت لكل منها جزاء وحداً ، وقد يكون هذا الكبت الذي لا يمكن تحمله يوماً من الأيام قد بلغ مبلغاً ينفجر في أحد جوانبه ، فيحطم صاحبه أو ينقصه أو يمرضه ، وقد يسري هذا الضرر الى غيره ، فهلا يلزم أن نتقي شر تلك الأضرار ؟ وكيف ذلك ؟

● السؤال الثاني :

هل توافق القوانين الطبيعية جميعها أو بعضها المنطق ؟

الجواب :

سؤال يحتاج الى دقة وبحث ماذا نعني بالمنطق هنا ؟ وأي منطق نعنيه ؟ إذ في أكثر الأحيان يتبع المنطق العرف والعادة ، وأحياناً يتبع العدل والوجدان ، وفي أخرى يتبع السلوك الطبيعي الذي تقوم عليه النفوس ، فهو متأصل في كل حي ، فمثلاً من غير العدالة مجازاة الأسد لأنه اقتنص ارنباً أو ضيياً ، أو ابن آوى لأنه اقتنص دجاجة أو وزا ، إذ ان حياته وادامتها تتوقف على هذا ، والمنطق يقبل ذلك ضرورة واقعية ، فلماذا يستنكر ذلك في الإنسان ؟

نعم انما يستنكر ذلك في الإنسان متى ثبت أنه مميز عاقل ، وأما المجنون وغير المميز فلا يعاقبه المجتمع . لماذا ؟ كلنا ندرك أن الإنسان بعقله يتجاوز حدود الغريزة والفطرة غالباً ، ولهذا يلزم وضع حد وجزاء لما تحداه ، وأما الذي ليس فيه تجاوز فلا .

فالإنسان يختلف عن الحيوان بعقله ^(١) وجهه للاجتماع وغير ذلك ، وبقدرته على الابتكار والإختراع ، وأن له غرائز أبعد مدى من جميع الحيوانات ، وهو لا يقتنع كالحيوان بالقليل ، وليست دوماً أفكاره بنت

(١) وعلى هذا لا يمكن تطبيق الشؤون الاجتماعية على الطبيعة حذو النعل بالنعل لوجود الفرق الموجود فيها ، وأخص عند الإنسان ذي العقل والفكر إذا اعتبرنا ما عدا الإنسان من حيوان ونبات يدخل ضمن الموارد الطبيعية ، مع العلم بأن الحيوانات تختلف عن بعضها عقلاً وتفكيراً كالقرد بأنواعه والكلب والهر وغيرها . حتى أن البعض منها لها تفكير لحد ما ، فهي إذا عملت مخالفة تبقى لأمد ما حذرة خائفة ، تخاف القصاص كالقرد والهرة ، وهي أحياناً تتأثر بالتشجيع وتنتظر الاحسان على عمل مجيد قامت به دليل التفكير .

الساعة كالحيوان ساعة توزع له غرائزه من جنسية وجوع أو عطش أو الدفاع عن النفس فيجيبها ، وتنتهي بإتصال جنسي أو أكلة أو شربة وأمثال ذلك لا ، ليس لإنسان كهذا الحيوان ، فهو واسع الفكر كثير الجشع والطمع ينظر للماضي والحاضر والمستقبل ، وما حوله من قريب وبعيد ، ولا تقف مطامعه عند حد ، ولو ملك الأرض بما فيها من مال وطعام وزينة ، فهو يحاول مد سلطته على غيره بقصد إشباع رغباته ، فإذا ترك كل يعمل ما يشاء فما هي النتيجة ؟ وهل يمكن القضاء على ذلك وإيقافه عن التجاوز على حقوق الآخرين وكيف ذلك ؟

فالطبيعة أوجدت قوانينها في الجماد والحيوان والنبات وحددت لكل منها حدوداً وجعلت لكل تجاوز قصاصاً فإذا اعتدى وتجاوز فإعتدائه محدود الضرر عليه وعلى غيره وبصورة محدودة ، لا تتجاوز الأفراد ، والقصد من ذلك حفظ النوع والتكاثر في الأحياء .

ولقوانين الطبيعة من حرارة وجاذبية وضياء وغيرها ، محاسنها ومساوئها ، بالنسبة للبشر ، ولكن إذا وافق بعضها منطق البشر واقتنع بضرورتها ، فإن كثيراً منها لا يوافق منطقياً ولا يرتضيه ، فهو على الأكثر يحسب كل شيء يرى به بدنياً ومالياً وعقلياً غير صحيح ، وبعضها مجهول منه . فإذاً لا توافق جميعها المنطق . في حين أنها حوادث واقعية ، سواء كانت طبيعية محضة في الجماد ، أو غرائز وشمائل وصفات في الحيوان . إلا أنها لا توافق ميزان العقل ومنطقه عند الإنسان فيسعى لتعديلها وتهذيبها .

● السؤال الثالث :

هل توافق القوانين الاجتماعية جميعها المنطق والمعقول ؟

الجواب :

ونقصد بالمنطق المنطق السليم . الذي يعتبره العقلاء في كل مكان وزمان صحيحاً ، ولا نريد به أن تجمع عليه الأذواق والأهواء ، إذ أن لكل

قوم منطقاً يوافق عرفهم وعاداتهم ودينهم ، وفي كل فرقة شواذ واختلاف ، ولا تتبع أي طبقة من طبقات اليوم ولا أي زمان ومكان سلوكاً اجتماعياً يوافق العقل السليم الموزون من كل الوجوه حتى أحياناً وهم يعلمون بذلك علم اليقين ، إن في خلافه سداً لرغباتهم واستجابة لغرائزهم ، فانظر الى أرقى طبقات البشر أفراداً وجماعات من نواح سياسية واقتصادية ودينية ، وكل النواحي الأخرى ، فترى المنازعات والمضاربات والمخالفات والخروج عن المنطق السليم والاستدلال الغلط والكذب والتزوير وكثير غير ذلك ، فلماذا هذه العزة بالإثم ؟ ولماذا هذا الجدل والمغالطة والنفاق أيها الساسة والقواد ؟ وأنتم يا رجال الدين المهذبون العالمون بالحقائق ، ما هذا التمويه ؟ وما هذه السفاسف ؟ لماذا تركتم الباب وأخذتم بالقشور ؟ وهؤلاء رجال الاقتصاد ، الكل منحرفون عن سبيل الحق والعدالة والعقل والمنطق السليم ، لأن لهم في ذلك مآرب ومصالح ، ويحسبون فيه منافاة مع أطماعهم وغرائزهم ، من حب الذات وحب الظهور والغريزة الجنسية ، وحب البقاء وحب المال . لهذا نجيب على هذا السؤال أن القوانين الاجتماعية من خاصة وعامة والتي يحكم بها فرد أو أفراد أو جماعات أو دول ، فيها خلاف كثير مع المنطق السليم للعدالة والمساواة والوجدان لغايات شتى ، أما لجهل وعدم إدراك الحقيقة أو لغايات فردية وجماعية أخرى .

● السؤال الرابع :

هل من القوانين الاجتماعية ما تخالف الطبيعية والفطرة ؟

الجواب :

ان القوانين الاجتماعية مجموعة أطلق عليها المجتمع هذا الاسم ، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فمنذ القديم الى هذا اليوم ، في كل بقعة ومنطقة ، في كل دولة وأمة ، قواعد وأعراف وعادات خالفت وتخالف الأخرى ، في حين أن القوانين الطبيعية والغرائز ثابتة لا تتغير ،

وفي حين ان العقل السليم وما يضعه لا يغيره الزمان والمكان ، إذن أليس هذا كافياً للاستدلال على أن القوانين الاجتماعية تخالف في كثير منها الطبيعة والفطرة ؟

وإذا سميناها قوانين اجتماعية فهي في الواقع ليست بقوانين ، فالقوانين والقواعد هي ما كانت ثابتة بذاتها لا تتغير ، ولكن هذه قابلة للتغير بارادة الجماعة أو الحكومة أو السلطان ، وتستمد قوتها من القوة الأمرة أو العرف أو الدين ، وليست مخلوقة مع الذات أو وضعتها الطبيعة كما وضعت الغرائز في الأحياء ، أو القوانين الطبيعية في غير الأحياء .

●السؤال الخامس :

كيف نفسر الحالة الطبيعية الفطرية في الحيوانات ، في حياة الضواري وإنها تعيش على سلب حياة الآخرين ؟ .

الجواب :

نبحث هنا في الأمور الواقعية الحقيقية فنقبلها كحقائق لنستعين بها في حياتنا ما أمكننا الإستعانة ، ونعالج ما يمكن علاجه ، ونترك ما لا طاقة لنا على علاجه الى اليوم الذي يمكننا ذلك . وإذن ما هو تفسيرنا أمام أمر قائم فرضته الطبيعة وحصرته في هذا الوجه ؟ نحن لا نريد أن نفسر الأمر تفسيراً فلسفياً أو حكيمياً ، فنقول هل ان الطبيعة غلطت في هذا أو لم تغلط ؟ وهل ان ذلك صحيح أو غلط ؟ إذ ان هذا البحث لا يجدينا في الحاضر نفعاً ، ولا ان نقول ان علينا القيام بعلاج هذا الأمر وفرض نظام يخالف ما هو عليه بين الأحياء ، لأن ذلك ظلم محض . وإذا بنا نقوم بظلم آخر .

فإذا منعنا حيوانا من افتراس حيوان وهو يتوقف نموه وحياته على ذلك ، فقد قضينا عليه وأمتناه جوعا وخالفنا بذلك ناموس الطبيعة ، واتعبنا أنفسنا دون جدوى ونحن لمّا نتوصل الى كنهه وحقائق بعيدة عن العلل

الواقعية التي قام عليه نظام الطبيعة هذا ، وقد لا يكون بإمكاننا ولا يكون ذلك الا لحد ما ، وإن تفسيرنا هذا لا يقلل عن تفسيرنا عن حياة الحشرات التي تعيش على دم الآخرين ، ومنها ما تسبب لنا آلاماً وأمراضاً ، من بعوض وذباب وبرغوث وأمثالها ، ومنها الطفيليات والمكروبات وغيرها ، وإن هذا أمر واقعي لا جدال فيه . ولا يجدينا الجدل في الحاضر ، لماذا خلقت هكذا ؟ أو ما هي العلل لخلقتها ؟ بل نكتفي بالاستفادة من منافعها واجتناب مضارها ، كما نستفيد مما تحمله كل واحدة منها من خواص ومميزات وسلوك ، فنستعين بذلك كله لحل مشاكلنا حلاً واقعياً حقيقياً لا يخالف جانباً فيخلق عيباً يلزمنا في الحين علاجه .

فلإذن يجب ان يكون الجزاء طبيعياً والثواب كذلك ، وأن يكون العقاب له صلة واقعية بالجريمة ومستخرجاً منها ، وإذا شئت معرفة ذلك فعد الى الطبيعة في الجماد والنبات والحيوان ، وانظر الى كل واحد منها على انفراد ، ثم انظر الى مخالفتك لقانون طبيعي مثلاً ، فإنك إذا نظرت الى مرآة وضحكت ضحكت لك صورتك المنعكسة في المرآة ، وإذا بكيت بكيت ، وكلما عملته عملت مثلك .

وانك اذا رميت حجراً الى السماء بصورة عمودية وبقيت في مكانك سقط عليك : أو غير عمودي ولم تحذر عواقبه ، فربما سقط على شيء فتسبب بأذى . وإذا صرخت بين الاطلال والآثار عاد اليك صدى صوتك ، وأنت إذا تقربت من النار دون وعي احرقتك ، وإذا خاطرت بنفسك فقاومت وحشاً دون سلاح وأعتديت عليه رد عليك حتى القطة والفأرة أو الكلب . وبالعكس إذا أكرمت مثلاً كلباً أو قطاً أظهر مقابل عطفك عطفاً مماثلاً .

● السؤال السادس :

كيف تسيطر الواحدة على الأخرى ، مرة الصغيرة على الكبيرة وأخرى الكبيرة على الصغيرة ، ومرة القوي على الضعيف ، وأخرى

الضعيف (بكثرتة أو دراكتة في تدبيره وما شاكل) على القوي ، وتطبيق ذلك في الأحياء وغيرها ؟ .

الجواب :

من نواميس الطبيعة هو أن الأجسام الكبيرة تجذب إليها الأصغر . ومن نواميسها تغلب القوي على الضعيف دائماً ، وقد يتشكل القوي من أجزاء ضعيفة ويتكون من المجموع طاقة أقوى من القوي بمفرده ، كالنمل الذي يعيش بطبيعته جماعات ، على حشرات تفوق النملة بل عشرات ومئات وألوف النملة قوة ، أو تغلب الضعيف المجهز بسلاح مهما كان ، كذباب النوم (ذبابة تسي تسي) أو المكرويات غير المرئية والفطريات وأمثالها على الأحياء .

هذه أمور واقعية ، لذا لا نضع تجاه ما قلناه كلمة (لماذا ؟) وكل ما نحتاجه إنما هو طريقة الوقاية والعلاج الحقيقي الدائم الخالي من العواقب الضارة . كما نريد أن نستفيد من وسائل التغلب وأساليب المقاومة والعلاج لكل واحدة منها تجاه الأخرى ، وطرق حياتها نحو الكمال والرقى . وكل ما نستفيد منه لخدمة الإنسان ذاته أو ما له علاقة به من الكائنات الحية ، من حيوانية ونباتية كبيرة وصغيرة ، مرئية وغير مرئية ، ما يعيش منها على الغبراء أو داخل الماء ، لكل منها أساليب للدفاع والهجوم والوقاية ووسائل لبقائها وتكاثرها ، وغرائزها ، وصفات خاصة لكل واحدة وفصيلة ونوع منها ، بإمكان الإنسان الاستفادة من كل منها في مهمات حياته المماثلة ، سواء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية وغيرها .

● السؤال السابع :

هل ينطبق ذلك التنازع في الأرواح والأفكار والعقول وهل تغلب على بعضها؟ ما تأثير ذلك؟ ما هو الحل المعقول؟

الجواب :

قليل في المثل (ان من البيان لسحراً) وهذا يكاد يكون بديهياً ، إن

للبيان سحراً على الآخرين . والمنوّمون المغناطيسيون إنما يسيطرون على الآخرين سيطرة عقلية .

وقد أثبت كثير من علماء النفس أن للأفكار آثاراً وحدوداً وانها تؤثر من واحد على الآخر ، وإن لها اتجاهات تسير فيه ، وقد وضعت في ذلك مؤلفات من قراءة الأفكار والايحاء والتلقين ، أي نقل الافكار ، والتغلب الفكري والعقلي بشتى الطرق والوسائل .

كما قلت سابقاً أن هناك قوياً وضعيفاً ، وإن هناك نوااميس لتغلب القوي على الضعيف ، وإن هناك نوااميس تخص كل منهما ، فكثيراً ما سمعنا أن ذلك يكون في الآراء والعقول ، وأن من الناس من يسيطر بأفكاره وآرائه على زمرة أو قبيلة أو أمة أو أمم ، وربما كانت هذه الغلبة ممتدة إلى قرون ودهور ، كما يتضح ذلك في كثير من المذاهب والأديان والمسالك الفلسفية والحكمية ، وكان لتغلب رأي على آراء جماعة أثر بالغ في اتجاهات تاريخية اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية وغيرها ، ويختلف نوع هذه الآراء ، والمجتمع المتأثر منها والأمر القائم به . فقد يستطيع صاحبها القيام بنهضة إصلاحية علمية أو أدبية أو حربية أو غيرها .

إن الإنسان الذي تفوق على أعظم المخلوقات التي تفوقه هيكلاً وقوة ، إنما تغلب بجوهره العقلي والفكري ونفسه العظيمة التي تصاغرت أمامه جميع الأحياء ، ويقواه العقلية سخر ما سخر وأدرك ما أدرك من تقدم في شتى شؤون الحياة ، وإن تفوق أفراد البعض على الآخر إنما هو بفضل أفكاره وعقله .

فإذا فرضنا أن الأنبياء لم ينالوا ما نالوا بقوتهم الفكرية وإنما هو أمر الله وهده ، فماذا نقول بأساتذة وأساطين العلم والأدب والمهن وقدوة البشر من القواد والساسة والمخترعين والمبتدعين والفنانين؟ تلك حقائق لا يمكن إنكارها . ما قولنا في بوذا وإبراهيم بوترا وكونفوشيوس وأمثالهم؟ .

● السؤال الثامن :

ما هو الجزاء لمن يخالف قانوناً طبيعياً؟ أو يخالف المنطق السليم والمعقول؟ وهل يمكن أن تتفق الوقائع الطبيعية والعقلية؟ وهل يجب ذلك؟

الجواب :

هنا نرد بعض الأسئلة الفرعية :

أ – ماذا يحدث لو سرنا بما تقتضيه الطبيعة والغرائز البشرية وضربنا بالعقل صفحاً؟ .

ب – ماذا يحدث لو عملنا عكس ذلك ، وهو أن نتجه بما يوحيه العقل فحسب؟ .

قبل كل شيء نعود لنكرر أن الإنسان يجمع بين الغرائز الحيوانية وصفات العقل والفكر والمنطق وهما في أكثر الحالات على طرفي نقيض .

فإذا أخذنا طبق الفقرة (أ) وسرنا كما توحى الغرائز والطبيعة الفطرية ، ولا يمكننا أن ننكر أننا في الحين الذي نسمح بهذا فلإننا ولا شك وبدون تردد قد وضعنا أفكارنا وقوانا العقلية في خدمة هذه الغرائز .
أليس ذلك صحيحاً؟ فإذاً لسنا بهائم ولسنا كبقية الحيوانات الأخرى بل لا نزال نتمتع بقوانا العقلية وأفكارنا الواسعة ، فما قولنا إذن في هذا؟ إن الحيوان لا يفرق في الأمور الجنسية مثلاً كالإنسان الذي يختار ، لنفسه القرينة الجميلة المحيا ، يهتز طوراً لجمالها وأخرى لكمالها وصفاتها الخلقية والخلقية ، كما أن الإنسان لا يكتفي بواحدة ، ولا برزق يومه وبما تحت نظره ، بينما الحيوان يكتفي بذلك .

لا ، فالمرء يستخدم أفكاره وعقله لبلوغ ما تخالج نفسه من حرارة الشهوة الجنسية ، تلك التي ينظر أكبر علماء النفس الحديثين مثل فرويد المثير الوحيد لتوجيه أفكاره ومشاعره في الحياة ، وهي وحدها الباعثة

لتجديد أهدافه وبلوغها ، وهناك من يرى مشاركة الغرائز الأخرى في ذلك وينتقد فرويد ويقول : إن في ذلك إغراقاً ، وأن للغرائز الأخرى آثاراً لا تقل عن الغريزة الجنسية ، وما علينا الآن أن نبحث في قوة كل غريزة وأثرها وخطرها ، وإنما علينا أن نعرف أن الغرائز بمجموعها هي المثير والمحرك الفردي والجماعي في هذه الحياة وهي حقيقة واقعية لا يمكن إنكارها ، وهي من الأهمية بمكان بحيث لا يمكن التغاضي عن أي منها ، فإذا تركنا الأمر للغرائز البشرية وأعطينا الحرية لاستعمالها ومنعنا معاقبة من استعمل غرائزه الطبيعية لجميع أفراد البشر كما تستعمل ذلك الحيوانات الوحشية والطيور والبهائم والحشرات ، فماذا سيصبح ؟ .

هل يكون الإنسان بذلك سعيداً أو شقيماً وما عسى أن يحصل من هذه الحرية المطلقة ؟ .

هل يجب مقابل هذه الحرية والسماح باستعمال الغرائز ترك الأفراد يتمتعون بها ويستخدمون عقولهم لأغراضها ، أم يجب شل هذه العقول وحدها والقضاء عليها ، لما لها من الخطر العظيم ان هي استخدمت في غير ما وضعت له ؟ .

هل من الصالح ذلك ؟ وما هي عواقب تركها ان شلها ؟ فالغدر والخيانة والاستهتار والقتل والهتك والتنكيل والكذب والنفاق وكل رذيلة يعملها البشر إنما يأتي بها لغرض اشباع غرائزه ، وفيها استعمال عقله ، وإلا لما استطاع أن يعمل أكثر من حيوان وحشي ، ولما استطاع أن يدبر المكائد والمصائد وأي شيء آخر من آلات الفتك والجور والاعتداء .

هل أن ذلك من صالح البشر ؟ وهل هو من صالح طبقة دون طبقة او صالحهم جميعاً ؟ وإذا كان من صالح طبقة فأى طبقة ستمنى بذلك ؟

لا يستطيع مفكر عاقل متأمل أن يقبل ذلك ، وما دام للعقل سلطان فهو يأبى أن يستخدم إلا قسراً لأغراض الغرائز ، وكلما توسع وسَّع من

سلطانه على سلطان الغريزة ، وهو في جدال وخصام دائم معها منذ بدء الخليقة^(١) . فلو فرضنا أن الإنسان سن لنفسه قانوناً هو استعمال جميع غرائزه كما يهوى ، ولا عقاب ولا حكم ولا قصاص له على ذلك ، وتجرد من أي رادع حكومي. وديني في استعمال كافة غرائزه من جنسية وغير جنسية يستبج ما لغيره ويسيطر على غيره ويجمع ما تصل له يده ، وكل أراد التغلب واظهار القدرة واستعمال جميع ما يمكن عمله للتمتع بها ، ليس ذلك يؤدي حتماً الى الفوضى وغلبة القوي على الضعيف واخضاع القوي للضعيف ، وبالنتيجة هضم حقوق الضعفاء ومنعهم من التمتع بغرائزهم ، ومن ثم الى العداء والخصام ؟ ومن ثم الى الحيلة والنفاق والى كل ما يعود الى سلب الحرية للأكثرية الضعيفة والى القضاء على أفراد وجماعات والى منازعات فردية وجماعية بين الزعماء الانتهازيين ؟ ليس هذا النزاع الكوني بين الافراد والطبقات والشعوب الا بسبب عدم الانصياع الى وحي العقل والمنطق السليم والوجدان والضمير ؟

أليس ذلك الا من خلق الغرائز التي لا تزال مسيطرة على بعض العقول من حب الذات وحب الجاه والحرص والطمع والجشع والكبرياء ، تلك التي يستعملها ويريد أن يتمتع بها أفراد بيدهم القوة والسلطة ولا يستعملونها طبق المنطق السليم ؟

ب — ماذا يحدث لو عملنا بما يوحيه العقل السليم وحسب ؟

لا يمنع العقل من التمتع بالغرائز الموروثة ولا يقوم بما يرهق الفرد والجماعة ، وإذا قلنا العقل السليم فانما نعني بذلك المرشد الحكيم البصير والهادي الواعي على مصالح الفرد والجماعة ، والباعث بعين العبرة

(١) إن استعمال الإنسان عقله قد يتوصل للمطلوب ، إذا اتجه الاتجاه الصحيح مع الشعور بالحاجة أن يتكرر يوماً من الأيام لإشباع غرائزه في نفس الوقت الذي لا ينحرف عن سلطان العقل .

في الماضي وواقع الحال وما يقتضيه سعادة المستقبل لأقصى ما تقتضيه الحقيقة دون تأثر وتحيز ، والرامي للحصول على أكبر وأبعد ما يمكن أن يجلب الخير والنفع للفرد والجماعة ويدفع عنهم ما يمكن دفعه من ضرر وحرمان ، ومهما كان ذلك النفع والخير وذلك الضرر والحرمان مادياً أو معنوياً فهو يسمح للتمتع بالغرائز لحد أكبر من حصول اللذة ودرجة أقل من وقوع الضرر ، وإذا كان غير ذلك فلا نقبل به عقلاً سليماً ، لهذا فإن الشاعر يقول :

لو كنت أجهل ما علمت لسرني جهلي كما قد ساءني ما أعلم
كالصحو يرتع في الرياض وانما حبس الهزار لأنه يتكلم
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ان ذلك غاية الخطأ ولا يعتبر العقل عقلاً اذا لم يؤدّ الى السعادة والسلامة ، ومن المستحيل أن يقول أحد أن الاعمى والاصم خير ممن يسمع ويرى ، وإن الابكم خير من المنطيق ، وإن الذي لا يهتدي طريقه خير ممن يهتديه . فاذا صادف في الحياة أن أعمى ساعده الحظ ووافقته الصدف ونال قسطاً من السعادة ، فلا يجوز قياسه بغيره الذي يرى لأن هذا قد يكون فقد الوعي الحقيقي والبصيرة والحكمة .

ثم نعود سائلين : طالما غايتنا الوصول الى الحقيقة والوصول الى ما يتطلبه المرء واشباع رغبته مهما كان مصدر هذه الرغبة ، ونحن ندري أن الصدم من بلوغ هذه البغية أو عدم اشباع الرغبة يولد في النفس رد فعل لما يظهر من العقد النفسية أو الآثار الصادرة عن افراد محرومين من ناحية ما من حياتهم الغريزية ، وهو بحد ذاته مرض يلزم اتقاؤه ، وقد ولد ذلك فيه من الحد الذي حده العقل من أمر ونهي صدرت من جانبه ، فكيف السبيل بنا ونحن لا نريد أن يشعر الفرد أو الجماعة بالحرمان من أي جانب من الجوانب كيلا يحدث لهذا رد فعل يصدر عملاً ارادياً أو غير إرادي ، بسبب له مرضاً نفسياً يعود عليه أو على غيره بضرر جسمي أو روحي .

فالعقل السليم وهو الجوهرة النقية من شوائب الغرائز النفسية والهوى والهواجس ، أو الكوكب الدرى الذي لا يحول دون اشعاعه على مختلف الحواس كدرات الغرائز وعابثات الهوى النفسية يجب أن يراعى في أوامره وسلطانه على الفرد والجماعة كل المصالح الآنية والمقبلة لخير هذا الفرد وتلك الجماعة ، أو لخير الافراد فرادي وجماعات دون أن يأمر وينهي ، ولا يحسب ان الرغبة النفسية لا يمكن أن تسد بقوة النفس أو الغير دون أن يكون لها آثار ، ولا بد له من اتخاذ سبيل لمحو هذه الآثار قبل ظهورها بصورة لا تؤدي الى عاهة جسمية أو روحية . فكيف اذن نمنع الفرد عقلياً عن اشباع رغبته الجنسية ؟ اتقول له أن القوانين تمنع ذلك ؟ او الاديان ؟ أو ان في ذلك ضرراً صحياً وأخلاقياً أو شيئاً آخر ؟ واذا بهذا الفرد تطفح عليه الغرائز وينفجر ولا يبقى للميزان العقلي من مقاومة فيسبب ضرراً عاجلاً لنفسه وغيره ، أو أنه يكافحها فتتير فيه من حين لآخر بما تحمله من قوة الكبت الى انحرافات وزلل عن الطريق السوي في ناحية ما من نواحيه الاجتماعية ، وأن أكثر الأدواء الاجتماعية من كذب وسرقة واعتداء واختلاس من جنائيات وجنح ومخالفات ، إنما هي من تلك المصادر ، وليس الترغيب بالشواب والتخويف من العقاب دون الامعان في العواقب إلا عوامل قد تكون أحياناً مخربة ومثبطة للعزائم . فالجائع يجب ان يشبع واذا منع عن الطعام والشراب فيما أن يموت جوعاً أو يتحول الى نمر مفترس أو سارق أو محتال وامثال ذلك ، لإشباع نفسه . فما هو السبيل الى اشباعه لا منعه ؟ ولا يهمننا هذا المنع أكان من طريق القوة البدنية أو النفسية ، بالحبس الجسمي أو الروحي ، بالمنع المادي أو المعنوي .

فالعقل السليم يجب أن يعلم ان للغرائز سلطاناً ، ويجب أن تؤخذ قدرتها بعين الاعتبار وارضائها والسير معها كما يراعى الأب الحكيم ولده الجاهل ، فالفرد يمكن منعه قانوناً بالعقاب الدنيوي أو غضب الجماعة أو الخجل والحياء ، ومنعه شرعاً بالتخويف الأخروي والدنيوي والتخويف من غضب الله ، بيد أنه اذا امتنع يا ترى هل انتهت المشكلة ؟ كلا ، فالغريزة

عمياء صماء تريد ولا تصغي ، فاذا منعت بأي وسيلة امتدت اطرافها الى جوانب وجهات أخرى خارجية ، فاذا منعت اطرافها من الخارج عاثت بالنفس ذاتها وخلقت لها مشاكل وانحرافات عضوية مادية أو معنوية ، وحرفت صاحبها عن الصراط السوي والاعتدال ، وقد يزيد ذلك التربية والمحيط او يخففها ، وهذا ما يجب على العقل السليم مراعاته ، وقد تعجز بعض العقول ذاتها عن الوقاية والعلاج ، ولذا يلزم على الجماعة من جمهور العقلاء الدقة ووضع الأسس اللازمة لذلك دون ارهاق واجحاف ، مستمدين في ذلك ما أودعته الطبيعة في أفرادها المشابهة نوع الداء ونوع العلاج وطرق الاصلاح^(١) . فالانسان الطبقة العاقلة من الحيوان قد يتجاوز بعقله الاصول الطبيعية باستعمال الشهوة وزيادتها وتقويتها والترغيب اليها بالأدوية تارة وبالمأكولات والمطالعة والصور والمناظر والرفض واللمس وما شاكل ، ولا زال يتكرر المهيجات والمحركات ، من مشروبات روحية وغير روحية ومخدرات ومنبهات ، تلك التي تخرجه عن نطاقه الطبيعي وتثير فيه روحاً لا تأتلف وروحه الواقعية ، أو بالتلفين النفسي من غيره وترغيبه الى عمل لا يعد من الاعمال الطبيعية في الحالة العادية .

ولا ينكر ان هناك أموراً طبيعية في الحيوانات المشابهة للانسان كالقرد مثلاً ، وهو اجتماع الجنسين الذكر مع الذكر والانثى مع الانثى والانثى مع الذكر ، وهذا أمر طبيعي ، ولكن الانسان تجاوز عن ذلك الى أمور أخرجه من الحالة الطبيعية وهو تزويج الذكر بالذكر وعمل ما يشير العقل السليم ، وذلك أن يحرم الذكر من الحاسة الجنسية بصورة عملية ليتزوجه ذكر آخر يبقى معه مدى الحياة يرضخ تحت سيطرته كما يجري في بعض البلدان الأجنبية وغيرها . أو وأد البنات ودفنهن وطمرهن أحياء .

(١) لهذا نرى البحث عن آراء العباقرة والأنبياء دون تحيز وإباء بما نحملة من عادات باطلة وقبول المنطق السليم .

خوف الاملاق^(١) أو العار ، وأي عمل لا يصدر من أي حيوان مماثل لا يستخدم العقل لاغراض وغايات الغرائز . فاذن سيطرة العقل السليم الواعي على أعمال الفرد والجماعة ، ذلك العقل الذي يراعي الحالة الطبيعية الغريزية في الفرد والجماعة ، والقاضي الحكيم في حكمه وعدالته دون أن تتغلب عليه العزة بالاثم أو العرف أو العادة الاجتماعية او الدينية أو عادات أخرى ، هو خير مدير وقائد ، يراعي من جهة طلبات الغرائز كالتي في الحيوانات غير العاقلة ، من مثيرات الغرائز واخراجها من الحد الطبيعي ، اكانت تلك مادية أو معنوية من طريق الحواس السمع والنظر واللمس ، أو الطعام او المطالعة وغيره ، والعود دوماً الى نظائر ذلك في الحيوانات الطبيعية الأقرب تشابهاً ، والاستفادة من استنتاج القانون الطبيعي الأقرب الى الطبيعة والفطرة في أي مورد اصلاحي ، سواء اجتماعي من أمور الجزاء والحقوق والادارة والمال ، أو في الامور الصحية والطبية ، وفي كل أمر نريد أن نضع فيه قانوناً ثابتاً مستدلاً يمكن أن نسماه قانوناً كما تحدثنا سابقاً ، لا تلك المواد التي يضعها المقتن والمشرع والدولة من الناس . وبالنظر لالزامها القهري من السلطات يطلق عليها اسم القانون ، وتأتي سلطة أخرى وتغيرها أو تحذفها أو تزيد فيها حسب ما ترتئى . وبهذه المناسبة لا يكون لها التأثير الفطري الطبيعي القاطع ، لذا نعود لتتساءل :

أ — هل يمكن أن نعتبر الفكرة غريزة بشرية ؟

ب — هل يمكن فصل العقل عن الفكر واعتباره غريزة أخرى ؟

ج — كيفية استحصال القوانين الطبيعية . وما هي القوانين الممكن استحصالها ؟ الجزائية ، الحقوقية ، الإدارية والسياسية ، والاقتصادية وغيرها .

(١) ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ [سورة الإسراء ، الآية :

كيف نجري الاختبار ؟

في كل أمر مادي ومعنوي مهما كبر وبلغ من الأهمية سواء أكان اقتصادياً أو أخلاقياً أو أي نوع من الفروع الاجتماعية والطبيعية والسياسية وغير ذلك ، يلزم ارجاعه للمختبر الفني الدقيق للتحليل والتركيب والتجزئة والمزج ، بادئين لمعرفة ذلك من أدق المواد أو الأمور المشابهة بغية الدقة والسرعة للفهم وعدم التبذير بالمادة والوقت . فاذا أمكننا الاكتفاء بوضع قطرات من الدم لوضعه تحت عدسة المكروسكوب من جهة والاستفادة منه لتعيين درجة محتوياته المؤدية والشؤون الأخرى ، كان خير لنا من أن نستترف دم المريض الذي هو بحاجة الى الدم ، هذا مع ضياع الوقت وما يحصل من ذلك من الارتباك .

وفي مختبر الصيدلي للتوصل الى مركب ملائم ووضع النسبة المعينة من كل دواء وتجزئته ، اليس أخرى بنا أن نبدأ ما أمكننا بأصغر الكميات الممكنة حتى اذا ما تأكدنا من المركب المطلوب عدنا الى صنع الاطنان منه ، بعد أن مرت تجربتنا على أجزاء الغرام والسانتغرام والملغرام .

لحل المشاكل العالمية : ألا يجدر بنا أن نعود الى أصغر مجتمع مشابه مثل العائلة ونرى مشاكلها الاقتصادية والاخلاقية ، ما قولكم بأب يأمر ابنائه بأمر ويناقضه ولا يقوم به ، والاطفال اما عندهم المجال والشجاعة ليتساءلوا : لماذا يقوم والدنا بما نهانا عنه ؟ . أو وصلت بهم الاوضاع بدرجة من الخوف حتى لا يسمح لهم بذلك ، فهم يتساءلون في أنفسهم هذا ما يأمرنا به أبونا أو ينهانا عنه ، وهو نفسه يخالف أمره ونهيه . ماذا تكون العاقبة في مثل هذه الموارد غير التدليس والنفاق ؟ اطاعة ظاهرة وعصيان باطن .

ان المربي الحقيقي من أب أو معلم أو رئيس وزعيم وأمير ورجل دين ، وكل من له سلطان ، عليه أن يكون بنفسه بقوله ويعمله قدوة لما يأمر وينهي ، وأن تكون العدالة والانصاف والصدق والصراحة نشأت معه

في نفسه وشبت مع جوارحه ، اذا شاء أن يطاع طاعة يعاقب عليها بعدالة ، ويصغي ويستجيب له ذوو الأذان والقلوب . وإذا شاء أن ينفذ ذلك بالقوة والقدرة فيطاع ظاهراً ويخالف باطناً . هذا على أن تكون أوامره محقة وممكنة للأكثرية وعادية وغير قاسية ، إذ لا تكلف نفس إلا وسعها ولا يمكن أن يقاس على الشاذ ، فرب أمر يطيقه فرد من بين مائة أفراد فلا يلزم فرضه على الجميع ، والذي يلزم فرضه هو الممكن للجميع ، والذي هو من صالح الفرد والمجتمع ، وإذا نفذ الاب أوامره على أولاده بصفة قاهرة فوق طاقتهم ودون وعي وارشاد ، أو لم يتقبل افراد العائلة قبولاً حسناً أو رأوا تعسفاً وتميزاً فيما بينهم مهما كان ، ولو لفرد ، فلا بد أن يخلق هذا في نفوسهم ضغناً وحسداً ، وعلى أقل تقدير هرباً من الامثال والانصياع كلما سمحت الفرص ، وخلقت جوا من الكذب والنفاق والتذبذب كلما عنت الظروف ، وهكذا الامر في القبيلة والدولة ، وعلى الشركة التجارية اذا أراد أفرادها ان تسير نحو التقدم والتوسع ان يخلص هؤلاء الافراد ويوازوا الواحد الآخر ، وتجري بينهم أصول العدالة والرعاية في أصول الخرج والصرف ، وايجاد الدخل الكافي لذلك ، وعدم رعاية ذلك لا بد أن يطيح بالشركة ، وعلى الطاهي والطباخ الماهر أن يراعي مقادير وأجزاء ونسب المواد في المرق والحلوى وغيرها ، ورعاية درجة الحرارة ومدتها وما شابه ، وإلا لم يكتب له التوفيق في عمله . وهكذا في كل شيء وعمل فني وغير فني يجب الاصغاء الى المتخصصين فيه ورعاية كل جوانبه . لهذا نتساءل :

أ – ما هي بواعث العلل الاجتماعية ؟ في العائلة ، في الدولة ، في العالم ؟

١ – أهو الجهل ؟ أي جهل ؟ هل نحن بحاجة الى علم الأخلاق ؟ الى العلوم الاقتصادية ؟ لأي علم ؟ ولأي فن ؟

٢ – هل الباعث هو الفقر ؟ أي فقر ؟ أهو الفقر المادي أو المعنوي ؟ أو كلاهما ؟

٣ - هل الباعث على هذه العلل هو الدين والعقيدة ، واختلافه في العالم ؟ هل أن الاديان جميعها غير صالحة ؟ وهل هناك دين أو عقيدة صالحة ؟ ما هو ؟ كيف يمكننا أن نجتمع العالم عليه ؟

٤ - هل العلل هي وليدة العنصرية والقومية واللغات ؟ هذا آرى وهذا سامي وهذا حامي وهذا ابيض وهذا أسود وهذا أحمر وذاك أصفر . وهذا عربي وذاك أعجمي . اذن ماذا نعمل ؟

يلزمنا تعيين العلل أولاً ، وعلاجها ثانياً ، واقامة طرق الوقاية منها ثالثاً . ومراقبة دائمة من الأوباء والامراض السارية الحادة منها والمزمنة ، والقضاء على كل البؤرات الانتانية التي تثير كدرا في أي عضو من الاعضاء .

من هو الطبيب الواقعي الصالح لعلاج هذه العلل ؟ وما هي العلل التي يلزم علاجها ؟ ولا شك بأننا بحاجة الى أطباء متخصصين لكل داء ، بل لكل فرع من فروع هذا الداء ، أطباء عمليين وأطباء نظريين كما هو في علاج البدن الانساني . اطباء يعالجون الامراض الجسمانية لهذا العالم ، واطباء يعالجون الامراض الروحية والامراض الاجتماعية .

ب - ما هي طرق الوقاية من هذه العلل ؟ من هم المتخصصون للقيام بهذا والمثل الطبي هو : « الوقاية خير من العلاج » ، كما يعتبر في البدن الانساني ، فهو أيضا ينطبق على حياة العالم والحكومات بل الدولة العالمية . ويكفي أن نعرف كم كان عدم الوقاية في الماضي يحمل للبشر من ويلات وهموم الأمراض ، كالمalaria والجذري والهيضة والطاعون والتيفود والتيفوس ومما هو أكثر من أن يعد ، وكيف قضى عليها بالوقاية . وكيف ان المرء يؤخذ على حين غرة من أقل الامراض مثل الزكام على أثر تعرض بسيط جداً يتقل فيه من محل دافىء إلى آخر بارد بنفحة بسيطة من البرد أو خفقة ريح باردة لا يعيرها أهمية تذكر، وإذا به أمام الزكام والإنفلونزا وذات الرئة وذات الجنب وغيرها بعد أن يصبح ضعيفاً ، في

حين أن الوقاية الأولى قبل خروجه كانت تكفي لمجرد احتياط بسيط من البرد عدوى المزمكوم ، وعندما أُصيب بها كان يكفي له علاج بسيط مع استراحة بسيطة ودواء بسيط لدفع هذه العلة ، بيد أنه إن أهمل اشتد به الأمر وهكذا . وقد يؤدي به عدم الوقاية إلى الموت .

هكذا الحروب ، فالحرب العالمية الأولى شبت واندلعت نيرانها ابتداء من طلقة واحدة أصابت فرداً واحداً ، على أثرها شبت نيران الحرب وقد كان بالإمكان حصرها في النطقة والقضاء عليها ، ولكن قلة الوقاية والغرور وعدم التروي تلك التي تؤدي بأكثر الرجال والافراد السذج لإصابتهم بأشد العاهات .

ألا يكفي للعالم أن ينتبه وأن يعقل من هذه التجارب المرة ؟ .

ما أحلى الأمثال التالية :

ما خفق الشراع على رأس عاقل مرتين . أو ما لدغ العاقل من جحر مرتين ، ولقد كان حرياً بالولايات المتحدة أن تكتسب التجربة الكافية من حروبها في كوريا كيلا تتورط مرة أخرى في حروب فيتنام . إذا كان هناك عقل وعقلاء فعليهم وقف هذه المآسي . وعليهم أن يعرفوا دائماً وأبداً أن : أول الغيث قطر ثم ينهمر .

وستحدث عن أعلى وأحلى مثل لحكومة عالمية فطرية جمعت فيها أقصى ما يتصوره الفكر وفوق ما يتصوره الفكر من دقة النظام وحسن الإدارة والانضباط المنظم وأبعد ما يمكن حسابه عن افراده وجماعته في الماضي والحاضر والمستقبل ألا وهو البدن الإنساني .

الإنسان أبدع حكومة عالمية مثلى في جسم الإنسان^(١)

قلنا أننا بحاجة لحكومة عالمية تضم تحت لوائها كافة الملل والنحل بما فيها من أفراد وجماعات ، وبما فيها من حقائق وأفكار تخضع لها مطيعة مادة ومعنى . قوة تستمد قوتها من نفس الأفراد والجماعات وتشملها بالرعاية والحكم بالعدل والمساواة . محيطة بحاجاتها وسد رغباتها بعلم ودراية يتفق مع العقل والفطرة الطبيعية . حكومة لا تقوم على إرادة البشر وأهوائه تحت تأثير القوى والطموح الفردي ، ولا متعرضة للانقلابات والمشاكسات .

إننا بحاجة لحكومة فطرية طبيعية قائمة موجودة تستمد قدرتها من قدرة أعلى تدير السماوات والأرضين ، من حكومة تحكم الجماد والنبات والحيوان منذ بدء الخليقة ، هي حكومة الطبيعة عند الطبيعيين وحكومة الخالق المصور المهيمن القدير الحكيم الواحد الأحد عند الإلهيين . تلك الحكومة التي أعطت كل نفس هداها وسيرتها وضبطتها وجهازها بقدرة الدفاع والهجوم ، وكل ما تحتاجه لإدامة النوع وإدامة الحياة . حكومة فوق

(١) راجع الآية ٥٣ من سورة فصلت (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم...)
الخ ...
=

= من أسرار الخلقة وإبداع الله في الطبيعة وسير الفطرة :

١ - يدفع الرجل في كل مرة تلقيح ٣٠٠ إلى ٥٠٠ مليون حويمن منوي ذي خلية واحدة وكل واحدة تحمل جميع العناصر الحية المادية والمعنوية لإنسان كامل بما في ذلك ما اكتسبه بالإرث من سلالاته القريبة والبعيدة من لون وجنس ومناعة وضعف وقوة وخلق وصفات وكل شيء يمكنه أن يشابه سلالات آبائه وأمهاته .

٢ - هذا الحويمن المؤلف من خلية واحدة لا يمضي عليه الزمن بعد التلقيح إلا ويتكاثر بسرعة هائلة ولم يمض عليه عهد مدة تسعة أشهر يصل به من خلية لا تكاد ترى بأكبر المكبرات حتى يكون طفلاً يحمل من نفس تلك الخلية الواحدة الحية ٢٠٠٠ بليون خلية مقسمة على كافة أعضاء البدن الإنساني جامعاً فيها أعظم الأجهزة الالكترونية المولدة للطاقات الكهربائية وللحركة والحاسة والمعامل والمختبرات الكيماوية ، والميكانيكية والحاسبة والمدونة وكلها يحتاجه مجتمع يحوي عالماً من عوالم الكون العظمى المنظمة كما تجده في هذا المجتمع الإنساني على هذه الكرة بل يفوقها نظاماً وعدالة واتقاناً وصنعة وتجهيزاً وتوزيعاً فيه مئات المعامل الكهربائية والكيمياء الكبيرة والدقيقة الصنع المتضامنة وآلات شبكات الحمل والنقل للتغذية والاعمار والترميم والتنظيف . ومخازن مستوردة لمواد أولية ومصدرة لمواد مركبة تحكمها حكومة مسيطرة عادلة ساهرة دائبة واعية مجدة ، تحرسها في كل ناحية ودائرة منه حراس يقظون دائبون عارفون مجدون على وظائفهم لا يسمحون لأي غريب مهما كان من الغرباء من ولوج ساحاتهم .

هذه الخلايا الدقيقة المتناهية في صغرها كما مر المنسجمة المنظمة في عملها قد لا يستطيع الإنسان رؤيتها بالعين لا بل بالمكبرات المجهرية الالكترونية ، وإن أمكن بعدما وصل الإنسان لتكبير الاجرام فهو يرى هذه الخلايا متشابهة حية في الاحياء بين هذا التشابه نظراً ولما يدرك الإنسان رغم ما بلغ من العلم والعمل الى كنه وأسرار هذه الخلايا وما تعمله من شتى الاحياء والأجهزة رغم تشابهها الظاهري وتلك أسرار لم يتوصل إليها بعد ، ويكتفي علماء الاحياء أن يطلقوا على هذه الخلية الحية كأصل لتكوين الاحياء المختلفة . وهي صغيرة لدرجة لوجمع مليون خلية منها لأمكن وضعها على رأس الدبوس المدبب الصغير وتختلف عن بعضها في الشكل والهيئة من كروية واسطوانية وغير ذلك .

== هذه الخلية ذات الحجيرة الواحدة تشكل أجسام الاحياء ، والجسم الانساني يحوي على ستين ألف مليار خلية منه يعني (٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ، وكما مر إن هذه الحجيرات ذات الخلية الواحدة تختلف اشكالاً باختلاف مراكزها وأعمالها ووظائفها كما تختلف اشكال الاحياء في هذا العالم الحي في الوجود المؤلفة من مئات الآلاف من كبيرة وصغيرة على وجه البسيطة . وكما تختلف هذه بالهيئة والشكل تختلف في الحجم فهناك خلية كبيرة يصل حجمها إلى أكبر بيضة كبيضة النعامة وهناك متناهية في الصغر بحيث لو جمع منها مليون خلية لأمكن وضعها على رأس دبوس مدبب .

٣ - أعمال هذه الخلايا : كل أعمال وأفعال أجهزة وأعضاء البدن إنما تقوم بها هذه الحجيرات كأعضاء محركة من يد ورجل وعين وسمع وبصر وذوق وتفكير وهضم وحس وكل حركة إرادية أو غير إرادية جميعها ، إنما هي تصدر من مجموعات متعاونة من هذه الخلايا الحجيرية فمثلاً خلايا البصر الاسطوانية تحمل النور وتجمعه وتبدله بإشارات كهربائية وترسله إلى الدماغ ومتى توفرت فيها المقدار اللازم أمكن رؤية الشيء العاكس للضياء الواصل منها للنظر لرؤية ذلك الشيء ومعرفة ، أكان ذلك كبيراً أو صغيراً قريباً أو بعيداً .

٤ - تحوي العين على ثلاثين ألف مليون خلية قسم منها مختصة لمعرفة الألوان واكتساب النور وحفظه ولها القدرة على صنع وتوليد الكهرباء وهذه متناهية في الصغر حتى لا تكاد ترى بأقوى المجاهر ، هذه الخلايا تحتوي السكر محولة إياه إلى كهرباء وتدفع الماء وغاز الكربنيك بعد إحراقه ، تقوم بهذه المفاعلات الكيماوية المعقدة وتستنتج منه مادة (A.T.P.) يعني (ارتوزين تري فوسفات) . هذه المادة هي مادة الحياة لكل جسم حي وفي هذه المادة تكتسب الرئتان انقباضها وانبساطها والقلب حركاته وهذا هو منبع الحياة لكل حي ما دام حياً ، وفعلها في البدن قائم على قدم وساق في الافعال غير الارادية التي لا تتوقف حتى عند المنام ، وبها تثبت درجة حرارة البدن وتحرك الأجهزة وتقوم بأعمالها ووظائفها ، هذه المادة دوماً في حالة تجزية وتركيب .

٥ - جميع حجيرات البدن لها القدرة على توليد الكهرباء باعتبارها في حالة حركة =

-
-
- = وفعالية سوى الكريات الحمراء الدموية التي يسيرها المائع الدموي إلى حيث الحاجة .
- ٦ - كما مر أن الخلية المكونة من بويضة المرأة عند اتحادها مع حويمن الرجل المكون من خلية واحدة تبدأ منذ اتحادها للتكاثر السريع حتى يبلغ ٢٠٠٠ بليار خلية خلال تسعة أشهر وهو الجنين المولود وهناك أسرار أعظم نذكرها أدناه .
- ٧ - منذ الساعات الأولى لتكاثر هذه الخلايا تعين أجهزة البدن الانساني ومراكزها ووظائفها وطاقاتها وما هي بحاجة لها من ترسيم وتصميم ، ومنذ الساعات الأولى تضع الوراثة والسلالات خواصها في هذا المخلوق الجديد كما نذكر بعضها فيما يلي :
- ٨ - الكبد : أعظم مختبر عالمي يحوي على أهم المعامل الكيماوية الدقيقة المعقدة توضع أسسها منذ اليوم الأول .
- ٩ - الأجناس البشرية وألوانها من لون البشرة والشعر والعين يوضع تصميمها منذ الساعات الأولى .
- ١٠ - الأعراق وهيتة وشكل الأعضاء والعضلات ودرجة نموها وتدرجها في النمو والحين الذي تتوقف فيه ذلك النمو وتعيين صور وهندام كل عضو وجهاز من جلد وأصابع وأطراف وأجهزة الهضم والدورة الدموية ، وكل عضو آخر في أي ناحية من أقصاه إلى أقصاه توضع تصاميمه طبق السلالات والمناخ والمكان ، وكل شيء له مساس بهذا الكائن الحي وفيه تثبت درجة الذكاء ونمط ما يحمله هذا الكائن من الطاقات المعنوية إلى نموذج طاقاته المادية ، ومنذ البداية تثبت قدرات المناعة تجاه الأمراض وقدر الدفاع وفيه تتميز الافراد بالإرادة والشجاعة ودرجتها ، وان هذا البدن لأي درجة بإمكانه أن يقاوم العلل والأمراض المادية والمعنوية .
- ١١ - تكاد تكون الخلية الأولية عند جميع الأحياء ذات الثدايا متساوية الشكل والمقياس بيد أن هناك أسراراً بعيدة القدر في الفعل والانفعالات من نتيجة التجزية والتركيب والتفاعلات داخل هذه الخلايا ، تمنع انتاج خلية الإنسان من لقاحه أي حي آخر غير الإنسان ، أو بالعكس أن تكون خلية البقرة أو الأرنب أو أي ثدي آخر ينتج وليداً هو الإنسان ، أو أي حي من الثدايا غير من نتج منه ، تلك التي لم يتوصل البشر بعد للوقوف على كافة أسرارها ، سوى أن هناك حوامض ومركبات مسيطرة =

= على النشأة والحياة وتمنع أن يكون الناتج غير الذي حصل من لقاح ذلك الحي ،
فنتاج الإنسان يكون إنساناً والأسد أسداً والأرنب أرنباً .

١٢ - كما أن هناك أسراراً أخرى تمنع خلية العين أن تضع غير العين رغم تشابهها لخلايا
اليد والاذن والكلية وغيرها ، ذاك من الأسرار الخفية التي لا تسمح للبدن الواحد
إلا أن تعمل الخلايا إلا من وظائفها وأن يكون لكل إنسان يدان وعينان وقلب واحد
ورجلان وهكذا لا تزيد ولا تنقص والا تختل الخلقة .

ومن أسرار الخلقة امتياز كل من هذه الخلايا المتشابهة للجسم الحي عن بعضها ،
رغم ما مر من مظهرها الخارجي المتشابه انها تختلف صفات وخواص كل منها عن
الآخرى ، ومن خواص هذه الخلايا انها تستمر بالانقسام والتكاثر والموت والحياة ،
فهناك ملايين من الحجيرات في الجسم الانساني في كل ثانية تموت وأخرى تكثر
حالة محل الأولى بالانقسام .

١٣ - من هذه الخلايا ما هي سريعة التكاثر والانقسام والموت والتجديد كخلايا الجلد ،
بينما تمتاز خلايا الدماغ منذ الساعة الأولى بأنها معدودة ومحدودة فلا تتكاثر وتحافظ
على حياتها مدى الحياة وما شاب أو مات منها لا يقوم مقامها خلية أخرى ، فاعداد
حجيرات الدماغ منذ ساعة الولادة تحافظ على عددها وحياتها .

١٤ - خلايا جسم الإنسان تولد نحو ٦٠٠ نوع من الانزيمات الضرورية للحياة . هذه
الانزيمات تقوم بأعمال كيمياوية معقدة ضرورية في الجسم ، تقوم بأعمال جبارة
لتجزئة وتركيب المواد الضرورية للجسم الحي فالأطعمة البروتينية مثلاً الواردة إلى
الجهاز الهضمي للبدن قد لا تكون من النوع الذي يستفيد منه البدن ، هذه
الانزيمات سرعان ما تقوم بمقدرة فائقة ودقيقة وبكل سهولة فتحيل تلك إلى
بروتينات يحتاجها هذا البدن ، أو تكون مواداً مختلفة ضرورية للبدن ، أمثال
الهيرمونات المختلفة ، هذه الهيرمونات المركبة من مواد معقدة دقيقة ، وأعمال هذه
الهيرمونات مهمة وضرورية ومنها تنتج مواد دفاعية لازمة لمكافحة الأمراض
المختلفة تلك التي يعجز من استحضارها أمهر رجال الكيمياء .

١٥ - من العناصر المهمة جداً لهذه الخلايا (الحجيرات) الغشاء الخارجي لها وهذا
الغشاء بضخامة ١/١٠ من المليي مكرون والميلي مكرون يساوي واحداً من
المليار من المتر وهذا الغشاء يحافظ عظيم لمحتويات الخلية لحفظ موازنة أجزائها =

الداخلية . وكل غشاء منها متميزة بصفاتها عن الأخرى تعرفها الخلايا الأخرى = بحيث تكون هذه المعرفة خير محافظ وراذع من ولوج الغرباء المتجاوزين على حريم افرادها وجماعاتها لطردھا مما يساعدها فطرياً على الدفاع ، فهي تمنع ولوج الخلايا المكونة لأعضاء مخالفة كمنع خلايا العين من ولوج خلايا الجلد أو العظام أو الشعر فتخل من عملها كما تمنع ولوج الجراثيم والحيلولة من أي تخريب محتمل وهذا الدفاع ضروري . إذ لو تداخلت خلايا المكونة للشعر في العين وكونت داخل العين شعراً .

أي خطر كان للعين؟ وأعظم منه ولوج الجراثيم المرضية، فهذه المعرفة لافرادها وجماعاتها وأتلافها الواحدة للأخرى من أهم الضرورات الدفاعية تمنع اختلال توازن الأعضاء وقيام كل واحدة بأعمالها الضرورية المناط إليها ويغير هذا فيه ارتباطك أعمالها والمرض المؤدي للمرض أو الموت .

١٦ - التعاون : إن التعاون بين الخلايا المتشابهة من جهة مثل خلايا القلب والتعاون بين خلايا الأجهزة المترابطة قائم على قدم وساق ولأن لم توصل إلى المحفز لها بيد أن هناك عوامل عدة من الانزيمات والهرمونات المحفزة والمنبهة لتسريع العمل أو تباطئه كما لو داهم الإنسان خطر، أو لسعته عقرب ودخل سمها العضو، أو أكل الإنسان مقادير كبيرة من السكر، أو الكحول بحيث كانت فوق مقدار الاعتدال أو دخل الجسم مكروب وما شابهه كل هذه ترسل الإيعازات من المنطقة المتأثرة إلى المراكز المستقبلية في أجهزة الحس وتعود هذه لإرسال الإيعازات لدرء الاخطار والدفاع اما منطقي أو عام، وإرسال النجذات إما مادية أو كيميائية تختلف شدة وضعفاً يتعاون بها الأقرب فالأقرب حتى يعم جميع خلايا البدن، وإن اختلفت شدة وضعفاً وتهيئة الوسائل الوقائية الحاجزة والعلاجية المشافية وتتشابه في ذلك وتتعاون قوى البدن وعناصره .

١٧ - الفيروس طفيلي متنوع من أهول وأخطر الأعداء وإذ هي تفقد القدرة على إيجاد القوى الكهربائية لا تطيق أن تؤمن شخصياً لوازم حياتها إلا بالواسطة، لهذا تهاجم الأجسام الحية ومنها الإنسان وهي دوماً على أهبة الهجوم لولا مراقبة أغشية حجيرات البدن الدائمة، بيد أنه إذا ما اختل التوازن في البدن الإنساني بسبب الطعام أو الشراب أو التعب أو الحر أو البرد أو عوارض طبيعية أو خارجة عن

كل الحكومات وقدره وقوة فوق القوى، تركت لكل أمر حكمة ونظاماً وعلّة ومعلولاً، لا عي فيها ولا هدر ولا عبث، تحطم من قاومها وتبيد من استهان بها، قوة مدبرة عالمة قائمة دائمة غير قابلة للتغيير والتبديل. كل قواعدها وقوانينها ثابتة متينة. ليس للصدفة فيها معنى، وكلما فيها حكمة كاملة وأصول شاملة وقدره عاملة وفي كل شيء لنا فيها مصداق وآية ودليل في السماء والأرض، في الجماد والنبات والحيوان، إذا أخذ كل منها بانفراد رأينا فيها الكمال، وإن جهلنا بذلك أحياناً يوحي لنا وجود النقص والاعتراض الواهي. لذا علينا أن نبحث عن نظام وقوانين هذه الحكومة

= الطبيعة تلك التي تنشغل بها خلايا البدن كلاً أو بعضاً، وعندها تقتحم هذه الطفيليات البدن وتجد فيه العامل والمحيط المناسب لتكاثرها السريع، وتقوم الحرب الطاحنة بينها وبين أجهزة البدن، فإن تغلب البدن قضى عليها وتخلص منها بعد حروب طاحنة لا يكاد يتغلب حتى يصيبه الاعياء الجزئي أو الكلي ويعدها يجهز نفسه بالترميم والتقوية، أو يتغلب هذا العدو المهاجم، ويقضي على هذا الجسم بأكمله. ولخلايا البدن افراداً وجماعات دفاع وهجوم عظيمان، مختلفة الاطوار والأسلحة، ترى في شرحه عجائب وغرائب من الكر والفر، والمواد والأدوات. ولولا هذه الحيلة والدفاع والهجوم لقصت هذه الطفيليات القضاء المبرم على نسل البشر ومحتة من الوجود. ولو علم البشر نرجة بذل العون من كل خلية للأخرى ودأبها ورعايتها للقيام بوظائفها وعدم دخالتها في وظائف الأخرى إلا بالحدود والروابط المحددة لها، تلك التي من درسها ووقف على بعض أسرارها التي بلغها البشر للآن لهاله عظمة هذا النظام ولوجده خير درس يتخذه من سيرته وحياته للمعاونة والرابطة مع افراد البشر الآخرين، ليكون منهم أقوى الروابط لتأسيس حكومة عالمية مثلى ويعيش على نفس شاكلة حياة الخلايا البدنية ودأب كل على تخصصه وعدم مداخلته في وظائف الآخرين إلا بغية المساعدة والرابطة بين أجهزة البدن الواحد، وقد مرّ وسنذكر كثير منها للحياة السعيدة القائمة على الحب والسعي المتبادل لا التعدي والتجاوز على حقوق غيره وانتهاكه الذي منشأ ضعفه وشقائه.

الثابتة القائمة المهيمنة ، والرضا بحكم قائم ، والقناعة بعدالة شاملة والاعتراف بعلمها الكامل وجهلنا بمكنوناتها إلا النزر الذي وهبته لنا .

ولا أقصد بحديثي هذا أو أريد أن أقوم بموعظة دينية أو نبالة أخلاقية أو شريعة قديمة أو حديثة . كلاً . بل أتحدث عن أمور قائمة واقعية . وبإمكاننا اتخاذ نموذج من هذه الحكومة القائمة في أشرف وأكمل المخلوقات الحية ألا وهو الإنسان كما مر ، والعبرة بإدارته الفذة وحكومته الجسمية المتقنة كما هو في جميع الكائنات الحية والقوى الطبيعية . فالبدن الإنساني كحكومة عالمية قائمة بذاته ، أفرادها الحجيرات وجماعاتها في الأنسجة والعضلات وأعضاء البدن ، ومنظوماتها ذات تخصص كل في فنه ، لها مميزاتها وخواصها وأعمالها ومراكزها الثابتة . كل منها تقوم بخدمة المجموع والمجموع لخدمة الافراد ، تشدها رابطة مشتركة وصلة وثيقة وسير فطري طبيعي بكل ما يدور في عالمها الجسمي ، ذات قوى بدنية ومعنوية يشد بعضها بعضاً لا ينقصها في حياتها شيء . فهي كاملة بديعة الاتقان بمنظوماتها وصلاتها وأعمالها ودفاعها وهجومها وتدابيرها الوقائية وسعيها الدائب في إدامة الحياة الفردية والحياة الجماعية .

الدورة الدموية :

فالدورة الدموية مثلاً ترى فيها أكمل طرق المواصلات وأبدعها ، منها لنقل المؤن الغذائية لكل فرد من الحجيرات مهما بلغ بعداً وقرباً ، وإعطائه الغذاء اللازم له وحاجته الضرورية في النوع والكمية دون انقطاع . فحجيرات الدماغ وعضلة القلب والكبد والاحشاء الأخرى والعضلات في الرأس والجسم والأطراف من أقصاه إلى أقصاه لكل حجيرة مميزاتها الخاصة بها . عمل يختلف تخصصاً وأهمية ودقة بالنسبة لأهمية عمل تلك العضلة والجهاز . ولكل غذاء يختلف مكاناً أي في أي منطقة من مناطق الجسم ، ويختلف زماناً . فالعامل يحتاج لتغذية أجهزة العمل أكثر والمطالع والمفكر لأجهزة الفكر . والمعدة ساعة الطعام تحتاج

أنسجتها لغذاء أوفر . والعضو العليل يقدم له الغذاء المناسب له فإذا حصل عارض يمنع وصول الغذاء اهتمت به المراكز الحساسة واشتركت جميع الأعضاء لسد هذا النقص وقدمت له من مخصصاتها الاحتياطية العامة ، وربما بلغت بها الحالة الى تزويدها بقسم كبير أو صغير في حياتها الضرورية لتعيد لها حياتها العادية ولتواسيها في أتعابها وجهودها ، لأن وجودها ضروري ، الواحدة للأخرى ، وهي جميعاً تساوى بما يرد لها من الغذاء بكثيره وقليله دون تمييز أو تفضيل ، وإن اختلفت بعضها في نوع من الغذاء بالنسبة لمكانتها وحاجتها الضرورية له ، وعلى قدر أهميتها للعمل والوظيفة دون أن تدخر لنفسها ذخيرة تظن بها على جارتها أو شريكها في الحياة . كلاً . ليس في هذه الحكومة أفراد يكتزون المال ويظنون به على أقرانهم إذ لا مركز للخنز إلا مراكز عامة لصالح المجموع . ولا يختص أي عضو أو حجيصة بالأهمية إلا على قدر احتياجها الضروري دون أن تكون لها ميزة غير ميزة عملها واختصاصها ومركزها ، فقد تقوم جميع الحجيرات والأنسجة والأعضاء لخدمة إصلاح نقطة قصوى تقع تحت أضفر أو عضلة القلب أو في المخيخ أو الجلد ، دون حساب سيد ومسود وأمير ومؤتمر ، تلك في موارد التغذية لا ترى فيها معدماً لا يكاد يسد رمقه ومتخوماً لشدة نهمه ، فقد الأول قوته وكنز الثاني ذخائر الحياة^(١) وإذن عاد على الاثنين الوبال وفقد الاثنين السلامة .

الحس :

إن مراكز الحس مراكز التقدير في البدن تصدر أوامرها بالعدالة وبالمساواة لسلامة الاثنين ولسلامة الطرفين^(٢) ، انظر إلى هذه المساواة في

(١) الا في حالة مرض وانسداد العروق وعندها يهتم البدن جميعاً لاصلاح الأمر والا عاد الضرر على الجميع .

(٢) لان الاعتدال في الجسم الانساني ضروري فيجب أن يؤخذ من الطعام على قدر الحاجة بدرجة لا يضعف البدن فيكون عرضة للانهايار وعرضه للامراض ، ولا يزيد =

التغذية والتعاضد في سير الحياة من قبل جميع حجيرات وأنسجة البدن ،
 المنقادة لمراكز الحس وسيطرة أجهزة الدفاع تحت حكم الضرورة
 والحاجة ، تكون هكذا في حالة الدفاع لمهاجمة عدو خارجي أو داخلي
 مادي أو معنوي من جهة ، ومشتركة في حس السرور الواقع على عضلة
 خاصة أو عامة ومثلها حس الألم . ترى البدن كله يشترك للقضاء على
 عمل العدو المهاجم في العضو وفي جهة أخرى يبعث نفيراً عاماً على قدر
 الخطر المدهم . وعندها تقوم الأجهزة الخاصة بسرعة لتكوين العدة
 والجيش اللازم المدافع وإرساله للعضو الخاص . وتقوم هذه المعركة في
 المنطقة الخاصة وتشترك في آلامه وخدماته جميع خلايا البدن وتتحمل كلها
 ما يصيب العضو من نقص مادي ومعنوي . غير أن العضو ليجهز بكمية
 أكبر من الغذاء لترميمه وبسلاح أمضى وجيش أكثر لدفاعه وهجومه في
 كفاحه ، تقوم كل حجيرة ونسج وعضو كل بما يلزم لمد ذلك وتعزيده .

إن القوى المسيرة المسيطرة ليست حجيرة واحدة وإنما مراكز تضم
 آلاف الحجيرات المتعاضدة القائمة على إسناد الواحدة للآخرى والنهج
 الصحيح لتكوين فكرة ونظر يؤدي إلى نتيجة عملية صالحة لخدمة
 المجموع . فقدت في عملها المشترك كل صفات الغرور والأنانية والجشع
 وعاضدت بحكم الضرورة الأخرى دائبة في جدها .

هذه الصفات خلقت منها حكومة صالحة تسير على قدر ما تخلص
 فيه المجموعات كل بحد ذاته ، فإذا أفرط عضو في الخير والشر كان
 القصاص خاصاً بها أولاً ، ثم شمل الكل الأقرب فالأقرب .

فإفراط المعدة بالأكل والشرب أو أي شيء يضر بها تتضرر به هي

= على أخذ حاجته فيتعرض لأمراض أخرى مثل التخمة ، فالنحول والضعف الشديد
 للبدن مرض . والسمنة المفرطة مضرّة أيضاً ، وكلاهما يعتبران خطراً على الجسم
 ومرضاً يجب علاجه حتى يصل درجة الاعتدال وهكذا جسم المجتمع البشري .

ذاتها ، ويعدّه ينتقل إلى بقية جهاز الهضم ثم الأعضاء المشتركة ثم لكل البدن^(١) . وهكذا في عضو التناسل ، وقس على ذلك في بقية الأعضاء .

لقد بدأت بالدورة الدموية لأنها أهم الوسائل لتكوين وإدامة الحياة ووسائل الدفاع والهجوم والوقاية والعلاج وأدنى تقاعس فيها بصورة عامة وخاصة في عضو أو بعض العضو أو أكثر أو أقل ، فإن معنى ذلك إعلان الخطر على هذه الحكومة العالمية ، ويختلف ويتوقف عظم الخطر على أهمية الناحية المتوقفة ، وأعظمها ما يحصل على العضلة القلبية أو إحدى منافذها الرئيسية تلك التي تؤدي حالاً لوقف الحياة والقضاء على مجموع هذه الحكومة من أقصاها إلى أقصاها ، ولا شك أن لهذه عللاً ومسببات ومؤثرات منها مكروية ومنها غير مكروية ، ومهما كانت فلكل منها طرق وقاية وعلاج ، ولا شك وأن الوقاية خير من العلاج ، ترى كيف أن هذه الحكومة القائمة تتدهور لزلة واحدة وعدم مبالاة ومراقبة ، إلى الدمار والمحوم من عالم الوجود إذا ساءت الأجهزة وتخطت حدودها .

ويكفي أن نقول كم للدورة الدموية والجهاز هذا من الخطورة ، بحيث أن أدنى اغماض أو أقل إهمال يؤدي في لحظة إلى انقطاع تيار الحياة . هذا ما أريد تطبيقه ، والاستفادة منه على الحكومة العالمية ، وأن أعرف منه مركز القلب والمراكز الحساسة فيه ، ومعرفة الأهم فالأهم في هذه المراكز ، ورابطة هذه مع بقية الأجهزة ، ومدى تأثير الأجهزة الأخرى على هذا الجهاز ، فعلياً أن نعرف ماذا يلزم عمله لتثبيت وإدامة هذا التوزيع العادل في البدن وما هي المسببات لعرقلة سيرها كلاً وجزءاً ، ومدى تأثير ذلك في الحياة؟ ما هي طرق الوقاية؟ وما هي طرق العلاج؟

(١) هذا الإضرار كما قلنا ينتقل بالتدرج إلى الأقرب فالأقرب فالأقرب بالنسبة للمعدة وقد يمكن أن نعرف من هو أكثر تماساً للمعدة من سرعة تأثيره في هذا العارض . أهو الاثنى عشر فالامعاء الأخرى ؟ أهو الكبد ؟ أم الكلية ؟ أم غيرهما . وقد تختلف باختلاف الأفراد وبالنسبة لحساسية العضو المجاور أو العضو المشترك .

ثم الانتقال منها إلى الحكومة العالمية الواقعية . وبعد أن نعرف مدى تأثيرها على الأنسجة الأخرى وتأثير الأنسجة الأخرى على هذه الدورة ، إذ ربما كان هذا الجهاز صالحاً لدرجة وكان العيب في الأعصاب (سيان منها ما كان للحس أو الحركة) أو عاد للغدد الصماء أو غير ذلك ، أو لعوامل خارجية مادية أو روحية . ولا شك أن لكل منها مشابهاً في الحكومة العالمية الواقعية .

فصل المقارنة

المقارنة بين الحجيرة الواحدة بصفتهما وحدة في الجسم الإنساني وبين الإنسان بصفته وحدة في جسم العالم الإنساني ؛ هذا من جهة ومن جهة ثانية ، المقارنة بين الإنسان بصفته مجموعة يضم آلا ، الملايين من الحجيرات الحية وعالمها قائماً يضم أدق الأجهزة والمنظمات الحية المنظمة الدائبة على العمل ومقارنته بالنسبة للعالم الإنساني بما فيه من ملل ونحل وما تضمه من منظمات وأجهزة وغير ذلك لإدامة الحياة .

هل أن الصفات والمزايا الموجودة في حجيرة واحدة بالنسبة إلى مجموع الجسم الإنساني تشابه الصفات والمزايا الموجودة في إنسان واحد بالنسبة إلى مجموع العالم البشري؟ .

هل هناك فوارق؟ هل يمكن أن نقيس حياة الاثنين ونطبق على العالم البشري ما نجده في الأنظمة القائمة الواقعية بالتجربة والاختبار تطبيقه بحذافيره على العالم البشري أو هو بحاجة إلى بعض التغيير والتبديل؟ وهل بالإمكان وضع قاعدة عامة للمقايسة والتطبيق بحيث يصبح لنا هذا منبعاً طبيعياً للسلوك الاجتماعي والقانوني والأخلاقي والصحي والاقتصادي والعمراني وغير ذلك في الحياة؟ .

وعندها نشكل الحكومة العالمية للبشر من أقصاه إلى أقصاه ، مستمدين من منابع الجسم الإنساني في تشكيلاته الطبيعية الإدارية والاقتصادية

والوقائية والصحية وأصول المواصلات وما نشاهده من مراكز التخصص من جهة ، والروابط المشتركة من جهة أخرى وأصول التعاون القائم وأصول المحافظة والوقاية والهجوم والدفاع ، وما شاكلها ، وما تضمه من مخازن للذخيرة المادية والمعنوية ، وما تضمه من أجهزة للتجربة والاختبار والخلط والتجزئة والتحليل . والتحليل والتركيب والفحص والمعالجة ، وما تحتاطه وتدخره للمستقبل وتحفظه في مكنونات الحفظ لساعة العمل ، وما يربط ذكرياتها في الخواطر والتداعي المربوطة بحلقات متصلة الواحدة بالآخرى ، وكل ما يحويه الجسم الإنساني من الأسرار والأعاجيب ، ما اكتشفه البشر وما لم يكتشفه والجد ، لكشف ما يمكن من مجهولاته للاستفادة منه لفرد ومجموعه .

ومن جهة أخرى تطبيق ما اكتشف في الطبيعة في العالم الطبيعي والمجموع البشري من الأسرار ، لتطبيقه ومقارنته مع الجسم الواحد الإنساني ، آخذين من الفرد للمجموع ومن المجموع للفرد .

أولاً ، المقارنة بين الحجيرة ومكانها في الجسم الإنساني مع الإنسان الواحد ومكانه من المجتمع البشري . في كل أمر يحتاج فيه إلى التطبيق للاستفادة في الحياة العملية . فمثلاً أصول إدامة الحياة في الاثنين ، وطريقة التكاثر ، وأصول المعاونة بين كل منها وإقرانه وفصيلته ، ودرجة تأثير وجود كل واحد وعلاقته بالنسبة لأحد الآخر ، وتأثير ومفعول درجة هذه المعاونة والتعاون بالنسبة لكل واحد إلى مجتمعه الذي هو فيه ، وما سيحدث عن تقاعس أو قصور الوحدات في أداء خدماتها بالشكل الأكمل ، وأمثال تلك التي ستعرض لها على أثر عبورنا وسيرنا في التحدث .

فالحجيرة في الجسم الإنساني تختلف أهميتها بالنسبة للعضو الذي تخدم فيه ، فحجيرات المخ والمخيخ وحجيرات عضلات القلب وحجيرات الكبد والكلية تقابلها حجيرات أقل أهمية ، تلك التي تقع في

أعضاء الحركة والأطراف ، وهكذا حجيرات أعضاء العين والسمع والشم والذوق أعظم أهمية بالنسبة لمكانها في حجيرات البشرة والأنسجة الواقعة في الجانب الوحشي في البدن الإنساني . ورب مجموعة من حجيرات المخ أو المخيخ أو عضلة القلب والتنفس تبلغ في الأهمية بمكان يتوقف عليه إدامة الحياة ، في حين لا يكون ذلك في الأطراف والزوائد ، ومثل هذه نجدها في أفراد البشر بالنسبة لمكانتهم في المجتمع . وقد أحاطت الطبيعة كل عضو وما يحتويه من الحجيرات المهمة على قدر أهميتها بمناعة وحصون واقية لمكانتها ومركزها المهم في المجتمع القائمة فيه ؛ لذا ترى كيف صانت الطبيعة المخ بطبقات الشحوم والأغشية والعظام ، ومثله المخيخ ، ويليه القلب والرئتان وكثير من الغدد الصماء ، حتى لنجد ونعرف وإمكاننا أن نقدر أهمية كل عضو وما يحويه من حجيرات بدرجة الاهتمام والحفاوة والصيانة والوقاية التي أحاطت به الطبيعة هذا القسم ، وتركت له الفرص الكاملة للقيام بأعماله بعيداً عن المخاطر والمزعجات .

وهكذا ترى كل نسج وما يحويه من آحاد الحجيرات يقع في القسم الوحشي الخارجي للبدن أقل أهمية من التي سبقتها . أليست في تلك عبرة وعظة ودرس بليغ وضرورة رعاية ذلك في المجتمع الإنساني ؟ ثم تخصص كل حجرة من العضو وكل عضو ونسج ومكانة وأهميته وتخصصه لما يقوم به من الأعمال بالنسبة له ولعضوه من جهة ، والرابطة المشتركة بينه وبين بقية الأعضاء الأخرى ودرجة معونة ومساعدة الواحدة للأخرى ، وكيف أن أي اختلال بسيط أو كبير كيف تهتم به المراكز الحساسة بدرجة فائقة بحيث تبعث نفيراً عاماً وضجة تعم كل الجسم بما فيه من أقصاه إلى أقصاه لتلافي هذا النقص مكيدة كل منها على قدرها في هذه المعونة من جهة والعناء أو المسرة من جهة أخرى .

هذا ما تراه في الحجيرات في البدن الإنساني ألا تجد له محلاً للتطبيق في المجتمع البشري ؟ فأفراد المجتمع البشري تنقسم من الأهمية إلى مجموعات كبيرة وصغيرة عالمة وجاهلة ، وفيه مختلف الطبقات والزم

والتخصص ، لكل مقامه ودرجته في المجتمع الإنساني ، ولكل مكانه ، كما وجدنا في الحجيرات وكما أن حجيرات أنسجة الدفاع لا يمكن تعويضها بحجيرات أنسجة عضلة الكبد وهذه مع أنسجة المثانة وتلك بأنسجة الجهاز العصبي ، لا يمكن ذلك في المجتمع البشري ، فإن تعويض قسم في عضو على أثر صدمة فلا بد أن يسد هذه الخلة بأنسجة مشابهة ، وبغير ذلك يرفضه العضو وربما عاد عليه بالفساد ، وربما كان الأصلح بقاءه وفيه بعض النقص ، وكان خيراً له على أن نعوضه بما يعود عليه وعلى بقية العضو بالفلاح ، فما للرأس يسد به الرأس وما للأطراف يسد ويجبر به الأطراف ، وإذا حصل غير ذلك فمعناه ارتباك خاص وعام وربما تدهور وخراب قد لا يمكن بعد حين ترميمه .

وهذه عينها في المجتمع البشري ؛ فإنه يكفي وضع نسج في غير محله لإيجاد علة تختلف إلى درجة هذا الاختلاف من بسيط إلى عظيم قد يكون فاحشاً على المجتمع وتدميره . ولقد دلت التجارب الطبية والعمليات الجراحية على صدق هذا القول كما دلت الأوضاع الاجتماعية والعلمية على صحة ذلك ، الأول في العالم الجسمي والثاني في العالم الاجتماعي ، وما أكثر الشواهد الطبية والجراحية في إصلاح وتطبيب الجسم المصاب وما أكثر الشواهد التاريخية الماضية والقائمة في الأوضاع الاجتماعية . حتى لتجد تدهوراً وانهياراً ، بل وقد يموت جسم لوضع فاسد في أحد أعضائه ، ومثله في الناحية الاجتماعية تدهور مجتمع وانهيائه على أثر وضع عضو في غير محله ، وهذا الفساد والتدهور يعود لدرجة أهمية مركز هذا العضو في الجسمين سيان الجسم الإنساني أو المجتمع البشري .

أليست هذه مقارنة صحيحة ومستدلة ؟ ألسنا نعترف بهذا؟ وحيث أن العمل الإصلاحي في الجسم الإنساني إذا ترك للطبيعة عنت بإصلاحه بشتى الطرق ، فما يجب دراستها واكتساب درس طبيعي للمجتمع

الإنساني درساً قوياً متيناً عملياً لا يمكننا إلا الاعتراف بسداده وضرورة تطبيقه .

نموذج في الكفاح الفطري في الجسم الإنساني :

إذا ما ولج جسم غريب داخل الجسم ، أكان هذا الجسم مكروباً حياً نامياً أو سماً كيمياوياً معدنياً ، أو من مادة حية ، ذائباً أو قابلاً للذوبان أو لا يمكن إذابته ، بالإمكان اقصاؤه أو لا ؟ ، تلك من جهة .

أو أصيب البدن بصدمة أو فقد حصن من حصونه الطبيعية المقاومة للعوارض الخارجية ، كما لو احترقت بشرة الجلد بسبب ماء حار أو نار ، فماذا تعمل الطبيعة الجسمية الفطرية في هذه الموارد؟ وماذا تعمل تجاه الصدمات الروحية والعقلية الخارجية؟ كيف تطبق الموارد أعلاه وتستفيد منها في حياة الاجتماع البشري ولأي حد يكون ذلك مجدياً؟ إن هذا ما يجب تفصيله في بحثي الآتي . فالمعارك الطاحنة المكروبية مع الكريات البيضاء ، والتغير العام في البدن للإصابة بالخطر الداهم وتجهيز البدن تجاه العدو المداهم وما يستخدمه ، من سرعة الحركة وصعود الحرارة وفتح المسامات واحتقان المنطقة وإيجاد مواد غريبة كيميائية في البدن ، أو إرسال مواد صديدية ومائية للبشرة على شكل أكياس في الحرق لتكوين حواجز بين خارج البدن وداخله وقاية من دخول المكروب ، أو عمل مواد لزجة لطرد الأجسام الغريبة الداخلة في البدن وعمل فتحة لها للخروج عندما تدخل شوكة أو جسم غير مكروبي ، أو إذا كان بعيداً من سطح الجسم ولا يمكن إخراجه إحاطته بألياف قوية كيلا يمس الأنسجة الرئيسية وحفظه بعيداً عن الخطر ، وأمثال هذه ما تحصل في الجسم الإنساني يقابلها في المجتمع البشري للدفاع والهجوم . بيد أن العمل التطبيقي في البدن بلغ أقصاه في الاتقان مما يلزم الاستفادة منه بعد معرفته بدقة للمجتمع البشري ، ومنها حصول الرعاف أحياناً على أثر صعود درجة الضغط الدموي وقاية من انفجار الدم في الأعضاء الرئيسية ، كما يحصل

في الدماغ فيسبب السكتة ، أو في العين فيسبب العمى ، ومنها سرعة الحركة والايعازات المستمرة وعمل الأعصاب الحسية والحركية وقيام المختبرات البدنية المتنوعة لعمل شتى الأمور الإصلاحية وتحضير ما يلزم للدفاع والهجوم والترميم ومما لا يسع لشرحه كتاب .

درجة حساسية المراكز :

القضاء على القلب أو المخيخ أو المخ أو ما شابه في الإنسان معناه القضاء على البدن الإنساني كله . فما هي المراكز المشابهة للقلب والمخيخ في الجسم البشري؟ هل إن القضاء على المراكز العلمية أو الصحية أو الفنية هي التي تقضي على المجتمع البشري؟ أم القضاء على الرئيس الأعلى للدولة؟ أو الهيئة التشريعية أو القضائية أو المجرية أم جميعها؟

ليس هناك قضاء بالشكل الأكمل في الجسم البشري كما هو في البدن الإنساني ، إلا إذا اعتبرنا القوى المعنوية والاجتماعية في الجسم البشري التي يقوم بها العلماء بما لديهم من الحكمة والخبرة والعلوم الاجتماعية والإدارية والعلوم المختلفة وصحة الجسم والعقل وما جاؤوا به من بنات أفكارهم من مخترعات ومصانع وغيره .

وإن القضاء على أي طبقة معناه القضاء على طبقة مشابهة في الجسم الإنساني وإن القضاء على مراكز الحس في الجسم الإنساني يقابله القضاء على المراكز الحسية المشابهة لها في الجسم البشري ، والقضاء على القلب في الجسم الإنساني يناسبه القضاء على مراكز المواصلات والمؤن ومنابع الدفاع والمقاومة والتغذية والتهوية والمياه وما شاكل ، وفي كل هذا نجد أن الجسم البشري لا يقضي عليه تماماً مثل الجسم الإنساني إلا بالقضاء على تمام آحاده ، إلا إذا اعتبرنا الموت في كليهما إنما هو موت معنوي وليس موتاً مادياً فحسب .

نتساءل هل بالإمكان الاستفادة من أنسجة غير مشابهة في غير

محلها؟ وهذا عدم التشابه يختلف بعداً ، فقد يتقارب وقد يتباعد ، فأنسجة المخ بالنسبة لأنسجة القلب وهذه بالنسبة لعضلات الحركة وأنسجة العضلات لأنسجة الأعصاب وهذه بالنسبة لأنسجة الغدد الصماء ، فإن ترميم قسم لعضلة مشابهة لها ممكن ، ولكن هل يمكننا وضع قسم في عضلة القلب لترميم عضلة الساعد أو الشفة ؟ أو وضع قسم من عضلة الكلية لترميم قسم في الكبد؟ وأما إذا ابتعدنا أكثر قلنا : هل يمكننا الاستفادة من عضلات الجسم مهما بلغت لترميم قسم في المخ أو المخيخ ؟ إن هناك ما لا يمكن القول أبداً في الحال الحاضر من القبول على مبادلة هذه الأعضاء ، وكما قلنا فإن القصد في إصلاح العضو قد يؤدي إلى إفساده ودماره ومثل هذه تماماً هي في المجتمعات البشرية المطلوب إصلاحها . فجعل الشيء في غير موضعه معناه الإفساد ، وحتى أحياناً بحكم الاضطراب وضع عضلة شيخ مشابهة في عملية جراحية لترميم عضلة شاب ، وإن تشابهها من حيث النوع لا يخلو من عيوب ، وإن مراعاة ذلك وتطبيقه في المقارنة بين الفرد البشري والمجموع البشري له آثاره القيمة وأثره البالغ ، وهو درس بليغ في شتى نواحي الحياة يمكن الاستفادة منه لدرجات قصوى وبعيدة ، وربما أدى إلى ابتكارات مهمة وعميقة ، كدراسة ما ينتج في تبديل قلب شيخ بقلب شاب أو مخ هذا بمخ ذاك لو أمكن ذلك ، أو العكس من تبديل قلب شاب بقلب شيخ أو يد هذا بيد ذلك .

فصل

الفوارق بين المجموعة البشرية وبين المجموعة البدنية

لم يبلغ العالم البشري بعد حد الكمال ولا بعض الكمال الذي بلغه الجسم الإنساني . وكفيينا أن نعرف أن البدن فيه أكمل المؤهلات ، مثال ذلك تلك التي تحمل الأخبار حالاً صحيحة صادقة وأسرع من لمح البصر إلى مراكز الحس الخاصة ، بصورة إرادية وغير إرادية ، وتعكس ما يلزم للأمر من جواب بنفس السرعة ، غير مفرقة كان هذا في أي جهة في جهات البدن . فهو بحده الأكمل من نقل المخبرات والعناية الفردية والاجتماعية الإرادية وغير الإرادية الحالية . وأمثال تلك في إعداد أمور احتياطية علمية وفنية وجمعه واستعداده لجميع المختبرات والأجهزة للتحليل والتركيب وأدق ما هو بحاجة إليه اليوم مجتمعتنا الحالي الذي فيه حالياً زوايا لم يدخلها ولا ذرة في التمدن الناقص للعالم المتمدن فهو بمعزل عجيب . هذا إلى أن جميع الأخبار والتقارير والإعلانات في مراكز البدن لا يشوبها انحراف أو كذب أو تلفيق ، تلك التي يقوم بها البشر لمصالح سياسية وغير سياسية مما يجر نفع لجهة وأضرار لجهات أخرى . بل هي تعلن الواقع الذي تحس به وتجريه والنتيجة التي تدركها .

وعندما تتوقف الحجيرة عن العمل وتصبح غير مفيدة للبدن فإن ذلك معناه أنها في طريق الزوال طبعياً ، ومعنى ذلك أن الحجيرة متى انتهى نشاطها وعملها داخل البدن خرجت منه نهائياً وأعطت مكانها لمن تقوم بالعمل ، وهذا نجده في بعض الحشرات ، كما في « زنبور » العسل ، فإن الذكر متى انتهى

عمله وانتهى يوم زفاف الملكة وانتهى تلقيحها من أحد الذكور ماتت الذكران جوعاً إذ العمال المكلفون بإطعامها أهملوها ، كما وان الذكران نفسها تفقد صفة اطعام نفسها بنفسها ، لهذا يكون موتها حتمياً . انظر إلى حكمة الطبيعة ، ومثل هذا تجده في البشر طبيعياً وغريزياً في بعض الموارد .

فالكسول مقضي عليه ومنفور من الجامعة ولا يحسب له حساب ، وعكسه الكدود مهما اختلف نوعه وهذا ما يلزم رعايته .

إذا أردنا إصلاح عضو ما في البدن فإنما نريد أن نعيد الاستقرار والسعادة إلى جميع البدن المضطرب لما يجده في عضده ويشاركه في آلامه ، وهكذا نظرنا للجماعة البشرية المشتركة بالحس والشعور .

إن البدن كله بما فيه على أهبة واستعداد وعلم بأدنى ألم وسرور يصيب أي جزء منه حتى القسم المعنوي ، وعندئذ يقوم بإصلاحه . وهذا الشعور حقيقة واقعية يلزم تطبيقها في الجامعة البشرية .

غير أن الجامعة البشرية لم تتوصل بعد إلى ذلك ، فهناك ويلات وآلام في جهة لا يعرف حقيقتها الجميع ، وهناك عبث وإسراف لا يعرف حقيقتها الباقون ، وهناك أوهام وخرافات في جهة ، وكذب ورياء في جهة ، وهناك حالات تمويه وافتراء وتعدي وتجاوز منها صريحة ومنها مصبوغة بصبغة معكوسة ، بين الافراد وبين الجماعات ، بين الشعوب وبين الدول وبين الأديان . هناك محرومات وجوع فظيع وقساوة ووحشية ، وهناك ملذات وكنوز مطمورة بيد البشر باسم الإنسانية ، وهناك سموم عقائدية وآراء مزيفة ، ظاهرها مليح ، وباطنها محشو بالويل والثبور .

إن البشر بعد في جامعتهم لم يتوصلوا إلى درجة صغيرة من الكمال المخلوق لا في إنسان بل وحتى في أدنى الحيوانات وهم بحاجة للبحث المستمر والعاجل للسلوك الطبيعي ، والاستفادة بمكنوناته ومدخراته وكنوزه الثمينة التي يحملها كل إنسان لتطبيقها تطبيقاً حسناً . ومنها نشر الحقائق واتباع الحقائق والجد للوصول إلى الحقيقة ، حتى إذا شعر المجتمع بالألم

جد إلى إصلاحه ووضع الدواء الطبيعي له ، وأن يعلم أن سروره الحقيقي وشقاءه الواقعي إنما يتوقف على سعادة وشقاء مجموعة كما في البدن الإنساني ، وأن يكون كالبدن الإنساني ليس فيه كذب ورياء وخداع بل كلها حقيقة وكلها سرعة فائقة أسرع من لمح البصر .

هذا فيما يخص العلم بوقوع الحادث وما يخص علاجه . فأنت ان قربت أدنى حرارة أو آله أو واخزة الى أدنى حيوان انتقل حالاً وحس بالشيء ووصلت الانباء الى مراكز الحس حقيقة صادقة عن الحرارة أو الوخز أو البرودة ، وعاد الانعكاس (رد الفعل) حالاً لضم الطرف ثم الشروع حالاً لترميم ما خرب ، وهكذا يجب في المجتمع . هذه مقارنة تعرفنا حكمة الطبيعة واتقانها وجهلنا ، وأيُّ جهل اعظم أن نطلب السعادة في طريق الشقاء .

ومن الفوارق النظافة والتطهر واخراج الفضلات بين الحجيرات والانسجة بحدّها الاكمل الذي لم يتوصل اليه المجتمع البشري . فالحجيرات تأخذ مادة الغذاء والحياة وتلفظ ما تخلف من فضلات ومحروقات الاكسجين من ثاني اكسيد الكربون في المجاري العائدة ، لتنقلها هذه الى الاوعية الخاصة والقنوات وترسلها الى الاجهزة الخاصة ، الى الرئتين لتصفيتها من غاز الكربون واشباعها بالاكسجين ، والى الكلتيين للتطهير . وهكذا تمر بها على الاجهزة المطهرة والمنقية والمحللة والمضيفة والمجهزة حسب الطلب الفعلي في أثناء المرور ، وحسب ما توحيه المراكز الخاصة في حاجته الى نوع الغذاء الواصل من الامعاء والافرازات الضرورية في الاجهزة والغدد الصماء وغير الصماء .

ان هذه السرعة الفائقة والدقة النادرة في التموين والتجريد على مدى لحظات الحياة دون فترة قصيرة أو طويلة أو كلل أو ملل ، وهذا الوعي الذاتي في كل جهاز وما يحويه من الاف المختبرات والاجهزة في شتى نواحي الجسم ، لا عظم درس يمكن أن يستفيد منه المجتمع الإنساني

للتطبيق في الحياة الجماعية . واذا اودعت الطبيعة في الحيوانات الغريزة المحدودة منذ بدء الخليقة فقد اعطت للانسان العقل ، تلك الموهبة العظمى التي يستطيع به أن يسمو ويتوصل الى نتائج غير محدوده لسعاده ، وان يجمع كل ما خلقه الله في المجموعة من الحيوانات والنباتات ، ويكون تقدمه مستمراً غير محدود في شتى مجالات الحياة المادية والمعنوية .

فصل الفروق بين الحجيرة والإنسان

أعني المقارنة بين الحجيرة في الجسم الإنساني والإنسان في الجامعة البشرية .

كيف نقسم الجامعة البشرية ؟ هل على الطبقات العلمية ؟ والعلمية والعملية ؟ أو حسب احتياجات الجامعة ؟ أو بالأحرى أن نرى مؤهلات كل فرد ونضعه في طبقته الخاصة نفسها لا في غير موقعها ؟

ومن الفروق الموجودة بين الحجيرة والإنسان وجود الغرائز المتضاربة في الإنسان من جهة ، ووجود قوة العقل في جهة وإمكان تدرجه بصورة مستمرة إلى الطبقات المناسبة .

ويختلف الإنسان عن الحجيرة بتنقله وعدم ثبوته كالحجيرة في مقر واحد في الجامعة البشرية ، ويختلف أيضاً بطرق تكثيره وإنمائه بطرق أحسن ، وقد يمكن اجراء ذلك فيما بعد علمياً بالنسبة للحجيرة .

وهناك الحب والبغض والعواطف البشرية وهي غير موجودة في الحجيرة ، كما في الإنسان ، وهي موجودة في الاجتماع البشري ، وقد يقابل ذلك نوع من الائتلاف والاختلاف بين الحجيرات المختلفة .

وتتمتاز الحجيرات فطرياً أنها تستفيد من مخازن البدن المدخرة بالتساوي ، ويجري عليها الحكم بالتساوي ، وهي في طرقها منقادة بحكم

الطبيعة على التساوي ، دون أن تحسب حساب أعلى وأسفل وأرقى وأدنى ، وقد يمكن القول بأنه قد تختلف هذه الحجيرات فيما بينها بالنسبة للمكانة والمركز الذي تشغله في الجسم وأهميته بالنسبة للجسم ، ولهذا فهي تمتاز بالمحافظة والأهمية فحجيرات المخ أكثر من حجيرات البشرة بالنسبة لأهمية عملها وأداء خدمتها لمجموع البدن فحسب ، وهذا ما لم نجده كذلك في المجموعة البشرية ، فهناك أفراد وجماعة وشعوب وأمم كل يحسب نفسه متميزاً وأرفع من غيره ويريد الخطوة والتمتع بدرجة أرقى ، ويحاول استخدام الآخرين في سبيل نفسه ، لم يدرك الحقيقة ولا يريد أن يدركها . وهو رغم تمتعه يخزن موارد الرزق لنفسه ويحرم غيره ، فيعود الوبال على الجميع ، فيستغل الموارد المصنوعة والمخازن الطبيعية التي هي ملك الله للجميع ، وهذا ما يجب رعايته في المجتمع البشري ، إذا حسبناه مجموعة واحدة يشترك بالإحساس والشعور والسعادة والشقاء والويلات والحسرات ، كما لم تفرق في ذلك بينها الطوائف والطبعية وكما لم تفرق بينهم القوى الطبيعية ، فهم سواء أمامها ومتساوون أمام الاستفادة من مصدر الحياة في الهواء والماء وأشعة الشمس والقوى الطبيعية الأخرى ، فيجب أن يكونوا متساوين أيضاً في المنابع الخفية طي الأرض مما جرى منها أو سكن ، مثل المياه والغازات والبتروك والمعادن وغيرها فهي وإن وجدت في منطقة فهي ملك الجميع إلا ما بذل من جهد لها وللمجتهد النصيب الأوفر حق جهده ، كما هو في البدن الإنساني حيث ان البدن يقسم رزقه على السواء ولكنه يضطر لأن يقدم مقدار أكثر لكل جهة يضطر إلى عمل أكثر وبذل مجهود أوفى مهما كان ذلك الموضوع . إننا بحاجة إلى عدالة طبيعية شاملة مقنعة وإلا كانت الطامة عامة والآلام عامة ويجب أن نكون هكذا .

المتشابهات والمتناقضات وأثرها

١ - في الموارد المادية والمعنوية المخزونة في البدن الإنساني والمجتمع الإنساني .

٢ - في الموارد المادية والمعنوية الحاصلة في البدن الإنساني والمجتمع الإنساني .

فالأولى المادية تلك التي مرّت في العمل الاختصاصي لكل مجموعة من حجيرات البدن في كل جهاز ولياقته الخاصة لحسن انجازه والقيام به .
ومثله ما تجده في مختلف طبقات الفنانين والعلماء من طبقات واجتماعات البشر فمنهم من تمرن على الاساليب الزراعية ومنهم على الصناعة فاجادها ومنهم في الطب أو الكيمياء وهكذا ، ومنهم في السياسة ومنهم في القانون أو التربية ، ووضع أي في محل الآخر معناه أما الحد من المنفعة المطلوبة أو القضاء عليها أو التخريب والاضمحلال .

وفي المشابهات المعنوية :

هي درجة التصميم والايمان والارادة في الانسان ومثله في المجتمعات واثر ذلك في تقدم وتأخر كل منها . وكلا العاملين المادي والمعنوي المذكورين اعلاه ، سيان أكان في البدن الانساني أو المجتمع ، له طاقات خفية مخزونة فيه لا حد ولا حصر لتنميتها واثارتها في الناحية العلمية والعملية والوجدانية من طرق التلقين والافهام والدرس ، وعليها تتوقف أهم سعادته وشقائه .

أما الموارد المعكوسة ، أي المتناقضات في كل من البدن الانساني والمجتمع الانساني ، فهي لا تقل رعايتها واهميتها بالنسبة للأولى من حيث النفع والضرر لكليهما . وعلى حكمة العقل وتحكيم المنطق وقوة الارادة يتوقف الأمر فأما الى الهوة السحيقة أو الذروة العليا وشرح ذلك كما يلي :

قلنا ان الانسان يجمع في بدنه المتجانسات كالعدالة والمساواة من ناحية التوزيع والاحكام والخزن ورعاية الحاجة الى الحجيرات والانسجة ، وهو على أهبة واستعداد دائمين للدفاع والهجوم وتلبية كل متطلبات الاعضاء بصورة ارادية وغير ارادية في كلا الجهتين المادية والمعنوية بيد أن هناك أموراً معنوية تناقض الواحدة الأخرى ، حتى تجر وراءها السعادة أو الشقاء الى منطقة خاصة في البدن أو البدن كله ، وربما قضت عليه الى الأبد ، وهذه هي الغرائز البدنية . فالغريزة الجنسية ما هي الا لحفظ النوع البشري ، يأتيها الانسان بحكم الشهوة ، فيبلغ درجة يفطر فيها غالباً حتى يجرفه الوبال على مجموعة الانسجة والحجيرات في البدن ، وحتى على نفس الجهاز التناسلي ، وربما انتهى به الى العمى أو الشلل أو الصمم أو اللكنة أو الابتلاء باحدى الامراض بسبب فقره للقوى المدافعة للبدن تجاه المكروبات ، مما يؤدي به الى الانحطاط والشقاء . ومنها غريزة حب الظهور وهي أيضاً غايتها خدمة خاصة أو عامة ، عليها يتوقف تقدم البشر في الناحية الادارية والعلمية والصناعية وغيرها ، غير انها بلغت بالافراد عند الافراط الى أضرار جسيمة زجتها للتجاوز على حقوق الآخرين .

وكثيراً ما قضت على صاحبها موتاً ، أو تركت فيه نقصاً دائماً . وهكذا الغرائز البدنية الأخرى كل واحدة ، منها في ذاتها ذات وظيفة شريفة تركتها لها الطبيعة عند الطبيعيين والله عند الموحدين ، تتوخى منها غاية وهدفاً ضرورياً بدونه يتوقف سير التقدم البشري . وفي جهة أخرى التعاضد أو التناقض بين الغرائز في البدن الواحد فغريزة حب الذات في البدن الواحد وغريزة حب الظهور تنافي الغريزة الجنسية في جهة ، وتوافقها في

جهة أخرى ، فمن ناحية الإفراط بالقوى البدنية مرة والتمتع والتلذذ مرة ثانية . وحفظ النوع البشري غاية الغريزة الجنسية ، بينما غريزة حب الظهور والذات لا يهتمها في سبيل التقدم والتفوق في القضاء على مجموعات من الافراد في آن واحد .

الحل المعقول والحكم الفصل والارادة القوية

العقل المسيطر على المنطق السليم والارادة هو الذي يجب أن يكون 'الحاكم' المسيطر والمستشار للعودة الى الحكمة والاعتدال في الامور للوصول الى الهدف الذي وضعت من أجله الغرائز ، دون الإفراط والتفريط في الامور . وهكذا الامر في المجتمع البشري له نفس المميزات في المتشابهات والمتناقضات . وعلى العقل البشري أن يسير الامور ويدبرها لصالحه دون ترك القوى الغريزية تعمل ما تشاء ، ومنها قدرة الفرد والاجتماع للاستفادة من الموارد الطبيعية الظاهرية والباطنية على حد سواء . هذه أهم موارد سعادة البشر وشقائهم . فالانسان بحكم خلقته وغريزته وعقله له حق الحياة والاستفادة من كل أعضائه والتمتع بها ، وما وهبته له الطبيعة هو وغيره سواء في هذه الحياة ، فله أن يتمتع ويعمل على شرط ان لا يخل ويمس بكرامة وحقوق الآخرين . وهناك موارد غير محدودة في هبات الطبيعة له التمتع بها ما شاء ، فله ان يتنفس في الهواء الطلق ، وله ان يفكر ما شاء ، وله ان يأكل ويشرب ويلبس ويستفيد من موارد الطبيعة بحد لا يخل ولا يضر نفسه أو يضر بالآخرين ، وله أن يتمتع بالمناظر الخلابة وأنغام الطيور ، ولكن لا يجوز له أن يستغل مواهب واتعاب الآخرين كرهاً دون رغبتهم ورضائهم ، أو يستفيد بكل ما هوتحت حيازتهم ذلك الذي وصلهم ببذل جهودهم وقوتهم وطاقاتهم ، مما يسبب سلبه لهم ضرراً مادياً أو معنوياً ، ومما يمكن حيازته وضمه وادخاره وتوقف

حياتهم عليه على شرط ان لا يتجاوزوا بذلك حدود الانصاف والمساواة ، بحيث يكون في ذلك ظلم وتعدٍ مادة ومعنى بالنسبة للحقوق الطبيعية المكتسبة طبيعياً للآخرين .

وفي هذا بحث طويل بالنسبة للموارد الطبيعية المختلفة الموارد الطبيعية غير المحدوده أو المحدوده بحدود مضبوطة أو تقريبية . مثل الهواء والماء والنور فوق الأرض أو الماء والنفط والمعادن والأحراش والغابات والمجاري الطبيعية والبحار والمستنقعات ونفس الأرض مما يمكن حيازته وهذه ومما لا يمكن ذلك . في كل هذه سعادة وشقاء لافراد البشر كل على حده ، وجماعاتهم كلها يجب أن تسيروا العقول السليمة ليتمتع به العالم البشري ، هذه المجموعة الواحدة دون افراط وتفريط دون أن يعود الخير شراً لها . ويجب وضع مشروع معقول وعادل لكل منها مما هو حق للفرد أو الجماعة أو الجماعات ، مع الأخذ بنظر الاعتبار فيما اوجدته الطبيعة أو أحدثته ايدي البشر ، وفي هذه الأخيرة مما احدثه الشخص واستفاد منه بالبيع والشراء ، أو ورثه عن أبيه ، أو وصل في المظمورات والاثار القديمة ، ويجب ان تكون للحيازة حدود معقولة ، وللمخترعين والمكتشفين حدود لا يتجاوزونها ، بحيث تصبح وبالأ وسخطاً على الأغيار كما يجب النظر الى حقوق الآخرين عند تثبيت أية حيازة حق ، وعدم الاصغاء الى ما تدليه الغريزة في أي شخص مما يريد به السيطرة والتحكم والخزن والاحتكار لغرض خاص . فرعاية الفرد واجبة ، ورعاية المجموع واجبة ، ورعاية العدل والقسط بين الاثنين دون الركون الى الهوى أوجب وأحرى . وفي هذا بحث يأتي انشاء الله في محله .

القانون الاساسي

والآن لنراجع التشكيلات والمراكز الهامة في البدن لنعين على ضوئها التأسيسات التي يحتاجها المجتمع الإنساني، ونستمد منه كل معلوماتنا، ثم نرى رابطة كل بالأخرى، وطرق الربط، فنحذو حذوه خطوة فخطوة. وذلك هو القانون الاساسي لتأسيس مجتمع صالح يسير طبق أهداف طبيعية يستنبط حقائقها العقل والمنطق السليم مما فرضته الطبيعة وأبدعت فيه، أو قل اتقن صنعها الله الصانع المبدع القدير الصمد غاية الكمال الوهاب الخلاق، وضرب الكيفيات وما وضعه البشر، مما دل على نقصه مرور الزمان، وما زال ينقصه نفسه بنفسه في شتى القوانين والشرائع والانظمة في شتى سبل الحياة الاجتماعية الاقتصادية والادارية والاخلاقية وفي المسائل الجزائية والمدنية وغيرها مما تباينت واختلفت زماناً ومكاناً في الأمم الغابرة والحاضرة. ثم اقامت مؤسسات تمثل المراكز الرئيسية في البدن، الأهم فالأهم، مؤسسات تحتل مراكز الدماغ، وأقامت حصوناً وقلاعاً منيعة لوقايته بنفس المكانة التي جهزت بها الطبيعة تلك المراكز في البدن الانساني، وأقامت روابط على نفس الشاكلة بينها وبين مراكز الحس والحركة والمؤن، وغيرها من الدقة والمتانة والسرعة، وبعدها أقامت المؤسسات الأخرى لمراكز البدن الانساني من قلب واحد وكبد واحد وانبوب واحد لجهاز الهاضمة وتمثيلها في الوحدة والثنية وغير ذلك، ورثتين وكليتين وعينين واذنين ويدين ورجلين، والى آخر ما هناك من اعضاء الحس والحركة والغدد الصماء وغير الصماء، ومدى بأعصاب الحس والحركة وتجهيزه بالعروق والدم وتمثيله بالتموين والذخيرة وسبل الدفاع والهجوم والاستفادة مما أوجبه وأوجدته الطبيعة وفرضته.

قانون الجزاء

لا يعرف الجسم حين مواجهة خطر عضوي أو غير عضوي ، مادي أو غير مادي ، لمقابلة ذلك معنى الانتقام والتشفى . بل كل ما هناك مصالح فيها ما كان للهجوم أو الدفاع من الداخل أو الخارج ، وهناك ميزة قد تطرأ على بالنا ، وهي أن هناك فرقاً بين الحجيرات وكريات الدم البيضاء المدافعة والمهاجمة في البدن في الجسم الانساني ، وبين ما يقابلها من أفراد البشر في المجتمع الانساني . وان هذا الفرق هو الارادة والاختيار الموجود عند أفراد البشر وغير الموجود عند أفراد الحجيرات والكرات العضوية البيضاء داخل البدن . وعلينا وضع جزاء آخر أو تشديد أو تخفيف نوع الجزاء أو العمل باسم القصاص والتحذير والتخويف في ارتكاب الجرائم بالنسبة لأفراد البشر المفكر والمدبر .

ولكن من جهة ثانية نشاهد أن الكتل والجماعات البشرية قد تكون ، بل حتماً تكون ، منقادة في أكثر الحروب لزج نفسها في المعارك في القتل والفتك دون أن يكون لها اختيار وإرادة . وغالباً تكون مكرهة .

هذا في الجماعات . وأما في الافراد فالأصل أن المرء في المنازعات والمخاصمات يسير بحكم الغريزة المجردة من العقل والاختيار والإرادة العقلية ، وقد يمنعه العقل بادیء ذي بدء ، ثم يحرضه عندما يرى خصمه لا يرعوي ، فيقابلة بالمثل أو أشد . كما تجد في جهة ثانية أن الاضطرابات والمعارك البدنية الحاصلة داخل الجسم تتأثر ضعفاً وقوة

بالوعي والتلقين الفكري وضعف وقوة الإرادة ، وبهذه المناسبة فقد تقرب الوضع أيضاً في الناحية الفردية والاجتماعية بالنسبة للجهات المعنية . ولكن من جهة أخرى لا بد وأن يحسب حساب للشعور والعقل والإرادة والاختيار عند أفراد البشر ، وعلى الخصوص أولئك الذين ربوا الجوهرة العقلية ودربوها ، وأولئك الذين وسعوا دائرة أفكارهم بالتجارب والعلوم ، ووضع جزاء وقصاص للحسنات والسيئات بقدر ما يحمله المرء من التوجيه العقلي والإرادة والاختيار العقلي . وربما كانت هذه هي نقطة الفرق الوحيد ، ولكن لا يمكن إهمالها بصورة تامة ، بل يلزم رعاية الغرائز الطبيعية المتحكممة والاستعانة بالناحية العقلية لصالح المجتمع . وفي الحقيقة نرى أن تحكم الغرائز في الأحياء تسيرها سيراً منظماً بدرجة تذهل لها أكبر العقول من أدرك كثيراً من كنهها وتمدها بما تعجز العقول من مد الأفراد بالمساعدات ، وإذا أردنا نبني بناءً منطقياً فليس لنا إلا الاستفادة من عقولنا وتفكيرنا لمعرفة ما جهزته الطبيعة لهذا البدن وجماعته من الحجيرات والأنسجة والأنظمة والقوانين ، وتطبيق ذلك بحذافيره على المجتمع البشري ، وعندها نرى أن البشرية سارت باتجاه واحد ولم تخط خط عشواء ، وانها اتحدت من حيث قوانينها الثابتة وأنظمتها المتحدة . وها إنني أورد مختصراً من الدفاع والهجوم داخل الجسم البشري لنرى درجة اتقانه وصنعه . لقد وجد علماء الطب أن الجسم عند مداومة خطر في جسم عضوي أو غير عضوي يقوم بالإيعاز إلى المراكز المختصة في الجسم وبالأخص إلى الجهة المفروضة لمقابلته وعندئذ يقوم بالأعمال التالية :

١ - إذا ما دخل شيء ما الجسم في أية ناحية من نواحيه سواء كان ذلك من طريق الجلد أو أنبوب الطعام أو التنفس أو الجوارح الأخرى أو الدم ، وهذا الداخل اما يمكن حله وإذابته مثل الأطعمة عند الأكل أو لسعات الحيوانات والحشرات أو الحقن المختلفة من طريق الجلد أو العضلة أو الدم أو الغازات المختلفة من طريق التنفس أو المواد الأخرى

الداخلة من مجرى الأنف والعين وغير ذلك ، قامت بوعي طبيعي على أخذه وتحليله وتجزأته ، ثم الاستفادة مما يفيد البدن وإرساله إلى مراكزه الخاصة للاستفادة منه ونبذ الباقي سواء من مجرى الغائط أو البول أو التنفس أو مراكز الترشح الأخرى ، وإذا كان من طريق الجلد مثلاً ورأت منه ضرراً على البدن حصرتة أولاً ، ثم فتحت له فتحة ونبذته خارجاً ، وهي تحاول في كل مرة حصره في الناحية حتى تعد العدة لمواجهته .

٢ - إذا خطر قيام حرب مكروبية طاحنة خاصة منطقية محدودة مثل الدمل والجمرة الخبيثة أو الحمراء وما شاكل ذلك مثل التي تصيب بعض الغدد كاللوزتين والخب ، أو عامة كما يحصل في بعض الأمراض ، كالمalaria أو دخول مكروب في مجرى الدم وقيام حرب طاحنة مهاجمة ومداغة وقتل وفناء أحد الجهتين .

٣ - قد يلج جسم غير عضوي الجسم ، وبعد أن يرى الجسم أن ذلك غير قابل للحل ، وأن وجوده ليس بحاجة إلى حرب ، وإنما هو لا يفيد وقد يضر لمجرد عرقلة أو شل العضو عملياً في القيام بأعماله كالعادة ، فهو كل على الجسم فعليه تهيئة الوسائل للتخلص منه وتفتح له فتحة من أقرب الأمكنة الممكنة ودفعه خارج الجسم وتخلص منه ، وهذا كثيراً ما يحدث للقسم الخارجي في البدن عند دخول جسم صلب كرصاصة أو خشبة أو معدن آخر تحت الجلد أو أحد الأعضاء .

٤ - يكون الشيء الداخل في الجسم مما لا يمكن دفعه لعمقه أو لموضعه أو علل أخرى ليس لوجوده عيب كبير إذا أحاطه بسياج قوي ، عندئذ يحيطه بأنسجة وألياف قوية لاتقاء شره وخطره وتركه في محله ، كشظية من بندقية أو جسم صلب غير مكروبي أو حتى إذا كان مكروبياً كما هو في التغذدات السليمة المتشحمة في الرئتين وأمثال ذلك .

٥ - وقد يقيم الجسم سياجاً وحصوناً تجاه خطر مكروبي ليقى البدن شر ذلك ، كما يحصل في الحريق السطحي الجلدي الذي يصيب

الجسم ، فتظهر فقاعات الماء تحت الجلد مملوءة بمادة سائلة مصلية وصلبة لتكون حائلاً بين الجسم والخارج ، واقيةً الجسم من ولوج المكروب من جهة ، ولتكون حرة للقيام بالترميم اللازم للعضو المخروب كما يحصل عند مس أي جسم لناحية من الجسم بصورة دائمة لمساطق خاصة في القدم على أثر مس أو ضغط جانب مع الحذاء فيتكثف الجلد في تلك الناحية .

٦ - قد يحصل للجسم عوارض خاصة أو عامة تدعوه لايجاد رد فعل خاص يحفظ به العضو الخاص أو كل الجسم ، كأيدي العمال الخشنة أو عضلات الحداد الضخمة ، وكل عضو معرض لحركة أو صدمات متوالية تكسبه الطبيعة قوة وقابلية خاصة لتحمل القسم الموجه ، وحتى اذا كان ذلك عاماً أعطته الطبيعة المناعة الخاصة لتحمل ذلك ، وبالعكس المحافظون من الأفراد الذين يعملون في الحر والبرد والتعب انقصت منهم الطبيعة بقدر تحفظهم ولهذا كانوا في خطر الإصابة لأقل تعرض للبرد وضربة الحر أو التعب . ومثله المعرضون للسه الحشرات .

وقد يقوم البدن نفسه بعلاج طبيعي تجاه بعض الصدمات أو العلل الحاصلة للبدن فينقذه أحياناً من كوارث وأحياناً من الموت ، وهذا ما نشاهده كثيراً في الرعاف الحاصل على أثر ضغط الدم العالي للبدن بانفجار أوعية دموية للأنف وخروج الدم الزائد الى خارج البدن ، مما يقي الدماغ من النزف الدموي الذي قد يؤدي الى نقص عضوي أو شلل أو عمى أو فقدان الشعور أو الموت (١) .

(١) جوائز الطبيعة ومجازاتها في القصاص :

- ١ (لماذا يحصل مسمار أو ضخامة في ناحية ما في الرجل على أثر ضغط الحذاء؟ .
- ٢ (ما هي مشابهاة هذه في الأدواء في حياة الجسم؟ .
- ٣ (ما هي مشابهاة هذه في الحياة الروحية والاجتماعية على أثر الضغط أو الصدمات الروحية في الفرد من حيث التربية والأخلاق والسلوك؟ .

٧ - على اثر شفاء الامراض يجهز البدن بالمناعة العامة والمناعة الخاصة على الخصوص تجاه المرض الذي كان قد أُبتلي به ولهذا نرى أن في بعض الامراض مناعة دائمة اذا أصيب به المرء مرة لا يصاب أخرى مدى حياته ، كالجذري والحصبة أو مناعة مؤقتة لمدة تتفاوت كالتيفوئيد مثلاً عشر سنوات ، وهكذا تقل في بعض الامراض وكثيراً ما تعالج بعض

= ٤ (لماذا يكذب الطفل؟ كيف تطبق هذه في الحياة الجماعية؟ ليست الطبيعة تمنح الشجاعة تقدماً وهمة وقوة والخائف تأخراً وضعفاً؟ لماذا؟ .

٥ (لماذا يلتذ الجائع بطعامه عند كده وعدم نهمه بفرط الأكل؟

٦ (ويجد المجد لذة الراحة أكثر من الكسول؟ ألا يمكن اعتبار ذلك جزاءً؟ .

٧ (من أشد تحملاً للنوائب والصدمات؟ أليس من قاومها وجربها؟ .

٨ (ما هي نتيجة التحفظ الشديد في البرد القاري والحر الشديد والتحفظ من التعب والركون إلى الراحة؟ أليس نتيجة ذلك قلة مناعة المتحفظ في البرد والحر والتعب وإصابته على قدر تحفظه بالبرد والحر وسرعة شعوره بالتعب وحتى إصابته بأوجاع لجهد بسيط؟ .

٩ (إذن لماذا يصاب البعض لأقل تعرض للبرد بل وحتى في الصيف بعد تعب قليل وتعرقه على أثر تعب بسيط إصابته بوجع الرأس أو العضلات لأقل نسمة تخفق على تلك العضلة؟ .

١٠ (لماذا يصاب البعض بمرض المعدة أو العنن وضعف القوى التناسلية أو أمراض مشابهة دون علل مكروبية؟ ألا يمكن القول إن ذلك جزء طبيعي فرضته الطبيعة للمسرفين في الطعام أو العمل الجنسي أو استعمالهم مواد تضر بذلك الجهاز كالمشروبات الكحولية لجهاز الهضم والتناسل أو أمور مشابهة؟ .

١١ (من هو أخف جسماً وأهدأ نوماً وأقر بالآ وأحسن تفكيراً وأكثر وعياً؟ ومن هو أشد حساً بدقائق الحياة أمن درسها وجربها أو العاري منها؟ .

١٢ (كم هي أنواع السموم المادية العضوية وغير العضوية؟ وأهم السموم العقائدية الفردية المذهبية والحزبية والسموم الاجتماعية؟ .

١٣ (ما هو تأثير المؤثرات المادية والمعنوية الفردية بالجماعية؟ .

١٤ (للصوص والسراق والمحتالون والمخادعون يخلقون الشباك ويتكرونها ويقدمون الطعم مقدماً للاقتناص أليس كذلك؟ والحذر والتجربة خير حافظ وواق للمرء .

الأمراض الميكروبية بإيجاد مصول تزرق في البدن فتكسبه مناعة ضد ذلك المرض ريثما يكون الجسم نفسه ذلك المصل .

تلك نبذ ذكرناها في الدفاع والهجوم والقصاص والجزاء الطبيعي يلزم رعايتها في وقاية وعلاج الأمراض الاجتماعية ، مراعين مشابهاتها في الجسم الإنساني ، وحتى نرى إقامة حرب كاذبة في الجسم الإنساني وإيجاد نفير عام إلقاء ووقاية في بعض الأمراض وخطرها ، كما تعمل زرقة حليب في عضلة شخص واصابته بحمى على أثرها حتى لو كان حلياً معقماً ، تلك التي ذكرت في الناحية المادية وهناك مشابهاتها للبدن من الناحية الفكرية والعقائدية والعقلية والروحية ولها نفس المشابهات بين الفرد والإجماع .

٨ - الجسم له كل القابليات لمجابهة الأخطار العضوية وغير العضوية والصدمات بصورة معتدلة ، ولكنه قد يفقد التوازن فيما خرج عن حيز التعادل ، فهو يستطيع ان يقابل السموم العضوية وغير العضوية وكل شيء آخر مادي ومعنوي ، إذا كان بدرجة معتدلة وتختلف حسب تعوده التدريجي كسموم الحيوانات والحشرات من عقرب وحية والحشرات الأخرى أو السموم الأخرى كالستركنين أو الترياك أو النيكوتين ، بيد انه قد يتلاشى أمام القوة ويهلك ، ولكن له القابلية للتعود عليها وتجهيز البدن بمواد مضاده لها ، ولذا ترى أن المعتادين على قسم من المواد المخدرة يستعملونها بمقادير كبيرة كافية للقضاء على أقوى فرد من البشر لو تناول جزء منها ، من الذين لم يعتادوا عليها ، وهكذا أمام لسعات الحشرات السامة واكتساب المناعة المادية والمعنوية في الجسم الحي البشري من أعظم الخصائص التي يبنى عليها حياته البدنية والفكرية ويمكن الاستفادة منها في الإجماع .

السرطان :

هناك أمر على غاية من الخطورة احتار علماء الطب للان في شرحه في علله واسبابه ووقايته وعلاجه وهو داء السرطان .

والسرطان كما يظهر هو انحراف يحصل في عضو في ناحية ما من البدن لعله يؤدي الى تكاثر وامتداد حجيراته وأنسجته بشكل يخالف النظم الطبيعي ، ويختلف شدة وضعفاً ويزداد يختلف ضرره بالنسبة للناحية الحاصلة فيه وهذا النمو غير الطبيعي والسلوك غير المنظم يخل في سير أجهزة البدن المنظمة مبثراً هنا وهناك ومضايقاً ومعرقلاً قيام الجهاز الذي يرد اليه في اداء واجبه بعضاً أو كلاً ، حتى إذا ورد في مراكز لها اهميتها من النظم العامة والمقابلة التي يقابل بها البدن لدخول المكروبات المهاجمة هو حصولها في تكاثر نفس الحجيرات والأعضاء المشابهة لنفس البدن وسيرها بادية ذي بدء بصورة هادئة وبطيئة غالباً ، بحيث لا تترك للبدن في البدء الشك للخطر ومقابلته بالسرعة وقد تعددت هذه الأسباب المسببة فهي انحرافات في اعتياد الأشخاص لاستعمال بعض المواد كالتبغ وافعاله ، مما يضطر البدن لخلق حجيرات وأنسجة على خلاف المألوف لمقابلتها ، وبعدها اختلال في نظم ونمو هذه الأنسجة الطبيعية وحصول النمو والتكاثر غير المنظم وغير الطبيعي في الناحية المتكاثرة كالرئة في التدخين وسرطان الفم عند الافراد الذين يستعملون التبغ مصاً وبصاقاً من طريق الفم (سويكه) وكانت عللها علل عفوية أو غير عفوية ، بيد أن المهم هو القضاء المبكر عليها والسرعة الفائقة لاستئصال شأفتها قبل ان تمتد جذورها هنا وهناك وتعبث فساداً وإلا قضت هي على الجسم كله .

والأمر الذي أود بيانه في السرطان وخطره إنما هو الانحراف الحاصل في نمو أي عضو ما في أية ناحية من نواحي البدن بصورة تخالف النمو الطبيعي المحدود في قلبه وخروجه على الأعضاء الأخرى واختلاله بنظمها ، وعجز البدن في البدء والنهية في مقابلتها ، أو لا تقل عجزه في البدء بل قل اغفاله في البدء وعدم علمه بأن هذا الانحراف والتكاثر الحجيري الهادئ المشابه لحجيرات البدن بعلة هذه المشابهة وعدم افرازه سمّاً أو مواداً مضرّة فرضاً في البدن ، استوجب عدم توقي البدن بادية ذي بدء ضررها ، حتى إذا تكاثرت وتجاوزت على جيرانها القريبين والبعيدتين

وعلى قدر أهمية العضو وعلى قدر وعي الجسم وحسه بالضرر يمكن تلافي خطره مبكراً ، والا إذا أهمل فهو القاضي على البدن كله .

هذا الحال له مشابهاته في المجتمع الإنساني والحياة الاجتماعية ، وهذا ما دعاني أن أهيب بهذا المجتمع أن يسلك سلوكاً طبيعياً فطرياً ، وبقي نفسه من عوامل السرطانات ويقضي عليها القضاء المبرم السريع .

فالقتل في معارك الجسم مع الغرباء الوالجين الى الجسم أو جسهم أو طردهم أو تحويلهم بالتجزئة والتحليل أو التركيب لدفع شرهم وكسب خيرهم هي أصول جزائية للجسم تجاه ما يجابه فيه قانونه أمام المعتدين .

وإذا دققنا الأمر نجد أن كل ذلك يقوم في حالة دفاع مشترك في البدن بما فيه تجاه الأعداء الخارجين عنه ، ولا يمكننا أن نتصور اعتداءً داخلياً وحرباً ونزاعاً يقوم بين نفس الحجيرات أو الأنسجة أو الأعضاء ، الا بصورة غير مقصودة ، كالتي تنشأ عن احتلال عضو أو ناحية أو عدم تكافئها للقيام بالواجب كلياً أو جزئياً وتضرر الأعضاء الأخرى منها ، كأن يصاب الكبد مثلاً بالشمع أو إصابة البنكرياس بما يقعه عن العمل أو اية غدة أخرى لعارض داخلي أو خارجي يخل نظامه ويربك وظيفته ، وعندها يكون الضرر خاصاً بالعضو وعاماً للبدن ولم يكن في هذا اسم للجزء أو القصاص وإنما اصلاح وعلاج .

وقد ذكرنا في حديثنا عن السرطان ما ميزناه عن العوامل المهاجمة الأخرى ، وقلنا إنما هو إنحراف في تكاثر حجيرات جهة خاصة في البدن ، لا يكاد أن يشك البدن في البدء بضرره ، باعتباره من نفس طبيعته وماهيته ، وقد يكون في ناحية حساسة تهيج سريعاً بهذا النحو غير الطبيعي ، فيبعث بالانذارات السريعة الى المراكز الحساسة ويشعر المرء بخطره مبكراً ، ويتلافى الأمر ، أو يكون في مراكز غير حساسة فيتكاثر ولا يشعر البدن الا وقد امتدت فروعه الى جهات في البدن تختلف أهمية ، ويختلف بدرجة التشخيص وتصعب معرفة النقاط الممتدة لاستئصاله وقمعه

بالسرعة الممكنة وإذا لم يتوصل البدن للان للعلة المسببة لهذه العاهة فقد يتوصل لها في المستقبل القريب أو البعيد .

خلاصة الأمر ، وفي جميع الأحوال الداخلية والخارجية ، انما تشترك كل حجيرات البدن وانسجته وأعضائه لجلب الخير ودفع الشر للكل ، بالوسائل التي ذكرناها ، والوسائل الطبيعية التي لم نتوصل اليها ، والتي بإمكاننا تطبيقها على المجتمع الإنساني للاستفادة من معرفته الاصول والقوانين الجزائية ، واذا عجزنا عدنا الى ما يجري بين المخلوقات الحية التي هي أقرب في الوضوح الى البشر في حالة الدفاع والهجوم والتخلص من الشر والتوصل الى الخير . وقد ذكرنا القصاص كامر وسبيل أصولي في الأحياء ، بيد أن البشر العاقل بالاضافة الى الجهة الحيوانية والغريزية فيه ، يجب أن لا تفوتنا منه الجهة العقلية والمنطقية ودرجة تأثيرها في الجرائم وما يتخلل ذلك من القصد والعمد وسبق الاصرار في التفكير السابق والهدف والنية والعلل . فعمل الجاهل غير العاقل ، وما تسبب بحكم الارادة الواقعية للفرد أو المشوبة بإرادة الآخرين أو دون إرادة بل بتأثير الفطرة والغريزة تمتاز الواحدة عن الأخرى .

وهناك في الجرائم ما يقابلها قصاص مقابل كالضرب والجرح والقتل يقابلها قصاص واقعي ، وهناك قصاص مقارب ، كما وضع حد وقصاص للشارق في الشريعة الإسلامية من قطع اليد ثم الرجل ثم القتل لاثرة هذه في عمل الجرم . أو لا يمكن الا بوضع قصاص مفروض نسبي لردع الفرد وتنبية الآخرين كالحبس والتعزيرات من رجم وجلد وضرب وإبعاد وما شاكل كما في حالة النصب والتحايل والخيانة والغش والخداع ؟ فهذه منبعها الفكر في الانسان ولا يمكن ان يكون لها قصاص بالمثل بالتعبير الظاهر اذ اذا قلنا المقابلة بالمثل (في تفسيرنا للقصاص) بان نعمل مع الغير نفس الاسلوب الذي استعمله الغير مع الآخرين كما هو ظاهر في معنى القصاص ، وكما جاء في التوراة والقرآن في الشريعتين اليهودية والاسلامية العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص ، اذ المعنى

الظاهر أن تستعمل الخداع أو الغش أو التحايل ، وهكذا لمن جاء بها ، ولكن في هذه التي من مختصات الفكر البشري وبنات عقله لا يجوز استعمالها العقل السليم ، لأنها رذائل استخدمت بها الغرائز الفكر والعقل ، وإنما يكون القصاص المقابل على ما لحقت المتضرر من الضرر بالغير من جهة ، وعلى الاجتماع من جهة ثانية ، والهدف والقصد الذي استعملها الفاعل ومقياس الضرر الحاصل من جراء هذا العمل مادة ومعنى ، فالغش قصاصه مثلاً متوقف على الضرر الايجابي الحاصل على صاحبه من الناحية المادية وسد هذه الخلة والناحية المعنوية ردها بالتعويض للفرد بما يقابل اضراره والخلل الذي أصاب المجتمع من تأثير ذلك ولادخاله في ذلك لفرد ما حتى المتضرر بل هو حق من حقوق المجتمع المتضرر ومن جهة سلبية نرى قصد الفاعل ونيته ودرجة عمده ومستوى عقله وشعوره ورشده ، وبعد كل هذه نحكم بالقصاص ، وهو درجة الضرر الحاصل والجهة المصابة ، هذا والدقة في اجراء قصاص أقرب للفطرة والطبيعة ، فالتحايل يختلف نوعه فقد يشابه السرقة من حيث ماهيته على سلب مال شخص من ناحية ايجابية أو سلبية هو ضياع في اعتباره وسلب ثقة الآخرين به ، وبالتالي ضرره المادي ، أو تكون في كليهما الايجابية والسلبية في أمور معنوية لتلويث شرف الغير ، ففي الأولى يجب أن يكون القصاص مادياً أكثر منه معنوياً ، وفي الثاني يلزم ان يكون القصاص معنوياً لمساسه بالاعتبار والحيثية أكثر مما يمس الناحية المادية . وفي كليهما تطبيق جزاء عادل يقوم على أصل القصاص على أن يراعي في جميعها ميزان العقل والقصد .

وقبل أن ننهي الكتاب الأول لاقامة حكومة مثلى نورد بعد الأسئلة :

١ - ما هو الضامن لسلامة وادامة هذه الحكومة ؟

٢ - ما هي المشاكل لتشكيل هذه الحكومة العالمية ؟ وما هي طرق

حلها ؟

٣ - كيف نبني الجهاز الحكومي للحكومة العالمية ؟ أعلى نمط
أجهزة البدن الإنساني ؟ أم على النمط السابق من تشكيل وزارات لكل
جهاز فنقول هذه وزارة الداخلية وتلك وزارة الخارجية - الصحة ، وزارة
الدفاع والمالية والاقتصاد والطرق ، وهذه دوائر رسمية ونصف رسمية وشبه
رسمية وأهلية ؟

٤ - من أين نستمد القواعد والأنظمة والقوانين لضبط شؤون هذه
الحكومة العالمية ؟

٥ - تعيين القوة الاجرائية التنفيذي في الأمر والنهي للسيطرة على
جميع النوع الانساني من اقصاه الى اقصاه بصورة دائمة كما هو في البدن
الإنساني .

٦ - تكوين قوى مادية ومعنوية دائمة للمجتمع الإنساني تحطم
المعتدين في الداخل والخارج كما يجري في البدن الإنساني ؟

٧ - تكوين مناعة في الحكومة العالمية على شاكلة المناعة في البدن
الإنساني تجاه أعدائه وخصومه ، ومنها تعويده على تحمل الشدائد
والإتعب واكتساب القوى الذاتية والخبرات والتجارب المادية والمعنوية
بصورة دائمة .

٨ - الاستفادة للمجتمع الإنساني من طرق الوقاية بشتى أنواعها
الحاصلة للبدن الإنساني كاللقاح والتلقيح والتغذية .

٩ - التدابير العلاجية للبدن الإنساني بالتجارب المطبقة في اللقاح
والمصول والعقاقير وغيرها والاستفادة في تطبيقها في المجتمع الإنساني .

١٠ - الاهتمام بالمراكز الحساسة على قدر خدمتها وأثرها لادامة
الحياة وسعادة الجسم الإنساني كالمخ والمخيخ والقلب والكبد والرئتين
والكلى والغدد الصماء والأجهزة الأخرى الفرعية من بصر وسمع وذائقة
وشم وأعصاب وعروق وما شاكل ، وإعطاؤها العناية الطبيعية في كل بدن
وتطبيق هذا في الجسم الإنساني .

١١ - وبالتالي أصول الترميم في البدن الإنساني وكيف يجب الدقة والعناية بلزوم انطباق عناصر وأحوال وطبيعة ونوع الجزء المطلوب ترميمه وتطبيق ذلك في المجتمع الإنساني .

ولا ننسى أن قيام حجيرات وأجهزة البدن كل بوظيفته بالشكل الأحسن يوفر لكل منها الحد الأكبر من التمتع بالسعادة والراحة والاستقرار ، وأن افراط وتفریط أي منهما فيما خصص له بأي سبب كان مما يسبب أدنى احساس أو قصور بالوظيفة في جهة لذلك العضو ، أو الحلول دون تمتعه بما فرض له من التمتع الكامل الطبيعي يسبب اختلالاً ونقصاً للتمتع والقرار لكل جهاز آخر وحجيرة أخرى في البدن وبالأخص لمراكز الحس العليا . هكذا الوضع في المجتمع الإنساني فإن أقصى متعه يتلقاه الافراد جميعاً متى انيط لكل وظيفته وأحسن كل القيام بها . وإذا أخل أي بواجبه لأي قصد كان كانت نتيجة ذلك سلب الراحة والسعادة من الجميع سيان منها المتجاوز والمتجاوز عليه .

١٢ - الاهتمام بصحة الأخبار الى مراكز الحس ونقلها من المراكز الى الأطراف صحيحة .

الكتاب الثاني

أمثلة تطبيقية

الأمثلة التطبيقية

تحدثنا فيما مضى أن علينا البحث عن الحقائق الطبيعية في حياتنا للسير عليها في كل شيء نحتاج اليه في سلوكنا الاجتماعي والاداري والاقتصادي والصحي واحكامنا وقوانيننا ، وليس لنا الحق لوضع نظام وقواعد مبناهها اهاوؤنا وأغراضنا وتخيلاتنا ، والا قمنا بعمل هوخلاف الفطرة والطبيعه وتعرضنا لجزاء فطري طبيعي ، ولرد فعل يصيب أنفسنا أو يصيب من له صلة بنا أو أصاب الجامعة البشرية . وليس لنا الا البحث عن القوانين والانظمة والقواعد الثابتة الطبيعية تلك التي هي قائمة ومتصلة بحياتنا ، تلك التي لها صلة مباشرة بسعادتنا وشقائنا ، وعلينا البحث عنها في أنفسنا في سير حياة الحجيرات والأنسجة والأجهزة في أبداننا وفي مشابهاتها في القوانين الطبيعية الثابتة في الأحياء وفي غير الأحياء ، أخذين منها مقاييس ثابتة متى اعيتنا الحيلة ، والغاية منها الوصول الى سنن ونواميس ثابتة وضعت لنا منذ بدء الخليقة سارت عليها نظم الكون من احياء وغير احياء من ماديات ومعنويات تقوم على نتائج ثابتة كالمسائل الرياضية .

وقد ثبت ان العلوم الرياضية ثابتة لا تتغير ، فنتيجة عملية ضرب أو تقسيم أو جمع أو طرح لا بد أن تكون واحدة ، وأما العلوم الطبيعية من كيمائية وفيزيائية فهي أقرب للرياضية ، يليها علم الأحياء ، ولهذا لا بد لنا للوصول الى اثبات وجهة نظرنا في وصف كل منها باختصار فنقول :

ان العلوم الحقيقية هي تلك العلوم المحتوية على الروابط الثابتة غير المتغيرة ، كما نرى ذلك في القوانين الرياضية . ويلي هذه علم الفيزياء وعلم الكيمياء التي بعد المشاهدة ووضع النظرية واجراء التجارب توصلنا الى القواعد والقوانين الثابتة فهي أكثر العلوم الأخرى التي تظهر على صبور رياضية . وهذه الأخيرة لانها تتأثر بالتجربة فهي تختلف تعريفاً باختلاف التجارب الجديدة .

وأما علم الأحياء فهو علم قائم على أساس المشاهدة والتجربة ويلي علمي الفيزياء والكيمياء باقترابها الى العلوم الرياضية ، بالنظر لوجود الحياة ، فهي ليست لها تلك القاطعية ، واليقين الحاصل منها نسبي الا انه قوي ومهم ويستفاد منه علمياً كعلم الطب وغيره ، وربما توصلنا للبت والقطع به اذا بلغنا الحقيقة ، ويدخل في ذلك علم النفس الذي به تطالع الحياة الداخلية للانسان المنقسمة الى الانفعالات والادراكات والافعال . ولعلم النفس قوانين كما في العلوم الأخرى تقوم على كشف حقائق كلية .

علم الأخلاق :

وهو علم يبحث عن الروابط الداخلية للمرء مع الآخرين ويشمل علم الاجتماع والتاريخ ويجدر بنا ان نتعرض للفرق بين الحياة المعنوية والحياة المادية ، فنقول :

ان الحياة المعنوية تشمل الزمان فحسب وأما الحياة المادية فانها تشمل الزمان والمكان . لذا فان الماديات يمكن قياسها وتدرك بالحواس بيد أن المعنويات لا يمكن ادراكها الا بالوجدان .

ونعود لعلم الاخلاق لنعرفه من وجهة أخرى فنقول انه علم يبحث عن سلوك واعمال الافراد ، وقلنا أن علم الاخلاق يشمل :

أ - علم الاجتماع . ب - التاريخ .

أ - علم الاجتماع :

يقسم الى الأشكال الاجتماعية والوظائف الاجتماعية وعلم الاجتماع العام وهذا يشمل الحيوان والانسان . وعلم الاجتماع يشمل العرف والعادات والاخلاق والعقائد والقوانين الحقوقية والاقتصادية والأدبية وغيرها التي تلزم الافراد من اتباعها . وعدم مراعاتها ينشأ منه رد فعل سواء من ناحية مادية أو معنوية تكون له قصاصاً وجزاء . ولا بد للعالم الاجتماعي للوصول الى أهدافه ان يقوم بتحري ومشاهدة الوقائع بين الأقسام المختلفة ثم وضع مذكراته بعد قياس مختلف الوقائع والحوادث .

القوانين الاجتماعية :

هي مثل قانون « الحالات الثلاث » لأكوست كونت وقانون دوركيم في الانتحار الشخص . ومنها القوانين الاقتصادية ومنها مثلاً « في كل دولة تقوم معاملاتها على أساس عمليتين تطرد فيها السكة الرديئة السكة الحسنة من الأسواق وتحل محلها » .

التاريخ :

وهو ثاني علوم الاجتماع ويخص مطالعة الماضي ، وأخص منه مطالعة ماضي حياة الانسان كفرد ومجموع ، ولا يقوم على أساس العلم والخبرة التجريبية . ويقوم المؤرخ بعد البحث والمطالعة والانتقاد على تعيين درجة ثبوت الوقائع والمدارك والاسناد ويسرد الوقائع .

لهذا كان علم التاريخ أقل العلوم قاطعية . بيد أنه قد يصل بأدلة قوية قاطعة لا تبقى للشك والترديد على صحة الحادث ولهذا كانت دراسة التاريخ مفيدة جداً في علم الاجتماع للاستفادة من حياة الماضي والعبرة بالحوادث الحقوقية والأدبية والسياسية والاقتصادية والعقائدية والفنية وغيرها ، للاستفادة منها للمستقبل بعد التحليل والنقد واستخلاص الحقائق ، سيات منها في الأمور المادية والمعنوية لهذا وضعت نظريات

وقوانين تاريخية منها : ما جاء به المؤرخ المعروف ميشليه ١٧٩٨ - ١٨٧٤ من نظريته المعبر بها عن الآراء والأفكار العالية للآحرار الطالبين للحرية والعدالة .

كان يعتقد بتأثير أفكارهم العالية في الوقائع التاريخية ، وعلى نقض ذلك كانت نظرية كارل ماركس مؤسس المسلك الاجتماعي العلمي . فقد فسّر الوقائع المهمة التاريخية ووجهها . واعتقد أن الوقائع التاريخية في جميع الأدوار انما قامت على أساس ضروريات مادية وحوادث اقتصادية . وبين كيفية الرابطة الوثيقة بين المؤسسات الاجتماعية وأصول الملكية والعمل . وان جميع ما يصبح للبشر من حوادث تاريخية انما هو بسبب ما يصيب الطبقة العاملة من الشقاء . في حين أن جان جورس يعتقد ان الماديات والمعنويات لها أثرها في حياة البشر التاريخية .

تلك كانت لمحة مختصرة وضرورية شرحناها ، ولنتوصل لتوضيح أعم ، علينا أن نعرف ان كل قضية وحادثة في الحياة حدثت أو تحدث انما ترتبط بقوانين وقواعد وأصول ونواميس مادية أو معنوية طبيعية واجتماعية مختلفة تشد أزر بعضها أو تخالف بعضها بعضاً ، أو لا رابطة بينها ، وليس هناك مكان للصدف التي يتعرض لها الناس الا دليلاً على جهلهم بما حدث ويحدث وجهلهم بالحقائق والنواميس والقوانين التي كثيراً ما تحدث بدون ارادتنا ، وحتى ولو علمنا بعلتها كنا من الجهل والضعف بحيث لا نستطيع الوقاية منها ودرء وقوعها ، سيات منها ما كانت بانفسنا أو خارجها أو بكرتنا الأرضية أو خارجة منها ، وما كان منها بعالمنا الشمسي أو العوالم الأخرى ، بيد هذا لا يمنعنا من البحث عما يمكن بحثه والوصول الى كنهه ، فالعلم بالشئ هو الذي يمكننا من القيام به بصورة أحسن . والتخلص من شره أكثر والعلم هو منبع الخير والبركة للانسان ، اذا استخدمه لخيره ، ومنبع الشر اذا استخدمه لذلك وان دراستهما للقوانين والسنن الطبيعية التي توصل اليها الانسان والبحث عما لم يتوصل اليه

وتطبيق المادية على المعنوية والاستفادة من التحري والتجربة والتطبيق النظري والعملي هي الوسيلة الأقرب للحياة الصحيحة ، والسير على الحياة الطبيعية الفطرية هي أبسط وأرقى السبل للوصول الى السعادة والابتعاد عن الشقاء ، الذي هو الذأمنيات البشر . وسوف نورد نبذاً عن حياة الحشرات الجماعية كحياة أرقى من حياة البشر كما ذكرت نبذاً عن حياة الحجيرات والانسجة في الجسم الانساني كأرقى ما يتصوره الفكر من النظام وابدع ما يشاهده في السلوك لو استطاع أن يعي ويتقدم .

والان نورد نبذاً من التطبيقات للحياة المادية على المعنوية ومن المعنوية على المادية والمادية للمادية والمعنوية للمعنوية ، أملي أن تكون مقياساً في حياتنا في التطبيق للاخذ منها في كافة سبل حياتنا من نواميس وسنن وقواعد ثابتة وحكيمة .

١ - المنطق السليم :

ان حاسة الذوق أي اللسان لجميع البشر يشعر بحلاوة السكر وحموضة الخل ومرارة الحنظل ، وحاسة الشم تفرق بين الروائح الذكية والنتنة ، وحاسة اللمس عند الجميع تميز بين الناعم والخشن والحرارة والبرودة ، وحاسة السمع عند الجميع ترتاح لتغريد الهزار وتستكر نهيق الحمار . وقد تعتل أحد هذه فمثلاً قد يعتل اللسان فيفقد جزءاً من حاسة الذوق فلا يلتذ تماماً كما في الاصحاء بطعم المأكولات ، وربما فقد حسه تماماً فلا يحس بطعم بتاتاً كما عند البعض ، كما أعرف صديقاً مع رقة شعوره وأدبه الجم لا يشعر بحلاوة مطلقاً حتى لا يدرك حلاوة العسل والسكر مدى حياته ، وهكذا العين التي هي عند جميع المخلوقات تميز بين الألوان الأحمر عن الأخضر والأزرق ، وغيرها هناك من النادر من لا يفرق بين الألوان فهي عنده جميعاً سواء . هذا شاذ لا يقاس عليه .

وهكذا المنطق السليم والعقل السليم يميز بين الأخلاق الفاضلة والردائل وهي واحدة عند البشر، بيد انه يشذ من هذه القاعدة فتجد وقد

ولد وعنده انحراف لا يميز أو لا يريد أن يميز ويشعر شعوراً منطقياً ، فيخلط بين الفضيلة والرذيلة ، أو ينحرف بسبب إصابته بأمراض أخلاقية أو اجتماعية أو أدبية أو ما شاكل فتقلل عنده حاسة الشعور بالفضيلة كما هي . وقد يُنَوِّم الإنسان تنويمياً مغناطيسياً بسبب التسلط العقلي من الآخرين ، ويُوحى إليه عند تناوله قطعة سكر أنها قطعة ملح فيشعر عوض الحلاوة بالملوحة أو بالعكس ، لأن الإيحاء حرك فيه مركز الشعور بالملوحة في الأول أو عكسها في الثاني . وهكذا في حياتنا قد يُلقن الآخرون بالتسلط الفعلي على البعض أموراً مغلوطة فيتقبلوها على اغلاطها في حين أنهم يعتقدون بصحتها كأنها صحيحة وغير مغلوطة .

فالمنطق السليم هو ذلك المنطق الصادر عن عقل صحيح سالم حر طليق تتقبله جميع العقول العالمة الصحيحة الحرة الطليقة ، وكما أن للحواس ساعات يشتد شعورها وحسها كما يحصل للجائع في حاسة ذوقه وشدة تلذذه بالطعام بدرجة إحساسه بالجوع واحتياجه له وهكذا الحواس الأخرى . وكما أن الجائع مستعد لتناول كمية أكبر من الطعام وهضمه إيّاه كذلك الأغذية الفكرية تزيد لذتها كلما شعرت بمساس الحاجة الباطنية إلى تلقي نوع الأفكار ، وقد يزيد النظر والسمع تأثير الحواس الأخرى أو تنقصها فهي تزيد في العقل والفكر وتنقصه وبالعكس^(١) .

٢ - تعلموا الحياة من الطبيعة :

ومنها ما يخالج المرء أحياناً كما خالجنى :

١ - نظرت إلى إحدى المقاعد في الترامواي فوجدت خمسة يجلسون ويشغلون محل ثلاثة وقد ضاق بالجميع المحل وعلى الأخص

(١) نذكر على سبيل المثال مثلاً أديباً لأبي نواس حينما يقول : الا فاسقني خمرأً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر فهو يريد أن يسمع باسمها ويتلذذ كما استفاد الذوق . الشامة والعين وعندها تزيد اللذة .

بقي اثنان منهم في حالة قلق ، وهذه قاعدة عامة إذا شغل المحل جماعة أكثر من المقرر يكون مركز الجميع مضيقاً وقلقاً ، وإذا قسنا ذلك في التعبئة الصناعية والتجارية ، فإن الجانب السلبي أيضاً يكون غير مرضي ، أعني إذا قل العدد عن المقدار المعين تراخى الرص ، ولهذا كان الحل الوسط والمقدار المعين هو الأحسن . وقد قال الإمام الباقر عليه السلام حفيد الإمام الحسين بن علي عليه السلام كلمته المشهورة : (خذ الحسنة من بين السيئتين) .

٢ - إن الذي يستقر إلى القعر في الرواسب هو الأثقل وزناً بادئ ذي بدء وبالترتيب ، وهذه قاعدة عامة تتبع قانون الجاذبية . وبالعكس يتلاعب الريح بالأخف .

٣ - هناك فرق بين ما يحكم به الطبيعة في خلقها وضرورتها ، وبين ما تكونه الأغراض البشرية في كل شيء من حيث المتانة والاستحكام والدوام وملائمتها للأذواق في كل شيء مادي ومعنوي ، وحتى في العقائد من قيام مصلحين فرضتهم الضرورات الطبيعية وجاءوا على قدر مقتضيات واقعية اجتماعية أو طبيعية مصلحين من ذوي الآراء والنحل والأديان وبين ما خلقتها السياسة البشرية والأغراض الشخصية ، مثل اليهودية والمسيحية والاسلام اذا قسناها بالعقائد التي مرت وانقرضت ولم يبق لها أثر يذكر الأولى التي حكمت بها الضرورات الاجتماعية وبنّت أصولها على قواعد وأصول متينة والأخرى التي كان غرضها آتياً ومؤقتاً .

٣ - ان الطيور على أمثالها تقع :

مررت ذات يوم بحديقة غناء عامة تحف بالأشجار النضرة والاوراد الزاهية والمناظر الخلابة والمياه الجارية ، فسمعت فيها تغريد الطيور الغناء الحرة الطليقة والحديقة تجاورها مختلف البيوت القديمة ورغم كونها مجاورة لهذه الحديقة الواسعة فانك لا تجد فيها يوماً من الأيام هزراً أو بلبلاً ينزل بساحتها مغرداً أو ناشداً ، ولا أشك أن هذه البيوت ان شاءت أو

أبت فهي تحصل على حصتها كلما كانت قريبة من الحديقة من الأريج
المعطر والهواء النقي والمنظر الجميل وأن سمع بها يوماً نغمة البلبل فانما
هو على حساب تلك الحديقة .

كما أذكر أني مررت بالسيارة في شارع خنقت روائحه الكريهة
الركاب وعندما تساءلت عن سبب حدوث هذه الروائح ، قالوا ان بالقرب
منها مذبحاً ومسلخاً للحيوانات فكنت أرى الجميع يهربون من تلك الساحة
وكان السماء والأرض ضاقت بمن فيها ، فلا تجد من حيوان سوى كلاب
جرها الجوع وقد يزورها الضواري ليلاً . وتمر بالمزابل فلا ترى فيها غير
الحشرات الضارة والجراثيم والروائح النتنة ، ولا أشك أن من جاورها
أصابته باضرارها ان شاء أو أبى .

وأذكر يوماً اني مررت بحديقة فأحاطتني الأفكار والعواطف المبهجة
والآمال والأمانى بالحياة الجميلة المفرحة ووددت لو أجلس هناك وأتغزل
وأذكر عظمة الله وجماله في خلقه . وفي الثاني اعتراني الخوف والهلع من
الأمراض وضاق صدري وكنت أطلب مفرأ .

والموجودات لا تخلو من ثلاثة حسب ذوق البشر واحساسه وطبعه .
١ - النافع ٢ - الضار ٣ - المجرد من كليهما . والثلاثة إما ذات روح أو
بدونه سلط الله بعضها على بعض .

فالصالح أصل مثل الورد والمنظر الزاهي والماء الرائق والقلب
الطاهر والصفحة البيضاء والعقل والجسم السليم . والضار عارض وهو
الذي يصيب الصالح بالكدر والأوهام والأمراض والجراثيم . ولدفع الضرر
إما يستعمل الأشد فساداً أو المجرد للحيلولة فقط وتترك الصالح يتكاثر أو
ايقاف الفساد وتكثير الصالح أو الابتعاد عن منطقة الفساد .

فمن جاور المسلخ عمته الروائح النتنة ومن جاور الحديقة والرياض
شمלתه شذى عطورها وفاز بمناظرها الخلابة :

صاحب أخا ثقة تحضى بصحبته فالتبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخذه فيما تمر به تنن من التتن أو طيب من الطيب

٤ - الابتسامة :

عاد صاحبي بعد سفرة بعيدة زار بها أهم مناطق الشرق الأوسط
والأقصى ، إيران وباكستان والهند وبورما وتايلند وهونك كونك والصين
الشعبية واليابان وأهم تحفه جلبها معه بطاقة كتب عليها Keep Smiling
تَبَسُّم .

وكان معجباً بها كل العجب إذ وجد هذه البطاقة أمامه أينما سافر في
ربوع اليابان ، ووجد كما قال الابتسامة ظاهرة على محياهم أينما مر ، فهم
قالوها وعملوا بها ، ولم تكن هذه الجملة حديثة العهد ، ولكنها حديثة
بالنظر لكثرة شيوعها وانتشارها والعمل بها عندهم والاف في الامثال السائرة
عندنا : « اضحك يضحك لك العالم » . وانك تجد الابتسامة في أطيب
الأوقات وأبهج الأمكنة عند الفجر وعلى محيا الأزهار وفي نفحات الطيور
وفي مباحج الطبيعة والكل يعيد عليك بحكم التداعي أجمل الابتسامات
وأعذبها .

والابتسامة هي من أبرز الدلائل على الرضى والشكر والأخلاق
السامية فالابتسامة عند الأطفال من أبرز مظاهر شكرهم وهي تحمل
تحياتهم القلبية الطاهرة لآبائهم وأمهاتهم وأخوانهم وكل من شعروا منه
عطفاً وكل من قصدوا اهداء تحياتهم له . والعالم يكرم البشوش المبتسم
بالشكر والمسرة والسعادة والعكس بالعكس ، لذا قيل كما مر « اضحك
يضحك لك العالم » ، ذلك من ناحية اجتماعية . وأما الناحية الطبيعية
أقرب للواقع فأنت ما تعمله أمام مرآة تعكس لك أعمالك ومتى ابتسمت
فلا بد أن ترى أمامك ابتسامة على قدر ما تعمل .

ولي قصيدة في الابتسامة أذكرها أدناه :

أبسمي

- ١ - أبسمي قد جمع الشمل وزال النقص والمرآة وجهانا وقلباننا مناره واحذري الأوهام أن تسرق كاللص أمانينا ولا تبقى لنا إلا مراره فهلبي اغتني اللذات بالبسمة فالفوت لنا منها إذا ولت خساره
- ٢ - أبسمي لي فأنا جنبك ذا أبسم والشمل بنا يكمل لا نبغي سوانا وهناء العيش بالبسمة تنقاد لنا هيا لنجنحها على الطوع كلانا أبسمي لي بسمة القلب لأعطيك مع الاخلاص والحب الجنانا
- ٣ - أبسمي فالكون لي ييسم ما فيه صفاء وحناناً ويوليني قياده وأرى البهجة ما وجهت وجهي وأرى في وجهك الباسم لذات السعادة أبسمي يا منية القلب لأعطيك لما تهوينه مني وتعطيني مراده
- ٤ - أبسمي كي ننفث الآلام والاحقاد ما قد كدست فينا من الماضي السحيق وأبسمي كي نملأ القلب لمستقبلنا بالأمل المبهج والعيش الأنيق واسعفينا رشفة من ثغرك المنضود دراً من لماك العذب كانون الرحيق
- ٥ - أبسمي في صفحة المرأة طوراً واعبسي أخرى يوافيك لما جئت جواباً إنما الناس كمرأة لمن شاء على صفحتها يلقي الذي أبداه آبا فابسمي أبسم وارضيني أرضيك على الجهر وفي السر وأوفيك الحسابا
- ٦ - أبسمي تلقين بالبسمة أسراراً خبت كانت مفاتيح لحل المضلات أبسمي تنقشع الأكدار كالنور إذا حل انجلت عنه شجون الظلمات إن بالبسمة أسرار خبت فيهن ادراك السعادات وحل المشكلات
- ٧ - أبسمي فهي سلام وزكاة وثناء يتنامى لا يبار به ثراء وهي كالعلم إذا أنفقته زاد وإلاً ضاع والترك إلى البسمة داء إن في البسمة إذ تفر عن ثغرك للنفس وللغير شفاء وهناء
- ٨ - أبسمي واجتني الأوهام والأحلام واصغي لنداء من صميم الواقع

- رغوة الكأس فقاع قد علت أصلاً فلا يغريك رغو عن عصير جامع
 إن في البسمة حب يتسامى ما توات وحياة وسمو الطالع
- ٩ - أبسمي لا تبخلي فهو عداء كبرياء تافه يضحك في هذا الوجود
 كلما تسدينه نفياً وإثباتاً به تلقين أضعافاً لما جئت يعود
 فأكسي ما شئت بالبسمة أفراحاً وصدى عاديات لشجون وصدود
- ١٠ - أبسمي للوافد الصاخب مولوداً أتى أو حل ضيفاً خارقاً للنظم
 وأبسمي للنازح المرجو للعود ومن راح بلا عود قرين العدم
 أبسمي للواقع المحتوم فاللذة في التنويع للقانع والمستسلم^(١)
- ١١ - أبسمي للطير للنحلة للريح إذا هبت إلى الحقل لترتاد وتسرح
 وأبسمي للشمس لما نشرت أنوارها تجلى بها الظلمة في الكون وتنزع
 أبسمي عن ثغرك المنضود بالقداح ترياق المعنى خير ما يشفى وأصلح
- ١٢ - أبسمي للماء فوق الصخر رقراقاً بنور البدر في الجدول يجري كالعين
 وأبعثي البهجة في الأرواح تجلى كلما حل بها من كدر مر السنين
 أبسمي رحماك فالبسمة ما حلت وما أولته كالبلسم للداء الدفين
- ١٣ - أبسمي للظالم الفتاك بالأم وبالطفل وشيخ قد علاه الهرم
 وأبسمي في الحرب والسلام وقولي يا ابن أم الكل من أمك لحم ودم
 وأعلني بالبسمة الحب وقولي أيها الغفال بالزائل لا تختصموا
- ١٤ - أبسمي لي فأنا مثلك بالعنصر والروح وتلقين الذي ألقاه بعد الوطر
 لست من تبر ولا كنت من الفحم تعيين سوادي وعظيم الكدر
 إن ذراتك ذراتي وكتلتانا من الجوهر صنوان بنفس الأثر

(١) لكل جديد لذة/ حشر مع الناس عيد/ البلية إذا عمت طابت / تنقل فلذات الهوى
 في القنفل الراحة في الاستسلام أمام الأمر الواقع .

- ١٥ - أبسمي لي فأننا مثلك ذو قلب وحس وأنا مثلك تشقيني آمالي وأسعد
وأنا مثلك عند الفكر والجسم أعاني ما تعاني من الأعراض والصد
أبعثي لي نظرة الود من القلب إلى القلب لتلقين من الاخلاص مشهد
- ١٦ - أبسمي واستبشري في معرض الكون على صفحته تلقين للأضداد عرضاً
فخذي ما راق للنفس هنا منها وللغير بها ما شاء في المعرض حفظاً
ودعي الحرص على اقنائها فالكل أشباح ومن خالف ذاق النصب فرضاً
- ١٧ - وإذا ما داهمت بلوى أبسمي فهي سحاب تنجلي والصفو بعد النصب
واستمدي لذة العيش من الآمال للمقبل فالآمال مهوى الأرب
فأبسمي واستعرضي من صفحات العيش ما يدل بالبهجة مرّ النكب
- ١٨ - أبسمي دوماً وخلي الثغر يفترويزهو بثنياك ومن ورد الشفاء
ودعي وسوسة النفس إلى التفرير بالأعراض إكباراً قذى شر النواهي
واجعلي البسمة من شيمة تلك النفس لا تعدوك في الضيق ولا عند الرفاه
- ١٩ - أبسمي ثم عضي واستهضي فالكل يهفلو لعضات المشفقين البسم
إنما يدنو ويصني لك من حب ومن أولاك بالود لهذا الكرم
إنما البسمة مفتاحك للتقريب والتحيب لأنفس هيا فابسمي

٥ - التاريخ يعيد نفسه :

كل يوم تتضارب النظريات فيما بينها من جديدة وقديمة في شتى
الأمر المادية والمعنوية في القضايا العلمية والفنية من اجتماعية وأدبية
وغيرها ، فمثلاً نجد في الأزياء عودة ما كان معمولاً به قبل عشر أو عشرين
أو مائة سنة أو أكثر ، وهكذا ما نجده في الشؤون النفسية من شعوزة
وسحر . بيد أنه أحياناً يعود ذلك نفسه باسم جديد ونبرة جديدة وتطور
بسيط أو نفسه بعينه وهكذا يعيد نفسه . ومن القضايا المهمة التي أريد
بحثها هي القول بأن البشر الذي يبرهن اليوم على صحة نظريته العلمية
والعملية ويفند غيرها يعود نفسه بعد حين لاتباع تلك التي فندها مبرهنات من

جديد على صحتها ومفنداً تلك التي برهن على صحتها ، وهذا ما نجده أيضاً في وضع القوانين وأخص منها الجزائية وأصول إجرائها فاذن لا يجب تسميتها قانوناً ، لأن القوانين هي تلك التي يلزم أن تكون ثابتة ولا تتغير أبداً ، كالقوانين الطبيعية ، فهي إذن نظريات قانونية ، ولا ننسى أن المعقول والمنطق السليم حكمه واحد في كل زمان ومكان في الأمر نفسه .

٦ - المخدرات تقلل الشعور بالألم كما أنها تقلل الشعور باللذة أحياناً كثيرة :

من المخدرات المادية الأفيون ومركباته والكوكا والحشيش والمخمور الخ . . . والمعنوية مثل النوم المغناطيسي والنوم الطبيعي والتلقين والشعبذة . . . الخ . لأنها تقلل الحس الواعي الحس الذي يجسم الألم فيزيده ويدرك اللذة فيزيدها . لهذا كانت المخدرات منها ذات فوائد آنية للآلام ومنها ما كانت لها عواقب بعد زوال أثرها وعواقب وخيمة للبدن من سموم مؤثرة واعتياد ، وأما الذين يستعملونها لتزيد لذتهم فهو غلط فاحش لأنها تقلل اللذة إن وجدت .

إلا إذا قيل إن الأصل في المرء الشقاء والآلام الحسية والمعنوية وإن الشعور باللذة والراحة إنما هي بتقليل الشعور بهذه الآلام وهي تقل بدرجة تقليل الشعور والحس بالأمور المادية كالمخدرات أو المعنوية المصطنعة كالتنويم المغناطيسي أو الطبيعي كالنوم وهذا ما لا يثبت العلم ولا تقره التجربة .

كما يمكن القول بأن الأصل السعادة في العقل الكامل وإن تقليل الحس بما مر يقلل اللذة وهذا ما يؤيده الواقع .

٧ - الناس معادن :

والمعادن تختلف عن بعضها وزناً ومتانة ومرونة ولوناً ومقاومة

لعوارض الطبيعة وجمالاً وتختلف عن بعضها في أمور كثيرة ، فالذهب والفضة والحديد والرصاص والصفرة والزئبق وغيرها كل له صفات وميزات خاصة ويقدر هذه الصفات ويقدر ما يحمله من الفوائد يمتاز على غيره . وقد تصل قيمته عشرات أو مئات أو آلاف المرات بالنسبة لغيره ويقدر الاحتياج له تزيد قيمته .

ويعتبر الذهب من المعادن الغالية لندرته ومرونته ولونه الجميل وقوته ودوامه الناتج من عدم إمكان تأكسده بعنصر الأكسجين أو تأثره واختلاطه بغيره بسهولة ويختلف الحديد عن الذهب بكثرتة وشدة تأكسده وتأثره بأشياء كثيرة . وهكذا المعادن الأخرى .

والناس يختلفون باختلاف المعادن صلابة ومرونة وتحملًا للصقل وجمالاً للمنظر وتحملًا ومقاومة لعوارض الطبيعة المختلفة ، وعلى قدر ما يحمله الفرد من المزايا تقدر قيمته في المجتمع .

فما شابه منها الذهب بصفاته النادرة كان له مقام الذهب بين المعادن بالنسبة لوضعه ومكانته الاجتماعية وقد ينهار لأقل طرق أو يفقد صفته لأقل مجاورة للماء والرطوبة كالحديد ، أو هو أسرع من ذلك أو يكون له مفعول قوي في تجرده ويفقد كل صفاته عندما يختلط أو يتركب مع عنصر أو عناصر أخرى تخلق منه جسمًا جديدًا كعنصري الهيدروجين والأكسجين وتكوينها الماء ، وقد يتكون في عناصر بسيطة أشد المركبات سميّة وأعظمها خطرًا مثل سيانور الزئبق ، وقد يحصل من أشدها خطرًا مركب غير خطر بل هو دواء نافع لكثير من الأمراض . هذه الصفات عينها تحصل في البشر في حياته الفردية وحياته الجماعية .

ثم نعود لنجرب بعض المواد المركبة ، فنقول ما سبب متانة جواريب البلاستيك والألبسة البلاستيكية بالنسبة للحريص الصناعي والصوف والقطن ، لجمالها ودوامها ومتانتها وسرعة نظافتها؟ هذه المتانة والمقاومة الموجودة في خيوط البلاستيك إنما هي نتيجة قوة شعيراته الدقيقة المنكمشة على

نفسها وقابليتها للبسط والانكماش من جهة ، وقوة وطراوة الشعيرات الطويلة من جهة أخرى ومزايا أخرى ألبستها المقاومة وأعطتها طول البقاء .

بينما الحرير الصناعي إنما يمتاز بجمال منظره المؤقت ولكنه يفقد المرونة والمتانة وقابلية التمدد والانكماش فهو ذو ظاهر مليح وباطن قبيح . أما القطن فهو يحل محلاً وسطاً ، وخير منه الصوف لولا تأثره ببعض الحشرات الضارة كالعث . ومثل هذا الاختلاف يحصل بين أفراد البشر فمن كان ذا قابلية للتمدد والانبساط والانكماش لين العريكة قوي الجنان ، جميل الظاهر والباطن ، كان أشدها تحملاً للمصائب والمشقات ، وكان محتلاً مركزاً أرقى وجلله الرأي العام ، والمشابه للحرير الصناعي كان على عكس ذلك .

٨ - الكرة تنفجر وتتفسخ - (أكثر الطق يفك اللحم) :

شاهدت ذات يوم أحد الباعة الدوارة وهو يحمل كرة مطاطية نفخها وأخذ بطرفها بصفحة كفه فتثير ضجة ويتجمع حوله الأطفال وأولياء الأطفال لشرائها أو شراء مثلها التي لم تنفخ بعد .

واشتري طفلي الصغير إحداها واستعملها ككرة قدم هو واخوته . وكانت تطير بخفة وتعود بهدوء وظل يلعب بها مدة طويلة في ساحة الدار الواسعة ، ثم انتقل اللعب داخل الغرفة الضيقة ، بيد أننا سمعنا بعد لحظة انفجرت انفجاراً مهيباً وتقطعت إرباً ، وحينما تحققنا عن سبب الانفجار علمنا أنه وقع على أثر إصابة الكرة برأس مدبب حاد كرأس الدبوس برزت في إحدى الجوانب .

طالما ضربنا الكرة بقوة فائقة بصفحة كفنا فلم تنفجر فكيف انفجرت على أثر إصابتها برأس مدبب وأقرب إلى رأس دبوس؟ نعم لأن رأس الدبوس هذا على قدر ما كان صغيراً كان حاداً واستطاع النفوذ بالقوة المتجمعة على ذلك الجزء الصغير من سطح الكرة ، ويتأثير الضغط

الشديد الداخلي فتح تلك الفتحة الصغيرة لداخل الكرة التي كانت تحوي هواء مضغوطاً ، وكان من قبل هذا الضغط موزعاً على نقاط سطحها الداخلي والذي يقابله ضغط خارجي متساوٍ . بيد أن هذه الفتحة الصغيرة سمحت للهواء المحاصر حينما أدرك مخرجاً أن يندفع فجأة إلى المخرج وعلى أثر هذا الهجوم الفجائي إذا الفتحة تتوسع بسرعة هائلة وتمزق الجدران الأضعف فالأضعف .

ألا يمكن قياس ذلك على الوضع الاجتماعي واتخاذ الوقاية والعلاج في القضايا المماثلة الاجتماعية؟ .

ثم أتلي حديثي ذلك لوضع بعض القواعد :

١ - وزع الضغط أو الاتقاء أو السحب على الشيء متساوياً لتأمين تمزيقه أو تخريبه وانهدامه كما مرّ في الضغط المصنوع في الكرة والأنابيب المطاطية للسيارات ، أو حمالات الأثاث كما في دواليب الألبسة ومثلها توزيع الأثقال سواء في الأبنية أو غيرها تلك في الأمور المادية ويقابلها في الموارد الاجتماعية . كالضغط المالي أو الأدبي أو السياسي في المجتمع الواحد على البعض دون البعض فهو كما في الماديات يؤدي إلى الانفجار والتفكيك والانهدام والتخريب .

٢ - لا تحمل الشيء ما لا يطيق وإلّا سبب انهدامه وتخريبه ، فالضغط الزائد أو الثقل غير المتناسب لحمله حتى لو تساوى توزيعه على الأجزاء سواء في الداخل والخارج دفعاً أو سحباً لا شك وأنه يؤدي إلى تدمير الشيء ، لهذا كما أن هناك يجب الحساب الدقيق لتحمل الضغط والحمل في الأمور المادية لصيانة وحفظ موازنتها وسلامتها واستمرار الاستفادة منها مثلها في الأمور الاجتماعية يلزم ذلك . هذا إلى مراقبة أخرى في الماديات والاجتماعيات في حفظ الموازنة ومراعاة الزمن والظروف المحيطة المجاورة والعوارض الطبيعية الحاصلة وما شاكل ذلك .

لكل ضغط درجة قد يؤدي بعدها إلى انفجار ونضرب لذلك مثلاً على الأجسام ، فإذا زاد الضغط الداخلي لكرة لدرجة يخشى من انفجارها فما هو طريق الوقاية لاتقاء خطر الانفجار؟ نعم هناك طريقان للوقاية :

١ - الوقاية من الضغط ومنع وقوعه من الداخل . ويكون بتخفيف الضغط الحاصل ما أمكن فمثلاً كرة نضغط فيها هواء فنمنع انفجارها ومنع تخريبها واتقاء الضرر إلى ما يجاورها هو بتخفيف الضغط بإخراج كمية من الهواء الداخلي ويعرف ذلك بوضع مقياس لذلك .

٢ - الوقاية في حدوث الخطر وعواقب الانفجار فيما إذا لم يكن منعه من الداخل فمن الخارج .

إذا فرضنا لا يمكن اتخاذ الوقاية في الداخل فيلزم اتخاذ الوقاية الخارجية وهو بتكليف جدار الإناء وتقويته لتحمل الضغط على المطلوب أو بإيجاد ضغط خارجي على كافة نقاط الجدار بصورة متساوية تعادل الضغط الداخلي . ولا يفرق هذا الخطر إذا زاد الضغط الخارجي فإنه بسبب كبس الإناء بشدة كما يحصل ذلك حينما نفرغ نصف الكرة المعدنية أو الزجاجية بوسيلة من الوسائل نفرغها من الهواء فإن الضغط الخارجي بضغطه على الجوانب يمنع من فكها ، وهذا ما يحصل للقنابل التي يطبخ بها تحت ضغط البخار والحرارة حيث يصعب فكها بسهولة إذا بردت ، فيلزم إما تسخينها لتكوين ضغط داخلي ، أو بقوة أخرى تفتح غطاء القنابل وإذا أحدثنا ضغطاً قوياً خارجياً فهو يؤدي إلى تخريب الإناء بانغماسه إلى الداخل وتحطيمه إذا كان زجاجياً ، ولا ينحصر التخريب في الضغط الموجه من الخارج إلى الداخل بتخريب الإناء فحسب ولكن الضغط الداخلي يؤدي إلى مفاسد أكبر وأكبر ، فهو في الوقت الذي يخرب الإناء نفسه تخريباً قد يكون كبيراً جداً فهو يؤدي إلى تخريبات خارجية أخرى ، كما في القنابل ، ولهذا إذا لم يمكن القيام بوقاية لتخفيف الضغط الداخلي أو الخارجي لمنع الانفجار والحوادث المارة فلا بد من الابتعاد عن الشيء

المحتمل انفجاره . ولا ننسى أن الانفجار قد يؤدي إلى تخريب بناية أو مدينة كما يستعمل في الحرب . ذلك في الأمور المادية وهناك احتمال ذلك في الأمور المعنوية في الأوضاع الفردية وفي الشؤون الاجتماعية وإن الوقاية والعلاج يمكن استمدادها من المادية وتطبيقها على المعنوية والاجتماعية ، وبالعكس ويمكننا الاستفادة من المواد الكيماوية والطبية مثلاً إن لكل مادة صفات خاصة كالأكسوجين والهيدروجين ، بيد أن من تركيبها ينتج مواد ذات صفات أخرى حسب التركيب إما متعادلة أو غير متعادلة وشئ المواد الأخرى المختلفة بصفاتها الواحدة عن الأخرى .

وهكذا في مفردات الطب إن لبعض المواد كالاترويين تأثيراً خاصاً على البدن ، فهو يوسع حدقة العين وأخرى تعمل عكس مفعول هذه مثل الازرين والبيلوكاريين وغيرها فهي تضيق حدقة العين ، بيد أنها إذا أعطيت كلاهما في العين ، فماذا تحدث؟

أعود بعد هذا البحث لأتساءل : ماذا يحدث لسطح الكرة المعدنية أو الزجاجية إذا زاد الضغط الداخلي والخارجي وكانا متساويين؟ أو إذا قطرنا قطرة الاترويين وأعقبناها بقطرة البيلوكارين الا تترك القطرتان أثراً ثانوياً؟ وهل تفرق إذا مزجناهما معاً واستعملناهما وهكذا باستعمالنا مادة مسهلة وأخرى مقبضة أو مادة طبية مسكنة وأخرى مهيجة بصورة متعادلة ماذا يكون تأثيرها؟ لا شك أن لكل منها تأثيراً تختلف عن تأثير استعمالها سوية أو بانفراد . ففي الضغط فإن المادة المحصورة بين الضغطين تختلف باختلاف نوع المادة فقد لا تتأثر إذا كانت صلبة وقد تنكس وقد ترق كلما زاد الضغطان ، وهكذا المواد الكيماوية بتأثيرها ، فلكل أثر مستقل وأحياناً تُفقد إحداها أثر الآخر بتاتاً أو يزيل بعض آثارها ، كما في التركيب والتحليل الكيماوي ومفردات الطب ، ويختلف في التطبيق المادي ، وكما أن الأوضاع المادية شئ فمثلها المعنوية ، ولكل مشابهاة يمكن تطبيق هذه على تلك للاستفادة القياسية الدقيقة أو التقريبية ، لذا يلزم للعالم

المجرب الاستفادة والتطبيق الصحيح بإحداث مخبرات ومعاهد تطبيقية للوصول إلى الهدف المطلوب ، سيان منها المادية والمعنوية الاجتماعية .

٩ - العقد :

في ساعة حرجية وبصورة مستعجلة أردت يوماً أن أفك عقدة الحذاء وإذا بي في جرة واحدة أشكل عوض فك عقدة بل قل نصف عقدة أشكل بضع عقد متخالفة على بعضها أثارت بي حس الغضب حاولت لأقطع خيط الحذاء ولكنه كان قوياً وأقوى أن أستطيع بتره بمجرد اليد إلا بسكين أو مقص ولا سكين أو مقص آنذاك . إلا تعست العجلة وكم فيها من ندامة وتعس الغضب في غير محله لماذا كل هذا؟ وما هو السبب؟

وإذا ما حللت الموقف وجدت أنني حين أردت فكها لم أنتبه إلى طريق فكها ولم أنظر لكي لا تتداخل الأطراف وتشكل عوض الفك تلك العقد . والآن وبحكم الضرورة علي أن أنظر مصدر الخطأ وإعادته إلى حالته الأولى ولا يكون ذلك إلا بالتؤدة لأنني إن أصررت وجذبت أحد الرأسين بقوة شد على الأخرى وأشكل علي بها الفك .

فتوجهت إلى محل الالتباس وبدأت أرخي أطرافها من كل جهة حتى بدت لي المداخل والرؤوس وأنا أنظر إليها بدقة ففككتها وأعدتها بكل سهولة إلى الحالة الأولى ، دون قطع الخيط .

هذا ذكرني بلعبة أو قل شعوضة تقوم على أساس العقد وهي أن يؤخذ منديلاً وتعقد أحد أطرافه على الطرف المقابل بشدة ولكن على شرط أن يعتبران الطرف الثاني كعصا لا يقبل الالتواء وإنما الطرف الأول هو الذي يلتوي على الطرف الثاني وعندئذ يطوى عقدا الطرف الأول على الثاني ما أمكن عقده اثنتين أو ثلاث أو أربع وأكثر وما أمكن من قوة ، بحيث يحسب الرائي أن فكها يحتاج لأمد طويل ودقة وقوة بيد أنك بمجرد سحب الطرف الثاني الممثل بالعصا وتتوئده على شرط أن لا يحس الآخرون ،

أي حين اشغالهم ، ترى أن جميع العقد قد انحلت من ذاتها لأن الطرف الثاني يكفي سحبه حتى بيد واحدة وهذا السحب يترك العقد المعقودة عليه فارغة وواهية كأنها التفت على لا شيء .

تلك حالتان لها مشابهاة كثيرة في الأوضاع الاجتماعية .

الأولى تريك كيف يجب أن تحل العقد المعقودة دون أن تتشابك بتداخل الرؤوس أعني حلها بملاحظة ودقة بدائية قليلة . والثانية تريك كيف تعقدها ليري الأغيار انها كثيرة العقد بيد بيدك رمز الحل بلحظة ودون أن يلتفت أحد لحلها . وكلا المشكلتين المادية والاجتماعية كثيرة الحدوث للأفراد والمجتمعات .

١٠ - تداخل الخيوط أيضاً :

جاءني طفلي الصغير إلى غرفتي وهو يحمل بيديه بكرة خيوط رفيعة قد سحب خيوطها ، فالتفت على بعضها وعلى أزرار ثوبه ، فتناولتها منه وإذا بأمه واقفة ، فقلت لها : أهكذا يترك هذا بيد طفل لم يبلغ بعد الثالثة ؟

وحاولت إعادة الخيط إلى محله على البكرة ، ولكن أننى لي ذلك وقد اشتبكت الخيوط وتداخلت ببعضها . وكلما حاولت سحب الخيط من جهة تجمعت عدة عقد . وأوقفت السحب ، ولم يكن أحياناً بد في مثل هذه الحال سوى أمر واحد إذا شئت إعادة الخيوط سالمة دون اللجوء إلى تعقدها ، والاستفادة منها سوى التروي ، والهدوء ، والنظر إلى الممرات الرئيسية والمداخل التي تمر بها ، وحلها وفكها الواحدة بعد الأخرى بصبر وحكمة . وهذا ولا شك يأخذ وقتاً طويلاً ، وعلى قدر الاستعجال تنعكس الأمور فتتداخل العقد ويشتد الارتباك وتضيع وتضيع الممرات . وقد يضطر الفرد أحياناً إلى بتر الخيط من أول عقدة ليسهل ويسرع فكها ، وقد يضطر إلى قطع الخيط في أكثر من محل واحد ، ثم العودة إلى وصله ثانية ، تاركاً ندبات على الخيط السمح واما إذا كان الطفل قد عبث بها كثيراً ، أو

استعمل أحداً لفكها بالقوة والعجلة والرعونة فسيؤدي حتماً إلى شبكة من !لنقد المتداخلة غير المنظمة وعدم الاستفادة بتاتاً من الخيوط المتشابكة ، وكلما كانت الخيوط أدق وأرفع كانت أصعب فكاً وأشد تعقداً .

وكم في الأمور الاجتماعية المشابهة لهذه في تعقدها وفي أصول فكها ، وما أكثر أطفال المجتمع التي تتشابهك وتتعدد على يدهم الخيوط السمحة ويضطر لفكها إلى ذوي الحكمة والحلم ، ولأ كانت كالخيوط بيد الأطفال طبق النعل بالنعل . ولي خماسية في ذلك :

فك كور الخيط والطفل له اللعب بهاتيك سجيـه
وهو يدري أمه تحسب هذا عبثاً دون رويه
فإذا فيه يريد العود للبدء ولف الخيط طيه
سحب الخيط فكانت عقداً قد أعبت الأم عتيه
عقد الجاهل كم أعيت ذوي اللب وأبلته بليه

١١ - التجربة خير دليل :

لا نشك أن العلوم ما قامت ووضعت إلا على أساس التجارب والمرء ما جربه كان له خير من العلم إذ العلوم نتيجة التجارب .

قد يستدل المرء على قضية أو أمر يناقضه فيه آخرون فيبرهن هذا على وجهة نظره وينقضه ذلك ، مستدلاً على صحة نظره ومنفذاً قول الآخرين . كأن يقال في مسلك أو مذهب أو أمر اجتماعي أو سياسي فيما إذا اتبع هذا المسلك أو طبقت هذه الشروط أو إذا أختير فلان رئيساً أو مهندساً في إدارة شركة أو إصلاح عمارة أو معمل فإن العاقبة تكون كذا ، أو يبحث عن اختيار طبيب لمعالجة مريض ، ويقال : إن الطبيب الفلاني هو أحسن الأطباء لمعالجته بالنسبة لتشخيص المرضي وتعيين الدواء ، وما إلى ذلك ويحصل من يناقض هذا مستدلاً استدلالاً عقلياً قوياً أو ضعيفاً .

بيد أن كل هذا ينتهي فيما إذا جرب المهندس والطبيب والمربي

وصاحب الطريقة وكل فرد آخر وكل آلة أو أي شيء وعلى الأخص في نفس الأمر موضوع الجدل ، لأن التجربة أقوى دليل . وهذا ما يلزم الامعان فيه في كل شيء حتى في المذاهب والأديان . بعد التجربة يظهر الحق من الباطل ، ويمكن استعراض الأمور وحقائقها على العقل السليم الخالي من الشوائب شوائب العرف والعادة المستحكمة ، البعيد عن تأثير الغرائز والأغراض . ومن الجهل المركب الجدل في أمر بديهي أو أجمعت على حسنه أو قبحه العقول السليمة والألباب الحكيمة ، ذلك العقل الذي لا يقبل التعصب الأعمى والعزة بالإثم .

وقد يمكن وضع قانون أدبي ذلك الذي وضعه الأدباء حتى قالوا :

« حدث المرء بما لا يليق فإن صدق فلا عقل له وحدثه بما يليق فإن كذب فلا رأي له » .

١٢ - طبائع البشر : لجلب الخير ودفع الشر :

اثبت التجارب أن طبائع الناس تختلف باختلاف طبائع الأجسام الحية ، فمنهم كالهرة متملقة ، ومنهم كالكلب صديق وفي ، ومنهم كالعقرب يلدغ بالفطرة ، ومنهم كالذئب وحشي وغدار ، ومنهم كالنحل يعطيك عسلاً وأنت ملزم لاتقاء لسعه ، ومنها كالأغنام تعطيك لحماً ولبناً وكساء وما لا يُعد ولا يحصى ، منها ذات ضرر وذات داء عضال أكثر ، ومنها ذات نفع أكثر من الضرر، ومنها مختلطة ، ومنها المغتالة ، ومنها الأمينة . وإلى جانب كل خصلة حميدة في كل جسم خصلة مذمومة وبالعكس وعلينا البحث عنها للاستفادة من الحميدة واتقاء الضارة . لذا من شاء إدارة شؤون الغير ومن أراد السيادة والإدارة أن يكون مجهزاً بالعلم والحكمة والتجربة بمعرفة طبائع البشر على اختلاف نحلهم وملهم واختلاف عقائدهم وأذواقهم ، فالأغنام يحسن رعيها وزنبور العسل يتقن تربيتها وتكثيرها والعقرب يتقي شره والطفيليات الضارة يبيدها ، وهكذا . والإنسان حيث يختار بعقله فهو يضع عقله لخدمة غرائزه أكثر الأحيان ،

فهو بحاجة إلى دقة أوسع ومهارة أكبر للوقاية منه من شره والعمل على تهذيبه لتكون غرائزه في خدمة العقل . والحكمة تقضي لمن يريد أن يدير إمارة أو مملكة الحل والفصل ويستعمل ما تقتضيه المصلحة العقلية دون النظر إلى العواطف وهو ما يحكم به الوجدان وتأمر به الشرائع الحقة .

والمشرع لا يحكم بالقصاص قبل الجناية أو الأضرار بأحد قبل حصول ضرر منه ، وينهى عن الاغتتيال والغدر . وعلى من أراد أن يكون مديراً الدقة في المراقبة والوعي الكافي ، فهو إلى جانب السماح بالحرية أن ييث العيون ويتحرى بدقة عمل المخربين والمعتدين وإحاطتهم كأمر للوقاية . ومن جهة ثانية تشجيع من يستحق التشجيع على الحسنى ، ثم السعي على تحسين الوضع الأخلاقي والاجتماعي بالثقافة والتعليم والإرشاد من طريق التربية والتعليم .

١٣ — عرقله صغيرة تجر وراءها عراقيل :

خف إلى سمعي ضوضاء بدأ يتزايد وأتبعته أبواق السيارات وهرج ومرج ثم صخب وغوغاء كانت أعظم من مظاهر عادية ، فهرعت إلى الشباك المطل على الطريق العام ، وإذا بالسيارات الواقفة قد ملأت الشارع من أقصاه إلى أقصاه ، وإذا بالمارة يهرعون ويخترقون السيارات وإذا بأصحاب السيارات الواقفة جري قد سد عليهم الطريق من الأمام ومن الورا . وهذا دعاني إلى النزول من الطابق الأعلى إلى الشارع لأتحرى السبب ، حتى إذا بلغت المبدأ وإذا بسيارتين اصطدمتا على أثر استدارة إحداها ، وكان اصطداماً خفيفاً جداً لا يعتد به لولا لجاجة المصدوم والصادم اللذين بقيا يتنازعا في محلتهما . وكلما مرت دقيقة ازدادت المشكلة مشاكل وتكدست السيارات حتى عمّت الشارع من أقصاه إلى أقصاه . ولم يكن هذا إلا مثلاً صغيراً من عشرات بل مئات العراقيل والمشاكل ، وربما تجاوز هذا التكدس وأثر على شوارع أخرى لها ارتباط بهذا الشارع ، ثم نعود لنرى ما يترتب على هذا من تعرقل الأعمال

والمكاسب ، إذ كل صاحب سيارة إنما ركب سيارته ليصل إلى مقصده وينجز عملاً إما إدارياً أو تجارياً أو صناعياً أو عائلياً وأموراً أخرى ، وكل واحد مرتبط به ارتباطاً له انجاز أعمال تتعلق بآخرين ، ومنهم من أعطى وعداً أو يجب أن ينجز عمله في وقت محدد ، وإذا كان موظفاً فقد أثر تأخره على غيره من المراجعين الذين ينتظرون قدومه ، وإذا كان تاجراً تأخر عمله التجاري أو المصرفي أو الجمركي ، أو معاملاته مع غيره ، وربما أثر هذا التأخر باعتبار أفراد وأحدث أضراراً مادية واعتبارية . تلك حادثة بسيطة أبسط ما يمكن أن يتصوره الفرد ، ولا بد لفتح الطريق من إعادة السيارتين إلى وضعها الأصلي ثم تسريح السيارات بعدها الواحدة تلو الأخرى . وقد يكون الشارع طويلاً فتطول المدة .

لم تكن هذه الحادثة تخص سير السيارات فحسب ، بل هناك ما يقابلها من عرقلة بسيطة اجتماعية يختل على أثرها أوضاع اجتماعية أو سياسية تؤثر على الأوضاع السياسية أو العمرانية . وهكذا وكل حادث يتأثر بالظروف التي تحيط به ، وكثرة الحوادث المتشكلة به والسبيل الطويل أو القصير الذي ينتهي إليه ، كما هو بالنسبة لسعة وطول الشارع وكثرة أو قلة المرور الذي يخترقه . فاتقاء لمنع وقوع مثل هذه المشاكل يلزم وضع حد ونظام ينظم السير ويقضي على مثل هذه العراقيل بسرعة فائقة إن حدثت ، مهما كانت صناعية أو اجتماعية أو غير ذلك . هذه هي الوقاية وهذا هو العلاج .

وهذا الموضوع ذكرني بأبيات شعرية أرسلها الوالي الأموي من إيران (ري) سابقاً إلى الخليفة الأموي يعبر بها عن القضاء على مشكلة بدائية قبل اتساع الخطب ووقوع الكارثة بقوله :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرار
إذا لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

إلى أن يقول :

أقول من التعجب ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نياماً فقل قوموا لقد حان القيام

فكانت نتيجة الإهمال والاعراض اتساع الخطب ثم الاطاحة
بامبراطورية عظمى .

١٤ - انتقال طبيعة المأكول للأكل :

إن أكل لحوم الحيوانات تورث صفاتها للأكل ، فلحم الإبل والضأن
يورثان القبض والإمساك ، كما نجد ذلك في مدفوعها ، وأكل لحم البعير
يورث تحمل العطش لحمله نفس الصفة ولحم السمك يورث العطش
لحمه نفس الصفة في حبه للماء والخبث . ولذلك يمكن القول أن العرب
في الجاهلية كانوا معروفين بأخذ الثأر ودوام المعارك والعداء بين كثير من
القبائل ، وتلك من خصائص البعير حيث يستفيدون من حليبه ولحمه فهو
يورثهم صفاته المادية والمعنوية من تحمل المشاق والحقد . ولعل السبب
المنطقي الذي دعا الأديان السماوية إلى منع لحم الخنزير وأكله ومنع
لحوم الحيوانات الكاسرة هو ما فيها من الصفات غير الممدوحة اكتسابها
لإنسان عاقل ووجدان حي .

هكذا النباتات فما كان لها من خواص تورثه لأكلها فالتى تنبت
بالصحارى القاحلة قليلة الماء تساعد آكله على تحمل العطش ، والنباتة
في المناطق الحارة تساعدهم على تحمل الحر ومواجهة ما تواجهه هي من
عوارض طبيعية ، وما تنبت في الفصول الحارة تساعده على تحمل الحر
وعوارضه ، والاثمار الحاصلة في الفصول الباردة مساعدة على تحمل البرد
ولا تصلح كالأولى لفصل الصيف ، وكل نبت وفاكهة يصلح أكلها في ذلك
المحيط والمحيطات المشابهة له أكثر من غيره . فالتمر في بلاد الرافدين

وفي الصيف ولأولئك الذين نشأوا عليه واعتادوه فهو خير من بلاد أخرى
وفصل آخر وأفراد آخرين ويساعد على تحمل الحر^(١) .

١٥ - قابلية اكتساب البدن والروح لصفات الخير والشر :

في الأمور الصحية الطبيعية أن لبدن الإنسان خاصية الدفاع طبيعياً
وبالغريزة . ولكل عمل مادي ومعنوي انعكاس ورد فعل على البدن وفي
البدن . وللبدن تجاه كل أمر غريب داخلي وخارجي مادي أو معنوي إذا
كان غريباً عليه مقابلته بالدفاع ، ثم الهجوم لدفع خطره وترميم تخريبه ،
ولأجل ذلك يمكن اتخاذ الوقاية أمام أكثر الأخطار الفجائية بتكوين حالة
دفاعية جاهزة في البدن فيعطي اللقاح في كثير من الأمراض السارية لتكوين
مناعة في البدن ضد ذلك المرض ، كالجدري والهيضة وأمثالها . وهو
يطبق على كافة الاحياء .

كما يمكن استعمال الاستحمام بالماء البارد وصنع رعشة بردية
مصطنعة من حين لآخر اتقاء من البرد المفاجيء وعوارضه الضارة والابتعاد
عن الزكام والصداع ، والعادة على الحياة الخشنة من أكل ونوم ووسادة
وغطاء من حين لآخر لتعويد البدن على الصعوبات ، ولكي لا يقهر
ويضجر أو يمرض ويعتل إذا صادف تلك وهو معتاد على النعومة . هذه من
ناحية مادية وهناك يقابل كل واحدة جهة معنوية وعقلية وروحية فتعويد
النفس على تحمل الصعوبات المعنوية والآلام الروحية والصدمات العقلية
بالشجاعة والبسالة ورباطة الجأش والإرادة وبالجلد والصبر تجعل من المرء
بطلاً لا يقهر أمام مشاكل الحياة ، وعلى قدر ما يرمي إليه من الأهداف
يحصل على نتائجها الغالية ، ولكل أمر مادي يقابله أمر معنوي وأدبي
 واجتماعي والعكس .

(١) يروى عن رسول الله محمد بن عبدالله (ص) قال : المعدة بيت كل داء - والحمية
رأس كل دواء . وأعطوا النفوس ما عودت والنفوس تعتاد ما تتناوله من طعام منطقتها
ذات الطقس . المعين من حيوانية ونباتية واعتادته .

أيجوز لنا أن نستمد من هذا مقاييس صادقة للراحة والعناء ،
وبالعكس أي أن العناء بعد الراحة ونتجاوز ذلك إلى موارد ومطالب
أخرى؟ .

لا شك أن التعب في الإنسان يعقبه الشعور بالراحة فكأن الراحة لا
يشعر بها المرء إلا بعد بذل الجهود وتحمل المشقات حتى لو كان هذا
التعب باختيار الشخص ومحض إرادته ، وهذا ما يحاول الحصول عليه
الكثيرون عند شعور السأم فيقوم ليقضي وقته ولو بالمشي أو قيامه بأمر
متع غير منتج لمجرد أن يستريح بعدها .

وعلى هذا هل يمكن القول ان كل فعل في الحياة يجلب نقيضه؟
كيف ذلك؟ لنضرب على هذا مثلاً : هل أن البكاء الحاصل على أثر تأثر
وحزن يجلب راحة الخاطر كما في التعازي؟ وإن الأفراح الكثيرة أو
الضحك يعقبه حزن وسأم كالافراط في سماع الموسيقى والملاهي والسينما
والافراح؟ أم ان كل تلك هي من نوع العمل الذي يجهد الشخص مهما
كان نوعها يحتاج بعدها إلى الراحة؟ أو أن لكل أمر مادي أو معنوي درجة
إشباع وغاية يقف إليها عند المرء كما في السوائل وكل سائل له قدرة في
درجة معينة من الحرارة لإذابة بعض المواد ومثلها النفوس لها درجة تحمل
وطاقة خاصة بها لتحمل التعب الجسمي والتعب الروحي كما لها درجة
إشباع خاصة في تناول الطعام والشراب التي هي بحاجة لها وتناول المواد
الضرورية التي تحتاجها . كما أن النفوس بحاجة لدرجة معينة للتمتع من
المناظر بالنسبة للنظر والانغم بالنسبة للسمع ، وهكذا قل في كل حاسة
ممتعة أو مؤلمة بدنية أو فكرية أو نفسية وما زاد أو نقص كان متعباً لها .

١٦ - درجة الاعتدال - الزائد كالتقص :

إن حد الاعتدال طالما تحدث عنه العقلاء والحكماء والأدباء ،
فمنهم من قال لا تكن ليناً فتعصر ولا يابساً فتكسر . وقال آخر : الزائد
كالتقص . وجاء في القرآن : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ، وَلَا

تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴿ [سورة الإسراء ، الآية : ٢٩] . ونقل عن الإمام الباقر بن السجاد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يخاطب ابنه جعفر الصادق عليه السلام : « يا بني خذ الحسنه من بين السيئتين » أي الحد الوسط فما قل أو زاد كان سيئة ، وكما قال آخرون : خير الأمور أوسطها .

وربما كان ذلك منطبقاً على موارد مادية ومثلها معنوية فقد نقل عن محمد بن عبدالله رسول الله (ص) وهو يخاطب علياً (ع) ، قائلاً : « يا علي هلك فيك اثنان ، محب مغال ومبغض قال » ، وعلى هذا حتى في البغض والحب كانت درجة الاعتدال خير الدرجات . وإذا ما طبقنا ذلك على الاثمار مثلاً كان خيرها الذي بلغ حد الكمال في النضج ، وما قل أو كثر كان غير مرغوب فيه . وهذا ذكر في محادثتين :

أولها : مررت يوماً مع عمي بالسوق وأنا طفل لشراء بعض المأكولات ، حتى إذا وقفنا على الحاج سلمان ، وهو مختص ببيع « الرقي » ، فقال له عمي بعد السلام : أود أن تعطيني رقياً جيداً . فأجابه : على عيني سأعطيك فوق الجيد . فشكره عمي ، وقال : ارسل لنا (كذا) مقدار إلى البيت . ففعل . بيد أننا ما كسرنا واحدة منها إلا وكانت قد تجاوزت حد النضج ، يعني قد استحال أكثرها إلى ماء وهو غير مرغوب فيه من الرقي والبطيخ ، فكان الحاج سلمان قد صدق قوله وما كان لنا إلا أن اكتسبنا تجربة ، وهي أن لا نقبل بعدها فوق الجيد من الرقي والبطيخ .

ثانياً : كما قلنا إن الفواكه جميعاً لها درجة نضوج سواء كانت على الأشجار أو بعد اقتطافها ، ولا شك أن درجة النضوج الطبيعي على الشجرة خير من درجته خارج الطبيعة ، ولهذا نرى أن أحسن الفواكه ، ومثلاً البرتقال ، هو البرتقال الذي نضج على شجرته ، وما مرّ عليه وقت طويل أخرجه إلى الجهة الثانية ، فقلل من نفعه . إذ مررنا مرة ببلدة رامسر ،

وهي من قرى مازندران المعروفة بالبرتقال ، وكان مرورنا في أواسط الصيف ، في فصل لم يكن فصلاً للبرتقال ، بيد إننا وجدنا على ممر السيارة وعلى أرض المسيح فتياناً يحملون البرتقال يعرضونه للبيع ، فاشترى صاحبي منه رغم اني قد منعت ، وقد أغراه منظر ذلك البرتقال ، وقد اشتراه بثمن غير بخس بل بأثمان عالية . ولما كسرناها وجدناها يابسة من الماء فقدت كل حلاوة وحموضة ، فهي كالعصير الذي لم يبق فيها حتى قطرة من الطعم والرائحة لأنها تركت على أشجارها أو خارج الشجرة بصورة تجاوزت حد المعمول والاعتدال .

ونعود إلى موارد أخرى عن الحد الوسط أو درجة الاعتدال ، لنرى أن الافراط في الافراد في البغض والحب والمدح والذم مذموم بتلك الدرجة في الاغراق والمبالغة . وإن الاعتدال في النوم هو الدرجة المطلوبة دائماً . فمن قل نومه اعتل فكره ، ومن نام أكثر من الطبيعي ثقل جسمه وفكره ، وتعود على الكسل والخمول . ويظهر الاعتدال في تناول الطعام والشراب . وما أحلى الآية القرآنية : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تَسْرِفُوا ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٣١] . فتلك خير الوصايا لحفظ صحة جهاز الهضم . وهكذا الأشغال البدنية والفكرية ضرورية للإنسان ، على أن لا تصل لدرجة تجهد وتعل البدن ، ولا تترك لدرجة يعتاد المرء على الكسل فتعود عليه بالأمراض البدنية والفكرية . وطالما شاهدت أفراداً تركوا أشغالهم البدنية بدون عمل فأصيبوا بأمراض جهاز الهضم .

وخلاصة القول خير الأمور هو الاعتدال في كل شيء .

١٧ - الظاهر دليل على الباطن :

هذا أمر طبيعي وفطري في الحيوانات والفطرة الطبيعية الواقعية الأصلية عند البشر .

فملاح الحزين أو المسرور أو الشجاع أو الجبان أو الخائف ، وأي

شعور وإحساس تطفو وتظهر على ظواهر الشخص حتى ليستطيع المتفرس أن يدرك ما يكنه ذلك الفرد . ولكن هل يمكن أن نخالف في هذا الأمر؟ كأن يكون الفرد خائفاً وتكون ملامحه دالة على خلاف ذلك أو يكون حزيناً وتظهر على محياه الأفراح . . الخ؟

نعم يشترط في ذلك قبل تغيير ظاهره تغيير باطنه ولو تصنعنا ، كالممثل حينما يتظاهر بالشوق المبرح وتتساقط أو تنهال دموعه ، صحيح أنه تصنع ولكن تصنعه بدأ من الباطن وبعد ذلك طفح على ظاهره ولا يمكن غير ذلك أي في آن واحد ويكون باطنه خلاف ظاهره .

والآن نبحت الموضوع من وجه آخر، فالصبي أو الشباب في ظواهره المرح واللعب والحركة وحب التجوال والرياضة والشيخوخة والهرم في ظواهره السكينة والهدوء والوقار وعكس ما مرّ ، فإذا قضي على شباب أن يلتزم بصفات الشيخ من الهدوء والسكينة وغيرها ، وبالعكس إذا فرض على شيخ (سواء كان هذا الفرض نفسياً أو خارجياً) ان يزاول أعمال الشباب المارة الذكر ، فهل تحصل فيهما في الأول روح الشيوخ وفي الثاني روح الشباب؟ وإذا قلنا : نعم فلأي حد؟ وإذا تبدلت هذه الروح ، فهل تظهر على الشاب علائم الشيخوخة وعلى الشيخ علائم الشباب؟ ولأي حد؟ أعلى حركاته وسكناته أم تنتقل إلى تقاطيع الوجه والبشرة؟ وإذا دام الأمر ، هل يخط الشيب الشباب ويعود الشيخ إلى شبابه في شعره وتجاعيده؟ .

ربما كان الظاهر دليلاً تماماً على الباطن في الحيوان ، بيد إنه في الإنسان لا يمكن القول بذلك حتماً ، إذ إن هناك مواطن عميقة وكمينة يتلاعب بها الإنسان بقصد مصالحه ، فيحاول تغيير باطنه مؤقتاً وهو يكون عميقاً غير ذلك ، وعلى الخصوص إذا كان ماهراً بحيث يغري الآخرين ويخدعهم ويحتال عليهم ثم القيام بعمل يضمّره .

١٨ — كيف تنشأ الصدمات؟ وكيف تزول؟

من الأمور العادية التي طالما صادفت كل فرد في حياته وتكررت له حينما تصادف السيارة حجراً أو نتوءاً أو حفرة ، كيف تحدث صدمة للركاب وهزة ضعيفة أو شديدة على قدر الحجر أو النتوء ، إذا كان كبيراً أو صغيراً ، أو الحفرة إذا كانت كبيرة أو صغيرة عميقة أو غير عميقة ، وربما إذا كانت الصخرة كبيرة جداً اصطكت بها ، وأحدثت قتلى أو جرحى ، ومثلها الحفرة إن كانت كبيرة انقلبت فيها وأحدثت مثل ذلك انهداماً للسيارة وراكبيها . بيد إنه قد يمهد للصخرة مهما كانت كبيرة ، والحفرة مهما كانت عميقة وواسعة ، يمهد لها طريق الصعود والنزول بصورة تدريجية ممهد للصعود ، أو مسرّحاً للنزول حيث تبطل بها الصدمة العنيفة ، وأما ما يعتبر طريق السيارات من صخور كبيرة وصغيرة أو ندبات أرضية كبيرة وصغيرة تهز وتحدث صدمات كلما تباعدت هذه عن بعضها ، وقد تتقارب بحيث تبلغ أبعادها أقل من ربع فخمس فسدس مساحة دائرة عجلتها ، وقد تتقارب إلى الثمن والعشر نسبة إلى مسافة التتواء أو الصخور الملقاة على سطح الأرض ، وهذا التقارب يقلل الصدمات لا سيما إذا زادت سرعة السيارة لدرجة كلما تقاربت قلت الصدمات والشعور بها حتى تنمحي على أثر تقاربها إلى جانب بعضها ، وقد يشاهد المرء بالمكبرة إذا شاهد الأرض المنبسطة أنها تؤلف خطراً ومنتوءات عظيمة لا يحس بها في السير بالنظر لحجم السيارة العظيمة وسرعتها إذا نظرت بنفس المكبرة للأرض المبلطة والأرض المسطحة ما هي إلا قمم اصطفت إلى جانب بعضها البعض صفاً متقارباً ومصطكاً يجعل منها سيراً ممهداً سمحاً حتى في السير الخفيف .

هكذا طالما صادفنا في سيرنا ونحن حفاة الاقدام رأس دبوس أو شوكة واخزة أو رأس مسمار أو حجراً صغيراً مديباً نفذ لداخل اللحم وسبب تلفاً وجرحاً وألماً لنا وذلك لأن ثقل الجسم توجه كله إلى ذلك الرأس المدبب وأحدث العارض ، ولا شك إذا فرضنا أن عوض رأس مدبب

واحد لو كانت عشرة ، وعوض العشرة لو كانت مائة ، وعوض هذه لو كانت ألفاً ، يعني كلما كانت أكثر قل النفوذ بسبب توزيع هذا الثقل على عددها حتى إذا تقاربت واصطفت تبلغ درجة يستحيل بها نفوذ حتى رأس الدبوس ، ولو كان ذلك على أرق قسم في البدن . ويمكن التساؤل إننا إذا صففنا رؤوس الدبابيس المدببة إلى جانب بعضها أمكن عمل صفحة ناعمة لا يمكن أن تحدث حين تماسها أي عارض مؤلم أو تخريب . ذلك درس وعبرة يطبق عليها كثيراً في الحياة الاجتماعية .

١٩ - درجة الاشباع في الماديات والمعنويات :

جرت محاورة بيني وبين صديقي حينما وجدني أطلب السفر والهجرة إلى أوروبا وأمريكا وبلاد أخرى ، بغية التزود في العلم وبتدرج الاصلاح ونشر الآراء والعقائد الصالحة والدعوة للسلام والبر والإحسان ، فقال : إن بإمكانك أن تقوم بهذه في بلادك هذه والأقربون أولى بالمعروف وهم أحوج في تلك دور تكبد المشاق والغربة . فاكفيت عن التفصيل بتلاوة الآية القرآنية :

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٩٧] . فاختلف حرية الفكر والمنطق والقلم وضرورتها من أهم الدواعي للهجرة من جهة ، ومن جهة ثانية بإمكان المرء أن يغير لهم الماء العذب بالشكل والطعم الذي يروق له بأي لون ورائحة وطعم ، ولكن هل بإمكانه وقد أصبح مشبعاً باللون مختلفة وروائح متباينة ومواد ذائبة متناقضة بحيث لا تقبل شيئاً آخر البتة؟ قلت : هذا هو محيطنا بعينه لا أذن صاغية ولا عين واعية ولا مسند للخير يعتمد عليه أو مأوى يلجأ إليه في الشر .

فالماء العذب كالمحيط المستعد لتلقي الخير والشر كما أن الماء مستعد لإذابة السكر والملح .

٢٠ - اخطاء الحواس والتعود عليها لا تضع الحقيقة :

هناك مراكز في الدماغ تميز وتعطي لكل حاسة مميزاتها وخواصها لتحكم في الذوق بين الحلاوة والمرارة وبين الحلاوة السائغة وغير السائغة ، كالسكر والسوس ، وبين المرارة السائغة كالقهوة ، وغير السائغة كالحنظل والصبر ، والمناظر الجميلة والقبیحة بالنسبة للبصر ، وهكذا الشم واللمس وغير ذلك من الجهات المادية ، كما تعرف القبيح من الحسن في الأمور المعنوية العقلية والنفسية مما تستسيغه نفوس العقلاء والحكماء ، ويأباه ذوو المنطق السليم من آراء وعقائد وأفكار ، وكما يعتاد المرء على جهات مادية رغم أضرارها صحياً واقتصادياً مما يناقض المنطق السليم وينهاه العقل الواعي كاستعمال التدخين والمسكر والمواد المخدرة .

٢١ - الانقلاب : جمعها انقلابات :

كلمة انقلاب مصدر فعل انقلب . حيث يقال : انقلب وجهاً لظهر أو رأساً على عقب ، أي على عكس ما كان عليه . ويقال : حدث انقلاب من دولة أو حكومة أو قبيلة ، يعني تغير وضع الحكم فيها رأساً على عقب ، من ذلك تغيير وتبديل في كل شؤونها من أفراد وأنظمة وقوانين وغير ذلك بأفراد وقوانين جديدة ، وعلى الأكثر معاكسة . ومثل ذلك يقال : عن الانقلابات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية حينما يحدث ذلك على أثر تبديلات فجائية ومحسوسة ومغايرة لسابقتها ، وخير الانقلابات هي التي تنقلب من السيء إلى الحسن ، وأقل منه من حسن إلى أحسن . ونجمل القول الانقلاب إلى الأحسن وأسوأها هو الانقلاب من الحسن إلى الأسوأ وكم في ذلك من أمثال مادية ومعنوية .

فكما أحدث ظهور الإسلام انقلاباً في كافة شؤون الأعراب في أنظمتهم وقوانينهم وأوضاعهم الاقتصادية والسياسية والإدارية وكل شيء ، كان عكسه الانقلابات التي ظهرت للامة الإسلامية على أثر الفتن الداخلية وغارات التتر في الشرق والصليبيين في الغرب وما أحدثته الفتن الداخلية

العنصرية والدينية والعقائدية والحروب الطاحنة وتغلب أمة أو قوم على أمة وقوم والقضاء على حضارتها وثقافتها لمجرد تغلب قهري أو مادي وأخذ ثرائها وحضارتها وإبدالها بالجهل والخمول أو حدوث عكس ذلك .

وبالامكان الاستفادة من أخذ نماذج للانقلابات المادية وتحليلها وتجزئتها ومعرفة خيرها وشرها والأصول اللازمة اتباعها بغية الوصول لانقلاب الى الأحسن والتخلص من مساوئ الانقلابات التي كثيراً ما تجر الى الدمار والخراب حتى ربما قضت على صاحبها ومدبرها . اذ كثيراً ما يقوم فرد أو أفراد بقصد الاصلاح أو اقامة نظام في دولة غير التي هي عليها للوصول الى خير نوع من الانقلابات نضطر الى ضرب أمثال مادية و ثم الاقتداء بها للانقلابات الاجتماعية .

لنفرض أننا أخذنا مجمرة ، وهي عبارة عن سلة صغيرة ذات سلسلة صغيرة يوضع داخلها فحم ويضع جمرات ، ثم يمسك نهاية السلسلة وتدور السلة (المجرمة) في الفضاء ، بحيث يتسبب تحريكها في الهواء اشتعال الجمرات وسراية الشعلة الى باقي الفحم واستحالتها الى جمرات أيضاً ، تبقى محفوظة من السقوط على الأرض بالنظر للقوة المركزية التي تلصقها بأسفل السلة المانعة من سقوطها رغم أن أعلاها مفتوح . فإذا أردنا وقف هذه الحركة أو أردنا إجراء حركة لجهة معاكسة فماذا علينا أن نفعل ؟ .

علينا تقليل سرعة حركتها تدريجياً حتى إذا وقفت الحركة السابقة قمنا بالحركة المطلوبة والجهة المطلوبة حركتها وسرعتها تدريجياً ، وإذا كان القصد إجراء احتياطات أقوى عملنا مشبكاً نغطي به السلة .

أما إذا لم نرع ذلك كأن أوقفنا الحركة فجأة ارتبك وضع الجمرات وربما أسقطت ، وأما إذا قمنا عوض قيامها بالدوران يساراً الى اليمين فجأة ، كان الخطر أشد علينا وعليها ، وربما إذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة أدى ذلك الى حريق وإلى ضياع أكثر الجمرات وانتشارها وخمودها

على أسرع ما يكون ، ومهما كان الأمر فسوف لا تكون النتيجة أحسن مما كان ومن المسلم أننا نحصل على نتيجة أسوأ .

إن الذي يود أن يكتب أو ينقش نقوشاً على صفحة فخارية أو فلزية منقوش عليها نقوش سابقة ، فإن كان المطلوب إزالة الصدأ أو التراب والأوساخ الموجودة عليها ، يلزم الدقة الكافية أن لا يؤدي حمله إلى تصدعها بالعمل الدقيق ويبد مجرب فني بعيد عن التهور والعجلة ، وأما إذا كان قصده إزالة كل أثر وإيجاد نقوش أخرى ، فعليه الدقة والملاحظة أن لا يؤدي ذلك إلى تصدع الصفحة ، وقبل العمل أن يرى هل أن الصفحة لها القدرة والقابلية لإجراء ذلك وهل أن عمله لا يذهب سدى . إن التجربة والحكمة والدقة في الأمور ماديها ومعنويها لها أثرها الفعّال في نجاح ذلك ، وإن العمل الجاهل والمتهور لا يعود إلا بالحرمان والخسران . وإذا كان يرتأي كتابة ونقوشاً ورأى عدم قابلية تلك الصفحة لتحمل ذلك فالأجدر إيجاد صفحة جديدة وقوية ومتينة للقيام بمشروعه وإهمال تلك القديمة البالية ، وقد يكون هذا الأخير أقل زحمة وأقل كلفة وأبدع نتيجة .

أما إذا كانت الصفحة عليها كتابات أو نقوش وكانت غير مرغوب فيها ويرى تبديلها بأخرى مختارة ومنتخبة ، فالأجدر مسح الأولى تماماً أو طلاؤها بمادة يغطي أثرها ثم القيام بالكتابة المطلوبة عليها ، وأما إذا أراد أن نضيف عليها موارد الإصلاح فهذا قد يسبب إبهاماً وتداخلاً يخرجها من المعنيين ويكون منها شيئاً مبهماً فاقد الغاية المطلوبة ، والخلاصة يلزم إذابة السكر في الماء العذب النقي للحصول على الشراب الملذ المطلوب ، والنقش على صفحة واضحة نقية من الخطوط والنقوش لإدراك ما يكتب أو ينقش عليها من كتابة أو صور .

٢٢ - من هو المرء المهذب (الحكيم) :

يختلف أفراد البشر وجماعاته من حيث الدين والعقيدة والرأي

والأخلاق والعرف والعادة واللغات والخلقة والمعلومات والوراثة والعنصرية وغير ذلك .

فمن حيث الدين نجد بينهم عبدة الأصنام والكواكب والحيوانات والطبيعة والزنادقة والموحدين ذوي الأديان السماوية وغير السماوية وعبدة الماء والنار ، وكل من هؤلاء يتشعبون ومختلفون في مراسم العبادة ، ومن حيث العقيدة والرأي في الأصول والفروع وشتى النظريات ، فمنذ بدء التاريخ إلى هذا اليوم ما لا يعد ويحصى ، وأخيراً نجد الديمقراطيين والفاشيين والشيوعيين وتشعب كل منهم إلى أقسام ، وذوي الرأي بالحكومات المطلقة الدكتاتورية وذوي الآراء ، والفكر الفلسفية والحكمية منذ العهد القديم إلى الحديث من اليونان حتى العهد الإسلامي ، فalcرون الوسطى ، فالحمد الجديد وتضارب الآراء وتقاربها .

والأخلاق والعرف والعادة بين قبيلة وأخرى وأمة وأخرى ودولة وأخرى في مختلف قبائل وشعوب وطبقات البشر ، فمنهم يحسب سلوكاً ما حسناً وسلوكاً قبيحاً وعادة حسنة وأخرى قبيحة وعرفاً مألوفاً وآخر مستهجنأ ، في حين أن قبيلة أو شعباً آخر يناقض هذا في شتى شؤون سلوكه^(١).

فمنهم من يجيبك ويصافحك بيديه وآخرون بحك الأنوف وآخرون بتقديم الهدايا والورود وآخرون من شأنهم عند التلاقي أخذ قمله من رأس الآخر والتهاهما . كما يختلفون في إقامة مراسم خاصة للزواج أو مراسم دفن الموتى وتشيعهم ، فمنهم يجري مراسم الزواج بالرضا والعقد والتهلل والتصفيق ، ومنهم من يقيمها على قواعد أخرى ، كما جاء في كشكول جمال ، وضع البنت على شجرة واحتفاء أهل البنت بالشجرة وهم

(١) فنجد عند قوم من الهنود إذا أخرج ربحاً أمام جماعة قالوا له راحت وإذا لا يقال له ذلك كان خلاف الأدب ، في حين أن جماعة من العرب يعد ذلك عاراً وفضيحة لدرجة قد يحكم على نفسه بالموت أو النفي من تلك الأرض ، عكس ذلك في «التدريج» أي إخراج الريح من البلعوم والقم عند جماعة مباح وعند غيرهم قبيح .

مسلحون بالعصي والحجارة وما شاكل ، وعلى من يريد لها للزواج اقتحام هؤلاء والصعود على الشجرة وحملها والنزول بها إلى أسفل ، واقتحام الجميع خروجاً ، و . . و . . ما لا يعد ويحصى من أمثال ذلك ، وفي وضع الأموات دفن الميت مع أعز زوجة عنده حية ، أو غطس رأسه قبيل الموت في الماء حتى يموت ثم طبخه وأكل لحمه ودفن عظامه . وأنواع التحية وأصول التجارة والمبادلة ومختلف الأزياء والألبسة واختلافهم بالزينة البدنية والحلى ، فمنهم ذوو اللحي على اختلافها ، ومنهم من يحسب الأسنان البيضاء والشفاه الرقيقة الحمراء والبشرة الناعمة من بواعث الجمال ، ومنهم من يحسب النساء من الممتلكات كالحيوانات مثل الدواب من خيل وجمال وأغنام ومنهم من يحاسبها حساب الند للند ، ومنها من يحترمها فوق ذلك ويأتمر بأمرها . ومنهم من لا يستغني عن لحوم الحيوانات ، ومنهم من يحرمها ، ومنهم يتجاوز ويحلل حتى أكل لحوم البشر ، ومنهم من يأبى حتى قتل حشرة صغيرة ، ومنهم الأبيض والأحمر والأصفر وكل من هؤلاء يختلفون خلقة وجمالاً عند فرقهم ، ويحسبون ما عندهم هو المقدس المحترم ويختلفون كبيراً وصغيراً ويختلفون شعوراً وإحساساً ومدارك ويختلفون دراسة ومعلومات .

وبينهم الاختلافات في العنصرية فمنهم العرب ومنهم الجرمن ومنهم الساميون ومنهم الآراميون والآخر . . وكل يفخر بعنصره ومبادئه .

وإلى غير ذلك من الموارد المختلفة بين طبقات البشر التي تجعل البعض على نقیض الآخر وموضع دهشته بالنسبة لعقائده ودينه وشكله وعاداته وزيه وكل شيء يراه غير الذي عنده . هذه كلها عند الرجل المذهب تكاد تكون عادية وغير مفاجئة ولا مدهشة فلا يندهش إذا سمع أن زوجاً عوض أن يطلق زوجته أكلها مع زوجاته الأخرى^(١) أو رأى قتل

(١) كما حدث لمبشر مسيحي أقنع زنجياً إفريقياً ليكون مسيحياً ثم علم أن له أكثر من =

الزوجات ودفنها أحياء مع أزواجهن الموتى^(١) أو أي حالة غريبة أخرى بالنسبة لبيئته ودينه وشعبه ولا يدهشه أن يجد الصادق وإلى جنبه الكذاب المنافق ، وهذا المتزهّد الموحّد ، وهناك الزنديق الملحد المنكر لكل شيء ، ولا يعتريه التذمر لاختلاف الآراء الاقتصادية . نعم عند الرجل المذهب كل شيء عادي وأمر حاصل وواقع ، وغير مدهش وغريب ، وكل ما هناك عليه أن يعرف مقابله كل أمر وحادث وفرد برحابة صدر ، ويعالج الأمور بالعقل^(٢) والمنطق السليم الذي وحده يعرف كيف يميّز الخير من الشر ، والحسن من القبيح ، ويحاول السيطرة على أفكاره وآرائه ، بحيث تجلب له الخير وتدفع عنه الشر ، ويحاول بث روح الإصلاح ما أمكن أينما حل . هذا هو الفرد المذهب المتزن في الماديات والمعنويات أو كليهما .

٢٣ - روح المصاحبة والصفات المكتسبة :

زرت أحد الأصدقاء الجامع للعلم والأدب والتجربة والمقام المرموق والروح السامية المتألّفة الفياضة المشعة . هو البروفسور « فضل الله رضا » سفير الحكومة الإيرانية في كندا ، وقد كان فيها من قبل أشهر أساتذة الولايات المتحدة في أشهر جامعاتها ، وله مؤلفاته المترجمة من اللغة الإنكليزية إلى اللغات الأخرى ، كما كان رئيساً لجامعات إيرانية ، ثم انتقله إلى السلك الدبلوماسي وتسّمه مناصب السفارة في فرنسا وكندا ، ورغم ذلك فهو أينما حل يفيض على جامعات تلك الأقطار بمحاضراته العلمية باللغة الفرنسية واللغة الإنكليزية واللغة الفارسية التي يتقنها جيداً ،

= عشرة زوجات فأقنعه الاكتفاء بواحدة وبعد شهر أعلمه لم يبق عنده سوى واحدة
وحينما سأله وماذا عمل بالباقيات أجاب أنه أكلهن ! .

(١) كما يعمل بعض راجات الهند من طوائف ومذاهب خاصة .

(٢) ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٦٩] .

ولا يفتر رغم مؤلفاته العلمية في الفيزياء عن ممارسة مقالاته الأدبية ويربط العلم بالأدب باستدلالاته العلمية ، في مجال الأدب وعلم الاجتماع ، وقد جمع بذلك كتاباً من نشراته في الصحف ، وتلاً علينا مقالاً من هذا الطراز ، والذي في طريق النشر ، مشيراً إلى أنه لو أطلقنا على العضو الصالح رمز (A) والفاسد رمز (B) وأدخلنا (P) على أحدهما ينتج من ذلك بعد الاجتماع (X) ويستمر في استدلاله ويربط ذلك بشواهد من الشعر الأدبي الاجتماعي الفارسي . ولشد ما كان سروره عظيماً أن تلت عليه ما يؤيد قوله أبياتاً من الشعر العربي منها :

صاحب أخوا ثقة تحظى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح أخذت فيما تمر به نتناً من التّن أو طيباً من الطيب
وقول الشاعر : إن الطيور على أمثالها تقع
وأخر : وكل قرين للمقارن يقتدي .

وهناك من الأمور والموارد ذات العلاقة في الموضوع . منها رباعية للخيام كنت ترجمتها إلى العربية وهي :

روحي الفدا لمعاشر أهل بصحبته أنسجم
سيهون إجلالاً له إنني أطأطئ للقدم
إن شئت تعرف يا أخي على اليقين جهنماً
فجهنم الدنيا معاشرة المخالف إن لزم

والقول العربي المثل المشهور : الأرواح جند مجندة ما تشابه منها اختلف وما تباين منها اختلف .

وذكرت كتابي هذا وما بحث فيه من تطبيق الموارد الطبيعية على الاجتماعية وبالعكس ، ووجدت أن هناك كثيراً من الموارد الطبيعية الفيزيائية وأخرى الكيمائية يمكن تطبيقها على كثير من الموارد الأدبية والاجتماعية وبلوغ نتائج ثابتة واستدلالات قوية .

فمثلاً لو بحثنا في الخلط ، من خلط مواد مركبة جافة مع بعضها ، كالسكر مع السكر أو السكر مع حامض الليمون ، أو مزج محلول هذه مع تلك في المركبات أو القيام بعمل السبائك من العناصر المذابة تحت شروط معينة . وما ينتج من ذلك من مواد جديدة نراها في مختلف الأطعمة والمصنوعات تجاه الذوق والشم والبصر واللمس ، تتغير حسناً وقبحاً في إحساساتنا .

وهناك غير عملية الخلط والمزج بل هو تركيب مواد جديدة من اتحاد مركبات مع بعضها أو عناصر مع بعضها أو عناصر مع مركبات تحت شروط معينة في درجات الحرارة والرطوبة والمقادير لانتاج مواد أخرى تخالفها من حيث الصفة والخواص ، ذات قوانين ثابتة كاتحاد الأكسجين بالحديد أو الأكسجين بالهيدروجين فيحصل في الأول أكسيد الحديد وفي الثانية الماء ، وكل منها تخالف أصولها صفة وخواص .

أو تركيب حامض الليمون المذاب بالماء مع بيكرينات الصوديوم المذاب وحصول سترات الصوديوم التي تخالف بصفاتها المركبين الأولين ، ونحن نعلم أن هناك عناصر لا تصل إلى المائة والخمسين عنصراً على وجه البسيطة ينتج من اتحادها ملايين المركبات في هذا العالم المتميزة بصفاتها وخواصها والمتباينة عن أصولها تنشأ تحت ظروف وقواعد وشروط خاصة . وبعدها نعود إلى كلمتنا المارة لنقول ان الناس معادن ، وقولنا معادن لا نعني عناصر وحسب بل نعني عناصر ومركبات تختلف عن بعضها البعض في مميزاتها بيد قد تكون هناك مشابهات لعنصر الحديد أينما وجد والذهب أينما وجد وأمثالها وهناك المركبات ، ففي الناس ما هو حلو الطعم كالسكر ومنهم المر كالحنظل ، بيد ان الحنظل رغم مروارته له موارد الانتفاع به ، والسكر رغم حلاوته له أضراره في كثير من الموارد ، وللحوامض منافعها ومضارها ، وهناك الحل الوسط في مزج الحلوم مع الحامض ، وهناك ملح الطعام واثره على حاسة الذوق إن زاد أو نقص ، وفي هذا ينشأ اختلاف في الأذواق فربّ مركب بحاجة إلى ملح وآخر لا

يحتاجه وآخر بحاجة لقليلة أو كثيرة ، فنرى البشر وهو كالمعادن ومركبات هذا الكون تتقرب وتتكامل مع بعضها وتعتدل أو هي تفسد وتتباعد من الذوق لما تحويه وما يحتاجه ولما تسد به من العوز الموجود فيها .

وهناك من المواد والمركبات الأكثر طلباً لهذا البشر كالهواء والماء لما يقوم عليه حياته على شريطة أن لا يصل الماء في تعكيره بالأملح وما اختلط به والهواء بما شابه مما يفسد عليه أمره .

لهذا نرى الخيام في شعره حينما يقول روجي الفدا لمعاشر أهل بصحبته أنسجم كما مر ، فيرى الجنة فيمن وافقه وجهنم فيمن خالفه فهو ما يشعر في ذلك نقاوته من الشوائب أو وجود شوائب فيه تطلب حالة وتسد حاجته وتصلح خلته ، وقد يسد خلة زيد بكر بينما لا يصلح بكر هذا لسد خلة عمر لاختلاف ما يحمله ، ولا يشترط أن يكون التآلف متشابهاً فقد يكون المالح مصلحاً أحياناً لطعام ومفسداً لطعام آخر ، في الوقت الذي نرى إضافة المالح إلى المالح لا يزيد فيه ولا ينقص ، وعلى هذا إن إضافة الشيء إلى مثله لا يحدث فيه علة ولا يسد عنه خلة^(١) ، وأما إضافة المالح إلى اللبن الحامض فيحسنه ويسد خلته وإضافة السكر إلى السكر لا يزيده ولا ينقصه ، بينما إضافة السكر للحوامض القوية تحسنه وتقلل من شدته وتلطف من مذاقه .

ومن جهة أخرى فهناك آلاف القواعد والقوانين للوصول إلى تركيب مواد أخرى.

ونحن إذا عرفنا مم يتركب هذا الإنسان من عناصره ومركباته ، نستطيع أن نتوصل إلى إصلاحه بالشكل الذي نجده يصلح للمجتمع الصالح من جهة ، أو نكون منه مركباً يوافق زمرة من المركبات أو مركباً

(١) هنا في الجمار أما الأحياء فيخالف فالمفسد إلى جنب المفسد يزيده فساداً سواء كان بالتزواج أو التعامل وإسناد الواحد للآخر .

آخر ، فكل إنسان معدن مركب له مميزاته وصفاته كما ذكرنا ، ولكل منا حاجة إلى ما يسد نقصه باقترانه إلى مركبات أخرى . أما المعادن النقية وأخص منها العناصر أو المركبات النقية كالماء والهواء فهي كالاطفال الأبرياء الخالين من ذوب المعادن المعكرة أو الذائبة ، أخص منها تلك التي ولدت من آباء وأصول طاهرة فهي كمياء العيون العذبة الصالحة للحياة وتلوينها وإذابة ما يلزم فيها . أما المشبعة فلا ، وعلينا تبخيرها وتقطيرها لاستخلاص الأملاح منها ثم الاستفادة منها حيث شئنا ، ولا ننسى أن خلط قدح ماء نقي مع ماء غدير مالح يضيع فيه ولا نرى أثراً باقياً لنقاوته ، وبالعكس إضافة قدح من ماء البحر إلى غدير عذب يضيع فيه بقدر ضآلة القدح ووسعه الغدير في كلا الحالين ، ولذا قيل إن هذه القلوب أوعية وإن أوسعها أوعاها ، وحقاً لتجد بين البشر بحاراً في طهارتها ونقاوتها من رجال الإصلاح من ذوي الرأي والحكماء والأنبياء والصلحاء ، وهناك بحاراً في رجسها وتلوثها من المردة والشياطين البشرية التي يتلوث بهم العالم وتضيع فيهم الأفراد الأنقياء كما يضيع القدح الرائق في البحر المالح الأجاج .

كما مرّ نستطيع أن نقوم بالتربية الأدبية والاجتماعية والإصلاحية من انتخاب الأفراد والتربية ، والمحيط الصالح خير الشروط لتكوين البيئة الصالحة ووضع الأفراد إلى بعضها ، يجب أن نقدر درجة ما يحملوه من وعاء الخير والشر كل منهم وعندها نستطيع أن نعرف المنتج العائد من هذا الخلط أو المزج أو التركيب على حد ما مرّ .

٢٤ - بلوغ الهدف :

شاهدت فوق إحدى البواخر الصغيرة العائمة على نهر الراين على ساحل مدينة كولن الألمانية المشهورة بكنيستها دوار هوائية ذات اتجاهين متعاكسين ، في حركتها الأولى تدور من اليمين إلى اليسار والثانية تدور من اليسار إلى اليمين ، في حين إن اتجاه الريح واحد . فقد كانت الأولى

وضعت على مدارها على شكل والثانية نصبت قوتها على شكل ربح (معاكس) ، فقلت لصاحبي انظر إلى هذين كيف يدوران متخالفين في اتجاه ربح واحدة فهي تشبه رجلين متخالفين يقومان كل حسب ما وجه له غريزياً واعتاد عليه لبلوغ أهدافه تحت تأثيرات واحدة .

ذلك ما يمكن الاستفادة منه في كثير من الموارد الاجتماعية .

٢٥ - نظرية هل تصدق : العلاج بالنوم الطويل :

لو أمكن تنويم المرء طويلاً ، أياماً ، أسابيع ، أو أشهراً حسب الحاجة ، فماذا يطرأ على عاداته التي اعتادها ، مادية كالمعتادين على العقاقير كالانسولين مثلاً أو المواد المخدرة والمنبهة أمثال الكحول والمواد المخدرة على اختلافها وما شابه ذلك ، أو الاجتماعية من سلوك حسن أو سيء كالمعتادين على القمار والسهرات والمفرطين في الأمور الجنسية أو المحتالين والمختلسين والنصابين وأمثال ذلك؟ .

هل ان هذا النوم الطويل يقوم مقام الترك للمدة نفسها كالتارك للتدخين أسبوعاً والكحول شهراً والهيروثين مثلها من أولئك المدمنين عليها ، أولئك الذين يريدون حقاً التخلص من شرها . هل يمكن استعمال ذلك كوقاية تارة وعلاجاً أخرى ، والتفنن فيه؟

كيف يجب أن يجري ذلك التنويم؟ أبالمنوم المغناطيسي ، أم بمواد كيماوية ، أم بطرق جراحية من ربط وشل أو بتر أو توقيف مصدر الحس واليقظة في البدن أو غيرها؟ .

هل تكون هذه النظرية في المستقبل قانوناً لشفاء كثير من الأدواء المستعصية؟ .

٢٦ - فرق تسد :

يستفاد اليوم في الطب من عقار الكورتون لتضعيف المكروبات أمام قوى البدن المدافعة بالتفرقة والشل فالحقضاء على الأحاد المتفرقة أسهل بكثير من القضاء على عصبية قوية متراسة ، خصوصاً إذا كان هذا المرض والاجتماع يزيد من فعالية وتوالد الجرثومة السريع وتقيها من هجمات الكريات البيضاء المدافعة والمهاجمة ، وإذا ما تفرقت أصبحت لقمة سائغة لالتهام الكريات البيضاء وشلها من قبل المواد التي يزجها البدن للهجوم والدفاع وعندها تقضي عليها جميعاً .

وإذا أمكننا ذلك في موارد معنوية كآلم متمركز في ناحية خاصة من البدن كالسن أو العين أو غيرها مثلاً ، وأمكنة توزيع هذا الألم الذي يحز في قلب المصاب لانتشر الألم وخف أثره ، ولو أمكننا وضع مقياس لهذا الألم كمقياسنا للأوزان مثل الغرام وأمكننا أن نوزع هذا القدر من الألم المتمركز في ناحية السن إلى جميع البدن ، لما أصاب كل ناحية إلاّ قسماً أقل من جزء ربما يقل عن واحد من الألف بل وأقل بكثير ، وعندها ينعدم أثره ، وربما أمكننا تقليل الألم بتوجيه حس الألم إلى جهات أخرى كإحداث آلام مصطنعة ، وأحسن من ذلك إشغال الفكر المتمركز لهذه الناحية من الألم إلى أمور أخرى تنسيه هذا أو خداعه فيشعر بزواله كما يحصل ذلك بالتلقين في النوم المغناطيسي بل وحتى في كثير من الموارد في غير النوم المغناطيسي ، سيان في موارد عصبية أو نفسية وحتى بعلى مكروبية مثل التهاب السن أو مادة سمية كلسع العقرب . منها يظهر أن القضايا المادية لها أثرها الفعّال في الموارد غير المادية ، وبالعكس ان الموارد غير المادية لها أثرها الفعّال في البدن المادي . فأحياناً يمكن القضاء على الآلام الحاصلة من التأثيرات المادية في البدن من طرق معنوية بالتلقين كما مرّ أو المغالطة كما يعمل بعض الأطباء بزرقات من الماء المقطر لمريض بالاسما أو لتسكين آلامه ، أو بطرق التلقين غير الكلامي كما يعمله القدماء من الأدعية والشعوذة .

والتعاويد أو ما يعمله اليوم من طريق النوم المغناطيسي أو التلقين بالطرق الأخرى^(١).

وقد يكون المرء سليماً من كل الجهات المادية والمعنوية وتحريك جانب مادي أو معنوي فيه أيضاً بالتلقين أو النوم المغناطيسي . فكثيراً ما أعطى المنوم لنائم قطعة ملح وقال له انها قطعة سكر ، وأيد الوسيط انها قطعة سكر وتلذذ بحلاوتها ، هذا من جهة مادية أو لفته في أمر معنوي فجعله مسروراً أو محزولاً في أمر لا صحة له حيث أودعه في صميمه ف شعر ببهجته أو ألمه وقد تحصل مثل هذه عند بعض الأشخاص بسبب التلقين

(١) وقد طبقت ذلك شخصياً وكراراً أذكر منها اثنين الأولى : إحداها سنة ١٩٣٩م كنت رئيس مستوصف في كربلاء وكان عندي خادم في المستوصف الحاج حسين كان في سن الكهولة أصيب مرة بالاسما فجاءني وفي حالة مزرية يكاد يختنق فأعطيته حقنة مركبة من الادرينالين والاتروبين أخذها لمضمد المستوصف وبعد ترزيفها بمدة خمسة عشر دقيقة عاد لحالته الطبيعية مزاولاً أشغاله . وكانت الحالة تعاوده كل أسبوع حتى تكررت ستة أسابيع وهو على نفس الشاكلة وفي السابعة أعطيته الامبول وأرسلت على المضمد سراً وطلبت منه أن يعمل له ماء مقطراً فحسب وأنا الأحظه عن كتب فكنت أجده في كل مرة يستريح ١٠ - ١٥ دقيقة ثم يعود يزاول أعماله وبعد ثلاث مرات من زرقات الماء المقطر جاءني الحاج حسين (الخادم المصاب) وهو يرجوني اخباره عن هذه الزرقات الأخيرة الثلاث فقلت له إنها نفس المادة إلا أنها من شركة أجل في سابقتها فصدقني وقال : إن مفعولها كان أعظم فائدة من الأولى لأنها تشفيه دون أن يحدث له دوران وغثيان .

وأخرى كان عندي كاتب أصيب بوجع أسنان واستمر الوجع ثلاثة أيام عجز عن رفع ألمه فقلت له سوف أشفيك وطلبت منه أن يكون ذلك سراً بيني وبينه فكتبت له حروفاً على ورق وطرقت عليها بمسامير على شاكلة ما يعمله ذوو الأوراد والأدعية باعتباره طلسماً وأنا أرقيه وكانت ثمانية حروف وما أن بلغت الطرق على الرابعة إلا وانقطع الألم فتركت وبريء من ألمه ولم يعاوده وعاد إلى كتابته وأعماله العادية . ولي أمثالها موارد كثيرة طبقت فيها الموارد المادية على المعنوية وبالعكس أعلاه كانت في اليقظة ولي أمثالها في حالة النوم المغناطيسي .

النفسي حيث يصورون من الأوهام حقيقة أو من الحقيقة أوهاماً ، ويختلف هذا عند الناس اختلافاً بالغاً بيد أن كليهما موجود وحادث في الناس بصورة متباعدة قد تبلغ شوطاً بعيداً أو بعيداً جداً مهما تصنع الفرد منهم وادعى الصمود والشجاعة . تلك أهم مظاهر الشجاعة والجبن في أفراد البشر . .

الوقاية خير من العلاج - الهاوية التي يزل إليها المرء وضرورة حدها :
قال تعالى في سورة البقرة، الآية ١٩٥ : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ .

لذا وجب الامتناع البات عن كل ما ثبت ضرره مادياً كان أو معنوياً
منها :

- ١ - مجموعة المواد المضرة من كحولية ومخدرة .
- ٢ - مجموعة الأسلحة الكيماوية والفيزيائية والميكانيكية والحيوية .
- ٣ - مجموعة العقائد الفاسدة التي ثبت ضررها .
- ٤ - مجموعة العادات والأعمال المضرة غير المنتجة من أمثال القمار والملاهي الخلاعية والعدائية والتعاليم الفاسدة على شاشات السينما والتلفزيون والحاكي والكتب الضالة المفسدة أخص في عنفوان العمر .
- ٥ - مجموعة السياسات الاجتماعية والاقتصادية من السيطرة الفردية والجماعية من جمعيات وحكومات على الثروات والأسواق المخالفة للعدالة والإنسانية ، من خلق الفتن وهضم الحقوق وبث القلاقل والسير خلاف العدالة وإيجاد أدواء وضغوط على نواحي من هذا الجسم للمجتمع الإنساني الذي إذا أصيب عضو منه أنت بقية الأعضاء والإسراع إلى العلاج الحقيقي فوراً ، بسعي الخبراء المخلصين بصدق النية ، وصدق اللهجة وصدق الدعاية وتعميم السعادة بقطع دابر الجهل ، دابر الفقر والفاقة دابر العقائد المفرقة الفاسدة ، حد العصبيات والمنابزات .

منع الاحتيال والكذب ، نشر الحقائق والقضاء على منابع الدعايات الكاذبة والمخرية والمثيرة ومنع كل مضر للفرد والجماعة فوراً متى ثبت ضرره مهما عاد بفائدة على البعض كما مرّ أعلاه .

٦ - وبالتالي سد أبواب الفساد والابتعاد عن افراد وجماعات تستهوي النفوس وتعقب الأضرار والخراب والأمراض كالابتعاد عن ذوي الأمراض خوف العدوى ، كالابتعاد من مصاب التيفوس والسل والجذام والجذري والحصبة ، والابتعاد عن مجالس القمار ومجالس الخمر والابتعاد عن أفراد عرفوا بالكذب والاحتيال والنفاق وأمثالهم ، والابتعاد عن جمعيات يخونون أنفسهم وغيرهم من أولئك الذين يشكلون الخيانة والتعدي والتجاوز على الفرد والجماعة كالجمعيات المتعاطية بالمواد المخدرة والسرقة والجاسوسية وإضرابها ، وهي إن لم تضر الفرد بعدواها لنفسه بيد يمسها منها التهمة . والطبع مكتسب من كل مصحوب .

الكتاب الثالث

أهم مَنْ بحث وسعى لإقامة حكومة عالمية
بما في ذلك من حكماء وساسة وقواد وأنبياء

الكتاب الثالث

مقدمة :

ونبحث فيه عن ذوي الآراء والأديان . وقد بحثنا في كتابنا الأول عن حكومة الطبيعة ، والثاني أمثلة تطبيقية بين الماديات والمعنويات ، وسوف نجد الكتاب الرابع يبحث عن ثلاثة نماذج من الحكومات الحيوانية الحشرية التي فاقت كما سنرى في سلوكها الإداري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي وغير ذلك سلوك البشر المتفوق حسب ادعائنا بنمو عقله ورأيه ، والذي مضى على تقدمه في الحياة عشرات الآلاف من السنين انتقل بها من حضارته ومدنيته وثقافته في العلم والفن بصورة مطردة إلى الكمال ، ومع ذلك لم يبلغ بأعماله ونظامه وما كسبه من الهدوء والسعادة والحياة المرفهة ما بلغته هذه الحشرات بل ولا بعض ما بلغته ، ويعلم الله هل هو بالغ درجتها في الاستقرار والسكينة والسلام في المستقبل أم لا .

وهذا كتابنا الثالث نقدم فيه نماذج من آراء وعقائد وأديان وأنظمة من مختلف طبقات البشر ، منذ العهد الغابر البعيد إلى يومنا هذا ، وما بذلوا فيه من الجهود الفردية والجماعية لأغراض شخصية ومنافع وغايات خاصة بحكم العواطف والغرائز وإشباع جشعهم ومطامعهم . أو دفعتهم لذلك مقاصد إنسانية ووجدانية بدافع العقل والمنطق وحب الخير بغية الوصول من هذه الطرق إلى السعادة والخير العميم للجميع ، إقناعاً لمشاعرهم وإحساساتهم وبلوغاً لرضاء الخالق الذي يعتقدون بعملهم هذا إنما يدركون به حسنى العقبى والحياة الدائمة السعيدة .

ولقد مرّت على هذا البشر منذ أن كان يعيش بإنفراد أشبه بالحياة الوحشية أو شكل جماعات صغيرة وتماثلت للتوسع إلى عائلة قبييلة فمدينة فمملكة فامبراطورية ، ومن جهة ثانية إلى جماعات تجمعها عقيدة واحدة أو دين واحد أو هدف واحد . نعم مرّت على هذا البشر أزمنة طويلة ظهرت بينهم أدوار رقي وانحطاط وتقدم وتأخر بيد أنهم من حيث المجموع وبسبب تدوين العلوم والمعارف تقدموا شيئاً فشيئاً إلى حياة أجل وأحسن لما اختبروه وجربوه .

ولم يكن أفراد البشر على وتيرة واحدة من حيث القدرة العقلية والإحساس والشعور ولا على شاكلة واحدة من حيث الدافع الوجداني وحب الخير، كلا ، ولا كانوا على مستوى واحد في الأنانية وحب السيطرة ، كلاً ليسوا كذلك ، وهذه الفروق خلقت فيهم عوامل الضعف والقوة والتأخر والتقدم والاضطراب والاستقرار والحرب والسلام .

فجاءت الرسل والأنبياء وأئمة الدين وظهر الحكماء والفلاسفة والكتّاب والمحررون كما ظهر إلى جنبهم الملوك والسلاطين ، وتشتت الأغراض والمقاصد وتضاربت العقائد والآراء منها صالحة ، وأخرى طالحة منها ، قامت على العقل القويم والمنطق السليم ونحت بما طلبت الإصلاح للمجتمع الإنساني كلّ ، ومنها إنما طلبت أغراضاً خاصة شخصية أو قبائلية أو عقائدية فحسب ، لا تقصد بها سوى بلوغ هدف تسد به رغبتها ومقاصدها دون أن تشعر بما تشعره الأولى من المقاصد الشريفة ومن الأولى قيام الرسل والأنبياء والحكماء والفلاسفة والكتّاب على أثر ما وجدوا من البشر خروجه عن الصراط السوي وقيامه بالفجائع والمنكرات والمظالم والتعدييات فتحملوا بدعوتهم وصرخاتهم أشنع وأهول العقاب والنكبات ولكنهم ما فتئوا حتى أدركوا ما أرادوا فكانت هذه الدعوات تختلف بتأثيرها وسعتها ودوامها على قدر ما كانت لتلك الدعوة من الأثر المنطقي القويم ولصاحبها من الحجة البالغة والإرادة القوية وعلى قدر ما كان له من التدبير

والمثابرة ، هذا من جهة ومن جهة ثانية على قدر ما لا قوة من عوامل العسف والتنكيل . كما أن هذه الدعوة تختلف سعة وضيقاً على قدر وسعة أفراد وأصقاع تلك الشعوب والأمم ومركزها الجغرافي وطقسه .

فكم ظهرت منها في الشرق والغرب والشمال والجنوب ولم يبق منها إلا البعض القليل بعد مروره على أجيال واختلاطه بأفكار وعقائد أما لوئته أو صقلته . ولا بد لنا أن نذكر بصورة موجزة شيئاً مختصراً من تلك العقائد والآراء والمذاهب منذ القديم إلى هذا اليوم ، وكم كان لها أثر في الحياة الإنسانية ولا بد أن نذكر النبذة من أجل الفلاسفة مثل أفلاطون حينما تأثر من اضطراب الأوضاع الإنسانية وغلبة عنصر الشر على الخير وما صادفه من عوامل الظلم والجور على استأذه سقراط وإقرانه ولنفسه لجور الحكومات وشعوره بتدهور الإنسانية على وضع كتابه الجمهورية التي رمى من ورائها لتشكيل جمهورية مثلى يخلص بها الإنسانية من ويلات الأفراد المستبدين وحكومة الرعاع المسماة بالديمقراطية .

وكذا ما جاء به بعض الرسل مثل النبي محمد (ص) لإنشاء حكومة عالمية يقضي بها على الطغاة ويقيم بها العدل والاستقرار ، شريعة وحكومة أساسها الرأفة والعدالة والمساواة وقوامها الأخلاق الفاضلة تقوم على العقل والمنطق والعلم والمعرفة ، يتساوى فيها الضعيف والقوي والسيد والصعلوك والأسود والأبيض والرجل والمرأة ؛ ولا يتفوق فيها إلا الأتقى والأنزه والأعلم والأكثر إخلاصاً والأشد حرصاً على العدالة والباذل نفسه لخدمة الخلق في الخير والبر والإحسان .

ولقد كانت كل عقيدة أو دين يتغلب فيه جماعته لا يقوم على الواقع يرهق العقائد والمذاهب والمسالك الأخرى مهما بلغت في التفوق وقضت عليها ، وقلما وجدنا يوماً من الأيام حرية مطلقة لأفراد البشر يستطيعون أن يجادلوا بما لهم وما عليهم دون خوف ، مثلما وجدنا ذلك في عهد النبي

محمد (ص) وفي عصر المأمون الذي أطلق حرية الأديان مهما كانت مسلمة أو غير مسلمة كتابية أو غير كتابية ، تضع على بساط البحث عقائدها وتشرحها وتنافس غيرها وتبدي محاسنها وتدافع عن مساوئها بقوة المنطق والدليل ، فقامت المناظرات في العقائد والأديان في بدء القرن الثالث في عصر المأمون فدونت بها الكتب الكثيرة والرسائل الجمة في كل رأي مذهب بانفراد وأخرى للمقارنة . فمثلاً في التي تعتبر منفردة كفرق الشيعة لسعد بن عبدالله الأشعري القمي . وفرق الشيعة للنسويختي والمقالات الإسلامية لأبي الحسن الأشعري ، والتي للمقارنة بين عدة فرق مثل كتاب الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي ومقالات الجبهاني وكتاب الفصل لابن حزم . وبيان الأديان لأبي المعالي وتبصرة العوام في مقالات الأنام للسيد مرتضى الرازي وغيرها . وظهرت هذه الحرية لبعض الفرق على عهد غير العباسيين ، ولم تقتصر هذه المناظرات على الفرق الإسلامية بل ظهرت في غير الفرق الإسلامية في أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين بين أنفسهم أو ما قام في المناظرة بينها وبين الإسلام وما قام من المناظرات بين الفرق الأخرى شبه الكتابية في المجوس والزرذشتية والمانوية والصابئة ، بل حيث توسعت رقعة الفتوحات فشملت الشرق والغرب فبلغت الهند والصين ودخل في المناظرة أهل الآراء ممن درس الفلسفة اليونانية في الغرب أو أهل الآراء من الهنود في البوذية والفرق الأخرى من عبدة الكواكب والأصنام . ولم تدم هذه الحرية كما كانت بل انتقلت إلى أدوار مظلمة كان يكفي فيها أن يتهم هذا بالاسماعيلية ليقضي على حياته أو ما شاكل ذلك ، وكثيراً ما تحصل هذه الحريات في عصور تظهر فيها وتكثر المعارف والعلوم والعلماء وتتقدم البلاد من الناحية الاقتصادية والأدبية والعلمية والسياسية ، ويتسلم زمام الحكم حكيم مصلح كما ظهر في عهد المأمون ، وقد كان لفضل العهود التي تركت فيها حرية القول والفكر والمناظرة أن ظهرت حقيقة جميع المذاهب والأديان والآراء في جميع العالم بعد أن كانت متخفية مستورة إذ كان التعصب الديني في

عهد الأمويين^(١) وهو التعصب القبائلي والعنصري أكبر عائق في تقدم العلم والحضارة وظهور الحقيقة على أن الإسلام إنما قام في اليوم الأول على أساس المناظرة ﴿ فقل : تعالوا ندعوا أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٦١] .

وما ورد في القرآن من الدلائل العقلية وحتى وردت في بعض الآيات : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ١١٧] ، والشرك أعظم جناية في الإسلام ، لأن الإسلام أول كلمة يقولها المسلم : (لا إله إلا الله) إنما هو التوحيد وعدم الشرك ، ولكن الإسلام سمح للمشرك أن يقول ما يشاء إن كان له دليل وبرهان على شركه ، وحيث أن النبي إنما يقوم على أساس المنطق ولا يمكن لمشرك البتة أن يستدل على أن الشرك خير من التوحيد فقد قيل البرهان والدليل .

وقد كان محمد (ص) منذ دعوته إنما يقوم بالمناظرة والإقناع بالدليل والبرهان وهذا ما كان يجب أن يقوم به خلفاؤه ، بيد أن الخلفاء الراشدين كان عهدهم عهد فتوح وانشغال حفظاً لهم من التجاوزات ودفاعاً عن عقيدتهم المحاطة بأكبر المخاطر وأعظم الامبراطوريات القوية من مشركين وكتابين ، ولم يكن المأمون في إعطائه هذه الحرية في المناظرة إلا تائراً بعقيدة وثقافة إسلامية خدمت الإسلام وأظهرت حقيقته تجاه العقائد الأخرى من جهة ، وأظهرت حقيقة بل حقائق من أديان خفية ما كان لها أن تعرف خوفاً مثل المانوية وغيرها ، ويتضح ذلك بمطالعة كتاب الفهرست

(١) وما نشأ من منع تدوين الحديث والسنة على خلاف ما جاء في الشريعة الإسلامية الأمر بتعلم العلوم قال (ص) : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، واطلب العلم من المهد إلى اللحد) . وما ورد في القرآن الكريم ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وغير ذلك .

لابن النديم حيث نرى لأي درجة استطاع الكاتب والمحقق أن يحرر عقائده وعقائد غيره بحرية ، وحتى نرى المعتزلة فرقة من الفرق التي هي من الفرق الإسلامية تتخذ من الفلسفة والحكمة اليونانية براهين ودلائل لإثبات عقائدها ، ومنها ما بحثت بصورة مسهبة عن عقائد البرهمية والبوذية والأديان الأخرى الهندية ، وهكذا ظهر الأشاعرة ، بيد أن تضعضع الوضع السياسي في الامبراطورية وطغيان بعض العناصر والمذاهب أدى إلى تعصبات مذهبية متطرفة تجاه بعضها لدرجة أخفت تلك الحريات في العقائد .

وكانت نتيجة تلك الحرية التي أعطيت في عهد العباسيين كما قلنا كشف العقائد والأديان والآراء التي سار عليها البشر في مختلف أدواره من أهل الكتاب وأشباههم وأهل الأهواء والآراء وما تشعبت كل منها في الأصول والفروع ، لهذا فإننا نذكر الأهم فالأهم وبصورة مقتضية وكل قصدنا في حديثنا الوصول إلى أولئك الذين استهدفوا في مسلكهم وضع شريعة عالمية تجمع كافة الطبقات والنحل من ذوي الأديان وغير الأديان ، لهذا كان جديراً بنا أن نختصر تارة أو نلمح إلى فرقة ، ونمرّ بها مرّ الكرام ونقف عند أخرى تلك التي نجد عندها بغيتنا من الحكومة العالمية الصالحة مبتدئين فيها ما أمكننا دون تحييز إلى أهدافها ومراميها الرأي والعلل التي وقفت حجر عثرة دون انتشارها ومحاسنها ومساوئها ، وأن نقارن بينها وبين غيرها بالنسبة للأصلح .

نعم إذا ما تصفحنا حياة البشر منذ بدء نشئته لليوم من جهة وتتبعنا معتقداته في الحال الحاضر في مختلف الأصقاع ، رغم انتشار الحضارة لتوصلنا إلى حقائق في تدرج الإنسان في هذه المعتقدات وتأثره بالعوامل الطبيعية من جهة ، وثم أثر الجماعات الغازية والسانحة في تبادل الآراء والأفكار وبحكم الطبيعة ومنذ النشأة الأولى ، كان الإنسان بحكم غرائزه واحتياجاته وتأثره بالآثار الطبيعية من ليل ونهار ونور وظلام ووحشة واستئناس واضطراره لسد حاجاته ، وتعرضه للزوابع وهطول الأمطار والرعد

والبرق والسيول المتدفقة والوحوش الكاسرة والبراكين الثائرة والغابات وما تحويه من رهبة ووحشة من سكون دامس مرة وهلع من وحش مهاجم عابس ، وحر وبرد وما لا يعد في تلك العوارض وأشدها اتقاء بني جنسه ، لدفع خطر داهم طمع بمغنم في القادم ، كل تلك بعثت فيه التفكير والخيال بوجود قوى خارقة وأشباح وأوهام تخالجه طوراً بوحى النفس أو يتلقاه من آخريين في الأفعال والأقوال ، تلك كانت منشأ العقيدة وسلوك الطريقة أن هناك قوى وأرواحاً وأشباحاً تضره وتنفعه يخافها ويطمع بها فكانت النواة الأولى لعبادته لحيوان^(١) أو نبات أو جماد أو كواكب التي سميت فيما بعد بالتواتم ، أو قدسوا الأرواح والأشباح والأجنة والشياطين ، ومن الأرواح أرواح الأبطال من الموتى وأمثالها ، وهكذا يتقدم البشر في حياته في شتى نواحيه حتى في العبادة وتزيد تجاربه وثقافته واختص كل فريق بمعبود يهابه لدفع شره واتقاء ضره أو جلب خيره ، حتى ظهرت الحضارات الأولى في وادي النيل ووادي الرافدين والصين والهند وفارس وبلاد اليونان ، أولئك الذين عددوا أرباب النوع ووضعوا لكل رب أسطورة وجعلوا منهم لكل مادة أو بادرة رباً ، فقالوا : رب الحنطة ورب التمر ورب العواصف ورب النار والماء ورب الشجاعة ورب الخير ورب الشر إلى آخر ما هنالك من الأرباب . وهكذا تفننوا بأشكالها وتحدثوا عن صفاتها ، وإذا ما سرنا إلى الجزيرة العربية وبلاد الهند والصين وجدنا لكل قبيلة وإمارة وثناً وصنماً ومنهم من تجاوز أرباب الأرض إلى السماء ، وعبد النجوم كالشمس والقمر ومنهم النجوم الثابتة وأخرى الكواكب السيّارة وإلى آخر ما هناك من تعدد هذه الآلهة التي تضيق بذكرها ورسمها وصفاتها هذا الكتاب ، وكلما تقدم الفكر البشري تقدمت معه النظرة إلى المعبود وسمو صفاته وإعداداته حتى نرى بينهم الثنوية الذين قسموا الآلهة إلى اثنين كآلهة الخير وآلهة الشر كالزرتشتية في بلاد فارس ، أو القائلين

(١) هي العقيدة التوتمية .

بالثالوث كالمسيحية الذين قالوا : بأن الله واحد بالوهيته وثلاثة باقنونيته ويتشكل من الأب والابن وروح القدس ، كما جعلوا الله ثلاثة وجوه .
لاهوئية (معنوية) وناسونية (مادية) واقنومية (وصفية) .

وآخر ما وصل إليه الفكر البشري في الرفعة والسمو يوم قال بوحدة الإله وكماله المطلق ، ذلك جاء به الرسل وهؤلاء إما كتابيون أو أشباه كتابيين كأولي العزم من الرسل فمنهم من خلف كتاباً جاء به من الله وظل هذا الكتاب قائماً كاملاً ثابتاً لم يطرأ عليه يد الخلاف كالقرآن ، ومنهم من جاء به وقضى عليه وأعاد الحواريون والربانيون المعتقدون له مثل التوراة والإنجيل ، ومنهم من لا يعلم عن وجود كتابهم من أثر كنوح وإبراهيم وكل ما بقيت هي أصول عقائدهم التي طوتها الكتب السماوية الباقية ، ويعد هذا نعود لنشرح بعض العقائد والأديان والآراء التي شملت الشرق والغرب وظلت آثارها إلى هذا اليوم .

الهند : وكلها بما فيها من ميثاق العقائد تنطوي تحت لواء أهل الآراء لا الأديان السماوية (التي أنزلها الله على يد رسله من الأنبياء والمرسلين) ونذكر أمهات هذه ونبدؤها :

البراهمة : هؤلاء ينسبون إلى شخص يسمى برهام ينكر النبوة ويستدل على إنكارها عند أصحابه بقوله : إن الرسول إذا ادعى الرسالة وأتى بأحكام فهي إما أن تكون معقولة أو غير معقولة . فإذا كانت معقولة فالعقل الكامل يكفي لإدراكها ، وإذا كانت غير معقولة فهي غير مقبولة لأننا لا نرتضي غير المعقول وقبوله ينافي المنطق والإنسانية ويسوقنا إلى البهيمية والبراهمة فرق كثيرة منهم : البدره وذوي الفكر وذوي التناسخ .

البدره : ومعناه من لم يولد بهذا العالم ولم ينكح ولم يأكل ولم يشرب ولا يشيب ولا يموت وهو السيد الشريف الذي عاش ٥٠٠٠ سنة واجتنب عن عشرة أمور : ١ - القتل . ٢ - التجاوز على ملك الغير . ٣ - الزنا . ٤ - الكذب . ٥ - النميمة . ٦ - الشتم . ٧ - البنذاء .

٨ - السفه . ٩ - شناعات الألقاب . ١٠ - جحود يوم الجزاء . واستكمل الحق بعشرة أيضاً : العفو ، والتعفف ، والتأمل للتخلص من هذا العالم الفاني ، والعمل للحياة الباقية . وترويض العقل بالعلم والأدب . وتوجيه العقل في طلب العلى ولين القول وطيب الكلام مع كل فرد وحسن المعاشرة مع الاخوان ، وتفضيل رغبته على نفسه ، والاعراض عن الخلق ، والتمسك بالحق ، واجهاد النفس بغية التقرب إلى الله .

ذوو الفكر : وهم القائلون بالنجوم الثوابت على عكس صابئة الروم القائلين بالنجوم السيارة وقيسون الأحكام على خصائص الكواكب التي ينسبونها له ، فمثلاً يعتبرون زحل السعد الأكبر لكبره ورفعته ، ويحسبون أنه يهب السعادة العظمى من جهة ، وأن أضراره أقل الأضرار ، ويقول : إن الفكر وسيط بين المعقول والمحسوس وإذا ما تجرد الفكر في هذا العالم أمكنه التجلي على أسرار العالم وتوصل لكشف المغيبات وعمل الخوارق ، ومن هذه الطائفة البكرنتينية وهم يحلقون الرؤوس ويعرون الأجساد ويرسلون اللحي وأعمال مماثلة أخرى لا مجال لذكرها حيث نبتعد عن موضوعنا .

منهم ذوو التناسخ : وهم يشبهون الأفلاك بطائر عشعش في شجرة وحينما يبض وقيل التفريخ يسبب حرق البيضة بمنقاره فيسيل زيت إلى أسفل الشجرة ويتجمع هناك في غار وكل سنة في وقت معين ينتج من ذلك الزيت طير آخر ويكرر نفس العمل وهذا يشبهونه بالكواكب حيث تعود كل سنة إلى مقرها ويختلفون في الدورة الكبرى فيقول البعض ٣٠٠٠٠ سنة وآخرون ٣٠٠٠٠٠ سنة ومنهم ٦٠٠٠٠٠ سنة وتعتبر هذه الأدوار سير الثوابت لا السيارات ويقولون كما يقول أكثر الهند ان الأفلاك تتكون من الماء والنار والريح .

ومنهم ذوو الروحانيات : وهؤلاء يقولون إن الله سيرسل وسيطاً روحانياً فيأمرهم هذا وينهاهم وتصبح لهم شريعة وهم سيعرفونه بنزاهته عن أحكام الدنيا واستغنائه عن الأكل والشرب والنكاح .

وهناك طوائف كثيرة وكثيرة جداً أمثال . الكابلية . والبهارونية والباسورية ، والباحورية وغيرهم ولهم أساطير وتماثيل وقد بُعدوا بها عن المنطق ، السليم ومنهم عبدة الكواكب ، ومنهم من يستقبلون الشمس ومنهم من يستقبلون القمر ويعتبرون فرقاً من الصابئة وهم إذ يتوجهون للشمس يحسبون أن لها نفساً وعقلاً وانها الملك الأعظم ومرجع القدسية عملوا لها معبداً وصنماً وسدنه يعبدونه ويقدمون له القرابين طلباً للخير ودفعاً للشر وعبدة القمر لهم فيه أساطير وتماثيل يقيمون لها صفاةً ورسوماً لعبادته .

ومنهم عبدة الأصنام : وهؤلاء فرق وطوائف كثيرة جداً في كل بقاع الأرض منها الهند والغالب أنهم يقدسون هذا الصنم الذي صنعه بأيديهم ليكون رمزاً لكوكب أو شيء آخر ويرجون في عبادته ليقرّبهم زلفى للرب الأسمى ويقدمون له القرابين خوفاً لدفع ضرر أو طمعاً لجلب خير وكل منهم يضع فيه أساطير ويمجده دون سواء وفي هذه الطوائف نكتفي بذكر بعضها فقط على سبيل المثال كي نعطف إلى ما هو أهم لموضوعنا .
منها :

المهاكيليانية :

ويعبدون صنماً ذا أربعة أيدي وشعر كثيف على رأسه ويده ثعبان عظيم فاغرقاه ويبد عصا ويبد أخرى رأس إنسان وبالرابعة يبعد عنه الأفعى . وفي أذنيه حيتان معلقة وتلتف عليه أفعيان وعلى رأسه تاج من عظام القحف ومنها قلاذته ، ويقولون انه عفريت يستحق العبادة لما يحمله من الصفات العظيمة والذميمة فهم يسجدون ويتضرعون له في اليوم ثلاثاً ويقيمون له المعابد ويرجون منه ما يرجي من الله .

ومن ذوي الأصنام : البرلسهيكية : يعبدون صنماً على شكل امرأة ذات أيدي متعددة ويقدمون لها القرابين ومنهم :

الجهلكية : وهم من عباد الماء ويعتبرون الماء ملكاً وأصل الحياة

ومنه الطهارة والبقاء وكل عمل بحاجة له فإذا أرادوا عبادته نعروا إلى ستر العورة ودخلوا الماء ساعات حاملين معهم الرياحين ينشرونها تدريجياً وعند الخروج يحملون حفنة من الماء ليلقوه على رأسهم وأبدانهم ثم يسجدون .

الأكيواطرية :

وهم عبدة النار ويحسبون النار أعظم الجميع وأوسعها وأعلاها وأشرفها وأنور وأكثرها احتياجاً لهم وانها ضرورة الحياة والنمو والتفاعل لبقية العناصر . وطرز عبادتهم أن يحفروا اخدوداً مربعاً ويحشوه بالنار ويلقون فيه أفخر الطعام والشراب والعطور تقريباً وتبركاً ، ويحرمون حرق النفوس على خلاف بعض عبدة الهند وزهادها يعتبر هذا مذهب أكثر ملوك وعظماء الهند القدماء .

تلك كانت نماذج من عبادات الهنود .

حكماء الهند :

سافر اقلانوس تلميذ فيثاغورس إلى الهند ونشر هناك حكمته وأخذ منه (برحمنين) وهذا تزعم قسماً من الهنود وحثهم على تلطيف الأبدان وتهذيب النفوس وقال : من عمل ذلك وتجنب الرذائل وتزهد عن الدنيا وحكامها ظهرت له الحقائق والمغيبات وتغلب على المتعذرات وفارقه النصب وانتقل إلى عالم السعادة الأبدية ، فتغلبت عقيدته آنذاك على كثير من الهنود ورسخت في أدمغتهم وبعد موته انشطروا لفرقتين ، منهم من تزهد وحرّم على نفسه كل لذة دنيوية سيان منها الجنسية وغير الجنسية حتى بلغ الحال ان بعضهم يلقي نفسه في النار ليزكيها .

والفرقة الثانية : وقد أحلوا اللذائذ بصورة متوسطة وأخرى تجاوزها كثيراً ، ومنهم من تمسك بحكمة فيثاغورس ومالوا للملاطفة والرياضة النفسية لبلوغ مكنونات النفس . ويعتقدون ان الله نور محض وقالوا من شاء أن يدرك المعنويات فعليه منع النفس من الشهوات والرذائل وسوقها

إلى الفضائل . ونقلوا أن الإسكندر المقدوني حينما بلغ نفوذه بلاد الهند وعلم بحكمتهم عفا عنهم وأكرمهم ومنع غزو بلادهم .

ومن معتقدات الهند :

البودائية : وتعتقد بالقوى الطبيعية وتقدمها ، ولها كتاب مقدس يسمى : ودا أو وداها وفيه ١٠٢٨ أنشودة في أوصاف الملائكة والشياطين والأجنة وفلسفة ، وأمور اجتماعية وعبادات وقرابين للآلهة ، وأشهر أربابهم اندرا وهورب الطبيعيات ، وارونا رب العقل ، ويعتبر رب السماء ليلاً وميتراً إله السماء نهاراً .

البودائية :

البودائية طريقة وليست ديناً ولا مذهباً . نعم هي طريقة فلسفية مأخوذة من المنطق والقياس . لا تنص على بقاء الروح والمادة وما وراء الطبيعة ولا إلى الآلهة ، بل تعتبر كل شيء يزول ، وعلى المرء أن لا يتقيد بما يقال إنما ما جربه هو وما اكتشف بنفسه من الحقائق . فبودا نفسه عبر عن نفسه هو أنه فان كغيره من الموجودات . وقد جمعت أقواله وأحاديثه منذ ٤٥٠ ، قبل الميلاد ، ما حدثه وتلاه شفاهاً كتبت بعده ربما بقرون ، وأصبحت تعاليم ، وصنفت إلى : ١ - تعاليم الرهبانية . ٢ - طرق النجاة . ٣ - مواضيع في علم النفس والفلسفة ، ثم تلتها تعليقات وإضافات وحررت بالسنسكريتية التي تعتبر إما للغات الهند كاللاتينية الإيطالية في أوروبا . وأوجد أصليين في تعليماته :

١ - أن لا يتعب المرء فكره سوى فيما يوصله إلى سبل الحقيقة والمنطق وتركه المهملات^(١) .

(١) مثل الآيات القرآنية : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴿ . هنا ورد في القرآن حينما نقلت عن بودا وربما وضعت عنه .

٢ - إن الحقيقة هي التي تنال بالتجربة والخبرة . وبودا يتعد عن الفلسفة فيما وراء الطبيعة إذ تشغل الفكر دون جدوى . ويؤيد المنطق . وقدرة المستطاع الابتعاد عن آلام الحياة . بينما يعتبر الحياة شقاء ولا وجود للسعاد ، (وهذا بنفسه تناقض ويترك المرء في شقاء) وبني على تلك أربع ركائز .

الأولى : الولادة ، الهرم ، المرض ، الموت ، جميعها ليست سوى آلام . وهو بالوقت الذي ينكر الروح وبقاءها يناقض قوله بوجود تناسخ الأرواح . ونرى بودا يناقض في رأيه عقائد الهند والبراهما حيث يعتبر أن الحياة وهم وخيال ويتابعه الحكيم عمر الخيام في رباعيته (چون نیست زهرچه هست جز باد بدست . . . الخ) يعني : ليس في كفك غير الصفر في هذه الحياة .

ويقول إن آلام البشر إنما تحصل لأنه يريد أن يكون حقيقة من خيال ودواماً من زائل وسعادة من شقاء ورجاء للبقاء وكل تلك أسباب الحرص والخصام .

الثانية : يقول إن الرجاء مصدر جميع الآلام لأنه يطلب بالرجاء ما لا وجود له . وهنا يخالف الحكيم الشاعر العربي :

اعل النفس بالآمال ارقبها ما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل

وهي حقيقة إذ بانقطاع الأمل يشقى المرء لا بالأمل ، والأمل أهم مصدر للجد والكد والمثابرة والتوسع العلمي والكشف والاختراعات والترقيات .

الثالث : القضاء على الآلام باستئصال الرجاء في جميع الأمور وعدم طلب الخلود وعدم رجاء البقاء وعدم طلب ذلك ، وعدم رجاء السعادة والجد في طلبها ، ومجموعها تحصل بالقضاء على الآمال ، ومتى حصلت قضينا على الأحقاد والجهل ، وبالتالي علينا بنكران الذات والابتعاد عن

الانانية التي هي أهم منابع الشقاء ، وبتعبير البودانية بذلك ندرك النيرانية .
والنيرانية هي فناء الفرد الأبدي ، تلك التي تتلاشى عندها الآلام الحاصلة
من عالم الوجود .

الفروق بين العقيدتين ، البودائية والاسلامية :

قلنا ان العقيدة البودائية في الحياة عقيدة متشائمة كما مر ، وتحث
على ترك الآمال للحياة للبقاء للسعادة للرخاء ، حتى درك الثروانا ، بينما
ان الاسلام يبشر المرء بالسعادة في الحياة الدنيا والآخرة الأبدية لمن اقر
الفضائل وابتعد عن الرذائل ، بينما ينذر أولئك الذين يقيمون الشرور
والرذائل بعكس ذلك ، بالجزاء الأبدي في الآخرة ، ويرى المسلم في
الرجاء سعادة لاعترافه بالحياة الآخرة ، وبالله الأحد الصمد العادل وبإقرار
يوم الميعاد في الاقرار به أصل من أصول الدين . وعلى هذا نرى الصوفي
في المذهب البودائي يحمل نفس عقائدهم ، وفي الاسلام عكسه ففيه
السمو الروحي والحياة السامية الخالدة ، بينما نرى البودانية تنكر السعادة
والحياة والأمل ، تعود لتناقض قولها ذلك أن الفرد تحفه أعماله فالصالحة
تسعد والطالحة تشقيه ، بينما تقول بالفناء الأبدي وما في هذا من
التناقض .

الرابع : محو الآلام والطرق الثمانية : (١) الايمان النزيه ، (٢)
الارادة النزيه ، (٣) القول النزيه ، (٤) العمل النزيه ، (٥) العيشة
النزيه ، (٦) الجد النزيه ، (٧) العنوان النزيه ، (٨) الفكر النزيه وكلها
تنتهي بالسمو الاخلاقي . ولبودا وصايا عشرة (١) لا تقتل حياً ، (٢) لا
تسرق (٣) لا تسلب ، احفظ عفتك الجنسية ولا تتجاوز على ناموس
غيرك ، (٤) اصدق ابداً ، (٥) لا تسكر ولا تشرب المسكر ، (٦) لا تتخم
نفسك بالطعام ، (٧) ابتعد عن اللهو واللعب ، (٨) ابتعد عن الزينة
والعطر ، (٩) اياك وطلب الراحة ، (١٠) ابتعد عن الرشوة والتهالك على
العمال . تلك تنقيد بها الرهبان البودائية .

وهناك وصايا اخلاقية أخرى وهي استسلام الفرد أمام المحن ،
والعطف على الام الآخرين ، والبذل المعنوي للاغيار (كالبر والاحسان)
ويحسبها خير الصدقات ويضاف لها الفضائل العشرة الآتية : العفو ،
الاخلاص الحرية ، طلب العلم ، البسالة تجاه مصاعب الحياة ، متابعة
الحقائق ، الصمود تجاه الافراح والاحزان . بيد ان بودا لم يذكر انقاذ
المنكوبين وعند ذكره للبر والاحسان انما يقصد به الرهبان فحسب .

ما يؤخذ على بودا :

انه غير عادل في حق النساء ويوجه لهن اشد الطعون حينما يطلب
منه انا ندا مساواتهن بالرجال يجيبه : ان النساء ذوات شر ، وذوات
حسد ، وذوات بخل انهن بعيدات عن الحكمة .

لذا منع الرهبان من الصلة بالنساء . وترى الرهبان بسبب وصاياه في
نفس حاله من الفقر والمسكنة ، حفاة لا يملكون سوى اناء يتكدون به
ويدعون الناس في حالاتهم المزرية الى الأصول الأربعة المارة ، ويوصف
بودا الراهب بقوله « هنيئاً للرجل المنزوي » المدرك للحقيقة ، سعيد من
استقام على الطريقة وتجنب الأذى لأي فرد ، وسعيد من زال من جنانه
العشق والرغبة ^(١) ، إن السعادة الأبدية القدرة على الاخذ بزمام أهواء
النفس تلك المبادئ اظهرت عملا كيف خلقت التعاسة والمسكنة والفقر
في الافراد . انتشرت مبادئ بودا قبل الميلاد أخص في عهد السلطان
الهندي سوكا (٢٢٣ - ٢٣٦) ق . م وكان لنظره في المرأة أسوأ الاثر ،
حتى أصبحت الديرية فيما بعد محلات للفساد . واتخذ رؤساء المذهب
البراهماني أشد الطعنات لمبدأ بودا الى أن زالت أهميته في القرن ١٢
ميلادي ، وأما دخول المسلمين للهند في ١١٧٥ - ١٣٤٠ كان له أبلغ الاثر
للضربات القاصمة على المبدأ البوداني . واليوم يتبع المبدأ نحو من ٥٠٠

(١) احسب أن أمثال هذه العقائد روجها الاستعمار البريطاني واستغلها لإذلال الشعب .

مليون في الهند والصين والهند الصينية وتركستان واليابان وكوريا . وبعدها تشعبت في البوذية فرق عدة انحرفت عن المبدأ الأصلي ، وحدثت آراء ونظريات جديدة واستحوذت على أغلب آراء بودا الأصلية وأشهر الفرق هي ١ - هينابانا وماهابانا وحاولت تعديل المبادئ الأصلية لتألف مع العالم الآخر حتى وصلوا أخيراً إلى مبادئ بودا الحديثة ، وبه تقديس المبادئ الأخرى والتقرب إليها وتنتشر في الهند الصينية . أما مذهب بودا في التبت فيمتاز بمبادئ أخرى ، فهو يسمى باللاما ويقرب من المبادئ البدائية النوعية والمذهب الروحي ويحسبون أن روح بودا احلت في بدن دالائي لاما ويشبه بمركز البابا عند المسيحيين وحينما انتشر في الصين امتزج بمبادئهم وكان دخوله في أول القرن المسيحي بينما دخل اليابان في القرن السادس المسيحي من طريق الصين وكوريا ، وفي اليابان اصطدم بمذهبهم القائل بتعدد الالهة في حين بودا ليس له اله . ومذهب شين تا أو الياباني يقول بخلود الروح ولا يقرر لعالم الأموات جزاء ، في الوقت الذي نرى في تناسخ الأرواح البوذي يقر جزاء . ورغم ذلك استطاع المبدأ البوذي أن يطور نفسه ويمشي المبدأ المحلي . والمهم أن مبدأ بودا المتشائم وافق المبدأ الياباني المتفائل وسأيره وطور نفسه لقبول تلك .

مذهب جيني :

العقيدة الجينية ظهرت مع البوذية في القرن السادس قبل الميلاد وتقول بازلية الوجود مكاناً وزماناً وأنه غير مخلوق ، وإن الحياة لم تخلق من العدم ، وإن هناك أدوار لها تتدرج بالصعود لمدد طويلة ثم تعود للهبوط وتكرر حتى إذا بلغت أقصى مراحل الفساد عادت للصعود . وإن كلا المسلكين يعتبران المذهب البراهماني المتعدد الآرباب باطلاً . وكل من مؤسسي المذهبين البوذي والجيني لا يعتبر نفسه نبياً ولا الهاً ولا يقول بحلول الروح فيه بل هو رجل كالرجال ، وهو معلم للنجاة والمذهبان يقربان من بعضهما كالقول بالتناسخ . ويعتقد للوصول إلى النيروانا المار الذكر باتباع الجواهر الثلاثة بالآيمان النزيه والمعرفة النزيه والسلوك

النزیه - ويعتبر الأخير هو الأساس ، لذا بموجب هذا يتجنب من عقائد الهندوس من الادعية والقرايين وعبادة الارباب والتشفع بالمقربين لها ، كما يتعد عن العقيدة البودائية أنه يؤكد بالارتياض والزهد الشديد والعبادة المفرطة ، ومؤسس هذا المذهب هو : مهاويرا الملقب بحينا أي الفاتح الروحاني . توفي سنة ٤٧٧ ق.م . ووصاياه المقدسة أهمها ما يبحث فيها عن آداب الرهبانية وتزكية النفس بالوصية لاتباعه .

اساس العقيدة الجينية :

الحذر من مس أي حي سالم ، ويختلف عن المسلك البودائي بالوصية لاتباعه أن يفرطوا في الزهد ، واهمال النفس والعفة وشدة الرهبانية والصوم الشديد ، وهو المذهب الذي يكاد يكون وحيداً بتحريضه لاتباعه على السير حفاة والتجرد من اللباس الا الضعفاء أو المرضى ، ويظهر أن فكرة التناسخ في المذهب البراهمائي واهمال النفس والزهد المفرط بلغ بهؤلاء (الجنين) اشده في القرون الثامن والسابع والسادس ق . م . حتى وجدنا بوذا يحسب الحياة شقاء في شقاء والقول بالتناسخ انما هو ترفيع النفس من افراط الزهد وتحمل المشاق المارة ، لكيما يدرك بعد الموت السمو الاعلى والا ستعود الروح الى الارض (مقر الشقاء) وعلى قدر افراطها في الهوى والشهوات تهوى . هذه العقائد جرت المصائب للهندوس القرون الطويلة .

وباعتقادهم ان التناسخ يتكرر حتى تظهر النفس وتسمو الى السماء ولا يكون الا بتعذيبها وبحرمانها من أي نعيم . وهكذا زادت الرهبة والفقر والمصائب والتصوف الهندي ، ويختلف المذهب البراهمائي عن الجيني والبوداني بالتجرد عن المجتمع وتعذيب النفس بينما يعتبر الجيني والبودائي اجتماعياً واخلاقياً في سلوكه .

الوصايا في المذهب الجيني :

المنع البات لا يذء وقلل الغير من الاحياء بغية تزكية النفس ، ودرك

الحكمة ، لذا منعوا أكل اللحوم وقتل حتى الحشرات المؤذية ، سيان بصورة عمدية أو غير عمدية ، حتى في السير بدرجة يصم الرهبان أفواههم كي لا تدخلها حشرة وتتأثر ، ويمنعون اشعال النار لنفس الغاية ، وهذا سبب منعهم الزراعة التي ربما خلال حرث الارض أصابوا حشرة بأذى . واتخذوا التجارة مسلكاً ، لذا مهرروا بالمبيعات ، وبرعوا بالربا وأكل السحت والاثراء لليوم . تلك هي الوصية الأولى . والوصية الثانية في الصدق ثم الزهد والتقوى ثم التغلب على الاهواء لدرجة الموت ، وتكاد التعليمات تخص الرهبان كما يؤكدون الحلم تجاه أي متجاوز ، وماشت العقائد الجينية العقائد البودائية ، بيد بالتالي تضاعلت تحت نفوذ المذهب البرهماني ، وانطوت تحت ظله وسبب ذلك الصعوبات البدنية والنفسية المفروضة عليها ، لذا لا نرى منهم اليوم أكثر من مليونين في الهند . هنا تنتهي من العقائد الهندية وننتقل الى الصينية .

العقائد الصينية :

هي تشكل منذ القديم مسلك « نأو » ومسلك « كوفوشوس » وعند البحث نصطدم بالعقيدة النفسانية القديمة وأرواح الموتى أخص الاجداد لها في المسلكين المكان المقدس ، لذا نشرح العقيدة النفسانية مبدئياً أو المعتقدات الابتدائية الصينية وهي : ان الدنيا مملوءة بالارواح والآلهة والشياطين وقوى مرموزة تلك التي تسوق الفرد للسعادة أو الشقاء ، ولجلب الخير ودفع الشر توسلوا لها بالعبارة ومناسك السحر ، وكان الصيني القديم يحسب أن لكل شيء روحاً سواء أكان حيواناً أو نباتاً أو جهاذاً ، وقدسوا أرواح الأجداد كثيراً ، وقسم المذهب إلى عاملين مثبت ومنفي أو ذكر وأنثى باسم يانك ويين وعدو إلهين : مذكر يقاصص ويجازي بالخير والشر ويسمى شانكتي Shangti ومؤنث يسمى Hatin وهي آلهة الطبيعة ذات الخصب والمطر والسماء وعندها الملائكة والجنة والنار والجبال وغيرها ، ويعتبرون أرواح الموتى إذا تركوا لها نذوراً وقدموا لها قرابين خلصوا من مزاحمتها للأحياء ، وروح المظلوم لا بد وأن تنتقم حتى تهدأ ، ويهتم الصينيون بتقديس وتكريم الأرواح ، أخص أرواح الآباء

والأجداد ، ويعتبرون القرية أو المدينة تتشكل من الأحياء والأموات ، وانهم يهتمون بالتوالد حتى يكثر الأعقاب ويكرمهم كما هم يكرمون الأجداد ويتوسلون لهذه الأرواح التي تجلب لهم السعادة أو الشقاء . وكانوا قبل ألف سنة من الميلاد يعتبرون أرواح الأعقاب من الأمهات أجل من الآباء ، لذا اهتموا بالمرأة ، بيد عقب ذلك اهتمامهم بالرجال واليوم تساوا بذلك . ويختص الامبراطور بتجليل الرب الأعلى ورئيس القبيلة والعائلة بتجليل أجل أرواح الأجداد ، ويعتبر الامبراطور الرابط بين السماء والأرض وما فيها وعليه إقامة القداس وهو كفرعون مصر المرجع الأعلى وهو منظم الحياة الدنيا ، وهم يعتبرون الأرض انثى والسماء مذكراً ، وإن القوة للسماء ، لذا تقل عندهم أهمية الأرض وجميع الإنثى ، حتى بلغت بالمرأة إذا ولدت بنتاً حزنا وأسفوا وأبعدوا المولودة وألقوها في الصحراء أو باعوها . وللرجل عند الزواج الخيار لمن يختار زوجه ويسلب هذا الحق من المرأة ، وليس للمرأة الجلوس في مجلس الرجل وليس لها أن تستفيد من نفس شمعة الرجل أو تستفيد من أدواته ، وإذا قدمت المرأة شيئاً للرجل فعليها لفة بمنديل وتقديمه له ، وبالوقت الذي يشعر الصيني بقوى قاهرة ، ولكن لم تخالجه القوة الإلهية ، كما في الإسلام لذا هم لجلب الخير أو دفع الشر يتوجهون للأرواح والسماء ويعتبرون الحوادث الطبيعية كوفور الزراعة إجابة للقيام بالمراسم والمعتقدات الروحية وعكسها بالعكس .

مذهب ثا أو :

مؤسسه لأوسه نشأ في القرن السادس ق.م . قبيل كوفوشيسوس ، وله صلة ومقابلة معه . وكتابه المقدس هو ثا اوت ه كينكد ، ضغير جداً يحوي على ٨١ قطعة شعرية بشكل كلمات قصار ، فيها متناقضات وإبهام تكاد لا تفهم ، أهم تعليماته فيه على المرء أن يطابق نفسه مع نظام الكون كي يعيش . وأشهر أتباعه هو جيانكتبه آخر القرن الرابع ق.م . وقال أحد أتباع

المذهب في تعقيد المذهب «من يعرف من مذهب تا او شيئاً لا يَمور شيئاً ، ومن قال لا يعرف شيئاً» والواقع هي فلسفة ميتافيزيكية عميقة مبنية على وحدة الوجود ، وعرفانية ، ويمنع الافراد من زج أنفسهم في بحوث انفرادية ، وعليهم الانقياد مع الحياة السافرة التي يعبرون عنها بـ «تا او» والكون نتيجة الحياة والعدم وكل شيء نسبي ، وبحسب مؤسس المذهب أن الكثير يدركون إحساسات غيرهم من ذوات الروح لأنهم كانوا قبلاً يشكلون نفس الوجود . وبحساب الفلسفة الإسلامية ، لكل شيء وجود وله ماهية تحدده نحو سواه ، وهنا يخالف نظرية تا او . ويرى صاحب مبدأ تا او الابتعاد عن المعقولات والتوجه إلى المكاشفات القلبية والتعمق في ذات النفس ونبذ الافراد والاشياء والحوادث والولوج في البساطة والسذاجة المعظة ، وإليك حديثاً يوضح ذلك : « حاول كالأطفال بتسم للجميع فهم لا يرمون لهدف في حياتهم ، كالفرخ المولود لا فكر له ، والأخرى تكون كالماء يأخذ كل شيء وينظف كل شيء » وله ركائز ثلاث للتقوى : ١ - الاقتصاد . ٢ - البساطة في الحياة . ٣ - خير الأمور أوسطها ويحض على الإحسان حتى مع الأنداد .

أما في الأمور الاجتماعية : فيرى أن الحكومة عليها تأمين راحة المجتمع في الحياة ، ويوصي بالابتعاد عن الحرب وسفك الدماء وهنا يماشي أفكار كونفوشيوس . ويوصي بتجليل الأرواح أخص الأقارب ، ويتحدث عن أمور معنوية وسمائية والسحر وما يخصها من مناسك ، ويتحدث عن المتوفيات ومحل الدفن . ويتناول ثواب محبة الأولاد للأباء والبر للنوع والصدق والامانة ويعد الكبائر من المعاصي : القتل ، الاحتيال ، السرقة ، والنصب ، ومعصية الوالدين ، ورجل الطيب ، وعصيان المرأة لزوجها ، وإهمال المربين ، ومن لا يوارى رفاة موتى الكلاب والقطة .

ولم يحارب مذهب تا او مذهب بودا كما عمل كونفوشيوس بل سايره

في بعض معتقداته كالقصاص والجنة والنار وتجليل الأرواح والتناسح ، وبهذه الصلة البودائية كمل المذهب بصورة أكثر متانة ، لكنه عد العذاب هو الحاصل من الوضع الاجتماعي وليس للجنة والنار والآخرة مفهوم لدى الصينيين ولا يدخلون في هذا البحث بقولهم ان البشر الذي يجهل حياته الفعلية كيف يدرك الحياة الآخرة .

كونفوشيوس :

الوضع الاجتماعي والسياسي للشعب الصيني قبيل ظهور كونفوشيوس ورقي ظهوره هو الذي بعث بهذا الحكيم للظهور في زمن كان يشابه نفس الوضع الذي ظهر فيه سقراط في اليونان وزرادشت في بلاد فارس وبودا في الهند وارميا واشعيا في فلسطين ، ذلك الوضع المرتبك المليء بالقسوة والتفرقة والحكم الاقطاعي واضطهاد العامة وتدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي .

تعاليم كونفوشيوس :

كانت ولادة كونفوشيوس ٤٧٩ ق.م . وبلغ من العمر ٧٢ سنة وبدأ طفولته يتيماً ربته أمه ودرجته في التعليم والآداب الدينية ، وأيام شبابه تسنم عدة وظائف ، ولما بلغ سن الخمسين تسنم حكم مدينة ، وبعد توفيقه الاجتماعي والسياسي انتهت خدماته ، وظل ١٢ سنة بعيداً عن وطنه الأصلي يتجول مع عدد من تلامذته في أنحاء الصين حتى وصل أرض لو كل هذه كانت له دراسة علمية وعملية أخص حينما شاهدها تالوك عاصمة شو التاريخية العظيمة ، وكيف سببت التفرقة إلى تأخرها . ولم يكن كونفوشيوس مروجاً دينياً ، بل كان يساير الوضع كي يجلب حوله الناس حين نشر تعاليمه ، لذا كان يتوقى البحث في تقديس الأرواح والسلطة السماوية ، وجل همه ترويج الأفكار الأخلاقية ، تلك التي اعتنقتها الناس مع حفظ أديانهم . لذا اهتم بلم الشمل والوحدة ورفع المخاصمات ،

لدرجة تجد أنها لا تحد من أعمال السلطة القهرية ، فكان يوصيهم بأداء الوظيفة كاملة والصدق والنزاهة ، ومع احترامهم لمخلوقات السماء والأرواح يحاول الابتعاد عنهم ، وتقديس السنن والمقدسات الأخرى لذا بدأ بتأليف الكتب .

الكتب المذهبية :

تناول الأفكار والسنن القديمة وأصلح إخراجها وإدخالها على الأصول المذهبية ، وبعد تهذيبها ألف منها خمسة كتب وضع أسسها هو وطلابه من بعده حتى اشتهر بها نفسه ، ومُرّت هذه الكتب لمدة عشرين قرناً كانت الأصول في سلوك الصينيين في الأفكار والآداب والعقيدة في الشؤون الاجتماعية والسياسية والأخلاقية ، فالكتاب الأول بيكنك اعتبروه جامع جميع العلوم الأرضية وخلاصة العلوم البشرية ، بيد كانت أكثر ابهاماً وصعبة الدرك . والكتاب الثاني شو كينك وهو تاريخ السلالات السابقة . والثالث سي كينك كتاب التراثيل . جمعها من آلاف التراثيل وعددها ثلاثمائة هي آداب عبادة الآلهة في الأعياد والحفلات . الرابع لي كينك فيه آداب ورسوم مذهبية وأخلاقية للأقدمين . والخامس جونجيو : يعني الربيع والخريف وهو تأليفه الخاص ويبحث عن سير تكامل الموجودات والإنسان ، فالتاريخ القديم والعلم به كان يعده من الواجبات التي يحض عليها وحسب الموسيقى والأناشيد ثواباً وانها تهذب الأفكار وتهذب المجتمع ، ومن مناهجه الكتب الأدبية وبها نصائحه الحكمية ، تلك كان لها الأثر العميق على المجتمع الصيني ، وخلاصة تعاليمه في «لي - شو - تشنتن» فكلمة يو تعني الواجبات في شريعته وشو يعني ما تكره لنفسك أكره لغيرك . وكلمة تشنتن أن المرء حر وشريف لذا عليه عدم احتقار من دونه ولا يمتلق بالرشوة وبما لا يليق لمن أرقى منه . يحاول تنزيه نفسه والغض عن عيوب الغير . وقسم البشر إلى نبيل وحقير ومنافق ، فالنبيل يتساوى عنده البشر والحقير مذبذب متملق . والنبيل رجل حقيقة في أقواله وأفعاله ويستسهل الصعاب والحقير أناني يحمل غيره الصعاب . والنبيل

يردك بأعمال جبارة ولا يعير أهمية للتوافه وعكسه الحقير ، النبيل يردك بأشأً
والحقير يقابلك بالعس . النبيل عادل صادق يجد في طلب العلم
والتجربة . يحفظ الأصول رائدة الحكمة والهمة العالية والإرادة ، لا يرضى
أن يفدي الغير لنفسه ويسلب سعادته . وشيمته المساواة بين الجميع في
جميع الشؤون في القول والعمل . ويرى كونفوشيوس ان لا قيمة للفرد
تجاه الجماعة .

إنه يجلب العقل والفكر ولا يهتم بالعقيدة والمذهب ويتبعد عن
المعتقدات العرفانية والقوى المرموزة والتأثيرات السماوية ، حتى قيل انه
ساعة مماته أشار عليه أحد حواريه أن يتلو له أورد وأدعية فأجابه
كونفوشيوس : إن حياتي كانت ادعيتي وعبادتي ، فهو فيلسوف اجتماعي
لا نبي لدين جديد ، ولم يعترض على دين الصين السابق بقوله : أنا ناقل
ولست مبدعاً . وأبقى الدين على ما كان ولكنه هذب بالأخلاق ولم يحاول
أن يجادل في الدين وقال في الثواب والعقاب كقصاص ، إنما هو يعود
للضمير والوجدان ولم يشر إلى الجزاء الاخروي ، وحسب البحث فيما
وراء الطبيعة فيه ضرر .

وحتى ما أشار فيه عن السماء عند تعاليمه ما كان يقصد (حسب رأي
المتتبعين) التوحيد وانه بنظر المحققين يشك في الأرواح والآلهة إذ حينما
سئل : كيف نبنني واجباتنا تجاه الأرواح؟ أجاب :

كيف نستطيع أن نؤدي تكاليفنا تجاه الأرواح قبل أداء الحق تجاه
الحياة في الدنيا؟ .

وحينما سئل ما هو الموت؟ أجاب :

« كيف نستطيع أن نعرف الموت في الحالة التي نجهل فيها الحياة؟
ويضيف : « إن الرجل العاقل يحترم الأرواح بيد أنه يتجنبها » وبحسب أن
الإنسان جسماني يتلذذ جسمانياً وروحي يتلذذ في الروحانيات والمعارف
والأفكار السامية ، وان الحياة ناقصة وبالرغم ان وسائل الرقي موجودة بيد

أن بلوغ السعادة الكاملة مستحيل ، ورغم إن انتقام المظالم واقع في هذه الحياة بيد أن بقاء الظلم وعدم امكان إقامة العدالة التامة في الحياة غير ممكن . فالرجل اجتماعي لا يهتم بالمذهب والمعبد والتوبة لكنه تركها حرة فكأنه جاء بمبادئ تلتطف كل دين ومذهب وتسمح لكل فرد اعتناق ما اعتقده حتى يصح مجموعة دينية أخلاقية لذا ترى أتباعه في تزايد وقد ثبت مبدأه في الصين أخص خلال ١٢٥ سنة ق.م . حتى ١٩٠٥ ق.م . حتى رفعوا هذا الرجل لدرجة الألوهية رغم عدم قوله بما وراء الطبيعة وسكوته أمام المذاهب وعدم اشارته للأرواح وبقائها . وافترق عن مذهب ثا أو العرفاني المعتقد بالأرواح ، فقد اعتقد كونفوشيوس ان البحث في أمور لا تقدر الوقوف بها على الحقائق عبث مثل بقاء الروح وإدامة الحياة الروحية لأننا نجهلها بل نجهل أكثر مشاكل الحياة الحاضرة لذا يرى في رأيه الاهتمام بحياتنا الفعلية القائمة بتنظيمها وتحسينها ، وتطابق مبادئ كونفوشيوس مع مبادئ سقراط بأن سعادة الافراد تحصل ضمن سعادة الجماعة بالبر وأداء الوظيفة . ويحسب كونفوشيوس ان السلوك النزيه والعدالة والتقوى الإنسانية مصدرها الحكمة ، والحكمة وليدة كسب الفضائل والعلوم بصرف النظر « عمّا » يحمله هؤلاء الافراد من اختلاف العقلية الوراثية لأنه يعد للتربية والتعليم المقام الأسمى ويقدها ، ويرى أن التعليم والتربية لا يعيقها الفقر وأن اهتمامه يقابل اهتمام الهند بالرهبانية .

وجاء بعد كونفوشيوس تبعه منسيوس في آخر القرن الرابع ق.م . وهذا سار باتجاه الأخلاق العالية الاجتماعية فكان أفكارهما وأفكار بودا ولاؤنسه الأثر العميق في افكار الشرق الأقصى .

ويقر كونفوشيوس التقاليد المذهبية للأرواح ، فيقول بإطاعة الآباء لأنهم ممثلو أرواح الأجداد ، ويقول بإطاعة المرأة للرجل ، ويعتبر الناس أولاد الحكومة وعليهم إطاعتها ، وعلى الحكومة كالأب تهيئة جميع وسائل الصحة والتعليم والراحة والأمان لهم ، وهذا الحب المتبادل المار ذكره

سمح لنشر افكاره بعد القرن السادس عشر الميلادي في اليابان ، وتكاد تكون أولى المبادئ الخارجية الواردة لليابان ، وأهم شيء فيه اهتمامه الأول في الحب الأبوي للأولاد ويقابله الاطاعة المطلقة من البنين لأبائهم وهذه لائمت مذهب اليابانيين «شين تا او واندمجت بها ، ويلي هذه المحبة المتبادلة بين الآباء والبنين المحبة المتبادلة بين الأصدقاء والوفاء المتبادل» .

السلوك الحسن بين أفراد الناس والالتزام بالعدل والانصاف وعلى كل فرد أن يكره لغيره ما يكره لنفسه . ويؤيد كونفوشيوس رأيه هذا بحديث : لا تعاملوا مع من هو أدنى منكم معاملة لا ترضونها ممن هو أرقى منكم ولا تعملوا مع كباركم عملاً لا ترضونه من صغاركم .

سئل كونفوشيوس : ما هي الفضيلة الإنسانية؟ فأجاب هي محبة الناس . وقال : خير الناس من أحسن لهم وأعلاهم منزلة من أحسن بأخوة الناس . هكذا بعد مرور القرون من اعتناق مبادئه اشادوا له المعابد والتماثيل وبلغوا به مدارج الألوهية . وليس للصيني تعصب تجاه الدين . فهم يتمسكون خلقياً بمبادئ كونفوشيوس في الوقت الذي يطلبون أوراداً من رهبان ثا أو لدفع الشياطين والأجنة ، ويطلبون من رهبان بودا اقامة مراسيم موتاهم .

ومن المؤسف أن عدم تعرض كونفوشيوس للمذهب تركهم أحراراً لدرجة أوصلوا الاحياء بالأموات وبلغت المرأة من الحطة والهبوط لدرجة العبودية والاماء . هذه الصفات أغفلت الصينيين في إصلاح حالهم والخنوع تحت سيطرة الأموات حتى القرن العشرين حيث زالت الامبراطورية والامبراطور الذي يحتل الرابطة السماوية وزالت قدرة الأرواح بالانقلاب الصيني .

في اليابان - مذهب شيىى تو :

هو مذهب وثني قام على انقراض العبادات القديمة المتعددة الروحية

والنوعية والقوى الطبيعية المبعثرة ولم يكن له اسم حتى القرن السادس الميلادي عندها حدّوده وسموه ليقابل العقيدة البوذية المنافسة له ولم يكن لليابانيين كتاب حتى سنة ٧١٢ ميلادية وأنذاك وضعوا كتاباً في هونكي وسجلوا فيه الوقائع التاريخية اليابانية لغاية ٧٢٠ ميلادية .

« تتركز العقيدة اليابانية على تقديس أرواح الموتى كما كان أمثال ذلك في اليونان والرومان والهند تلك الأرواح التي بمرور الزمان أبدلت بالأرباب ، ويعد اليابانيون أن هذه الأرواح لا تنفك عن أعقابهم الأحياء ولها الأثر الفعّال في سعادتهم وشقائهم ولها قدرة أكثر ومجال أوسع ولها اليد في نشر السعادة والغنى في شتى المجالات الزراعية وغيرها ، كما لها عكس ذلك للشقاء ، لذا كان اليابانيون يقدمون لها القرابين والهدايا المادية ، وعندما تقدموا عقلياً بدأوا بتقديم الاحترامات المعنوية لها طلباً لخيرها ورفعاً لشرفها ، فأرواح الموتى بحاجة لما يقدمها لها الأحياء وتستمرّ بها كما أن الأحياء بحاجة لخير الأرواح ، وذكرنا أن هناك من كان يعتقد بالتوتّم ، فمنهم في اليابان من يقدر الدب ويعتبر أنه من نسله وآخرون يقدرسون الثعلب ، ومنهم من يعتبر أن للجملادات والنباتات والحيوانات أرواحاً حتى بلغت ثمانين مليار روح ، وإن الأرض تحف بأرواح صالحة وشريرة على عدد المراتب وأكثر ، ولها صلة ببعضها ، وهذه الأرواح في حالة تسام حتى تصل درجة الربوبية والتي دونها أرواح الملائكة وتبقى تننازل ، ومنها ما ظلت منحطة متأخرة ، وإن الأرباب انتخبوا من بينهم ربّين وسموهم ايزاناكي رباً ذكراً أو ميثناً وايزانا مي مؤثناً ومنفياً تركوا لهم القدرة لخلق الكون ، وإن الجزر اليابانية نتيجة الصلة العشقية بين الربين ، وهناك أسطورة تدل على افكار الشعب الياباني آنذاك وهي : إن ايزانا من آلهة النار تموت ، ويبحث ايزاناكي عنها في النيران ، فلم يجدها وبالتالي يتطهر في نهر من قطراته تنشأ الأرباب وتنحدر قطرة من عينه اليمنى فتخلق آلهة القمر ومن عينه اليسرى قطرة تنشأ آلهة الشمس ، ويعتبرون مصير الجزر اليابانية بيد آلهة الشمس وإنها تفوض أمور هذه الجزائر لحفيدها

الميكادو الأول وتنحدر منه سلالات الميكادو ولذا كانوا يعتبرونه الفرد المقدس عندهم .

فأنت لا تجد في هذه العقيدة سوى تجليل الأرواح على تلك الشاكلة وتجليل الميكادو ابن ربه الشمس ، ولم تجد له مباني اجتماعية أو سياسية أخرى حتى القرن السادس التي دخلها مسلك بوراوكونفوشيوس ، وعندها تطور المذهب الياباني وتلبس بالمسلكين بشكل لم يؤثر على أسسه فقد ظل متفائلاً ولم يتأثر بمذهب بودا المتشائم ، وبالعكس كون من مذهب بودا مذهباً جديداً متفائلاً بأن أرض اليابان مقر النعيم وأدخل بودا في تماثيل الآلهة واكتسب من كونفوشيوس طريقه الأخلاقية : ويفضل اتباع بودا أصبح ٥ المذهب في اليابان بودائياً وألغي الزهد والتقشف والرهبة والتسول الهندي ، وأصلح ما يعود للنساء ولم يقلل منها مخلوقات دنيئة كما مرّ ذكر ذلك ، وبدل الحياة من الشقاء إلى السعادة باتباعه مسلك بودا الحديث .

أما الدين المسيحي الداخل لليابان في القرن السادس عشر الميلادي سارسيرا جيداً لمدة ثلاثين سنة ، وبعدها رغم الحرية الدينية في اليابان قاوموا الدين المسيحي بأشد الوسائل وقضوا عليه بأشد الفجائع والمذابح وفي القرن التاسع عشر أعلن مذهب شين تو المذهب الرسمي الياباني ، ويليهِ بالدرجة الثانية مذهب بودا الياباني المتطور ، واليوم يحاول مذهب بودا الياباني المتفائل ان يجر إلى مسيره المسلك البودائي القديم المتشائم في الهند وغيرها . ويمكننا القول أن المذهبين شين تو وبودا طوراً أنفسهما حتى تقارباً وأصبحا توأمين متفائلين تسندهما تعاليم كونفوشيوس الاجتماعية الأخلاقية بعد أن كان كل منهما فيه كثير من موارد الضعف وبعد عقيدته بالألوف المؤلفة من الأرباب ينتخب أرباب السماء «أما نومي ناكانوش توكامي» وترك الباقيين ملائكة وأعطى للجنة والنار وجهاً ، وقال بالعدالة والفضائل وبلوغ الخير والسوق إلى الجنة والنار للمسيئين . بيد أن اليابانيين المتفائلين يقولون إن الجنة والنار مكنونات قلبية ووجدانية ، وأجل

الوصايا عندهم في المقدمة أن يقدس الآباء وتم تقديس وتكريم الامبراطور والاعتداد بالعنصر الياباني وتضاف لها أمور أقل أهمية .

ويؤخذ على هذا المذهب أمور كثيرة منها التعصب العنصري ، لدرجة يرون أن يجمعوا العالم تحت لوائهم وبالإمكان ادراج المبادئ الواجب اتباعها في هذا المذهب كما يلي :

١ - الاهتمام بالأخلاق العائلية فمذهب شين توي يقول : العائلة نفسها مذهب ومعبدتها مقرها .

٢ - تقديس الأموات يعتبر غاية للفضيلة والتقوى ، ومتى أمكن الفرد أداء هذا التقديس للموتى استطاع أداء وظيفته للأحياء . ولا زالوا على ذلك . وعلى أي ياباني أن يأبى الرذيلة قولاً وعملاً كي لا يزعج الموتى ، ويعتبر الرذيلة هي تحقيره واجبات العائلة وامتناعه في أداء الوظائف الاجتماعية وأشدها عدم تقديسه الامبراطور . وأما الوظائف الأخلاقية المفروضة هي نفسها المار ذكرها في تعاليم كونفوشيوس ، وعلى الفرد الياباني دائماً التمسك بالجماعة ومسايرتها . اطاعة الأولاد للآباء . تكثير الأولاد وتطهير الأجساد وتقديس الأرواح ، ويفرض حتى على الكهنة بالنظافة الكاملة بعكس المذاهب الهندية القذرة . وعبادتهم اذكار وتعاويد وهدايا وأهمها الرز والسّمك والفاكهة ، ورقص الفتيات الشابات برسوم خاصة ولم يكن للمذهب الياباني أنظمة وقوانين كثيرة .

ويحسب اليابانيون أهم واجباتهم تقديس الميكادو ، وتقديس الطبيعة وتقديم اخلاصهم للشعب والوطن ، إذ هم شعب الله المختار وأشرف المخلوقات . واليابان أرض الآلهة والامبراطور ابنها ، أخذ مسنده منذ ٦٤٠ سنة قبل الميلاد ، وعبادته كعبادة الرب . ويعقيدتهم ان الميكادو يختلف عن الناس ، وعليهم تقديم الطاعة له ، إطاعة بالمال والنفس وكل شيء ، وان تقديس وعبادة الميكادو هذه خفت بعد دحر اليابان ، بيد أنه لا زالت عالقة في الباطن وبدأ يعود احترامه أكثر فأكثر كلما ابتعدت آثار الحرب .

اشباه الكتابيين - مذهب زرتشت^(١) :

منذ ألفي سنة قبل الميلاد كانت تعيش أقوام آرية في شرق بحيرة الخزر يقدسون النار ويدينون بدين يقوم على أسس ثلاثة هي : التفكير الحسن ، والقول الحسن ، والفعل الحسن ، وكانوا يجهلون الكتابة ، وبعد قرنين انشطروا شطرين . شطر توجه للشرق وانحدر حتى الهند وشطر توجه للغرب والجنوب ، وهم الفرس ، كانت لغتهم في بلاد فارس هي الاوستا ، وفي الهند السانسكريتية . كانوا يقدسون الطبيعة ومظاهرها ، كالشمس والقمر والنجوم والنار والماء والينابيع وما شاكل ذلك ، ولكل منها رسوم في ذلك وان أنكر البعض وجود أصل واحد لهم ، واعتقدوا أن هناك شعوباً متفرقة يتكلمون بلغة واحدة ولهم دين واحد ، ونراهم يقدسون أرباباً متعددة يقدمون لهم القرابين خوفاً وطمعاً ، كما يوجد في بلاد فارس رب يسمونه أهورا مزدا ، إله النور ، كما أنهم يعبرون عن إله الشر باسم اهريمن ، هكذا جاء في دين زرتشت . كما قالوا إن آلهة النور (أهورا مزدا) رب الأرباب وهو منبع الخير . وإله الظلمة اهريمن هو منبع الشر . وترى وجوه اشتراك وتشابه بين الدينين في بلاد فارس والهند وفي اللغة وفي العبادة ، تلك التي يستدلون بها على أنهما من أصل واحد ، بيد إنه كلما مر الزمان ولأسباب منها الاختلاط بأقوام مجاورة أخرى ومقتضيات طبيعية البيئة ، تباينت بعض فروع العقيدة واقتربت أخرى ، وتباعد الشطران في الدين واللغة وانتقل دين مزدا القديم إلى مزدا الجديد ، أي مذهب زرتشت الذي يعتبر منتخب العقائد القديمة المتطور في بلاد فارس أرض الزراعة والرعي ، ونبد الخرافات وجمع أصول ترفع شأنهم امتاز بالجهات الاجتماعية الراقية حيث تأثر بالأديان المجاورة اليهودية

(١) تجد شرحه في عدة كتب قديمة وجديدة منها : ترجمة رفع الظن الفاسد ، وانشطرت من هذا المذهب مذاهب كثيرة منها المانوية والمزدكية والديصانية والمرقونية والكيثونية والصيامية وغيرهم .

والمسيحية ، ويختلف عن المذهب الهندي المنشطر ، كان متفائلاً بقدر ما كان الهندي متشائماً ، حتى وجدنا المستشرق غوستاف لوبون يمجده ويفضله على غيره في تلك العهود .

ومؤسس المذهب هذا فهو زرتشت . ويحسبه الكثيرون شخصية خيالية إذ لم يرد اسمه في الألواح وكتائب الخطوط السماوية في العهد الاخميني ، وقرر قسم من المؤرخين وجود زرتشت وتؤيدهم اوستا ، وعينوا تاريخه للقرن السابع والسادس قبل الميلاد، قال وليم جكسون ان زرتشت ولد ٦٦٠ ق.م . ومات ٥٨٧ ق.م . لكن ارتور كريستن سن الدانماركي ينسب تاريخه إلى ألف سنة قبل الميلاد (راجع كتاب فردا يوستي في ايران القديم). ويتحدث زرتشت عن نفسه كإنسان عادي ، ويعتبر أن الرجل في محيط اهتم بالزراعة والرعي والدواجن ، فهو قد بذل قصارى جهده في أقواله وأفعاله لتوسعتها وتنشيطها ويعتبر كلما خالف ذلك فهو عمل شيطاني منسوب لإله الظلمة (اهريمن) وكتب زرتشت كتابه عهد ابتعاده عن المحيط يوم تألبوا عليه ، وبعد كتابته عاد ونجحت دعوته بأن كتابه من وحي السماء وانه أول كتاب سماوي وواضع القوانين الإلهية ، وقسم كتابه إلى فصول وقطع ، فقال إن الإنسان مخير بين الخير والشر، وان سعادة الفرد في ثلاثة : التفكير الحسن ، والقول الحسن ، والفعل الحسن . وانتشر مذهبه حتى أصبح في آخر عهد الامبراطورية الاخمينية المذهب الرسمي . وكتابه المنزل هو اوستا أوزندا وستا . ويقول الزرتشتية الحاليون إن الكتاب هذا جاء ألف وخمسمائة قبل الميلاد^(١) وقد أحرق الإسكندر المقدوني الامبراطورية وفيها اوستا سنة ٣٣٠ ق.م .

(١) هناك من نسب الدين الزرتشتي إلى النبي إبراهيم الخليل عليه السلام وأن السبب لتقديس النار عندهم هو لأن النار لم تحرق إبراهيم عليه السلام ويؤيد ذلك الصفات الكاملة لإله الخير وصفات الشر لاهريمن الذي يقابل الشيطان . في حين أننا نجد هناك بونا زمنياً كبيراً بين العهد الذي ظهر به إبراهيم عليه السلام وعهد زرتشت

غير أن المؤبدان وهم علماء دين زرتشت جمعوا متفرقات الكتاب بعد ذلك بدقة وأعادوه ، ثم كتب بالكتابة البهلوية وسمي زند وادخل فيه في عهد استيلاء اليونان مما يرى تأثير ذلك كما نرى أثر الأفكار اليهودية فيه .

المبادئ الزرتشتية :

بدل زرتشت العقائد الخرافية السابقة ووجد الأرباب في أهورا مزدا أو رمز (الحكيم الأعظم) أو الصمد ، يعني رب النور والطهر والحقيقة ومنبع الخيرات والنعم وموحد الحياة الأبدية . وينسب له ستة صفات وصفها في ستة ملائكة مقربين ، وجعل للنار في دينه مقاماً أسمى ، كمظهر للمقام الإلهي ، ويقابل أهورا مزدا إله الخير ، إله الشر هو اهريمن ويختص بالردائل ويعتبر ان قدرته غير خالدة وهو مصدر الشر .

القيامة : يوم المحشر . يبعث في ذلك اليوم الموتى أحياء تحت امرة سا اورشتانب ابن زرتشت غير المولود ليقود أهل المحشر ، وتتجلى هناك أعمال الخير والشر ، ويبلغ الاختيار خيرهم ، ويبقى الأشرار ثلاثاً في جهنم ، وفي اليوم الرابع تتجدد الخلقة وتبذل الأرض إلى معدن مذاب ينعم فيه الصالحون من أتباع زرتشت ، وللأشرار عذاب لا يطاق ، ويخرج الناس من هذا البحر للحياة الخالصة النورانية من صالح وطالح للحياة السعيدة ، سوى عدد قليل وعندها يغلب اهريمن على أمره ويلقون في جهنم هؤلاء مع الشياطين وتبدأ الحياة السعيدة شعارها العدالة والصدق .

مذهب زرتشت والحياة العملية :

ينظر زرتشت ان الإنسان مخير بين الخير والشر ، لذا يوصي أتباعه الجدد لسلوك الخير بأمر أهورا مزدا وغلبة شياطين الشر (اهريمنان)

= وربما سبق إبراهيم (ع) زرتشت بأكثر من ألف سنة وربما كان زرتشت سار على دين إبراهيم عليه السلام متأثراً به .

بالكفاح المستمر في عمل الخير ، ويعتبر الزراعة والرعي وكل ما يسعد البشر مادة ومعنى خير فعلية من اكثاره ، بخلاف المذهب الهندي المتزه الخانع القانع الفقير المتشائم . ومن الحكمة متابعة ذلك والدعوة لهذا المذهب ، وهي أولى الوصايا ، يلي ذلك الاخلاص في العمل والصدق والوفاء بالوعد والعهد حتى تجاه الطالحين باسم العدالة ، ويمنع البر بالأشرار لأنه غير جائز .

الثالثة : العمل المقرون بالمتابعة المثمرة لجلب الخير ورفع الشر ، وبهذه الوصايا رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي في الأعمال الزراعية وتربية الماشية وغيرها ، حيث يقول : من لم يقلب الأرض يميناً وشمالاً ويحراثها للزراعة سيسمع من الأرض : « أيها الرجل ابتعد وقف أمام أبواب الأغيار لعلك تحصل حثالة من الفضالة . هذه مئآت وملايين النباتات المفيدة المثمرة أرسلها لكم الله ، نحن نقدر الله الذي أبدع وأوجد المياه الجارية والنباتات المفيدة ، طعام الفرد الفارسي حب مكنون في قلب التربة ، لا شك من يزرع يحصد» .

ومنها : « كل من يؤذي كلب الراعي أو كلب الدار أو كلب المربي ستلقى روحه في الدار الآخرة أشد مما يجده الخروف الأبيض من الذئب في الحسرة والطرح» . هكذا نراه يوصي بالزراعة والكلب . وفي فصول أخرى يوصي بتربية الحيوانات المفيدة وإبادة المضرّة بأمر الله ، طلباً للخير وقهر الشياطين ، والحرب بين الخير والشر عنده هي الحرب بين العلم والجهل والحضارة والبداءة ، وهي في الفصول المهمة التي ترفع اسم هذا المذهب ، كما نراه في فصول أخرى يوصي بالطعام الجيد لاكتساب الصحة وبتكثير النسل وتحسينه بالزواج من امرأة زرتشتية وانجاب أولاد ثم تربيته وتعليمهم^(١) ثم يوصي بالتوطن والخروج من حالة البداءة والتنقل .

(١) هذه الوصايا نراها أم الخير والتفاؤل بعكس ما نراه في المذاهب الهندية المتشائمة الراضخة الخائعة للذل والفقر والذي يدنس المرأة بما يحويه من غير المعقول .

ويقول المتزوج خير من الأعزب ، ومن يملك داراً وعائلة خير ممن لا يملكها ، ومن له أولاد خير ممن ليس له ولد ، وكان الزواج في العهد الساساني يشبه الزواج الإسلامي ، بيد أنه لم يحدد عدد النساء ، إذ كان يعود لقدرة الرجل اقتصادياً ولم يحدد قانوناً . فقير لا يتزوج إلا واحدة وشريف ربما بلغت نساؤه المائة وأكثر^(١) ، فمتون الكتاب المقدس يوصي من الله «بموقد نار ملتبهة وبعدها دار عامرة فيها النار وبها مقر الحيوانات ومسكن الزوجة والأولاد والطرف الآخر المزرعة» . فترى المذهب يدخل في صميم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والجد في الأعمال العمرانية والخيرية والكفاح ضد الرذائل ، ويعتبر المحققون أن هذه العقائد كانت في العهود الأولى سبب تقدم الشعب خاصة وإن شعارهم النية الحسنة والقول الحسن والفعل الحسن ، واعتبروا أن النار والأرض والماء عناصر طاهرة ، وإن جسم الميت غير طاهر ، وحذار أن تلوث به العناصر الطاهرة المارة الذكر يتركوها للوحوش . وأما الروح فتحاكم بعد الموت ، فأما للجنة العليا أو إلى جهنم ، والعذاب في ظلمات وبرد لا يطاق ومتعفن ، عذاب مادي وآخر روحي ، بين أشد الوحوش ضراوة والحشرات لسعاً ، بحيث يكون عذاب اليوم مساوياً لثلاثة آلاف سنة ، وهناك مقر متوسط بين النعيم والعذاب للمتوسطين .

مذهب مهر :

الشعب من الزرتشتية متأثراً بالمسيحية ، قالوا بأن الله يسمى مهر (إله الشمس) ، وجميع الناس أخوة وكبارهم آباء وكان عندهم مثل المسيحيين غسل تعميد ونسبوا لمهر القوة والعظمة والفتوح ، وانتشر المذهب هذا بين الرومان أيضاً خلال القرن الأول والثاني والثالث الميلادي غير أن الكنيسة أصبحت أشد خصومة له ، حتى زال في

(١) راجع (زن در حقوق ساساني ص ٢٣) .

القرن الخامس الميلادي وحل محل هذا المذهب مذهب ماني .

مذهب ماني :

مذهب مختلط من الزرتشتي والمسيحي والبوذي ، مؤسسه ماني ، إيراني الأبوان ، ولد في بابل ، مركز الأفكار والعقائد المختلطة في ٢١٥ - ٢٧٧ ق.م . واعتقد الكثيرون بنبوته حتى قتل بسبب خصومه علماء الزرتشت له . وقد جمع ماني في مذهبه العرفان من بودا ، مخلوطاً بمبادئ الزرتشتية المتفائلة ، واعتقد بأصل النور والظلمة والحسن والقيح ، وإن الإنسان مركب من خير وشر في روح وجسم ، ومتى صفت روح الإنسان من الشرور ، ورسمت إلى السماء مركز التوراة ، وأخذ مبدأ العالم وآدم من التوراة مع تعبيرات بسيطة ، بيد نراه يتقي دين اليهود وكتابهم ، وينفي قتل عيسى عليه السلام بيدهم ، وينفي كتب القديس بول المسيحي ، لكنه يؤيد المسيح يقول إن حياته الجسمية ظاهرية ، وادعى ماني أنه هو الذي بشر بظهور المسيح وعودته ليظهر الأرض وينجيها ، وجاء مزدك آخر القرن الخامس من اتباع ماني واتباع مبدأ النور والظلمة مثله ، وأضاف أن الجنايات إنما تحدث بسبب الشهوة الجنسية ومنشأ ذلك المرأة ، والحرص على اقتناء المال ، ولرفع هذه الجنايات يجب إباحة النساء والأموال للجميع بصورة مشتركة^(١) ، وحينما طرد ماني في بلاد فارس ، انتشر في الشرق والغرب في تركستان ومنغوليا والصين وسوريا ومصر أخذ صبغة فلسفية وشكلاً مسيحياً حتى قضى على هذا المبدأ بعد مقاومة الكنيسة في أوروبا وشمال إفريقيا .

خاتمة الدين الزرتشتي :

أصبح في ٥٠٠ ق.م . الدين الشعبي الفارسي الرسمي وسبب

(١) وربما تأثر بذلك في نظرية أفلاطون مما ذكره في جمهوريته حول الأمرين وإباحتهما بين الفلاسفة باعتبارها منشأ الخلاف .

التقدم الاجتماعي والاقتصادي لاهتمامه بالزراعة والري والغابات والسدود والحركة العمرانية والعملية وبلغ درجة كاد أن يسود العالم .
قال ادوار كريستي : لو أن داريوش (امبراطور بلاد فارس) كان فاتحاً في أوروبا لساو دينه في أوروبا ، ورغم ذلك فقد انتشر في أوروبا لولا المسيحية ، ويمكن القول لولا فتح اسكندر لبلاد فارس حيث كانت الضربة القاصمة للمذهب هذا واستئصاله سوى في بعض الجهات ، حتى عاد في عهد الساسانيين ، عهد اردشير بابكان ، وأصبح المذهب الرسمي ، وأضاف لكتابه متوناً أخرى .

كانت المبادئ المذهبية في البدء سهلة اختيارية ينقلها الآباء للأبناء ، وبمرور الزمان بسبب الإضافات الكثيرة أشكل الأ على عدة معدودة من علماء المذهب سُموا بالموبد ، وجمعهم موبدان ، ورئيسهم الأعلى مريد الموبدان ، واستبد هؤلاء ، وأكثروا المعابد والمواقد النارية الدائمة ، وتدخلوا في جميع الشؤون الفردية والاجتماعية ، لا سيما حينما تفوقت الكنيسة في الغرب وتأخر الوضع الاجتماعي وتدهور بدخول الإسلام سنة ٦٢٦ في بلاد فارس ، وهروب المذهب الزرتشتي واتباعه إلى الهند ، وقضي الإسلام على المخلفات حتى الكتابية أينما حلّ بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وانتهى تحت ضغط هؤلاء للهروب إلى الهند ومن ظل منهم في إيران سموه عبدة النار أو كبراً .

واعتبر الكتاب أخيراً أن زرتشت كان موحداً وان كلمة اهريمن تقابل كلمة الشيطان الذي قيل إنه في النهاية سيقضي عليه إله الخير (اهورا مزدا)، والواقع تحت تأثير الدين الإسلامي الفاتح طوروا الدين الزرتشتي وجردوه من الشوائب وعدلوه حتى جعلوا اهورا مزدا هو الرب الواحد الصمد .

الزرتشتية اليوم في الهند :

ومن حيث التعداد بعدون نحو مائة ألف نفر أكثرهم يسكن بمباي ،

ورغم قلتهم فهم ذوو علم وحكمة ويتقدمون على غيرهم في الشؤون الاقتصادية والعلمية ، ولهم شريعتهم ، ومحترمون من الطوائف الأخرى .

ومن عاداتهم اليوم الزواج من واحدة ، ويحافظون على تقديس النار ، والصلاة خمس مرات يومياً لله ، والغسل الخاص كال تعميد المسيحي .

الصابئة :

وقد مر ذكرهم ، وهم فرق ، ومنهم من لا يقول بالشرائع ويعتقدون بالروحانيات ، ويتبعون عن الجسمانيات تلك التي يقول بها الحنفاء ، وقيل إن الصابئة يتبعون نبي الله شيث وادريس ، وقد قيل إن الحكيم هرمسي هو ادريس النبي وله آثار وأحاديث وحكم بليغة محموده . ومن الصابئة : ذكر قسم منهم وهم أصحاب الهياكل والأشخاص : وهذه الطائفة تحسب الكواكب السبعة أرباباً توصلهم إلى الله وهو رب الأرباب ، هذا رغم اعتقادهم بالروحانيات ، وحجتهم أنهم لا يستطيعون باعتبارهم ليسوا من الروحانيات إدراكها ، ولا بد لهم من وسيط أو وسطاء ليشفعوا لهم ، فهم يتوسلون بالكواكب ، وحيث وجدوا أن الكواكب تغيب وهم بحاجة لوسيط دائم لا يغيب اتخذوا من الأصنام التي نحتوها بيدهم أو أشياء أخرى واسطة للكواكب الغائبة ، ومنها إلى رب الأرباب ، وهياكلهم على هياكل السيارات السبعة ، وكل منهم يتوجه بعبادته وطلبه ودعائه وتوسلاته أمام هيكل قاصداً الجوهر وهو الروح . وكان من هؤلاء أهل بابل زمن الرسول إبراهيم الخليل الذي حطم أصنامهم وجاءت آيات في القرآن حول ذلك في الحوار بينهم وبين إبراهيم حيث يخاطبهم ﴿ أتعبدون ما تنحتون؟ والله خلقكم وما تعلمون ﴾ [سورة الصافات ، الآيتان : ٩٥ و ٩٦] .

ومن الصابئة ، الخربانية :

وهم القائلون ان الله واحد بالذات والأصل والأزل ومتعدد بمرأى

العيون ويتجلى بالكواكب والأشياء والأشخاص ، ومنهم انحدر أصل الحلول والتناسخ .

ومن أهل الأهواء والآراء والنحل هم :

الفلاسفة^(١) : — أي الحكماء :

والفلسفة كلمة يونانية ومعناها حب الحكمة فهي كلمتان فيلا وسوف . والفلاسفة جاءوا ادواراً ومن أساطينهم وهم من مالطة وساميا وأتينة ونذكر هنا أهمهم :

نالسي المالطي ، انكساغورس - انلسيمانس ، انبذ قلس ، فيثاغورس ، سقراط ، أفلاطون ، فلوطرخيس ، كسنوفانس ، زينون الأكبر ، ديمقراطيس وأتباعه ، الفلاسفة الأكاديميون ، هرقل ، ابيقور ، سولون الشاعر ، اوميروس الشاعر ، بقراط الحكيم والطبيب المشهور ، ديمقراطيس ، اوقليدس ، بطليموس ، ارسطوطاليس ، الاسكندر الرومي ، ديوحانس الكلبي ، الشيخ اليوناني ساوفرسطيس ، نامعطيوس ، اسكندر افروسي ، ذديوس ، المتأخرون من فلاسفة الإسلام مثل يعقوب بن اسحق الكندي وحنين بن اسحق ويحيى النحوي وأبي الفرج وابن سليمان السجزي ، وأبي سليمان محمد بن مسعود المقدوني ، وأبي بكر ثابت ابن أبي فرة ، وأبي تمام يوسف بن محمد النيشابوري ، وأبي النصر الفارابي وفي مقدمتهم الشيخ الرئيس أبو علي حسين بن عبدالله سينا ، وله مؤلفات في المنطق . وعامة الفلاسفة يقولون بالوحدانية وكمال علم الله وقدرته وإبداعه ويتحدثون عن المبدأ والمعاد والحركة والسكون .

وهم إنما يتوصلون إلى كنه معرفته من عظمة آثاره وخلقته ويعترفون بقصورهم وعجزهم عن التوصل بغير ذلك .

(١) مر ذكر عدد من الحكماء والفلاسفة في الهند والصين .

وقد تأثر بعض الفلاسفة من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي صادفها في حياته مثل أفلاطون مما صار إليه حال استاذة سقراط وما قاساه بنفسه وشاهده من سوء تصرف الزعماء والسادة وتدهور الأوضاع الاجتماعية على أثر فقدان ساسة وزعماء صالحين ، وبحكم الضرورة والوجدان الصارخ فيه لإقامة دولة صالحة يتخلص بها العالم من هذا الجور والظلم والعسف (والحاجة أم الاختراع) فجاء بآخر ما وصل إليه الفكر البشري على ضوء دراسته وتجاربه ، وهو أحكم حكماء عصره لوضع كتابه الجمهورية ، قصد بها بناء حكومة أساسها العدالة والمصالح العامة والفردية ، حكومة مثالية ، وقد أجاد في وصفه لولا أنه لم يستطع على وضع الأسس الملزمة لإنشائها وإدامتها وبقائها من العوادي . وكتاب الجمهورية خير نموذج وجدت أن أعرج عليه وأذكره باقتضاب في كتابي هذا كنموذج واضح من الحكومات العالمية التي وضع أسسها نظرياً واحد من أساطين الحكماء . كما أجد من الكتب السماوية والرسائل الذين جاءوا وأجادوا بوضع شريعتهم نظرياً وعملياً ، والذي يستحق البحث هو الدين الإسلامي الذي كان أبعد الكل نظراً وأقومها أثراً وأجلها عقلاً ومنطقاً وأرسخها عملاً .

آراء العرب ونحلهم :

وإذا قلنا ذلك فإنما نعني ذلك قبل الإسلام لأنهم جميعاً أصبحوا مسلمين وجمعتهم كلمة الإسلام ، وهم قبل الإسلام مذاهب فمنهم من كان ينكر الخالق والبعث وهؤلاء كانوا يقولون : إن الطبع هو المحيي والدهر هو المغنى . ومنهم من قال بالخلقة والإبداع ولكنهم أنكروا المعاد ، وجاءت الآية في القرآن عن ذلك ﴿ وضرب لنا مثلاً ، ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ سورة يس ، الآيتان : ٧٨ - ٧٩ . ومنهم من يقر بالمعاد وينكر الرسالة ويعبد الأصنام ويتخذها شفعاء . وأهم ما امتاز به عرب الجاهلية

شيئان هما : إنكار المعاد وإنكار الرسالة ، حيث يقول الشاعر العربي :

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمر

فهو ينكر على الرسول ويكذبه على ما جاء وطرىء في المعاد
والبعث .

ومنهم من قال بتناسخ الأرواح ، ومن العرب من أقرّ لليهودية أو
المسيحية . ومنهم الحنفاء وهم ملّة إبراهيم والحنفاء هم الموحدون وأول
من آمن برسالة محمد (ص) وكان منهم الحكماء .

علوم العرب في الجاهلية :

وأشهر علوم العرب في الجاهلية ثلاثة هي :

١ - علم الأنساب . ٢ - علم الرؤيا . ٣ - علم الانواء .

وإن اشتهر البعض منهم بالفراصة .

من حكماء العرب عامر ابن خرب العدواني ، وهو من حكمائهم
وشعرائهم وله خطب وأشعار . ومنهم من حرم عليه الخمرة مثل قيس بن
عاصم التميمي وصفوان بن أمية الكناني وعفيف بن معد يكرب الكندي .
ومنهم من حرم الزنا والخمر مثل أسلوم الليامي حيث قال :

سألت قومي بعد طول مضاضة والسلم أبقى في الأمور وأعرف
وتركت شرب الراح وهي أثيرة والمؤنسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أمين تكرماً وكذاك يفعل ذو الحجى المتعفف

ومن المؤمنين بالله وبخلق آدم عبد الطائي بن تعلق بن وبرة من
قضاة . ومنهم زهير بن أبي سلمى القائل :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينتقم

ومنهم علاف ابن شهاب التميمي القائل :

ولقد شهدت الخصم يوم رفاة فأخذت منه خطة لقتال
وعلمت أن الله يجزي عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال

ومنهم من طلب دفن بغيره عند موته ليكون يوم الحشر راكباً وهو
خريم بن أشيم الأسدي ومنهم عمر بن زيد التميمي القائل :

أنبى زودني إذا فارقتني في القبر راحلة برحل فاتر
للبعث اركبها إذا قيل اركبوا مستوسقين معاً لحشر حاشر

وكان عرب الجاهلية يحرمون نكاح الأمهات والبنات والخالات
والعمات .

وهكذا نجد الوضع العقائدي المتضعع عند العرب ، وعلى
الخصوص عند أولئك عبدة الأصنام ، فهو يصنع الصنم من حجر أو غير
الحجر ليتوسل إليه ويعبده ، ولكنه قد يضطر إلى بيعه أو إهدائه أو أكله أو
تحطيمه ، مثل قبيلة حنيفة قبل الإسلام عملت صنماً من التمر وأخذت
تعبده حتى إذا أدركتها المجاعة أكلته فقال الشاعر :

أكلت حنيفة ربها زمن القحاطة والمجاعة
لم يحلروا في ربهم يوم القيامة والشفاعة

الديمقراطية :

وهناك عقائد متأخرة جاء بها المتأخرون لنظام البشر وسعادته وحفظ
حقوق الفرد ، فمنها ما اهتمت بحقوق الفرد الاجتماعية والاقتصادية
والفكرية ، وحسبت أن سعادة المجتمع إنما تحصل بإعطاء الفرد حقوقه
كاملة بالتساوي بين الأفراد ، وإن تكون إنشاء الحكومات قائمة على الحرية
والمساواة والعدالة الفردية كالقائلين بالديمقراطية و (حكومة الشعب نفسه
بنفسه) .

الشيوعية :

ومنهم من رأى أن تكون المصلحة مصلحة جماعية والمصلحة مصلحة عامة وعلى الحكومة رعاية مصلحة المجموع وإذا اقتضت الحاجة ضحت بالفرد لسلامة الجماعة كالشيوعية ، ومنها الفاشستية اتخذت حداً وسطاً فحددت من جهة حقاً للفرد ولمدى معين في الملكية وحرية الفكر ، ومن جهة أخرى حددت للجماعة والدولة حقوقاً عامة ليس للفرد التجاوز عليها .

ففي الأولى سمح للفرد أن يمتلك ما شاء من أرض ومعمل ومؤسسة ومقاطعات وغابات وشركات ومناجم للثروة من المعادن والنفط دون حق تدخل الدولة في شؤونها عدا ما تفرضه من الضريبة عليها ، كما نجد ذلك في الحكومات الديمقراطية مثل أمريكا .

ومن جهة ثانية نرى روسيا والدول الشيوعية ترى أن جميع الثروات انما هي ملك للجميع وتحت تصرف الحكومة التي تمتلكها وتوزعها لمصالح الجميع .

بينما جاءت الفاشستية فأعطت حقاً للفرد في الملكية الصغيرة والمتوسطة ، وأما الملكيات الكبيرة وأخص منها الطبيعة مثل الغابات والمرافق العامة الطبيعية من مناجم ومناجم طبيعية أو مستخدمات عامة مثل السكك والمطارات وما شاكل ، فيجب ان تديرها الحكومة ، ولا يحق للأفراد تملكها ، وهنا نجد أن القضية الاقتصادية تتخذ شكلاً أساسياً لإدارة شؤون الدولة والحكومات وتتجه المخصصات بين الأفراد والجماعات على أسس جديدة .

اليونان والحكماء :

قلنا سنتكلم في الكتاب الرابع عن نماذج من أرقى حكومات الحيوانات (الحشرات) عن حياتها الاجتماعية والإدارية والاقتصادية

سلوكها الفردى والجماعي ، وأعظم ما جلب نظرنا مثابرتها على أعمالها المكلفة بها كل فرد وكل جماعة قيامها بصورة مستمرة على أعمالها التي خصت بها دون أن تحيد للتدخل في أهمال الآخرين أو تتقاعس عما انيط اليها وطاعتها وتضحيتها الفردية امام الحياة الجماعية ، لدرجة الفناء حياة توحى لنا بنظامها على أرقى مواهب الحياة ، وقلنا لا تخلو أما ان تكون منقادة بحكم العقل أو الغريزة ، أو كلاهما ، ومهما كان ذلك فانه يدل على نظام في غاية الكمال والابداع ، فان كان غريزة فهو يقابل في عمله ومفهومه وأهدافه أرقى العقول المفكرة ، واذا كانت صادرة من عقول مفكرة فهي ذات استقامة ومقرونة باطاعة وامثال للمصدر الذي هداها ودبر أعمالها وهي بأعمالها حسب تقديرنا مهما كان الحال أكثر سعادة من هذا البشر الذي يتذبذب بين العواطف والغرائز التي تتحكم به من جهة وبين العقل والوجدان الذي يصده ويؤنبه فهو لا يكاد يسعد الا داهمه الشقاء فراداً وجماعات مساقاً ومنقاداً رغم ارادته وتفكيره الى هوات سحيقة ومخاطر لا يكاد يصحو ويعود الى وعيه الا وصرعته أخرى ، يعرف الحقيقة والصواب ويحيد عنهما مرغماً بحكم شهواته ورغباته . وطالما تغلب العقل السليم وحكم بالصواب وخرج بالناس مبشراً ومنذراً على لسان الحكماء والفلاسفة والأنبياء وقادة البشر من ذوي المنطق الصائب والارادة القوية والصفوة النادرة على اثر ما شاهدوه من الانحطاط العقلي والانسياق والانجراف الى كل رذيلة واستهتار وظلم واستبداد وتدهور الفكر الانساني الى أدنى درجات الجهل والحرمان والبؤس والشقاء ، فخطبوا الناس شفاها وخططوا لهم سبل الحياة كتابة ، وجاهدوا وضحوا وتكبدوا في سبيل احقاق الحق واعادة المرء الى وعيه وصوابه ، فكان جزاؤهم رغم ما قاسوه من أشد صنوف العذاب انهم خلفوا تراثاً من سمو العقل البشري والنظم المقدسة ، مما جعلهم من الخالدين كسقراط وأفلاطون وارسطو من الحكماء الفلاسفة ، وغيرهم من الكتاب ، والفارابي ، في عهد الاغريق والرومان والعرب ، وفي الهند والصين ، مثل بوذا وكونفشيوس ، ومن الأنبياء كنوح وابراهيم

وموسى وعيسى ومحمد (ص) الداعين الى العدالة والحكمة والمنطق والقضاء على الظلم والجور والتعدي والجهل والاستهتار ، والدعوة الى الاخلاق الفاضلة والاعراض عن التزق والسفالة والرعونة ، فسقراط حدد الفضيلة وحدد الدولة المثلى ، كما حدد افلاطون تلميذه اموراً كثيرة ، وكان مثار فلسفة سقراط وأفلاطون هو انحطاط الدولة ، حتى أصبحت ديمقراطية يسيرها الرعاع وتخططها شهواتهم وندواتهم دار جدال فقط ، وانتخاب الفلاحين السذج مما جعل المدينة العظيمة مرتعاً لآبناء سبارطه الاشداء ، هذه عوامل الضعف بعثت بهذه الافكار وايجاد نظام ادبي جديد ولايجاد دولة مثلى كما جاء في جمهورية افلاطون ، الذي أقض مضجعه ذلك لوضع حدود تشكيلة دولة جمهورية على حد فكرة في ذلك الزمن يقضي به على تلك المفاسد ويكون منهجاً لقيام أدق الحكومات وارقاها من حيث المقام العلمي والعقلي ، وحيث أن السعادة تتبع العقل فهو أراد بحكومته المثلى ارقى الحكومات السعيدة ، وقد كان أفلاطون كاستاذة سقراط موحداً راسخ الايمان باله ومعتقداً بخلود النفس والميعاد ، واعتقد أن بالحكمة وتهذيب النفس فقط وحدها يمكن تبديل الفوضى في الدولة بالنظام والضوضاء بالايقاع والترتيل وحد الشهوات النفسية بتقوية العقل والمنطق السليم وتوقي الخير الكامل واحترام المعرفة لا إطاعة العدد ، وقد قال :

يزيد في الطين بلة اجتماع الجماهير الذي يزيدهم جنوناً وتهوراً وفساداً وهذا يتضاعف بتضاعفهم ويزيد ذلك بلاءً اذا استأثر احدهم بقدرته على الخطابة هياج الجماهير وشعورهم فهو كالطبل الفارغ . وافلاطون هو الذي حدد المستبد بقوله من كان يعمل في يقظته كلما يعمل بوحى غرائزه في نومه . وكانت هذه الافكار والأقوال من أهم الاسباب على حتى جمهور الديمقراطيين على سقراط والحكم عليه بالموت . وكان هذا الحكم اهم دواعي وضع تلميذه افلاطون كتابه الجمهورية حيث شرح فيها مباحث ما وراء الطبيعة والاداب وفلسفة النفس واللاهوت والسياسة والفن ، وتكلم

عن تحرر النساء ووضع فيها القواعد لتحديد النسل ومبادئ الاشتراكية والشيوعية واليوجينية والارستقراطية والديمقراطية والدكتاتورية ، وبحث فيها عن التحليل النفسي وسبق من قال ان الحياة من مظاهر التفاعل الكيماوي ، وأنا سنبدأ كلامنا الثاني عن افلاطون وجمهوريته بصورة مقتضبة جداً لنعرف كيف ان الحوادث الاجتماعية والسياسية والادارية السيئة في زمنه تركته بحكم الضرورة يبحث عن وسيلة ومنجاة لحد تلك الفوضى والمظالم ، كنموذج من آراء أهل الرأي في الحكومة العالمية .

أفلاطون وآراؤه وجمهوريته :

ولد سنة ٤٢٧ قبل الميلاد في عائلة ارستقراطية أبوه من نسل قدروس الملك وامه من نسل صولون الحكيم ، وهذه من العلل المهمة لتحبيذه الارستقراطية ، لا سيما اذا أضفنا الى ذلك تربيته وتأثره من استاذة سقراط ، ولافلاطون صفات من النوع التي يحمل عليها وينتقدها كالشعر والكهنة والاساطير ، اذ انه هو نفسه شاعر وكهنوتي ويعمد الى اسطورة لتأييد قوله ، كما انه يقول ان المشابهات تحمل على الزلق وهو نفسه يأتي بها ، ويحمل على السفسطينيين ويفعل فعلهم . ورغم هذا النقص فرسالته كاملة بها نجد فلسفته عن ما وراء الطبيعة واللاهوت ، فلسفته النفسية والتعليمية والسياسية ونظامه الأدبي ومذهبه في الفن ، كما نعثر برسالته على الشيوعية والاشتراكية وتحديد النسل والتعليم الحر والتحليل النفس ، وما قاله روسو بالعود الى الطبيعة ، وما جاء به أكثر الكتاب مثل نيتشه في الآداب والارستقراطية وبرغسن في التعليم الحر والدافع الحيوي وغيرهم ، حتى قال امرسن : افلاطون هو الفلسفة والفلسفة هي افلاطون فاحرقوا المكاتب فكلها من هذا الكتاب .

فجمهورية افلاطون تتألف من عشرة كتب مقسمة الى خمسة أقسام :

١ - فالقسم الأول هو عبارة عن الكتاب الأول وبه يبحث ويناقش

عن السؤال : ما هي العدالة ؟

٢ - القسم الثاني ويشمل الكتاب الثاني والثالث والرابع ويبحث فيه عن اركان الدولة وخصوصاً تعليم طبقة الحكام وبه يحدد المقصود بالعدالة في الدولة ثم في الفرد .

٣ - القسم الثالث ويشمل هذا الكتاب الخامس والسادس والسابع ويعتبره البعض انه الموضوع الاساسي ويبحث في الشيوعية خاصة عن طبقة الحكام وكيفية تقلد الفلاسفة زمام الحكم باعتبارهم القضاة وباعتبار رئيس الدولة أكبر الفلاسفة وأصول تعليمهم ارقى مراتب التربية والتعليم .

٤ - القسم الرابع - ويشمل الكتاب الثامن والتاسع وفيه يبحث عن انحطاط الحكومة المثلى وتدهور الفرد الأخذ بزمام الحكم حيث يتخذ الانحطاط اربعة أدوار تنتهي بالاستبداد الذي يتمثل فيه اعنف صور التعدي التي تقابله العدالة الكاملة في الدولة المثلى .

٥ - القسم الخامس : والكتاب العاشر وفيه نتيجة المقررات السابقة ويختتم يبحث عن خلود النفس وجزاء الفضيلة ووصف يوم القيامة (يوم الدينونة) .

ونعود لتكلم عن الكتاب الأول . ففي الكتاب الأول ناقش جماعة سقراط واشهر هذه الجماعة غلوكون واديمنتس كون التعدي بطبيعته خير في العدالة وطلبوا منه أن يبرهن على أفضلية العدالة ، فبرهن سقراط بعد الفصل الأول على رأيه وبدأ رأيه في تحديد العدالة بأنها قيام كل فرد بالعمل الذي يحسنه والخاص به ، وقال بالبحث عن العدالة في المجتمعات وأهمها الدولة ، وخيرها الدولة المثلى التي هي عبارة عن الدولة الارستقراطية التي تحكمها طبقة حكام تعلموا تعليماً عالياً وافياً بعد مرورهم باختبارات طويلة استطاعوا وبرهنوا على ادراكهم مبادئ الدولة ، اولئك الذين تكون عيشتهم شيوعية فيما بينهم ، لبيتعدوا عن المطامع الشخصية ، وان تكون الشيوعية بينهم حتى في النساء باعتبار الأمور الجنسية من أهم موارد النزعات الغريزية الباعثة على الخلاف والفساد .

ويلي طبقة الحكام طبقة رجال الجيش باعتبارهم مركز القوة المدافعة عن كيان الدولة ويللي هؤلاء الطبقة الثالثة وتشمل غير الطبقتين المارة الذكر ، ومنها الصناع والعمال والتجار وغيرهم فدولته تحمل طابع التخصص وهذا هو فارق فيها عن الدولة الديمقراطية الذي يبيح للفرد كل عمل شاء ، وهذا التقسيم في جسم الدولة يقابله تقسيم في جسم الفرد فقد قسم نفس الفرد الى ثلاثة اقسام :

١ - القسم العقلي . ٢ - الحماسي (الغضبي) . ٣ - الشهوى .

فالعقلي يقابل القسم الأول في الدولة حيث هو منبع الحكمة والمنطق ومنبع الرأي الصائب . والحماس يقابل رجل الحرب والشجاعة . والشهوى في جسم الفرد يقابل الطبقة الثالثة في جسم الدولة .

النقد والاصلاح عند أفلاطون :

الأول هو تحديد العدالة والجدال بينه وبين عدة من الارستقراطيين والسفستائيين وغيرهم ، فيجيب سيفالي ان الثروة تمكنه ان يكون كريماً وافياً وعادلاً ، ويجيب آخر ان العدالة هي فائدة الأقوى وهي منفعة الدولة (وهو مذهب نيتشه) . وقال آخر ان الفضيلة هي الذكاء مع القوة وعليه فان غرام قوة خير من كيلو حق فايها أجدر القوة أو الحق؟ وحدد أفلاطون ذلك بان العدالة تستطيع بالحياة الفطرية والبساطة في كل شيء حيث نوه عن افراد جمهوريته بأن « طعامهم وشرابهم من الحاصلات الزراعية ومنها أيضاً اسرتهم التي يستريحون عليها ومنها خمورهم التي يرتشفونها ، وعلى هذا يتمتعون بصفاء العيش مع أولادهم ويسبحون الله ويتعاشرون بسلام ولا يلدون أكثر مما يستطيعون اعالتهم خوف الفاقة والحرب » ، فكانه يريد ان يقول ان زيادة النفوس تسبب تعاسة وشقاء بأنه يزيد العيال والتكاليف في المعيشة ، ومن جهة أخرى لأنه يسبب الفاقة بسبب الحروب والخصام . ثم انه عاد ليبين علة بل عللاً أخرى من مسببات الاعتداء والخصام فقال :

ولكن طموحهم يسوقهم للاثراء والتجارة وتغيير توزيع الثروة مما يصحب ذلك تغيير الوضع السياسي وانهدام الوضع الفطري وقيام الارستقراطية وانهدام هذه بعوامل فسادها الى الديمقراطية وتغلب حكم العامة دون اقامة المنطق السليم ، حينما تقيم الديمقراطية رئيساً ترى فيه الكفاية الظاهرية ينقلب الحكم الى الاستبداد ، وهذه الذبذبات السياسية تسبب الانقلابات والحروب بسبب عدم اسناد المناصب الى اكفائها الى أهلها الواقعيين الاختصاصيين في علمهم وفنهم ، فمنصة الحكم والقيام بأعباء الزعامة تحتاج الى حكم مدرب مجرب اقدر أهل زمانه في العلم والفن والادارة والعقل والادارة لاحقاق الحق واقامة واجراء العدالة تلك هي المشكلة السياسية .

الحلول النفسية :

ومر بنا بأن افلاطون قسم الدولة ثلاث طبقات وقسم جسم الفرد أيضاً الى ثلاث :

- ١ - الحكماء والفلاسفة في المجتمع ويقابله في الجسم الناحية العقلية .
- ٢ - الجيش بما فيه ويقابله في الجسم الانساني العنصر الحماسي .

٣ - الطبقة الثالثة غير الاثنين من عمال وفنيين وغيرهم ويقابله في الجسم العنصر الشهواني . كما ان جمهوريته تقوم على أساس الاختصاص وقيام كل بعمله وعدم مداخلته احدهم في عمل الاخر وان يكون العنصر العقلي والحكمي هو الحاكم الأعلى المسيطر على الباقين ، واذا تغير ذلك ينقلب النظام فوضى والعدالة تعدياً والسعادة شقاء ، فركن الدولة المثلى عند افلاطون أن يصبح الفلاسفة حكاماً وأقدرهم هو الزعيم الأعلى ، أي أن يكون الزعيم الأعلى هو الحكم الأقدر والفيلسوف الأعلى ، وبهذا فقط تسير الأمور على فطرتها ويقوم كل حق قيام بما اسند له بكفاءة ومقدرة ، ووضع لذلك حلولاً عملية كما يلي :

١. حلول العملية :

التعليم والتهديب العام بالاستيلاء على الأطفال دون العاشرة لهذا الغرض ، وإيقاف آثار المفساد الحاصلة من كبارهم وأن تكون العشرة الأولى من سنهم تعليماً بدنياً محضاً للجماز والرياضة والالعاب لتزيدهم صحة ونشاطاً لتقوية الجسم ، ولتكون شجاعته مرنة رقيقة ومتزنة ومتسقة وملطفة ومقرونة بالصحة الروحية ، لهذا يزيد الموسيقى أي يجمع بين الجماز والموسيقى لتلطف أحدهما الأخرى . ويعتقد أفلاطون ان لا يقر التعليم الاجباري فيها كيلا يمزج تهذيب الحربشيء من حسّ الحقارة والاستعياء بل ان يكون التعليم من طريق التشويق والتجيب والأخذ بزمام النفس من اطلاق عنان الشهوات اذا يلزم عمله ؟ هذا مع ما قدمنا من ضرورة عدم اجبارهم . هنا يعتقد أفلاطون بوجوب مد القوانين الأدبية بسلطة من وراء الطبيعة انما من طريق الدين والايمان بالله الذي يثير في صدور الناس الرجاء والعطف والتضحية .

وان لا يتجاوز تعليمهم الموسيقى السادسة عشرة ثم يقدمون للامتحان في الأمور النظرية والعمومية بطريقة تمكنهم على اظهار المواهب ، فمن سقط دخل زمرة الكتاب والصناع والفلاحين ، ومن نجح تعلم وتمرن عشر سنوات أخرى وامتنح امتحاناً يتضاعف في الصعوبة ، فمن سقط عين مساعداً للحاكم (للتنفيذ) وضباط الجيش . ويقول أفلاطون حذراً من اتصال هذه الطبقة مع العمال والفلاحين ، أي الطبقة الأولى وتأليف أكثرية وقبضهم على زمام الأمور ، يجب أن نقنعهم نفسياً ودينياً على أن ذلك منزل من الله لا يتغير ولو من طرق قصص خرافية (كخرافة المعادن) ، ومن نجح في الامتحانين تعلم الفلسفة وهي تتألف من عمادين :

(١) علم ما وراء الطبيعة وهو بحاجة لتفكير مركز صافٍ وصحيح .

(٢) الحكمة في الحكم وهي السياسة ، وبعد خمس سنوات

يتعلمون كيف يميزون الحقائق وراء الصور ، وبعد خمس سنوات أخرى يتعلمون تطبيق هذا المذهب على شؤون الناس .

ولا يكتفي أفلاطون بذلك بل يقول انهم كملوا نظرياً وشاهدوا شمس الحقيقة ، لذا عليهم النزول الى ظلمات الكهف الى عالم الناس والأشياء لتطبيق النظريات على الواقع وخوض معمعة الحياة العملية للتنافس مع التجار والصناع والاصطدام برجال الحيلة والمكر والدهاء ، وان يكتسبوا خبرتهم بعرق الجبين ، وتكون مدة دراستهم في هذه المرة ١٥ سنة ، وهي المحك الأخير ، فمنهم من يفشل ومنهم من يفوز ، وقد بلغ الخمسين واتفق الحكمة نظرياً وعملياً . هؤلاء غايتنا المنشودة وحكام الدولة المثلى .

الحل السياسي :

ولنبداً الانتخاب وهو الخدعة السياسية يصبح هؤلاء الرجال حكام الدولة ويتقلدون زمام الحكم ، دون أن يكون لآخوانهم من طبقات الشعب الاخرى رأي في ذلك باعتبار جهلهم لانتخاب الاصلح لادارة الدولة ، لعدم درايتهم عن حقيقة الشخص المنتخب والمزايا اللازمة له ، ولاندفاعهم تحت تأثير الخطب وهياج وحماس مصطنع في المجتمع .

هكذا يريد أفلاطون أن يحكم أفضل وأقدر العقول المحنكة ، وبعد هذا سمها ارسقراطية أو ما شئت ، فهو انتخاب الأجدر الواقعي ، فالحاكم (الملك) هو استاذ الفلسفة والحكمة النظرية والعملية . ولا فرق بين هذا وبين أبناء الطبقات الثلاث فابن الحاكم يبدأ حيث يبدأ تعليم ابن الجندي وابن الفلاح والحمال والصانع ، لا تعرفه الثروة ولا النفوذ ، وهذه الحكومة بنظره اسمى الحكومات ، كسمو السماء عن الأرض بالنسبة لديمقراطية صناديق الانتخاب .

يختص الحكام بادارة مصالح الدولة بما فيها ، دون دخالة في اية مهنة وعمل لا يخصهم ، فهم المشرعون والحكام والمنفذون في آن واحد

لا يتقيدون بقانون سابق لزم تغييره حسب مقتضيات الحال والحياة العقلية .

الاشتراكية :

فرض أفلاطون الشيوعية الملكية بين الحكام حذار استغلال جمع الثروة من قبل احدهم أكثر من الآخر ، حذار المناقشة والتجاوز ، فقال بعدم امتلاك كل منهم عقاراً أو مخزناً بل يتقاضون اجوراً لقاء عملهم بما يكفيهم لحياتهم ، دون نقص أو زيادة ، واشتراكهم في الموائد ، وان يقولوا ان الله كنز في أنفسهم الثروة فلا حاجة الى المادة والذهب والفضة ، لما بها من الشرور فيحرمون عليهم هذه ليصبحوا محترمين من العامة والمنافسات ، فلا يمتلكون عقاراً كي لا يتدخلوا في اختصاص غيرهم من تجار وزراع وملاكين وغيرهم ، ولتخلوا افكارهم من أية شائبة الا اختصاصهم .

منزلة المرأة :

ساوى أفلاطون النساء بالرجال في الوصول الى الفلسفة والحكمة ، كما جعل نساء الحكام مشاعةً بينهم بحيث لا تختص امرأة برجل ، بل كلهن مشاعة للكل ، وعلى ذلك كل مولود لا يعرف أباه ، بل هو مشاع للجميع ومتى ولد أخذ للتربية العامة . فالتعليم على حد سواء بين الجنسين وبين كافة الطبقات طالما ان في رأيه قد ينتج الحاكم الفيلسوف عاملاً أو جندياً أو غير ذلك وينتج الجندي أو الفلاح أو العامل حكيماً أو غير ذلك .

غير أن أفلاطون لم يغفل موضوعاً مهماً وهو الأصالة ، فهو لم يسمح بالتعاقب والتوالد الا من أبوين سالمين ، وكل امرأة يجب ان تبرز شهادة قبل زواجها ، وأن يكون التعليم منتخباً قبل الولادة ، ولا يحق للرجال بعد ذلك ان يعقبوا الا بين سن الثلاثين والخمسة والخمسين ، والنساء بين العشرين والأربعين ، وقبل وبعد هذين على المرأة أن لا تلد وأن تجهض إذا

حملت ولا يرى وليدها النور . ويمنع الزواج بين الأقارب وان يكثر من زواج أفضل الرجال بأفضل النساء .

كما يرى أفلاطون خير وقاية للاحتراز من العلل المسببة للحروب في أمرين :

(١) بتحديد النسل لوقف زيادة السكان .

(٢) والاحتراز من التجارة الخارجية وما يثيرها من منازعات .

وهذا ما نجده واضحاً كل الوضوح في العلل الاقتصادية في العصر الحاضر والعصور المنصرمة ، التي على أساسها يصطدم شعوب العالم لاستيلائها على الأسواق التجارية وحصولها على أكبر قدر مستطاع في الأسواق ، لتصريف منتوجاتها وصنائعها من جهة الصادرات ، واستيراد المواد الخام بأقل كلفة وسعر من الشعوب الضعيفة ، وتنازع وتكالب الشعوب القوية فيما بينها لجلب هذه المغنم والارباح ، بما تستطيع من حول وقوة وياسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

الحل الاجتماعي الأدبي لقول افلاطون :

ما هي العدالة ؟ ولا ننسى أن مبدأ أفلاطون في جمهوريته يقوم على أساس التخصيص لكل طبقة ، وعدم تدخل أي طبقة بوظيفة الأخرى ، لهذا يرى الزام كل فرد بالعمل الذي يجيده أكثر ، وبأخذ على حد يكون أكثر استعداداً علماً وعملاً وفطرة لادائه ، ويرى اذا أقيم الشيء بغير مكانه وتدخل الافراد فيما لا يعينهم وفي غير اختصاصهم ، اختلت العدالة في الدولة واضطربت وتضعضعت عراها ، ويحفظ هذه الموازنة الطبقة الأولى الحاكمة المار ذكرها .

أما في الفرد فيجب كما في المجتمع الدولي ان يكون القسم العقلي هو المسيطر على القسمين الآخرين (الحماس الغضبي والشهوى) ، وبغير هذا يختل وضع جسم الفرد حينما تسيطر الشهوة عليها أو القسم الحماسي

والغضبي . وبهذا يرد أفلاطون على مخالفه بأن العدالة ليست القوى المجردة بل هي القوة المنظمة ، وليست حق الأقوى بل هو الاتساق والتعاون بين القوى لخير المجموع . ويظهر أن أفلاطون أول من فكر بوضع أسس ثابتة لدولة مثلى بصورة متزنة ومتسقة فلسفة وفناً متسقة الاجزاء مشدودة العرى في جمهوريته .

ويسأل أفلاطون : ما هي العلوم اللازمة لتوجيه النفس ؟ فيجيب : الحساب وانهندسة والفلك والموسيقى والمنطق والمنطق هو الذي ندرك به بفعل الذهن النقي طبيعة الخير والحقيقة .

ويقسم في كتابه الثامن الحكومات الى خمس :

(١) الارستقراطية : وهي بنظره الحكومة المثلى ، ومنها يشكل حكومته ويضع كما مر اسسها ، ويقابل هذه الحكومة من الناحية الجماعية الرجل الارستقراطي ، فهو الفرد والمثال الأعلى في سدادة الرأي وحسن التدبير والقيادة ، صاحب الحكمة والفلسفة العلمية والعملية .

(٢) التيموغراسية : وهي تنشأ عند استفحال العنصر الحماسي وطغيانه على كافة العناصر الأخرى ، هذا العنصر المغمور بروح المطامع والمسماة بحكومة الشرف ، ويقابله الفرد الذي تغلب على عقله وشهوته عنصر الحماس والغضب .

(٣) الاوليفاركية : وهي الحكومة المتشكلة على أثر تحور التيموغراس حينما تنمو فيها حب الثروة وتزايد حتى تصبح الثروة اساس الجدارة ، لذا يقال ان الاوليفاركي وليد الديموغراسية .

(٤) الديمقراطية : حينما تنمو الطبقة المثيرة يزيد جشعها وضمها للثروات الأخرى . عندها تثور الطبقة الفقيرة المحرومة الخطرة على الدولة ، تستهدف الأغنياء وتفرض المساواة في الحقوق المدنية ، فتنشأ الديمقراطية ، وأشهر أوصافها الحرية المائلة الى الاستباحة والفوضى ،

وهي حكومة الرعاع المطالبين بتساوي الافراد فيها ، دون رعاية علم وخبرة وتجربة ودون رعاية ادبية اخلاقية وعلمية وسن وطلب مساواة بين الوطنيين والدخلاء وسحق المقدسات ومساواة الرعاع بالمحكّنين أو استهتار الأبناء تجاه الآباء والاساتذة وتطاول العبيد على الاسياد والنساء على الرجال والصبيان على الشيوخ والازدراء بالشرائع والنظم .

٥) الاستبدادية : نتيجة التطرف للحرية بين الرعاع وتغلبهم على دست الحكم بواسطة رد فعل يهيئ الطريق للاستبداد بيد الانتهازيين - من غير الطبقة الأولى . وهذا الانتهازي هو بطل الجماهير المختار في الأحزاب يعارضه انتهازيون آخرون مثله ، وإذا ما غلب على أمره ولو لأمد قصير وعاد ثانية بسبب ما بعد نفيه ، عاد أقوى مما ذهب واختار حرساً خاصاً يحافظونه تحت ادعاءات مربية ، وأخيراً يتحول إلى فرد مستبد عنيد ليقضي على منافسيه ، ويشكل دولة هي شرأنواع الدول والحكومات ويزداد استبداداً أمام الخصوم المتعنتين ، فيتحول المستبد إلى الد ، فيقضي على أعدائه وينشغل عن أصدقائه فيشعرون بقلّة اكترائه بهم ، وهم الذين أيّدوه ، وهذا الشعور يخلق جواً تتخلله الريبة بينهم ، فيراقب أصدقائه ويحاول أن يتخلص من عتابهم وانتقادهم ، ويقضي على الصالح منهم والطالح ، ويتحول للعامة فيجردهم من السلاح .

ويصف أفلاطون هذا الرجل المستبد أنه أبحث رجل ، وهو من كانت حالته في اليقظة مطابقة مثله الأعلى في النوم ، ولأنه أشدّ شراً فهو أشدّ شقاء ، يتساوى في نظره الصديق والعدو . وهو بؤرة الدولة الاستبدادية وعمادها ، ومثل الرجلين المستبدين كالمدينتين المستبدتين ، والمدينة التي يحكمها المستبد هي أشقى المدن ، وعلى عكس ذلك الرجل الارستقراطي والمدينة الارستقراطية فهي أسعدها ، والمستبد رغم مرضه النفسي والعقلي في حالة صراع دائم مع نفسه وغيره ، لشعوره بكثرة أعدائه وشدة احتياطه وخوفه ، فهو لا يأبه عن إتيان أي رذيلة يجز الشقاء له ولمن يلتف حوله .

الكتاب العاشر :

ويبحث فيه عن التقليد والجزاء والحقيقة وغير الحقيقة ، فيقول إن لكل شيء ثلاثة فنون :

(١) فن صناعة الشيء .

(٢) فن استعماله .

(٣) فن تقليده بالمظهر الخارجي ، عياناً كما في التصوير ، أو صورته سماعاً أو وضعه شعراً . فالأولان يحكيان عن حقيقة الشيء ، والثالثة غير حقيقية . فمن يصف طبيباً لا يكون طبيباً ، فهو لا يستطيع معالجة المريض ومثله وأصف الرجل الشجاع أو المهندس والخ . . . وعمله إنما هو ذو مظهر خارجي .

كما أن لكل شيء آفة ، فالعمى آفة البصر والعفن آفة الحبوب والأرضة آفة الخشب ، وهي تغنيها ، والشر آفة النفس يفسدها ، بيد أنه لا يفيها ، ويقول : إن لكل عمل جزاءاً والعدالة خير جزاء للعادل .

وقال : يطلق المرء لخوالجه في حزن وفزع وغيرها العنان في خلوته ويحجم أمام الغير ويحلم عن انشائها ، وذلك بحكم العقل أو الشريعة لازماً السكينة والوقار (فهو إنسان مزدوج) لأن الحزن يجلب الجزع ، وهذا يضر المرء وغيره ويعيقه عن العلاج والشفاء .

وعكس ذلك الاصغاء للعقل من شيم الحكمة التي تدفع الشر وتجلب الخير ، وعليه مَنْ حَتَّ على الحزن وآثاره وأثار الجزع كان جهولاً ، وَمَنْ حَتَّ على الهدوء والجلد فهو حكيم . ويتخلص من ذلك أفلاطون أن أكثر الشعراء الذين يثيرون الحزن إنما يثيرون القسم الحقيق من النفس ، فهم غير صالحين ولا بأس بمن يثير الهمم . كما يعتبر من يصف غير الحقيقة فرداً مضراً باعتباره ملفقاً كاذباً فهو يعتبر شعر هذا

الشاعر جريمة لأنه يفسد حتى الصالحين . وكثيراً ما يصور الشعراء الوهم حقيقة كما مرّ أو يعبرون عن مظهر من المظاهر دون تعمق . وأخيراً يقول أفلاطون يسمح للشعر في دولته لتسييح الإله ومدح الصلاح فقط ، وخلاصة القول أنه يقبل الشعر المنطبق مع الحقيقة والصلاح المثير للهمم .

دين اليهود

هو الدين الذي جاء به موسى بن عمران من أحفاد يعقوب (اسرائيل) بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، والتوراة أهم كتاب جاء به موسى ويشتمل التوراة على الأسفار الخمسة ، وهي خمسة كُتب :

الأول : فيه ابتداء الخلقة حتى استقرار بني إسرائيل في مصر ،
والثاني : خروجهم من مصر . والثالث : وفيه الأحكام والأوامر المذهبية .
والرابع : عرض القوى المادية الإسرائيلية . والخامس : يكمل الأربعة السابقة .

وبعد القرن الأول الميلادي وتشتت اليهود أضيفت كتب مقدسة أخرى للعهد العتيق أولاها بين القرن الأول إلى الرابع بعد الميلاد، وسموه التلمود الأورشليمي ، ومجموعة أخرى مهمة بين القرن الثالث إلى الخامس ب.م. في الآونة التي تحرر به اليهود في بابل وسمي التلمود البابلي . والمسيحيون ويعتبرون العهد العتيق والعهد الجديد المضاف له كتابهم . وفي هذه الكتب كثير من المتناقضات التي كانت محل انتقاد جميع الكتاب المسلمين واليهود والمسيحيين وغيرهم ، ونذكر هنا اليهود والمسيحيين منهم : الفيلسوف اليهودي اسبينوزا Spinoza ١٦٣٢ - ١٦٧٧ ميلادي في كتابه Traite Theologique et Polotique وريشارد سيمون Richarad Simon مؤلف الكتاب Histoire Critique de Veaux Testaments

بأن الكتب من عمل الحاخامية اليهود أنفسهم ، كما أن الطبيب المحقق الفرنسي Jean Ostruc جان استرك سنة ١٦٨٤ - ١٧٦٦ أثبت أن الكتب جمعت متناقضة ، وأن هناك أمثال ما عمله سن بول المسيحي في شراء الخطيئات لا أساس لها في العهد القديم ، ويثبت أن ما درج من صنوف الكتب المقدسة موضوعة ، ومن مجموع ما ورد رغم التناقض أن جد اليهود الأعلى إبراهيم الخليل عليه السلام يأتي من أور إلى بابل ، ومنها يذهب إلى مصر ومن بعد أحفاده اليهود بقيادة موسى عليه السلام يأتون إلى أرض فلسطين ، ويتلى من الرب الأحكام العشرة كما يلي :

(١) أنا يهوه ربك أخرجك من مصر أرض العبودية والاسر ليس لك رب سواي .

(٢) لا أقر لك صنماً ولا تصويراً لا في السماء العلى ولا في الأرض السفلى ولا المياه تحتها لأنني ربك الغيور وبسبب خطايا الآباء أقاصص أبناءهم وأحفادهم إلى النسل الثالث والرابع . وتشمل رحمتي لألف نسل أولئك الذين أطاعوني .

(٣) لا تذكر ربك بالباطل لأن هذا الذنب له عقاب .

(٤) اجعل يوم السبت يوماً مقدساً استرح به أنت وابنك وبنتك وعبدك وشورك وحمارك واحشامك وضيئك لأن يهوه خلق الكون في ستة أيام واستراح في السابع .

(٥) اكرم أبويك حتى يطيل الله عمرك .

(٦) لا تقتل .

(٧) لا تسرف .

(٨) لا تزني .

(٩) لا تشهد على جارك كذباً .

(١٠) ولا تطمع بجارك وبما يملك وما ينتسب له .

ويحسب المحققون أن المتون الواردة في كُتب اليهود تذكر المزارع والأحشام والبيوت في الوقت الذي كانوا أربعين سنة سائبين متنقلين . وأن ما وضع في الكُتب من أفكار القرن السابع ق.م . ذلك أسلوب حياة اليهود البدائية الأولى وطرز حياتهم وأفكارهم ، لأنهم كانوا رعاة متنقلين ، وكان الطفل ينسب لأمه ولشجرتها والخيمة لها ومع أبويها . بعدها انقلب الوضع وأصبحت المرأة قسماً من أملاك الرجل يشتريها الزوج من أبيها أو اخوتها ، فالأب له حق بيع بناته وأولاده كالعبيد وله أن يقتلهم . وكانوا يسمون أنفسهم بأسماء الحيوانات والنباتات ، كما أنهم يقدسون بعض الحيوانات ويتنجسون من أخرى ويستحرمون أكلها . وأيضاً اعتقدوا بالأرواح وأن بعض النبات لها أرواح تسكتها ، كما حسبوا ذلك في الينابيع والجبال وأخص البراكين ، واعتقدوا بالسحر والعيون الضارة والتعاويذ والتراويل وأمثالها .

وفي مراحل أخرى اعتقدوا ببقاء النفوس بعد الموت وبقاء اثارها في أنبائها من نفع وضرر ، وكانوا يتركون إلى جنب الميت طعاماً وأسلحة وأشياء أخرى ، كما اعتقدوا أن النفوس الميتة تصبح لها قدرة أكثر من الإنسان الحي حتى يبلغ أحدهم درجة الألوهية ويؤلوهوه ، وحينما كانوا قبائل رحل كانوا يعتقدون أن الوهيم (الله) حاميههم ، وإذا واجهوا بركاناً وضعوا على وجوههم برقعاً كي لا يدركهم الموت برؤية واحد من الألوهيمات . كما كانت لهم رسوم للرقص والتراويل وتقديم القرابين في بعض حفلاتهم .

دخل اليهود أرض فلسطين في سنة ١٤٠٠ ق.م . وكانوا آنذاك رعاة تغلبوا على سكان البلاد الأصليين القاطنين هناك ، ثم استوطنوا واتخذوا الزراعة والتشجير وسيلة للمعيشة ، وكانت لهم الوهيمات (أرباب) يعبدونها ، وهي مجموعة نفوس مقدسة مجدوها ثم عبدوها ، وداخلتهم بعض معتقدات السكان الأصليين المعتقدين بالأرواح والتواتر والسحر

والتعاويد وغيرها . ولم يعتقد اليهود لذلك الحين بيوم الآخرة والجنة والنار والحساب ، بل كانوا يعبدون يهوه مضافاً إليه ألوهياتهم ، وأضافوا كما مرّ معتقدات السكان الأصليين ، وظلّت تلازمهم هذه العقائد حتى القرن السابع قبل الميلاد .

كان اليهود يعتقدون أن يهوه (الله) يحاميهم دائماً ضد الأغيار ، كأنه يخصصهم بالذات سواء في الحرب وغيرها ، معتقدين أنهم شعبه الخاص ، بيد أنه بمرور الزمان داخلهم سوء الظن حينما وجدوا أنفسهم على عكس ذلك يندحرون في أغلب المواقع ، هناك عادوا لأنفسهم أن ذلك بسبب عصيانهم لمبادئ الرب واحكامه ، لذا عليهم الصبر لإدراك الأجر . وظهر في القرن الثامن قطب من أقطابهم ، عاموس ، قائلاً : إن الدين هو الذي أمرنا بفضائل ونبتذ الرذائل ، وإن العدالة خير من العبادة ، حيث كان اليهود لذلك الحين يجوزون كل رذيلة وظلم ، رغم عبادتهم بيهوه ، ولا يحسبون ذلك ينافي ما مر ، وهذا ما علمهم عاموس ونصحهم به ، قائلاً : إن الرب يقول أنا بريء من أدعيتكم وطقوسكم واحتفالاتكم الدينية وقرابينكم ولا حاجة لي بذلك .

دعوني عن أصواتكم النكرة في أناشيدكم الدينية ، أنا بحاجة إلى نشر العدالة كالماء الذي تروي به الأرض ، وهكذا تلتها وتلى عاموس غيره من المصلحين . وخرج أحد أئمة اليهود (ESAI) ان على اليهود أن يبشروا أن يهوه هو إله الجميع في العالم ، وأمر بالعدل والبر والإحسان ، وعلى اليهود نشر هذه المبادئ .

ولقد تحمّل اليهود كثيراً من المصائب في الداخل والخارج بيد انهم كانوا يسلون أنفسهم بسعادة المستقبل وإن دولتهم ستعود . .

عقائدهم :

اعتقدوا مبدئياً أن قصاص الأعمال تجري في هذه الدنيا وأن طول عمر المرء يدل على صلاحه . وبالنسبة للموتى ، قالوا : إن كلباً حياً خير

من أسد ميت ، إذ إن الميت يفقد الشعور بالمنفعة ، وما كانوا يعتقدون بالمعاد واليوم الآخر . بيد أنهم بعد حصولهم على الحرية في ٥٣٨ ق.م . في بابل وصلاتهم الفكرية باليونانيين والإيرانيين ، بدأ اعتقادهم بالقصاص والمعاد والجزاء الأخروي والحياة الأخروية الخالدة ، ولم تكن هذه مثبتة في كتبهم الدينية ولم يأت في العهد العتيق سوى قوله : (انك لا تحيي الأشرار مرة أخرى لأنهم لا قوا جزاءهم ولكنه يشير ان المتقين سيخلدون) .

ومن المسلم أن اليهود لم يخامرهم يوم البعث حتى القرن الأول الميلادي مخامرة كاملة ، ولم يكن لذلك الخير صراحة عن الجنة والنار . وفي القرن الأول الميلادي صرح أحد أئمة اليهود : « ما لا ترضاه لنفسك لا ترضاه لبشر مثلك . ولم يكن للنساء أهمية تذكر بالنسبة للرجال . يفرض الختان بعد ثمانية أيام من الولادة . والتعليم الديني يبدأ في السنة الثالثة عشرة من العمر ، والزواج يجري في الكنيسة . والعبادة عصر الجمعة والاستراحة المطلقة في السبت ، يعتد بالأعياد .

اليهود في الماضي والحاضر :

بعد الضربة الماحقة والسبي الآشوري ، تلاها احتلال أورشليم بأمر نينوس الامبراطور الروماني وتشتت اليهود مرة أخرى ، وظلوا حتى القرن العشرين مشتتين ومحفزين ومعذبين أخص بيد المسيحيين ، بسبب أن اليهود قتلوا عيسى الناصري ، ولقد ظل المسيحيون والكنيسة تجري على اليهود أقسى الأوامر والمظالم ، وما أشهر كلمة الفتاة اليهودية التي وجهتها إلى أولئك الذين حكموا عليها بالحرق حية في محكمة التفتيش العقائدية في مدينة ليشبور الاسبانية (تجده في هامش كتاب تاريخ الأديان ص ٣٠ الطبعة الثانية) ، وتلخص كلمتها حين تخاطب الذين حكموها : « إن كنتم لا تطبقون علينا الأحكام المسيحية فعلى أقل تقدير عاملونا كعاملات إنسان » . وكان اليهودي في العالم محروماً مشرداً مهاناً بيد المسيحيين حتى قيام الصهيونية في المجر ، والدعوة للعودة إلى فلسطين في مستهل القرن

العشرين ، ويتبع ذلك وعد بلفور سنة ١٩١٧ وهو وعد من الإنكليز لليهود ، وأصبحت أرض فلسطين منذ ذلك العهد مركز الفتن في العالم أخص بين اليهود والعرب ولا تزال ، وحدثت حروب عدة بين الطرفين منها في ١٩٤٨ و ١٩٦٣ و ١٩٧٣ ولا تزال لهذا اليوم بينهم حالة حرب ، وربما هددت العالم بالحرب العالمية الثالثة ، وفلسطين مركز قلق عالمي ، وكانت هذه البقعة مركزاً غير عادي عند العهد القديم ، فقد كانت مقر أكثر الأنبياء . كما كانت الممر الرئيسي بين آسيا وإفريقيا ، كما كانت مقر أشد الحروب الطائفية الصليبية ، وفيها جرت أشد المذابح بين المسلمين والمسيحيين ولا زالت مقر القلاقل منذ أول القرن العشرين .

أخيراً إن المعتقدات المذهبية اليهودية تشكل أهم عناصر الدين المسيحي ، حتى قيل إن المسيحية وليدة الدين اليهودي .

المسيحية :

المسيحية دين جاء به سيدنا المسيح (عيسى بن مريم) لإصلاح ما اعوج من دين اليهود ، دين خير ما وصفه ومن نزه نبيه الكريم وأمه الطاهرة العذراء القرآن الكريم . دين يقوم على التوحيد ونبذ المنكرات وإقامة البر والإحسان والخلق السامية والسلوك الاجتماعي المتين .

بيد أن من المؤسف أننا لا نجد لأصل الإنجيل ووصايا سيدنا المسيح (ع) من أثر ، وما تجده إنما هي أناجيل وضعت في المئة الثانية بعد ميلاد سيدنا المسيح (ع) ، تناقض الواحدة الأخرى وتتناقض الواحدة منها في الأقوال ، وهي في كثير من الأحيان تخالف المنطق السليم والسلوك الطبيعي ، ممزوجة من أنقاض اليهودية المتأخرة المتفسخة والشرك الذي كان في ذلك العصر في مصر وروما والفلسفة اليونانية والأديان الأخرى ، كعبادة مهر الإيرانية التي انتشرت في أوروبا كما مرّ .

فأقاموا عوض التوحيد الثلاث (الأب والابن وروح القدس) وأصولاً لا تمت أبداً إلى المبادئ الحقيقية التي دعى إليها سيدنا المسيح ، فكان

منبعثاً من نفوس وآراء قامت بما أوحى لها أنفسها واستهدفت أغراضها ، لا تمت في أصل من أصولها إلى المنطق ولا تستنير بالعلم والحقيقة ، توصي بالإطاعة العمياء والإصغاء إلى افراد بعدوا عن الحكمة وبلغ بهم الغرور والتعصب أقصاه ، يحاربون العلم والعدل وينشرون مبادئهم تحت راية الظلم والقسوة الفظيعة واستئصال شأفة العلماء والمحققين والفلاسفة والمصلحين باسم الدين .

قالوا : بان عيسى الناصري المصلوب ابن الله ، ونشروا ديناً لم يأت به المسيح (ع) بل هم وزمره تحت تأثير الشروط الزمنية والمكانية جدوا في نشره قسراً وأعلنوا له جنبه عالمية خلاف ما كان عليه اليهود . وانتقلت الروحانية المذهبية تدريجياً من البساطة إلى التعقيد ، واستبدت به الكنيسة وأوجدوا في هذه مدارج ورتب من رجال ونساء ، وبمرور الزمان تكاملت وحسبوا مبدئياً أن عيسى سيعود ويصلح العالم وبدأ بالنشر جماعة من الحواريين أمثال بول يبشرون بعودة المسيح والثواب الأخروي .

ساعد على ذلك ما كانت عليه الدولة الرومانية من المفساد والانحطاط الاجتماعي والمظالم واستبداد السادة بالرعية ، مما بعث بالمظلومين لانتظار من ينجيهم ، وآخر يخفف عليهم الآلام بيوم القيامة يوم الجزاء الأخروي ، مما ساعد على انتشار المسيحية بين المظلومين ، ينقذهم بقوى خارقة للطبيعة ، وبدأ باعتناقها الامبراطور كستانتين الأول في القرن الرابع الميلادي .

الأقانيم :

قال اليهود الذين آمنوا بعيسى بأن الله واحد . بيد أن هذا الدين حينما انتشر في أوروبا المشتركة تناوله العيسويون المرقيون ، وهم فرقة من المسيحية ، قالوا : إن عيسى ابن الله جاء من السماء لنجاة البشر ، وقبلوه رباً ، وأضافوا للأب الابن وروح القدس ، ومن هؤلاء الثلاثة (الأرباب الثلاثة) شكلوا رباً .

كانت هذه الفكرة طابقت روح المجتمع الأوروبي الذي عدد الآلهة
وبجل الكاثوليك عيسى وأمه مريم ويوسف ، باعتبار الثلاثة يحملون أجل
المناصب السماوية ويلهم الأنبياء ويجلون الأرواح كمبدأ ابتدائي .

روح القدس :

حسبوه في البدء نفحة من الله منذ بدء الخليقة ، وانه الذي سبب
نجاة الأرض بعد طوفان نوح ، ثم وردت حول روح القدس نظريات
مهمة ، وسوف نرى كيف انقسم الدين إلى مذاهب لهذا السبب .

تطور المسيحية :

كانت المسيحية في البدء تعتنق جميع المبادئ اليهودية الأصلية ،
ثم بدأت في تطورها حينما دخلت أوروبا ، وادخلت في مبادئها من
نظريات وعقائد الرومان المشركين والفلسفة اليونانية والعقائد الإيرانية
والمصرية . فأخذت الخير والشر من المذاهب الإيرانية ، وكما اعتقد
الإيرانيون أن متراً منجى البشر ادخلوا عيسى منجى البشر وأبقت الأب هو
الرب الأكبر آخذة ذلك من مبدأ اليهود القائلين بالله (يهوه) كما أبدلت
كلمة اهريمن إله الشر الزرتشتي باسم الشيطان وأخذ منهم أيضاً يوم البعث
(يوم القيامة) وأخذت التثليث من المعتقدات المصرية والهندية ، وأخص
منهم الفيلسوف اليهودي المولود قبل المسيح بعشرين سنة في مصر ،
والقائل بأن الله واحد وصدرت منه كلمة (لوكوس) أصبحت واسطة بين
الله والعالم وروح صدر من الكلمة فكون مثلثاً أوجده من عقائده اليهودية
والفلسفية الأفلاطونية . كما أن المسيحية اعتقدت بالأجنة والأرواح
والملائكة كبقايا من الحياة البدائية ، ومنها تقديس الخبز والشراب المأخوذ
من أولئك الذين ساروا على المبادئ التوتمية المشتركين في لحم ودم
الموجود التوتمي ، ومنها أخذت غسل التعميد ، وأخذوا الناقوس من
اليونانيين وأخذوا الجبة التي يلبسها القساوسة من القسس في معابد ايزيس
إله المصريين .

الكتب المقدسة عند المسيحيين :

١ - العهد القديم وهي كتب اليهود وهو التوراة وغيره حتى ظهور السيد المسيح (ع) .

٢ - العهد الجديد وهو عبارة عن ٢٧ كتاباً ورسالة ، منها أربعة أناجيل و٢١ رسالة تنسب إلى بول والقديسين الآخرين ، وكتاب مكاشفة يوحنا ، مع العلم أن عدد الأناجيل الأربعة انتخبت من ستين إنجيلاً ، وهي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا وقد فرضت من قبل الكنيسة انها كلام الله وحرّم على قارئها الشك والترديد بأنها غير نازلة من السماء .

ووضع المرقيون أول إنجيل في ١٣٤ ب.م. في اليونان ، وبعده جاء إنجيل مرقس بسنين ٢ إلى ٣ في روما ، وبعده متى ويحتمل أنه وضع في انطاكية ، وفي ١٤٠ ب.م. ظهر انجيل يوحنا ، يلي الثلاثة انجيل لوقا حيث ظهر في ١٥٠ ب.م. والمعتبر من العهد الجديد بعد هذه الأناجيل الأربعة كتاب أعمال الرسل وينسبوه لأحد الحواريين .

وتوجد رسائل تنسب لبول وأخرى تنسب ليعقوب وبطرس ويوحنا ، ويرى فيها كثير من المتناقضات ، وما ذلك إلا أنها وضعت من غيرهم ونسبت لهم .

مؤسس المسيحية :

لا ينكر أن المسيح (الابن) له مقام يساوي (الأب) بنظر الكنيسة ، وأكثر المحققين يجدون أن المؤسس الأصلي للمسيحية هو سن بول . وتقول الأناجيل أن عيسى حصل نتيجة معاجز حصلت بين مريم وروح القدس وينسبونه لأبيه . ويعدون عيسى رباً ظهر على شكل البشر لا بشر سمي لدرجة الربوبية وكان (قبل ولادته) بشر به أحد أنبياء بني إسرائيل ، وذكروا معاجزه ومناوئة أحبار اليهود له ومناصرة الرومان للأحبار حتى صلبوه . حسب اتباعه من اليهود بأن عيسى بعد موته سيعود ، ويكون

يوم عودته يوم البعث ، ويزول أثر المذنبين من العالم وتسود العدالة ويصبح الكل أرواحاً وتزول الوضعية الجسمية وعندها ينزل عيسى من السماء بصفته الإلهية .

وفي قضية البعث لهم أقوال متناقضة ، وأخيراً قالوا بالجنة والنار والبرزخ وهو محل وسط وعلى الصالحين التذرع والتوسل بالأولياء والقديسين ليكونوا لهم شفعاء .

أصول العقائد عندهم :

أول مجلس مسيحي اقامة أول امبراطور اعتنق المسيحية هو كنستانتين في نيسه سنة ٣٢٥ ب.م . وفيه قطعوا بربوبية المسيح والأصول التالية :

١ - العهد العتيق والجديد كلام الله .

٢ - ان الأب والابن وروح القدس أرباب من الأزل .

٣ - الابن صار بشراً حينما تصور بعيسى وباختياره فدى نفسه لنجاة أرواح الناس .

٤ - بعد موته رفع للسماء حياً ومتى عاد فهو يوم البعث .

٥ - البابا ممثل الله على الأرض وهو معصوم من الزلل ويوجد غير الأب والشيطان أولياء وملائكة وقديسون مسيحيون ، ومريم أم الله شخصية سماوية

٦ - من ينكر ما مرّ فهو مرتد .

٧ - مظهر المسيحية هو الصليب . وإليك الأنظمة المسيحية .

شراء الخطايا :

اعتقد المسيحيون أن ذنب آدم وإخراجه من الجنة ذنب أزلي له ولأولاده جعله سيء الحظ حتى ازاله المسيح بدمه ، فكان قرباناً للبشر ،

وأشار إلى ذلك سن بول وأصبح مهماً دون أن تذكره الأناجيل ، وكانت الفكرة الأولى عند الحواريين الأولين إنما أراد المسيح أن ينجي اليهود من إرهاب الرومان ، وترى الكنيسة اليوم أن عيسى بإراقة دمه قرباناً للبشر نجاهم من غضب الرب .

المحبة^(١) :

يحسبها المسيحيون أمراً مهماً أن تشمل المحبة جميع البشر . منها الصلح مع الجميع ، ومتابعة الأنداد وحب الأضداد والعفو والاعراض والانقياد تجاه الأشرار . يعني من ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر ومن سلب رداءك قدم له قباك أيضاً . وتعتبر الكنيسة أن العشق من ذات الله ، بينما يرى فلاسفة اليونان أن الله هو العقل الأكمل والمطلق وهو منظم الكون . ورغم كل ذلك فقد أقيمت باسم المسيحية أشد المظالم أمثال محاكم التفتيش وغيرها ، ومدت الكنيسة سلطانها في شتى الشؤون حتى حسبت نفسها من الناحية الدنيوية فوق الامبراطور وان لها انتماءاً للرب ، أخص أواخر القرن الخامس بعد الميلاد وبقي حتى السنة ١٨٧٠ حيث أعلنت لجنة من كبار علماء المسيحيين ان البابا معصوم من الزلزل ، وبلي البابا الأساقفة والكشيشون ويجردون أنفسهم عن طبقات الناس سلوكاً وعملاً . ويتبع أولئك نساء تركوا الدنيا وخصوا أنفسهم للدين .

الشعائر المسيحية السبعة :

- ١ - التعميد لإدخال الطفل في الجامعة المسيحية .
- ٢ - العشاء الرباني وهو آخر طعام عيسى (ع) .
- ٣ - التثبيت أي إدخال الطفل رسماً في نظام الكنيسة .

(١) مع مزيد الأسف ، خالفتها الكنيسة عملاً ، في كل الموارد أخص منها في محاكم التفتيش والأحكام الصادرة بالموت على العلماء والحكماء والحروب الصليبية ، وكثير مظالم أخرى .

- ٤ - التوبة وهو اعتراف المسيحي بذنوبه وتوبته وعودته لاحضان الدين (لا يقر بها البروتستانت) .
- ٥ - تلقين الميت للعالم الآخر .
- ٦ - الدخول في زمرة الكشيشيين إلى الكنيسة .
- ٧ - الزواج - مرسوم الزواج على يد الكشيش بألفاظ ورسوم خاصة .

الجبر والاختيار :

وقد سبقت هذه الفكرة انشعاب المسيحيين إلى عدة مذاهب منها من تقول بالجبر ومنها بالاختيار .

القائلون بالاختيار يرون الفرد مختاراً في حياته طريق الخير أو الشر ، وعليه حسابه ، ويسندون ذلك إلى رسالة يعقوب . ومن الفرق من يرى الاختيار ولا يرى النجاة إلا بالغفران والرحمة الإلهية فالكاثوليك قالوا بالاختيار ، وعكسهم البروتستانت .

كما نرى اختلاف الآراء في المسيحية في الجبر والاختيار ، ونرى لديهم المتناقضات في الجهات الأخلاقية كالزواج وعدم الزواج وأخرى يوصي بعمل ويوصي بتركه ، والمحققون يعللون ذلك بسبب أن المبادئ المسيحية من وضع أفكار البشر وحسب مقتضيات الظروف والأزمنة بمرور الأيام .

الارثوذكس والنسطوريون :

أهم الموارد الخلافية بين الارثوذكس والكاثوليك أن الارثوذكس تقول إن روح القدس منبعث من الأب والكاثوليك يقولون من الابن . كما يرى الارثوذكس يحق لكل شعب أن يكون له رئيس ديني ولا يقولون بعصمته . ولرجال الدين الزواج بحرية ، ولهم استعمال لغتهم في العبادات وأمثالها .

وهناك مذاهب انفرد كل واحد منهم بقول دون الآخرين كالنسطوريين واتباع أوتيشه ومنهم الأرمن .

الاباء المسيحيون :

هم الذين قرروا وفصلوا في المبادئ المسيحية ما يجب أن يتبع وما يترك وفي مقدمتهم سنت أوغستين ، كان في شبابه مانوياً المذهب ثم تابع المسيحية .

الخطيئة :

اشتد الشعور بخطيئة الإنسان مع ربه في القرون الوسطى ، وعلى الناس تحمل الآلام لكسب الحياة الآخرة (مرت في البودائية) وسببت البؤس حيث اعتقدوا أن الله يحب المعذبين المنكودين حتى المتعمدين أخص في القرن ١٨ . فقد وضعت ما دام كويون مذهب التزهيد وزجر النفس وتكبتها ولا تزال العقيدة باقية ، وحتى حسبوا من عاش متنعماً كان مذنّباً ، ومن ارتضى الشقاء فاز بالسعادة في الآخرة ، واتخذ ذلك المبشرون وسيلة للتبشير ، وعلى الإنسان أن يعتقد أنه ذو خطيئة ذاتاً ، ومذنّب ، ولا بد له من الغفران وتحمل الآلام حتى التي يصطنعها المرء لنفسه ، ولقد وصلت تلك بدرجة تخالف المنطق السليم والعقل . وتحقر البشرية تجاه هذا المعتقد الديني ، وأصبح العلم والحكمة والفلسفة ومن يتبعها في المسيحية ، بل كل معقول ، لايجرؤ أحد الدفاع عنها ، وكل ما عندهم أن العلم والحكمة والفلسفة إنما هو تتبع أصول المسيحية كما وصفه الآباء لا الإنجيل ، وقالوا : إن العقل منبث عن إنسان خاطيء فعليه اتباع التعاليم المسيحية دون فكر ومنطق ودون جدال . (تاريخ الأديان الصفحة ٣٣١ الطبعة الثانية) . واستخدم المسيحيون العقل والفلسفة وكل شيء للدفاع عن المسيحية وتطبيقها معها ، كما جاء في إنجيل يوحنا ١٤ - ٦ قوله (إنا الحياة والسرراط المستقيم لا يتقرب أحد للأب إلا عن طريقي) واتخذت الكنيسة هذه وسيلة للسيطرة على العلم والعلماء والعقل والعقلاء .

فما كانت فكرة إصلاحية ، إسلامية أو غيرها ، تنبث إلا قضي

عليها وظلوا بعيدين عن المعارف أخص الإسلامية في أوج ظهورها وانبثاقها ، لا سيما المعارف الإسلامية التي بدأت في ٦٣٥ حتى دخلت أسبانيا في ٧٥١ وقادت مختلف العلوم العالمية وكملتها ونشرتها ، وظل يتسامى حتى القرن الثاني عشر . وانتجوا أجل الأدمغة العلمية أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد . وحينما ترجمت الفلسفة وبعض العلوم إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر منعته الكنيسة في البدء ، وحينما وجدته منتشرأً ولا مناص منه صممت أن تطور الفلسفة وتجعلها مسيحية ، وتقدم لذلك أمثال توماس داكين وألبرت كراندي ، ولا زالت الكنيسة تصر على تحديد العقول في دينها بالعقاب الصارم باسم الخروج على الله ، باسم السحر واتباع الشيطان واتباع الخطيئة واتخذوا من تفسير بعض المتون لضرب المخالفين قسراً منها :

كما جاء في إنجيل لوقا ١٤ - ٢٣ وإنجيل يوحنا ٦١٥ قوله :
(ادخلوا الناس قهراً) و (من خالف يرمى مثل الغصن خارجاً وييس وتلك تجمع وترمى في النار وتحرق) ، فاتخذ الأباء هذا لإرغام الناس والأديان الأخرى قهراً للدخول إلى المسيحية والحكم على المخالفين بالموت حرقاً ، كما عملوا ذلك في محاكم التفتيش وإقامة المجازر الدموية في مخالفاتهم من أهل الآراء والأديان في شتى صنوف العلماء والحكماء والمصلحين الناقدين وكل معارض بزعمهم . من مختلف الأديان والمذاهب أكان يؤمن بالله ورسله وعيسى المسيح سواء أكان مسيحياً أو يهودياً أو مسلماً أو غيره ، وقد رأيناهم ما عملوا باتباع الديانة الفارسية (مهر) حينما بدأت تنتشر في أوروبا قبل ظهور الإسلام وأفعالهم القاسية الشنيعة مع مسلمي الأندلس ، حين تضعضعت دولتهم وما فعلوه بالمسلمين في الحروب الصليبية بل مجازرهم المذهبية داخل أوروبا نفسها ، ولا زالت الكنيسة على تعصبها الأعمى ، ولقد بلغ بالكنيسة وأعضائها الغرور لدرجة عبروا بها عن أنفسهم بالوسائط السماوية لشراء وبيع الجنة وإسناد العفو والغفران في القرن الخامس عشر . وحسبوا

أنفسهم مركز العالم وفي هذا القرن وبعده توسعت العلوم ودخلت أوروبا وسهلت الطباعة فالنشر ، ومنها وصلوا إلى حقائق لدرجة شكوا بأصل المبادئ المسيحية ، وجاءت الاكتشافات الأمريكية ، وبعد الوصول إلى الصين والهند لمسوا آثاراً من الثقافة والتمدن غير المتصور أدى بهم إلى أن يستزيدوا من العلم والتحقيق وطلب حياة مرفهة أكثر ومطالعة الطبيعة وأسرارها ، مخالفين بذلك الكنيسة ، عندها شعروا بأقوال وأعمال الكنيسة غير المشروعة وحكمها الاستبدادي ، وشاطر الناس الملوك بذلك . وكان ذلك سبباً لقيام مخالفات مذهبية وغير مذهبية ، ومنها ظهور المذهب البروتستانتي ، وبدأها لوثر سنة ١٤٨٨ - ١٥٤٦ ورفض شراء وبيع الخطايا موجّهين أشد النقد بذلك للكنيسة ، وأباح للكشيشين حرية الزواج وأقام كالون مركزه في جنيف مقيماً جمهورية بروتستانتية . بيد أن لوثر وكالون لم يدخرا جهداً من تحطيم مخالفاتهم هم أيضاً كما فعلت قبلهم الكنيسة الكاثوليكية .

ويمكن القول إنهم رفضوا البابا متوسلين بالكُتب بيد أنهم ظلوا متمسكين بالخطيئة وتجاهل العقل والمنطق والسير على أغلب المفسد ، ثم ظهرت بعدها مذاهب أخرى رفضت الادخال القهري للدين أو شراء الخطايا والاعتراف ، أو وساطة الكنيسة بين الناس والسماء ونشرت مبادئها للعامة ، وهذا أدى إلى انقسام الممالك الأوروبية والأمريكية المسيحية إلى مذاهب وفرق وتضعيف سلطة الكنيسة وانتشار العلوم وبعدها ظهور المحققين .

حتى الكنيسة تأثرت بالعلوم والفنون وسمحت بتجسيم اشكال آلهة اليونان القديمة على جدران الكنيسة لتزيينها ، وظلت الكنيسة متعصبة تجاه الفرق والمذاهب الأخرى ، فقامت المجازر والمذابح الكثيرة بين الكاثوليك والبروتستانت لمدة خمسين سنة ، وأينما وجدت الأغلبية المذهبية هجرتها المذاهب الأضعف إلى بقاع أخرى . ويمرور الزمان توجه بكل مذهب متأثراً بالمحيط والعلوم إلى ناحية خاصة ومنها المذهب لثيوسيلس Les Theo soples

يجدّون للوحدة المسيحية مع العقائد البوذية والهندية واليهودية والمذاهب العرفانية .

ومن المؤسف أن المذاهب الجديدة قلما تجد فيها ما يرغب فيه الإصلاح ، ومنها من عادت بالقهقري ، مثل لوثر أراد طرد الموارد العلمية والعقلية من المعتقدات المسيحية ، فهو يرى لا علم إلا ما ورد عن المسيح ، والفائدة من هذه المذاهب هو تقليل نفوذ الكنيسة وفتح طريق الانتقاد الذي جرهم للتحقيق والدخول في المعقولات والعلوم رغم آبائهم وخلاف رغبتهم . بيد بسبب الاكتشافات وانتشار العلوم ضعفت العقائد المسيحية المستهجنة والقول بربوبية المسيح ، أخص منذ القرن السابع عشر الذي أمارت اللثام عن أكابر الرجال والكتاب مثل غاليلو ودكارت ونيوتن ولاك وبيكن وكيلر وغيرهم ، أولئك الذين فتحوا باب الدراسة والتحقيق العلمي ورفعوا مقام العقل وتلاه القرن التاسع^(١) عشر في التقدم الصناعي والاقتصادي والاجتماعي وبقت الكنيسة على جمودها السابق دون تعديل ، وأما القرن العشرون بما جاء فيه من معاجز العلم فقد شملت العقائد الجديدة حتى رجال الدين وانحدروا للمطالعة والتحقيق .

تمجيد الإسلام وتنزيهه وإسناده للأديان السماوية :

ولتوضيح ما مرّ وكيف خدم الإسلام الأديان السماوية ونزهها وأشاد بها نذكر من القرآن آيات فيما يخص الدين المسيحي وأحياناً اليهودي ، وكيف يشيد القرآن بأصل هذه الأديان أخص اليهودي والمسيحي ، ويقدس ويجل الرسل وأخص سيدنا موسى (ع) وسيدنا المسيح (ع) ومن اقتدى بهما لتوحيد الله وتنزيهه واتباع أحكامه .

إليك الآية ٦ من سورة البقرة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

(١) قال ويكتور هوكو في القرن ١٩ في كتاب - تاريخ جنابة واحدة - في كل قرية فرنسية شمعة تشع نوراً وذلك هو المعلم وهناك فم ينفخ عليها وذلك هو الكشيش .

والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿٨٦﴾ .

ترى كيف نطق القرآن الكريم وساوى بينهم . وجاء في ٨٦ منه : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس... ﴾ الخ ، ١١٦ منه : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ ، ثم نراه يجمعهم جميعاً للدين جدهم إبراهيم الخليل (ع) في ١٣٥ منه : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصاراً تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ١٣٢ منه : ﴿ ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ١٣٦ منه : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . ومن سورة آل عمران الآية ٩٥ منه : ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ، و ٩٦ منه : ﴿ إن أول بيت وضع للناس الذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فمن تبع إبراهيم كان على الحق ﴾ ١٩٩ منه : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ .

وينتقد القرآن بني إسرائيل وبهتانهم في مريم وعيسى (ع) في سورة النساء الآيات ١٥٣ إلى ١٥٦ منه : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ ١٥٧ منه : ﴿ وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم... ﴾ الخ . ١٥٨ منه : ﴿ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ فاتحدوا جميعاً بوحدانية الله ونسبة القدرة والخلق له وحده .

١٧١ من سورة النساء : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا

تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيلاً ﴿ ١٧٢ منه : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴿ ، والجميع أمام الله متساوون إلا بالتقوى .

من سورة المائدة الآيات ١٤ ، ١٧ ، ١٨ منه : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق . . . ﴿ الخ . فالكل نؤمن برسول الله وكُتبه .

و ٤٦ منه : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيها هدى ونوراً . . . ﴿ الخ .

وينظر ما ورد في القرآن أن اليهود زلوا عن أحكام التوراة والنصارى زالين عما جاء في الإنجيل ، ولو أنهم اتبعوا ما ورد في كتبهم لاهتدوا كما ورد في الآيتين ٦٥ ، ٦٦ منه : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ﴿ ٦٦ منه : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴿ .

ففي الآية الأخيرة يظهر أن أهل الكتاب لم يعملوا بكتابهم ولو عملوا لأثابهم وآتاهم أجراً عظيماً . وتؤيد الآية ٦٨ ما مر : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . . . ﴿ الخ . وحاشا لرسول الله أن يستنكفوا عن عبادة الله ، وحاشا لكتب الله أخص التوراة والإنجيل أن تنسب لله نقصاً وشركاً وولداً وكفوفاً . ومن ادعى ذلك فهو كافر ويعاقبه أشد العذاب .

تؤيده الآية ٧٢ منه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن

مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴿٧٣ منه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولوا ليمسن الذين كفروا عذاب أليم ﴿ فالمسيح عبد الله ورسوله وروح ألقاه في مريم .

٧٥ منه : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر إنني يؤفكون ﴿ .

١١٠ منه و١١١ إلى ١١٦ منه : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴿ .

١١٧ منه : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم... ﴿ الخ . ولقد بشر التوراة والإنجيل بظهور محمد ورسالته كما جاء في سورة الأعراف الآية ١٥٧ : ﴿ الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل... ﴿ الخ . راجع ذلك في إنجيل برنابا وقد خالفته الكنيسة ، ويتجلى لنا أن التوحيد أصل في جميع الكتب السماوية أخص منها التوراة والإنجيل والقرآن وما نشاهده خلاف ذلك فهو تحريف محض قد حرفوه فيما بعد وهم المحرفون والمشركون في الخطيئة سواء ما جاء في الآية ٣٠ من سورة التوبة : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل... ﴿ الخ . ولقد كان منشأ الفساد إنما هم رجال دينهم ، و٣١ منه ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا الله وحده... ﴿ الخ .

ونرى في سورة مريم من ١٦ إلى ٣٦ فيها يذكر جملها والخطاب الروح الذي أرسله الله لها والذي تمثل لها بشكل بشر وكلمها وأجابته قائلة في ٢٠ منه : ﴿ قالت أننى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً ﴾ فأجابها في ٢١ منه : ﴿ قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ ، وبعد حمله بدأت بولادته متأثرة فكلمها من تحتها وبعد ولادته حملته وأتت به قومها فأنبوها فأشارت إليه فخطبهم ، كما في الآية ٣٠ منه : ﴿ قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ ، وفي الآيات بعدها إلى ٣٥ منه : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

وجاء في سورة الأنبياء من ٢٥ إلى ٢٩ منه ، وكذلك سورة الحديد الآية ٢٧ منه : ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ .

ولقد بشر سيدنا المسيح بظهور نبي الإسلام (محمد) كما آيد ذلك إنجيل برنابا وكما كان قبيل الإسلام بشر المتنبيون بذلك وأشار إليه القرآن في الآية ٦ من سورة الصف :

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ولما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ .

ترى من كل ذلك أن دين الإسلام ما خرج عن المنطق السليم فقد آمن بالرسل وكتبهم ونزه دينهم وخلصه من الشوائب والخطيئة والدنية التي دسها المغرضون . وترى فيه المنطق السليم والرأي السديد القويم .

٣ - المسلمون :

دينهم الإسلام . والله ربهم . ومحمد نبيهم^(١) . والقرآن كتابهم^(٢) ،
والكعبة قبلتهم : وبالعديل الإلهي ويسوم الجزاء إيمانهم . تلك هي أهم
الأصول ويتفرع عليها من الواجبات : الصلاة والصيام والخمس والزكاة
والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . اتفقت عليها جميع
المذاهب الإسلامية . وسن أسس أخلاقية وأنظمة اجتماعية في القرآن
الكريم والسنة الغراء . فكانت شريعته شريعة فطرية طبيعية كاملة جمعت
ما يحتاجه الفرد والجماعة من الضروريات كما حوت سمو الأخلاق
وتهذيب النفس بين الأفراد والجماعات والفرد والجماعة . وسأوى بين
الطبقات القوية والضعيفة والسيد والمسود والأبيض والأسود والرجل
والمرأة . ووضع حقوق الإنسان بالكتاب والسنة (راجع بذلك سورة
الحجرات وخطبة حجة الوداع ويوم غدیر خم) وقضى بذلك على الأنانيات
الفردية والتعصبات والتنازلات جمعاء من فردية وجماعية . وأدلى بنصوص
أمرة وناهية وأصول المعاملات والإيقاعات والقضاء والأحكام فكانت شريعته
شريعة كاملة للعالم كله بما فيه من بشر جاءوا متساويين الحقوق من ذكر
وأنثى (من أب وأم) متساويين في الحقوق والواجبات وحد لكل أمر
حداً . هذا هو أجلى مظهر بين في كتاب سماوي واقعي وعلى من شاء أن
يدرك ما جاء به من كتاب وسنة عليه أن يتصفح كتاب الله وسنة نبيه ، وثم

(١) الإمامة تلي النبوة وتكملها كما جاء في آية الولاية ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ راجع بذلك موسوعتنا موسوعة المحاكمات .

(٢) يتبع الكتاب والسنة النبوية، قال الله تعالى : ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه . . . ﴾
السخ . وقال رسول الله (ص) : إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن
تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ، وكما قال رسول الله (ص) : إني تارك فيكم
كتاب الله وسنتي ، راجع بذلك موسوعتنا أعلاه الكتاب الرابع .

يراجع تاريخ حياته بالذات وبيئته وحظ هذه البيئة من الناحية العلمية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية (ولمن شاء أن يعرف الموجز مراجعة خطبة الزهراء بنت محمد (ص) بعد ممات أبيها على المهاجرين والأنصار) ثم عظمة محمد (ص) وحكمته وكرمه ، في القول والعمل والإنشاء . بيد انه رغم كل المحاسن ما كاد أن يوافيه القدر إلا وكادت أن تنشق أمته من بعده لولا أن حرص عليها اللجنة الطيبة من الصحابة والعترة الطاهرة من آل البيت . ومن المؤسف رغم كل ذلك انحرفت عن وصاياه والسير الذي أمر به توا بعد وفاته وعن الخليفة الذي نص عليه (راجع بذلك الجزء الأول إلى الرابع من موسوعتنا في المحاكمات) .

أخص في عهد الأمويين والعباسيين وتنقسم إلى فرق بسبب وقوع زمام الحكم بيد غير أهله وإدخال شوائب شوهت على الأصول التي لا يمكن أن تزول قط ، لأنها قائمة بنص جلي غير ما نراه في الأديان والأمم الأخرى . نعم رغم هذا بما أدخلته الأغراض الشخصية من التفسير والتأويل المنبعث من غير أهله^(١) وإذا ما نظر الفرد المطلع وتحقق وتأمل في النشأة الأولى . في الكتاب والسنة وحكم العقل السليم ولم تؤثر عليه التعصبات والعادات الدينية والبيئية لأدرك الحقيقة ، وأدرك عظمة هذا البناء الشامخ الأصيل السهل الممتنع القائم على الفطرة والطبيعة البشرية ، دون تكلف وبصورة سمحة . وسنعود في آخر هذا الكتاب لنقارن بين العقائد والآراء والأهواء والأديان ونستخلص منها الحقائق الصحيحة التي هي أليق

(١) فقد منع الخليفان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في عهد خلافتهما تدوين الأحاديث والسنة النبوية وسار على ذلك الخليفة عثمان بن عفان (رض) حتى مرت السنوات (٣٥ سنة) ومات من مات في الحروب من الصحابة ونسي من نسي وخرج أكثر الصحابة متفرقين في الأمصار ولم يسمح العهد العلوي لكثرة القلاقل بذلك ، حتى جاء عهد الأمويين فغيروا وأبدلوا بما يوافق سياستهم ولا يخفى على أحد تلاعبهم بالأحاديث ودس الأخبار التي يسببها انشقت الأمة في المذاهب وضعت .

وأصلح للجميع . قلنا إن الأمر يحتاج إلى دراسة تاريخية قبيل ظهور الإسلام دراسة تاريخية عامة للعالم وخاصة للبلاد العربية وأخص لقريش ، دراسة دقيقة من الناحية العقائدية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية والسياسية والادارية والأخلاقية ثم دراسة خاصة للسلالة المحمدية وعقائدهم ومناوئهم وأشد المناوئين من الأقرباء والأباعد ، بعد ذلك إلى انتقال الحكم وكيفية انتقاله ومن أصبح خليفة والعلل الموجبة للاختلاف منذ البداية وأسباب الفتن والعلل التي أدت إلى الانقسام في الآراء والمذاهب^(١) . ولا نريد أن نطيل البحث في أمر ليس من اختصاص هذا الكتاب ، وكل ما نريد استدلاله والأخذ به هو ما يصلح لحكومة عالمية يستقر البشر تحت شريعته ، ولا بد لنا كما أشرنا إلى أقسام وفرق بعض الأديان ، أن نذكر شيئاً من الفرق الإسلامية التي تجاوزت السبعين ، ومنهم أهل الأصول المتكلمين في التوحيد والعدل وإثبات صفات الباري والتمييز بين الذات والصفات والأفعال والتكلم عن الواجب والجائز والمحال وإثبات الإمامة والخلافة والوعد والوعيد والتحسين والتقبيح والسمع والعقل (المنقول والمعقول) . ومنهم المعتزلة حيث يقولون بالتوحيد والعدل وإن المعرفة معرفة عقلية أكثر ، قبل وبعد صدور الشرع ، والإمامة اختيارية لا بالنص ، ويتبعون وأصل ابن عطاء تلميذ حسن البصري ، ويرتكز على أربع قواعد ، وقد تشعبوا إلى طوائف ، منهم من قال بالجبر ، ومنهم بالاختيار ، ومنهم من نسب الخير والشر للإنسان ، ومنهم لله ، ومنهم من قال بجواز النبوة وأمثالها عقلاً ووجوبها سمعاً ، ومنهم من أوجبها عقلاً ، ومنهم العابدية والتنويه والرازئية ، ومن هؤلاء الخوارج والصالحية وقد جمعوا بين الجبر والاختيار . ومنهم الشيعة وهم يعتقدون بالعصمة في الإمام والنص ووجوب النص عليه . وأما أهل الفروع وهم يعتمدون على الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، فأكثر الأصوليين هم العراقيون ،

(١) راجع موسوعتنا المحاكمات .

والفروع هم الحجازيون ، ومن حيث المذاهب فأشهرها الحنفية والمالكية والحنبلية والشافعية وهم الذين يقولون بجواز الإمامة اختياراً ، ويخالفهم المذهب الجعفري بدليلين (المعقول والمنقول) حيث يقول : إن الإمامة لا تكون اختياراً بل هي لا تأتي إلاً بنص^(١) ، والكل يأخذون بالقرآن والسنة . غير أن الأربعة الأولى كل أخذ من مصدر جمع الأحاديث وأبدى رأيه فيها ، فالحنفية يتبعون الإمام أبا حنيفة والمالكية يتبعون الإمام مالك بن أنس والحنبلية الإمام أحمد بن حنبل والشافعية الإمام محمد بن إدريس الشافعي . وكل منهم من الرجال الذين ألقوا وجمعوا أو اجتهدوا وأفتوا . أما الفرقة الجعفرية فيتبعون الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب حفيد محمد (ص) من فاطمة الزهراء (ع) ، يقولون : إننا نتبع الإمام بالنص من رسول الله إماماً بعد إمام وبأخبار متواترة منهم . ولهم بذلك أدلتهم المنقولة والمعقولة .

فالإسلام دين وشريعة كاملة ، أصلح ما وجدناه على حد ما جاء به أهل الأديان السماوية من أهل الكتاب وأهل الآراء والأهواء من الناحية العقلية والفطرية الطبيعية وأبدته التجارب العملية . دين جمع أحدث ما قال به أفلاطون وجماعته من الموحدن نظرياً ، وعجز من تطبيقه عملياً . وقد طبقه صاحبه (محمد صلى الله عليه وآله) عملياً فأخرجه كأصلح ما يمكن أن يسير عليه البشر لإقامة حكومة عالمية يقضي به قضاء مبرماً على الاختلافات العقائدية المبتذلة والتنازلات المذهبية والتعصبات الطائفية والقبائلية والجنسية والشعوبية الكونية ، فيه المساواة والرفاة والعدالة والبر والإحسان ، جاءت جميع هذه في سورة واحدة هي سورة الحجرات عدا ما ضمته السور الأخرى من الأسس والأنظمة للأمة . قال تعالى في الآية ١٣ من سورة الحجرات :

(١) راجع موسوعتنا موسوعة المحاكمات .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

دين أول ما يقوم على التوحيد ونسبته الكمال والقدرة المطلقة والإبداع في الخلقة إلى فاطر السماوات والأرضين الذي قدر كل شيء فأحسن خلقه ، ذلك الذي عجزت عن إدراك آلائه وبلوغ ساحة حكمته وجبروته وحد أوصافه تحديد زمان ومكان أعظم العقول البشرية من حكماء وفلاسفة ، وكان أقصى علمهم هو إدراك جهلهم ونقصهم أمام هذه القدرة اللامتناهية ، وكل ما استطاعوا إدراكه إنما هو من آثار دلت على وجوده وقرائن وإمارات برهنت على ثبوته ، وذلك غاية علم العالمين ، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « ألا وإن البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير » .

إني أتيت بنموذج واحد من فلسفة ونظرية لأشهر الحكماء لوضع حكومة مثلى ، فكانت نظرياً حتى عهد قريب مرضية ومقبولة ودلت على عظمة كاتبها ، بيد أنها كما قلنا لم تطبق عملياً ومن البعيد ان يمكن تطبيقها لما تحويه من شؤون وأمور لم يحسب بها أفلاطون قدرة الغريزة ولم يقدّر بهذه الحكومة أساساً عملياً لإيجادها وإدامتها ويقائنها ، وأخذنا عليه بعض الإقرارات الأخرى ، ولا ننسى أن أفلاطون كيف نشأ في محيط علمي وفلسفي وتلقى الحكمة من أجل الأساتذة مثل سقراط ، وكان محيطه وتربيته قد أهلتته مضافاً إلى ما يحمله غريزياً من المؤهلات الوراثية ، كل تلك كانت لها أثرها الفعال ، يضاف إلى ذلك قيامه في محيط جميل من حيث الطقس والمنظر الطبيعي والجغرافي ومجهز بالنسبة لذلك اليوم بكل الوسائل الثقافية ، هذا إلى ما يحيط به من حضارات ومدنيات قريبة تستطيع من معرفة ذلك بالدراسة التاريخية والجغرافية . وأما الآن فنبحث عن نموذج من الشرائع أستطيع أن أقول أنها شريعة سماوية واقعية ، لا يستطيع إنسان مهما بلغ من القدرة الفكرية والعقلية أن يأتي بها

على هذه الدرجة من الكمال ، كما لا يلائم أوضاع البشر في كل عصر ، وإذا نحن تصفحنا حياة محمد (ص) من الناحية التاريخية والجغرافية في ذلك العصر وكيف عاش وما امتاز به من الصفات الإنسانية وما تحمله في سبيل بعثته من الأحوال ، الحياة القبائلية في ذلك العصر ، الوضع الاقتصادي ، الدرجة العلمية ، الوضع الاجتماعي والأخلاقي ، الوضع الجغرافي لذلك المحيط من الحر المحرق والجوع المدقع والجهل الفظيع والعادات والأخلاق الذاتية والحزازات القبائلية . كيف استطاع هذا اليتيم الفقير البعيد عن مناهل العلم والأدب والفلسفة والحكمة والثروة والقدرة أن يأتي بما عجزت عن إتيانه أحكم الحكماء وأعظم العظماء وأرقى المرين والمعلمين ، ليجمع شتات أمة مبعثرة ضعيفة جاهلة إلى العلم والحكمة والثروة والخلق السامي والشرعية السمحاء وتشكيل دولة عظمى تحطم امبراطوريات العالم وتقهرها ويضع لها قانوناً أساسياً عملياً ونظماً وقواعد جمع فيها كافة ما تحتاجه دولة عالمية وفي كل زمان ومكان ، وسنناً وجاء بنصوص قاطعة في أصليين : القرآن والسنة^(١) .

فالقرآن هو القانون الأساسي ، تجمعت فيه كل الأسس والقواعد القانونية والأخلاقية الفردية والجماعية وفيه التربية وفيه التهذيب ، فيه الأصول النظرية والأصول العملية ، وبلي ذلك سنته في حياته ، جاء بأصول وفروع ، بدأها بالتوحيد كما وضع فروعاً . وضع كل شؤون الفرد والجماعات الكبيرة والصغيرة من العرب وغيرهم أحصاها صغيرة وكبيرة ذكرتها كتب الأصول والفقه وجعل لكل باباً وكتاباً ، ككتاب الطهارة . وفيه جمع أصول النظافة وأصول تطبيقها وأصول التجنب من الأوساخ والقاذورات بدرجة من الاتقان الذي لم يصل التعقيم الحديث إليه .

(١) لولا منع الخلفيتين الأول والثاني رضي الله عنهما من تدوين السنة لما وجدت اليوم اختلافاً مذهبياً بين الأمة - راجع موسوعتنا المحاكمات .

الكتاب الثاني :

هو كتاب الصلاة وما فيها من تمركز الفكرة وتهذيب الأخلاق وتزكية الروح والبعد عن الماديات والغرور والكبر والظلم والاستبداد والحث على عمل الخير والبر والإحسان وما توحىه من قوة الإيمان والشجاعة والطمأنينة ومكارم الأخلاق والأمر بالقسط والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات ، حينما يتوجه ب كله إلى الخالق المبدع رب السموات والأرضين الواقف على سرائر الأعمال ، والمجازي على الحسنات والسيئات حيث يتجه كل صباح مبكر قبل طلوع الشمس وعند الظهيرة وعصراً وعند الغروب وعند العشية بعد أن غسل يديه ووجهه ومسح برأسه ورجليه متقبلاً القبلة قائلاً : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، مَا لِكِ يَوْمَ الدِّينِ إِلَّا نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فقد بدأ باسم فاطر السموات والأرضين وحمده وعبده واستعان به دون غيره ، وطلب منه سبيل المكرمات والطيبات والابتعاد عن السيئات والمساوئ ثم يبدأ قائلاً : كلمة التوحيد ونسبة الوحدة والقدرة لله وحده والنعمة وبهرته من الشرك والنسب التي تنافي عظمة الخالق المبدع الوهاب القدير ذي الكمال والعظمة والقدرة المطلقة .

ثم يعود بعظمة ويسبحه ويستغفره ويشكره قولاً وعملاً . بذلك ينطق الصغير والكبير والسيد والعبد والعالم والجاهل على حد سواء ، ليعرف نفسه بالنسبة لغيره على حد سواء في الحاجة والنقص والخضوع والسكينة وطلب الصفح والمغفرة ، وليعرف أن هناك قدرة وقوى فوق القوى ، إلهاً مسيطراً على الأعمال ، مبعث الخير وواهب السعادة ومجزى ومقاصص المتجاوزين ونكال الظالمين . تلك هي النزعة التي يريد أفلاطون تلقينها للأفراد بالقصص الخرافية للابتعاد عن الشرور والاقبال على الخيرات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تلك كانت بنظره غير حقيقية ولكنها هنا أصبحت حقيقة ، وأية حقيقة عظمى؟ هذا إلى صلاة الجماعة وما توحىه

في النفوس من حب الألفة والموعظة الحسنة والقيام بالبر والاحسان ونشر السلام والأخلاق الفاضلة والآداب والفضيلة ، لا يدرك كنهها إلا من أتاها بشرطها وشروطها ، وقد حق لها أن يقول فيها محمد (ص) : إن الصلاة عمود الدين ، إن قُبِلَتْ قُبِلَ ما سواها وإن رُدَّتْ رُدَّ ما سواها . وقال : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

لعمري والله لقد صدق في قوله ، فهي عمود الدين وهي من أكبر الروادع عن المنكرات والفواحش . وخير المهدبات للأخلاق والبواطن ، وأحسن المشوقات للبر والإحسان وعمل الخير وأكبر الروادع عن كل شر .

وأوجب الزكاة والخمس بموجب الآية ٦٠ من سورة التوبة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ . ويدخل في الزكاة زكاة الفطرة المفروضة على المكلف الحر الغني كل سنة عند هلال شوال عن نفسه وعياله ، وتعطى لمستحقي زكاة المال ، والأقربون أولى بها ، والجيران من الأقربين . وخلاصة الزكاة أن يؤخذ حق معين من الأغنياء لسد عوز الفقراء من نفس البيئة .

والخمس كما جاء في الآية ٤١ من سورة الأنفال قوله تعالى : ﴿ وَعَلِمُوا إِنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ . ونرى في كلا الآيتين موجز من ينفق عليهم ، وأما شرح ذلك مفصلاً ومأخذه مفصلاً فيأتي في السنة النبوية ، تلك السنة التي دائماً تفصل المجمع وتكمل الكتاب ، والتي هي المصدر الثاني بعد الكتاب والتي لا يمكن أبداً الاستغناء عنها . تلك وموارد أخرى كالخراج والجزية والأنفال وهي الواردة في الآية : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۝ ﴾ .

وهناك موارد أخرى تشكل منابع الثروة للدولة ، وتمتاز الشريعة الإسلامية بأنها شريعة فطرية تجمع حق الفرد وتحترمه بالوقت الذي تراعي لأقصى حد حق الجماعة ، فهي تكاد تكون قائمة وأخذة الحد الأعدل والأوسط بين الشرائع القديمة والحديثة ، وبالوقت التي تحترم حق الفرد احتراماً أكيداً وتقول : الناس مسلطون على أموالهم وأنفسهم ، نراها تثير في الأفراد والجماعات روح الإنسانية في البر والإحسان والعمل الحر على شريطة أن لا يضر بالآخرين من أفراد وجماعات ، فتمنع الربا منعاً باتاً^(١) لكيلا يستثمر الإنسان أخاه الإنسان ظلماً وقهراً ، ولكيلا يستغل ثروته إلا في ناحية تجارية أو صناعية أو زراعية فيستفيد منها هو وغيره ، ولكيلا يكسب الثروات دون جدوى وحرصاً^(٢) ويحرم منها نفسه وغيره ، وبالوقت يمنع البذخ دون جدوى والبخل دون جدوى . قوله تعالى في سورة المائدة الآية ٣١ : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ . . . وقوله في الآية ١٩ من سورة الذاريات : ﴿ وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ ، هذه الآية تفرض على الأفراد والجماعات الانفاق على المحتاجين والمحرومين من أموالهم الخاصة ، ومثلها الآية ٣٣ من سورة النور : ﴿ وأتوهم من مال الله الذي أتاكم تحريصاً على البر والإحسان ، وقوله تعالى في الآية ٧ من سورة الحديد : ﴿ انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ ، وقوله تعالى في الآية ٢١٨ ، ٢١٩ من سورة البقرة : ﴿ يستلونك ماذا ينفقون؟ قل : العفو ﴾ أي انفقوا ما فاض على احتياجاتكم ، وما أكثر الآيات والسُنن المحرصة

(١) راجع الآيات من ٢٦١ حتى ٢٨٣ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٣٤ و ٣٥ من سورة التوبة :

٣٤ منه : ﴿ . . والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ و ٣٥ منه : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾ .

على البر والإحسان والإنفاق والعرف المعقول على النفس والغير ، كقوله في الآية الخامسة من سورة النساء : ﴿ وَلَا تَأْتُوا السُّفَهَاءَ بِأَمْوَالِكُمْ . . . ﴾ الخ . وقوله (ص) : (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)^(١).

فيقسم العالم اليوم في حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية إلى ثلاث مكاتب :

١ - المكتب الرأسمالي ، وهو القائل بحرية الفرد المطلقة خصوصاً في الاثراء دون تحديد وراذع من الناحية الاجتماعية ، فيجعل له حق امتلاك ما شاء من رؤوس الأموال الصغيرة والكبيرة حتى المنابع الطبيعية الكبيرة من مقاطعات وغايات ومعادن وحتى آبار النفط أو مراكز المعادن والمؤسسات العامة ، ولا ننسى في الولايات المتحدة ملوك النفط والنحاس وغيرهم ، ولا ننسى اللوردات في إنكلترا وملكياتهم الواسعة ولا ننسى كيف كانت الملكية في أوروبا حيث كان المالك يملك المقاطعات الكبيرة وما عليها حتى من البشر والحيوانات والأنهار والجبال ويحق للرأسمالي إقامة المصالح الكبيرة الضخمة وامتلاك الخطوط الحديدية وما شابه ذلك . وبإمكانه استخدام الأفراد في أي عمل ، سواء كان هذا العمل في المباحات والطبيعات مثل جمع الكلا والحشيش واستخراج المعادن وإعطاء العامل أقل ما يرتأيه من الأجور .

٢ - مكتب الاشتراكية ، ومنها الشيوعية ، وهو القائل بحق الاجتماع والجماعة ، ولا يعتبر الفرد إلا كعضو لبناء ذلك المجتمع ، فهو يفقد الصفة الثامة الموجودة في الرأسمالية ، وكل شيء إنما هو حق الجماعة وما للفرد إلا ما يقدمه للمجتمع من عمل ، فالعمل هو المصدر الرئيسي للثروة

(١) كما مرّ في الآيتين ٣٤ ، ٣٥ من سورة التوبة .

حيث يعتبر كل ما هو موجود إنما هو ملك الدولة ، وحق الفرد إنما يكون على نوع ومقدار العمل الذي يقدمه للاجتماع .

٣ - مكتب الإسلام يحفظ حق الفرد ويحترم الجماعة ويحدد للفرد حقوقه في الملكية ويحضه على الانفاق المشروع في الأعمال الخيرية والإنسانية ويحذره من الإسراف ويمنعه العكس ، أعني يمنعه الإمساك وكثر المال .

الانتاج في الشريعة الإسلامية : ويحصل الناتج من رأس المال (الأرض والآلة والبذور في الأرض والسماذ وما شاكل) ثم العمل ، ففي الملكية الخاصة للعامل أجره المسمى أو أجره المثل ، والزرع الناتج من الأرض لصاحب البذور وللاأرض أجره المثل أو المسمى ، وللالآلة أيضاً أجره المثل أو المسمى . وعلى هذه قامت المضاربة والمزارعة والمساقاة ، تلك كانت في الملكية الخاصة .

أما في الملكية العامة وهي الحاصلة :

(١) بالجهاد المسلح لبلاد عربية أو غير عربية وعادت للمسلمين ، فللخليفة اقطاعها وأخذ خراج عنها لصرفه على المرافق العامة^(١) ، وليس للفرد البتة امتلاكها .

(٢) ما حصله خليفة المسلمين بالمصالحة .

(٣) المياه الطبيعية ، سيات السطحية أو العميقة والناس شركاء في ثلاث الماء والنار والكلأ^(٢) ، ولمن أحدث بئراً حق التقدم للاستفادة منها ، ولكن ليس له بنظر بعض الفقهاء بيعها بل تركه عند انتهاء عمله للمحتاجين الآخرين .

(٤) كل مادة أولية في الأرض ، فلكل فرد الاستفادة منها وليس له

(١) راجع بذلك وسائل الشيعة والاستيصاب . (٢) كتاب المبسوط .

امتلاكها^(١) ولل فرد الاستفادة منها أكانت منجماً أو منبجاً وبشراً للنفظ وليس له بيعها .

٥) كلما اشترته الدولة أو حصلت عليه بالهبة أو المصالحة وكل شيء ليس له صاحب .

٦) الصحاري والغابات والمراتع وكل تركة لا وارث له .

٧) غنائم الحرب الحاصلة دون رضاء كل تلك تدخل في الآية ﴿ يستلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ .

ففي الموارد العامة والمباحات ، فعل العامل هو الأصل وما نتج إنما كله للعامل سوى حق يتعلق بالآلة ، أكانت مسماة أو أجرة مثل ان لم تكن للعامل .

وهذا يختلف عن القوانين في المكتب الرأسمالي إذ في الرأسمالية إذا استخدم الفرد في المباحات يعطي أقل ما سمي له ، بينما في الإسلام إن الناتج إنما هو من حق العامل وليس للغير سلب ذلك الحق منه طالما أن المال مباح وعام المنفعة .

٤ - الصوم : وهو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى الغروب في شهر رمضان بشرط السلامة والإقامة وان يكون بالغاً رشيداً . والمفطرات هي الطعام والشراب والجَماع والاستمناء واستعمال الحقن من غير طريق الفم والكذب^(٢) وكل محرم ، ويعتبر شهر رمضان شهراً مقروناً بكل أعمال الخير من بر وإحسان واجتماع وتهذيب .

فيه يكثر الافراد قدر ما يستطيعون من الفضائل قولاً وعملاً ، ومن المعونة المادية والمعنوية ، ويكثررون فيه من الاجتماع والزيارات والوعظ

(١) تذكرة العلامة الحلي .

(٢) على الله ورسوله والأولياء .

والتهذيب ، وتكثر فيه المجالس التي هي أشبه بمؤسسات تعليمية وتنقيفية ، وفيه يكثر إطعام الفقراء وإكساء المعوزين وإنشاء الأعمال الخيرية ، ويقل فيها النزاع والكذب والافتراء والنصب والاحتيال والتعدييات والتجاوزات على الأغيار ، وتبذل فيها النفوس أقصى ما تتحمله من تزكية النفس وصددها عن المنكرات وحثها على المبررات . فيها يشعر المرء بكثير من الأمور التي لم يتعودها من تحمل الجوع والعطش والصبر على تحمل المشاق والأذى وصد طغيان النفس وتساوي الأغنياء بالفقراء وتقرب الطبقات مع بعضهم في المجالس والمعابد ومحلات الوعظ والإرشاد والابتعاد عن مجالس اللهو واللعب وكلمة من شأنه إفساد النفس وتثييط العقل والوجدان .

٥ - وأوجب الحج لمن استطاع إليه سبيلاً مرة في العمر على شرط أن يكون حراً رشيداً مستطيعاً بالزاد والراحلة وإمكان المسير . فيه تساوى كل الطبقات في لباسها وهياكلها وأقوالها ومجالسها ، لا يعرف فيها السيد من العبد والضعيف من القوي ، كأنهم جميعاً أمام الله كيوم المحشر الجميع وبصوت واحد يلبون : ﴿ لبيك اللهم لبيك لبيك إن الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك لبيك ﴾ . ويندب فيه أشياء ، منها تنظيف الجسد وقص الأظافر وأخذ الشارب وأخذ العانة والإبطين والغسل ، وتروك الاحرام الواجبة ١٤ ، أهمها ترك الصيد وإمساكه وأكله وحتى الإشارة إليه أو الاغلاق عليه وذبحه والتجنب عن تحريك الشهوة من جماع ولمس ونظر والاستمئاء والفسوق من كذب وجدال وحتى قتل أي حي وقطع الشجر والحشيش في غير ملكة عدا الفواكه والنخل وعدم لبس السلاح اختياراً .

وفي كل سنة يقدم للحج جماعات الإسلام المستطيعون مالياً من كافة الأقطار والأجناس ، من السود والبيض والسمر والصفير ، مهما اختلفوا أو تباينوا خلقاً وأخلاقاً وهياكلأ قوة وضعفاً نساء ورجالاً ، ليتعارفوا فيما بينهم وليتعدوا عن الحياة المادية وليتثقفوا عملياً وليشاهدوا عملياً نوعاً بارعاً من المساواة والتواضع وأبعد ما هنالك من مكارم الأخلاق والابتعاد

عن الكبرياء والجدال والعصيان والتعدي ، يوماً بل أياماً يجدون فيه اللذة العظمى بالانخراط إلى المسلك الإنساني الواقعي والحياة المجردة من الماديات والتعصبات ، ويرى كل مسلم اخوانه من المسلمين الآخرين المجتمعين لنفس العقيدة والدين والتوحيد ولنفس الغاية وعلى نمط واحد . اجتماع سنوي لا يضاهيه أي اجتماع عظيم في المؤتمرات العالمية والمجامع والنوادي بما يضمه من أبعد الأصقاع ومختلف المسالك والعادات والعرف ، يتعارفون ويتحدثون ، فيؤدي ذلك إلى إصلاح حالهم من النواحي الاجتماعية بعد الاطلاع على أوضاع مختلف البلاد الإسلامية ، ويؤدي إلى تحسن الوضع الاقتصادي بالمتاجرة المؤقتة والاتصالات التي تليها بعد المعارفة وما يجده المرء بعد اتمام الحج من مختلف الأذواق والأزياء واقتباس أحسنها^(١) .

إن هذه الفرصة التي تحصل للمسلمين في اجتماعهم على هذه الشاكلة البعيدة عن شعورهم بالمشاكل الاقتصادية في كل سنة تستطيع أن تلعب دوراً مهماً للتقرب إلى بعضهم وإصلاح شؤونهم ، ومن أهم الأسباب والبواعث إلى شد أزهرهم ومعاضدتهم ، إن شاءوا أو أدركوا فلسفة الحج الواقعية .

اجتماع سنوي مفروض لمن استطاع إليه وفرغ له ، أي اجتماع عظيم وبالغ في الأهمية ، إن أدرك المسلمون عظمتهم ، وإن بنوا عليه البناء المحكم لرفع التفرقة ، وإقامة أصول الوحدة الإسلامية بين العرب ومختلف الأمم الأخرى التي يجمعها الإسلام ، وعادوا لنشر السلام وتجديد أصول الدين ونفي عوامل الخذلان ، والركون إلى الصفاء والمروة ، وإحلال التقارب فيما بينها ، وبناء ذلك على الأصول ونبذ الفروع التي أسست

(١) ولنعود اليوم إلى الاجتماعات السياسية والعلمية والصناعية والأدبية كاليونسكو وأمثالها وكم يستفيد منها الحاضرون وغيرهم وحسنه أنه يجمع ذوي التقوى وذوي اليسار وأهل الخير .

على البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم قالوا ما جاء به القرآن إلى أهل الكتاب ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا تعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ . وسعوا كما أمرهم الله في القرآن بالبر والرحمة للنوع الإنساني لتهدئته والإشفاق عليه من طريق الدعوة الصالحة الحكيمة لنشر المبادئ الصالحة القائمة على العقل والمنطق والفطرة الصالحة والأنظمة والقوانين الطبيعية المفروضة طبيعياً وعقلياً اتباعها .

٦ - الجهاد : وهو فرض إذا استوفى الشروط وأهمها الرشد والحرية والذكورة وعدم العجز ، كمرض أو نقص عضوي أو عمى ، ودعوة الإمام أو خليفته بالنص لدفع عدو مداهم . وفي الحرب والدفاع يراعى أقصى حدود الارفاق في نساء وأطفال العدو والعدو نفسه إذا أسلم ، ويمنع استعمال السموم في الحرب ، وكثير من موارد الارفاق الأخرى مما فرضه الإسلام دون غيره وراعى فيه كل شروط الإنسانية والخلق الرفيعة ، ورمى من وراء ذلك كله الإصلاح والسلام لا الحرب والانتقام والغنيمة كلما وضع أصولاً محكمة في غنائم الحرب راعى فيه المحارب وغير المحارب ، وكان هدف الإسلام من وراء كل ذلك هو توحيد العقيدة ونشر العدالة والمساواة الواقعية ورفع الظلم والتعدي ورفع مستوى الإنسانية وإبعادها من مختلف الكوارث من فقر وجهل ومرض .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وهذان يجبان كالجهاد عند توفر الشروط لا مجال لتفصيل ذلك^(١) . وهي من الوسائل الطبيعية التي تثير الرأي العام في الاستحسان والتقبيح

(١) قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة .. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ... ﴾ الخ ، وقوله تعالى : ﴿ كتتم خير أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ... ﴾ الخ ..

فرداً أو جماعات بنزعة العقل ونزعة الوجدان ، وتكون أكبر رادع للمتجاوزين والمعتدين وأعظم مشوق للمقسطين والذابين عن حياض الحق ، وهي تقوم أحياناً مقام القصاص والعزيرات ، بل هي خير رادع في محيط يتبع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن إتيان المنكر وخير وازع للأمر بالمعروف . فهما رقيبان نفسيان للأفراد على إتيان الخير والابتعاد عن الشر تحت سلطة العقل وحكم الوجدان ، ولها أسمى مقام لسلوك الحياة الإنسانية السعيدة ، تلك في الواجبات الأساسية .

وقد وضع الإسلام أسساً عامة لكل شيء لتشكيل حكومته العالمية فتكلم عن :

١ — العقود : وما تشمله من قبول وإيجاب في المتاجرة والاجارة والوديعة والمزارعة والمساقاة والشركة والمضاربة والكفالة والوكالة والرهن وأمثالها التي تستلزم طرفين للإيجاب والقبول .

٢ — الإقاعات : كالنذر والهبة والعنق والوقف وما شاكل مما يقع من طرف واحد .

٣ — الأحوال الشخصية : من زواج وطلاق ونفقة ارضاع ونسب ووصية وميراث . . الخ .

٤ — الأطعمة والأشربة والصيد .

٥ — القضاء والشهادات والحدود : (كحد الزنا واللواط والسرقة . . الخ) .

٦ — القصاص والديات .

وأولاً وأخيراً عن واجب الاعتقاد .

١ — العقود : وهو بحث مسهب ومفصل لا مجال في بحثنا هنا للتفصيل فيه ، ونكتفي ببذة مختصرة كمثل في واحدة منها مثل التجارة وهي البيع والشراء ، وفي الإسلام قد تكون واجبة إذا لم تكن للمرء مصدر

معيشة من سواها وإلا كانت مباحة . وقد تكون ممدوحة ومستحبة إذا أراد وقصد بها التوسعة لعمل الخير ، وهي مذمومة ومكروهة إذا استعمل الاحتكار عند المحتكرين ، أو مباحة إذا لا ضرر من فعلها ولا ضرورة تستلزمها ، وهي محرمة إذا كانت معاطاتها في محرم فيها ضرر فردي واجتماعي كتعاطي المسكرات وما يمنع اليوم من تجارة المخدرات كالكوكاين والهيريون أو بيع سلاح للأعداء وما فيه على إعانة عمل غير إنساني ومحرم وما إلى ذلك المحرم نصاً . الربا ويعتبر خارج عن البيع والتجارة . وفي التجارة أحكام وشروط وخيارات وتفصيل وأركان بنيت أسسها على أسس متينة حكيمة ، ضمنت فيه أقصى أصول العدالة وحفظت فيه حق الفرد والمجتمع لا بعد ما يمكن أن يتصوره الفرد ، مما عجزت عن إتيان مثله الأنظمة والقوانين القديمة والجديدة .

وبحثت في العقود عن الاجارة والوديعة والمزارعة والمساقاة والجعالة المسابقة والرماية والشركة والمضاربة ، وبحثت في الديون والرهن ووضع لكل منها حدوداً وشروطاً وأحكاماً ، كما بحثت في الضمان والمصالحة ، وتكلمت عن الحوالة والكفالة والوكالة والهبة والابراء والوصية .

٢ - الإيقاعات : وهي التي تصدر من طرف واحد مثل الوقف والنذر والعق ، ولكل منها تفاصيل وحدود وشروط وأركان لا تتم إلا إذا توفرت فيها .

٣ - البحث في الأحوال الشخصية بما في ذلك من نكاح وطلاق ، وما تضمنه من الرضاع والنسب والوراثة والنكاح ، يدخل في العقود التي يجب فيها الإيجاب والقبول ، وأما الطلاق فهو إيقاع من طرف الزوج ، وفي الأحوال الشخصية ، وأخص منها النكاح والطلاق ، فهي أقصى ما وصل إليه عقل البشر وأبعد ما يتصوره العقل من المتانة والحكمة والدقة وأعظم الأسس والقواعد والقوانين التي يمكن أن تقوم عليها السعادة للجنسين ، روعي في وضعها في الأحكام الإسلامية ما لم تجده في دين

أو رأي أو عقيدة قديماً وجديداً ، فيها ترى مآلاً سعيداً للجنسين قامت فيه واشتركت الفطرة الطبيعية والعقل السليم ، وإذا ما تعمقنا في فلسفة عقد الزواج الدائم وبجانبه عقد الزواج المنقطع لتجدن فيه الحل الوحيد للمشاكل الجنسية عند البشر ، والحل الوحيد لانقاذ الملايين من أولئك الذين ولدوا لا يعرفون أمهاتهم وآباءهم محرومين ، يحملون في حياتهم أكبر عقدة نفسية في الاجتماع طالما بعثتهم للانتقام الذي حرّمهم من ذلك العطف الأبوي ، وربما ملايين كل سنة يولدون من الاتصالات الجنسية غير المشروعة ويتركون في قارعة الطريق حتى يجدوا حتفهم أو من يلتقطهم أو يسلموا إلى المعاهد الخيرية حتى إذا ما بلغوا أو أدركوا بكوا حظهم ، إلى جانب ذلك ما يخلق ذلك العمل الجنسي غير المشروع في العواطف والوجدان عند الأب والأم الذين اضطروا بحكم العادة والعرف من جهة وتخلصا من العار ، وما يمكن أن يقال أو ما يشعرون به من حجر عثرة أمام طريقتهم في الزواج في المستقبل ، فهم رغم ما يتحسّونه تجاه أولادهم من الحب الغريزي ، يضطرون إلى التجاهل وإلى تركهم إلى القدر إلى حيث لا يدرون ، وهذه أوروبا وأمريكا تتكّدر بأشكال هؤلاء الأولاد والآباء والأمهات .

تلك جميعاً حلها الإسلام وأقام لها قواعد وأنظمة حفظ بها تلك الحقوق وأوقف تلك المظالم وقضى على تلك العقد النفسية . وفي الزواج والطلاق راعى مصالح الجنسين لأقصى ما يمكن أن يصل إليه عقل البشر وتتوفر فيه مصالحه الغريزية والجنسية . لا نجد تلك أبداً في أي دين أو فرقة أو ذوي رأي وأهواء .

ولا تجد في قواعده أي أمر خرافي أبداً ولا نجد فيه غير الحكمة والدقة والصلاح لخير البشر في الحال والاستقبال .

ولم يكن الإسلام ديناً وعقيدة فحسب ، بل فيه ما يحتاج الفرد والمجتمع في كافة التشريعات لإقامة حكومته ، بما فيها من تشريعات

وقوانين وأنظمة تخص الإدارة والاقتصاد والصحة وما يحتاجه مجتمع عالمي في كل أدواره قابل للانعطاف والتغيير من جهة ، وثابت من جهة أخرى ، لهذا فقد وضع أصولاً عامة حفظاً لسلامة الأبدان والعقول ، وابتعاداً عن الأمراض الجسمية والعقلية الناتجة من تناول الأطعمة والمشروبات وحددها .

٤ - عن الأطعمة والأشربة والصيد :

المباح وغير المباح وجعل لكل منها قواعد وأصولاً كلية وتفصيلية في القرآن والسنة ، وقد أدرك علماء الصحة والطب وعلم النفس حكمة هذا التشريع ، الموجز في القرآن والمفصل في السنة ، فكان في ذلك إعجاز وحكمة قصوى دلت على سمو هذا الشرع ومتانة أصوله التي لا مجال لتفصيل ذلك هنا ، ومن شاء في إمكانه الوصول إلى الموجز والمطول منه .

٥ - القضاء . الشهادات . الحدود . ويتبعه القصاص والديات :

وفي هذه جمع أصول العدالة والحكم ، وما يلزم توفره من شروط وأحكام لرجل القضاء ، وإقامة البيّنات ، وأصول العدالة القائمة بعضها بالحدود والنصوص وما يتبع فيها القصاص وما يلزم في أخرى من الديات ، فجمع بإيجاز وتفصيل أقصى ما بلغته أدمغة الفلاسفة والحكماء ، من أراد نظريات مقرونة إلى تطبيق عملي جمع فيها ما يجب فرضه فطرياً وطبيعياً مقروناً بما يتقبله ويستسيغه العقل السليم ، مراعيّاً في ذلك منتهى ما يمكن رعايته من مصالح الأفراد والجماعات في الحاضر والمستقبل ، وأقام بذلك أصولاً وقائية رادعة من تكرار التعدي والتجاوز ، تأديباً للمتجاوزين وترضية للمظلومين والمقهورين والمعتدى عليهم ، وإقراراً للرأي العام ووجدان الفرد والمجتمع ، وإعادة الحق إلى نصابه ولأهله كأقصى ما يمكن أن يتوصل إليه أدمغة المفكرين ، وقد دلت التجارب بمرور الزمان أن هذه الأحكام أصلح أحكام استطاع مجتمع راق أن يتوصل إليها ، ولا زالت القوانين الحديثة من حين وآخر تغتذي منه وتستمد منه كلما أعيها الأمر واضطرتها الحيلة .

إنني طالما فكرت بأن أضع أسس حكومة عالمية تقوم دعائمها على أسس طبيعية فطرية دائمية ليست كذلك التي وضعها من قبلي ، ويضطر من حين إلى أخرى من تبديل هذه وتغيير تلكم لأنه لم يرع فيها القواعد والأصول الفطرية الطبيعية الثابتة .

وكننت أعتقد أن الحكومة العالمية إذا أردنا أن تكون دائمة باقية يجب أن نبحث عن القوانين الطبيعية في كل شيء نحتاج إليه ، وليس لنا أن نشرع أو نبتكر أنياً كيفما نشاء بحكم الأهواء والعواطف والأغراض الشخصية ، لا بل علينا البحث عن كل شيء عن قانونه الفطري الطبيعي ، ومتى وجدناه وحق لنا أن نطلق عليه اسم قانون كقانون الجاذبية للأرض ، هذا وإن نعلم أن هناك قوانين تشد أزر بعضها وإن هناك قوانين طبيعية تخالف مفعول بعضها بعضاً ، وإلاً لما أمكن لاطنان الحديد والمعادن أن تحلق في الجو وتخالف قوانين الجاذبية . نعم استطاعت ذلك بقوانين أخرى أيضاً . وإن هناك قوانين طبيعية اقتصادية وصحية واجتماعية ومنها جزائية وحقوقية وفي كل مورد شئنا ودخلنا وفكرنا فهناك علة ومعلول وقواعد وقوانين ثابتة في جميع حياتنا المادية والمعنوية ، منها ما تأتلف ومنها ما تختلف ولم يكن بين هذه الحوادث الكونية أبداً شيء كما يقال يأتي على طريق الصدفة ، والصدفة التي نقولها إنما ترتبط بنواميس وقوانين وأصول طبيعية أتت طبق أصول وقواعد قد جهلناها أو جهلنا بعضها ، فهناك علل قريبة وبعيدة بالنسبة لنا من حيث المكان ، وهناك علل قريبة وبعيدة بالنسبة لبعضها من حيث الزمان ، وهذا القرب والبعد قد يمتد بالنسبة لجسمنا أو موطننا أو الكواكب التي تسير بنا أو المجموعة الشمسية وارتباطها بالنسبة لنا ولغيرنا أو ما له صلة أبعد ، وأبعد الاجرام والمجموعات السماوية الأخرى أو هي تتداني للصفر حتى تصل إلى تأثير الذرات والجواهر غير المرئية ، هذه بالنسبة للمادة أو لها صلة بالنسبة للزمان القريب الحاضر أو البعيد ساعة أو يوماً أو أسبوعاً أو شهراً أو سنة أو قرناً أو أعقاباً وألوف السنين والملايين والبلايين ، وهكذا كما تبقى تأثيرها لمثل تلك الأزمنة ، فقد

قرأت قبل بضع سنين أن علماء الفلك اكتشفوا كوكباً بعده النوري مليون سنة ، انفجر قبل مليون سنة ، وأمكنهم مشاهدة انفجاره خلال هذه السنين وانتشرت من ذراته مئات الألوف كحجم الشمس وأمثال تلك وما تبعته من الطاقات والأنوار وما تفره على أطرافها القريبة والبعيدة ، وما ذلك إلا قطرة من بحر توصلنا إليه في علومنا وإدراكنا ، فنحن قد نسيطر تارة كل السيطرة على سير حياتنا وقد نؤخذ اضطراباً على خلاف رغبتنا ، جهلاً مرة أو بحكم الغرائز المتمكنة منا تارة أخرى .

فإذن هناك أمور بعيدة المدى وقوية التأثير في حياتنا ، ولها أصول وقواعد يجب أن نبحث عنها ، ثم نضع ما استطعنا معرفته من قواعد وقوانين ثابتة نستمد ونثبتها شيئاً فشيئاً ، ولسوف نضرب أمثالا على تلك في شروحنا القادمة .

٦ - الاعتقاد بالله الأحد الصمد ، وتلك دلت عليه آلاؤه وما نشاهده من الوجود المادي والمعنوي ودقة الصنع والنواميس الكونية المتقنة ورابطة العلة والمعلول ، وقد شهد بذلك أعظم الفلاسفة والمفكرين حيث قالوا وإن قصرت حواسنا وعقولنا لإدراكه ، فقد أجمعت على وجوده وكماله وقدرته وعدله وعظمته وخلقته ، وكلما يدل على الكمال والصفات الحسنى المطلقة مما شاهدوه من آثاره وخلقه وآلائه . في أنفسهم كما مرّ وشرحنا ذلك وفي غير أنفسهم من العالم الخارجي من حيوان ونبات وجماد في الأرض والسماء^(١) .

أليس قبيحاً بذوي العقل أن يرى الكتاب والطاولة ومختلف المصنوعات الصغيرة والكبيرة والسيارات والمحركات والبيوت والمساكن والمعامل والطائرات وإلى ما لا يعد ويحصى ، ويدخل الدوائر فيشاهد

(١) أوجه نظر قارئنا الكريم لمراجعة دائرة معارف فريد وجدي في فصل ما يذكره في الجزء الأول عند ذكره (آله) بين الماديين والقائلين بوجود الروح والله .

أنظمتها وكتبها ، ويدخل الجامعات والشركات والمؤسسات وكل شيء صنعه ودبره البشر ، ويرى القرى والمدن ، وعندما يسأل : « من صنع هذه؟ » فيقول : إنها وجدت عفواً أو بدون صانع لمجرد أنه لا يستطيع أن يدرك صنع التلفزيون أو الراديو أو آلة أخرى فكيف خلق الإنسان؟ وهو كعالم جمع فيه من الأجهزة والأنظمة والغرائز والعقل والروح وكل جهاز من أجهزته المنظمة المرتبطة بالجهاز الآخر من الدقة والاتقان وفي حالة تجدد وما فيه من أسرار ، هذا كمثل من الأحياء ، وخير مثل ، أيمن أن نقول انه خلق عفواً لمجرد أننا نجهل خلقته؟ ولماذا خلق تلك الخلقة التي تقوم بجميع أعمالها على نظام وقواعد منسقة ومنظمة ، حركته فكره ، عقله ، قواه الأخرى إرادته؟ أكل تلك خلقت عفواً؟ ليس لنا غير الإقرار بأنه لا يمكن ذلك ، وإن عقولنا قاصرة عن إدراك عظمة الخالق ، ولا بد لنا من الإذعان على كمال خلقته وعظمة خلقته في كل شيء ، وهذا الخالق أيخلق بدون قصد ولا يقيم العدالة ولا يضع لخلقه قصاصاً وجزاءً ومآلاً؟ أترك خلقه سدى؟ يتجاوز ذو العقول على غيرهم ، ويتلقى الظالم والمظلوم حتفه دون جزاء؟ لا يمكن قبول ذلك . لا بد للخلق من قصاص متى أقرنا بوجود وعظمة وكمال الخالق . ولا بد لنا أن نعترف بأن الموجود واحد ، وإلا لعلا بعضهم على بعض واختلت وتضاربت إرادتهم . تلك هي حقائق لا يمكن إنكارها .

ومن جهة أخرى أليس أصلح للبشر أن ما قلنا بأن الله واحد وأنه حكيم قدير . من خلق كل شيء وجعل لكل شيء علة ومعلولاً وقواعد وأصولاً وأنه عادل ومن عدله يوم الجزاء والميعاد ، أليس هذا أصلح وأعقل وأقرب لإدراك البشر من أن نقول ما قاله ذوو الآراء وجعلوا لكل قدرة إلهاً فمنهم من اتخذ الكواكب ومنهم الماء أو الهواء ومنهم الحيوان ومنهم الحجر أرباباً ومنهم من أنكر الكل؟ ذلك ما تدرك حقيقته ذوو العقول السليمة ومن العار . على الإنسان أن ينسب حياته لما جاء به أهل الأهواء والزندقة ولا يفكر تفكيراً عالياً ويتأمل في خلقته ونفسه على أقل تقدير ،

ومن الظلم أن ينسب لله ما يدل على الجهل والسفاهة والبلاهة بعد أن شاهدنا عظمته في خلقه كما قال الإمام علي عليه السلام: «ألا وإن البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير» .

المقارنة بين العقائد والآراء المارة :

لم نكن باحثين بالتفصيل عن كافة الأديان والعقائد والآراء التي حلت بالبشر منذ قيامه لليوم ، إذ هناك ربما آلاف الأضعاف من الفروع والعقائد التي لا مجال لذكرها هنا ، وإنما بحثنا ذلك على سبيل الإيجاز والاختصار ، وأخذنا بالأديان الأصلية والآراء والعقائد الأصلية ونماذج من الفروع .

ولا يسعنا في هذا الكتاب أن نأخذ كل واحد من هذه ونناقشها ونذكر محاسنها ومساوئها ، وإنما نكتفي بدرج ذلك المختصر في أصوله لتمحيصه من قبل ذوي الألباب الحية والعقول الشاقبة ، وقد تحتاج أكثر النظريات التي جاء بها الافراد من ذوي الآراء والعقائد والأديان إلى تجربة عملية غير التحكيم العقلي المجرد ، ولنا أن نحكم على أساس العلم والتجربة المارة ، فنحن نشاهد أننا نتقبل كثيراً من أقوال الحكماء لما تحويه من المنطق والاستدلال والبراهين ، ولكن من جهة ثانية نأخذ بأشخاصها وأشهرها مثل أفلاطون وأجل مؤلفاته بموضوعنا الجمهورية ونظرياته لوضع كتاب الجمهورية لتأسيس حكومة مثلى لحياة البشر السعيدة ، تلك التي يتقبلها الحكماء والفلاسفة والمهذبون ، لم تنجح في وقت من الأوقات ولا زمن قصير وربما شعر نفسه بنقص فيها قبيل أن يوافيه الأجل؟ فلماذا لم تطبق؟ .

إنه وضع جمهوريته تلك ولكنه لم يجعل لها الضمان ولم يحدد الشروط اللازمة التي تلزم الجماعة على اتباعها وعلى الاستمرار عليها . والجزاء العملي الذي يحفظ سلامتها من أيدي العابثين ويحفظ لها السلامة والبقاء ، ذلك نمط واحد ومثل من نظريات الحكماء . ثم نعود لتساءل

ونناقش أفلاطون بعد هذا: إنك أبديت رأياً، وهو أن يلْقن الأفراد تلقيناً باطنياً يمنعهم ويحذرهم من التجاوز بالنظام الذي فرضته في جمهوريتك ، بسرد قصص وخلق قضايا مثل تلك التي جاء بها الأنبياء ، بالشواب والعقاب والوعد والوعيد في هذه الدنيا ويوم القيامة يوم العودة يوم الميعاد ، فهل كنت مؤمناً بهذا اليوم؟ وهل كنت مثل الأنبياء تحسب أن الله سوف ينشئ النشأة الآخرة ويحيي الناس مرة أخرى ويقاصهم جميعاً ويجازي المحسنين بالجنة والمسيئين إلى النار؟ أم أردت تمر بذلك مر الكرام ولم تكن مطمئناً في ذلك؟ أم أنت تنكره في حين أنك تؤمن بالله والعدل الإلهي وكماله ومن العدالة أن يجزى المحسنين ويعاقب المسيئين؟ أولئك الذين بذلوا في سبيل الحق والإنسانية وسعادة خلق الله ما أمكنهم حتى بذلوا بما لهم من مادة وروح وتحملوا أقصى مراحل الشقاء في سبيل تفانيهم ، فراحوا ضحية الظلم والجور بيد الطغاة المردة والمستبدين المتجاوزين ، وهؤلاء الذين علوا واستبدوا وحكموا وجاروا وظلموا وهتكوا وغاروا وقتلوا الأبرياء ثم عاشوا إلى آخر حياتهم متنعمين ، ألا ينافي ذلك الاعتراف بالوحدانية والاتقان والكمال من الخالق القدير العادل أن لا يقاصص ولا يجازي؟ فلماذا جعل ذلك تلقيناً وأراد أن يأتي بقصص ربما كانت خرافية تنافي العقول السليمة؟ إذ الإنسان على الأكثر وإن فقد أكثر الأحيان قدرة المحاوراة والاستدلال الظاهر بيد أنه له حتى في صباه وأحياناً في سن الرابعة والخامسة والسادسة تلك القوة من التمييز وقبول المعقول ورد غيره ، لهذا نرى كثيرين من أولئك الذين يتبعون عقائد فاسدة حتى الذين أتبعوها اعتيادياً منذ النشأة الأولى كثيراً ما يعودون إلى رشدهم ويتقنون منطقاً كلما لا يأتلف والعقل السليم .

ثم نعود إلى كثير من الأديان الأخرى فنجدها خلطت حقائق وأوهاماً لا يتقبلها العقل ، وعلى الأخص العلم الحديث القائم على الملموسات والمحسوسات ، هذا العلم الذي خلق أعظم من معاجز المسيح فأحيا الموتى وبذل القلوب والأبصار ، وعالج ما هو أشد من البرص والكمة ،

مثل السل والأمراض الزهرية والأمراض العفنة وداء الكلب وغيرها ، واستطاع بالعمليات الجراحية والآلات الدقيقة التي ابتكرها أن يعمل فوق ما جاء به الأنبياء مثل بساط سليمان فوصل إلى الكواكب وعاد منها وإلى أعماق المحيطات ، ونظر إلى النجوم التي عجزت العيون بل أعيت العقول من تصور عظمتها ، فلم يبق لعبدة الكواكب الثابتة وغير الثابتة متى أدركوا الحقيقة البقاء على دينهم ، وإذا محصنا بدقة ما اصطنعه البشر من إله مما تصورته أفكاره وصنعتة يداه من أولئك الذين عبدوا الحجر وغيرهم الذين قدسوا الحيوان وعبدوه ، والذين اتخذوا الشمس أو القمر أو الكواكب الأخرى أرباباً ، ونسبوا لها القدرة والخلقة ، أو اتخذوها شفعاء ، أو الذين نسبوا إلى بعض الناس الذين جاؤوا بالخوارق التي عجز الغير من اثباتها في ذلك اليوم ، بيد أنهم أنفسهم عجزوا عن ذب ورفع الأذى عن أنفسهم ، أولئك الذين كانوا كبقية البشر بحاجة للأكل والشرب والنوم كالشعر العادي عن أولئك الذين أمرو بالقسط والعدل وأمرو بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وكانت لهم عقول مهذبة لا تحيد عن الصراط المستقيم (كسيدنا المسيح) ، فنسبوا لهم بحكم الجهل أو الأغراض العامة أو الخاصة ولغايات خاصة وعامة بعد موتهم ، نُسب لهم البعض الخروج على الدين وآخرون الدعوة إلى الربانية والألوهية . كلاً . لا يكلف الله نفساً عملاً إلا مشروعاً موافقاً لصالح الفرد وصالح المجتمع . وعقلاء القوم وذوو الرأي عليهم المعول لدرك الحقائق ، فنحن لا نرجو ولا نأمل من بشر عاقل أن يقول إن مدينة لندن أو نيويورك بما فيها من تخطيط وعمارات ومعامل ومحركات ومصنوعات وكتب وعلوم ومنظمات وكل ما تحويه ، كل منها فرادى ومجموعة ، انها وجدت دون صانع ومنظم ومبدع ، أو يقول إن الذي أوجدها كان دون عقل ووعي ، أو أن يقول إنها تسير بدون نظام وخطط ، فكيف القول بما هو أعظم شأنًا وأوسع مجالاً مما يعجز من بلوغ كنهه عقولنا في التصور والإدراك في النظام الكوني العظيم من خلقة الأفلاك ، وما تحويه من حركة وقدرة وطاقات وذرات ، وما تحويه ، وتنطوي

عليه من قوانين من عناصر ومركبات . مما يدهشنا كلما أدركنا بعقولنا وحواسنا المحدودة الصغيرة بالنسبة للمكان في هذا الكون وعمرنا المحدود بالنسبة للزمان؟ وهذه المحدودية لمشاعرنا وأفكارنا وإحساساتنا ، وذلك النقص الذي يكفينا من دركه إذا علمنا أننا لا نستطيع الحياة في درجات معدودة قد لا تتجاوز الخمسين درجة مئوية ، في حين أن هناك الملايين من الدرجات ، ومثلها أنظارنا بمداهها وما نستطيع رؤياه ، ومثلها اسماعنا بسماعها وشمنا وذائقتنا وكافة حواسنا على نفس النسبة في النقص . وليس لنا غير هذا من الطاقات ومن الحواس من تلك التي موزعة على المخلوقات الأخرى ، فكيف نستطيع إدراك الحقيقة إلا بقدر محدود؟ بيد أن هناك أموراً بديهية عارٌ علينا ونحن ندركها بعقولنا الصغيرة أن نجادل فيها ، فكيف نعبد حجراً صنعناه بأيدينا ، أو كوكباً كان بعد أن عرفنا ماهيته ، أو إنساناً عجز عن دفع الضرر عن نفسه أو جلب النفع لها؟ أن نتخذة رباً ينفع ويضر ، أو ننكر العالم الذي نراه ونشاهده ونسمعه ونلمسه؟ وكيف تفرض علينا فروضاً لا يقبله العقل والتجربة والعلم ، فانظروا إلى كافة الأديان ومحصولها تمحيصاً عقلياً ، وآراء الحكماء تلك التي قام عليها الدليل العملي خلال آلاف السنين ، هل تجدون مذهباً وديناً ورأياً صحيحاً يخالف النظام الطبيعي ؟ رأياً صحيحاً لا يقصد به إيصال السعادة للمخلوقات أخص منه البشر . أم نطق صائب ذلك الذي يقصد به الابتعاد عن العلم والجر إلى الجهل؟ هل يساوي ديناً يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويعطي الحرية الفكرية والروحية والمنطقية والبدنية للأفراد في مجال المنطق السليم الذي يستسيغه ذوو الرأي الصائب البعيد عن كل غرض شخصي؟^(١).

(١) ما أحلى الآية القرآنية قوله تعالى : ﴿ بشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ .

إن أشرف ما خلق الله الإنسان هو العقل والوجدان ، ذلك الذي يحكم على المرء أن يسعى لسعادة نفسه وغيره وعدم التجاوز على حقوق الآخرين وعدم اذاهم روحاً وبدناً ، وعدم سلب حريتهم الفكرية والجسمية وسلب حقوقهم البدنية والروحية والعقلية^(١) .

تصفحوا الأديان على هذا الضوء وفتشوا الآراء والنحل والأهواء ، فما لم يحم على العقل والفترة فاضربوه عرض الحائط ، وكلما يقصد به زجكم عقلياً وبدنياً أو روحياً في قيود تسلب منكم الراحة والسعادة أو يوصي لكم بالفرقة والوهن ، أو تسمح لكم بالتعذيب النفسي أو تعذيب الغير فاضربوه عرض الحائط ، ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، و ﴿ ما جعل الله لكم في الدين من حرج ﴾ ، صدق الله العظيم . فكل فرد له حد لإشباع أي حاسة من حواسه وسد رغبة من رغباته من منظر ومسمع ومأكل ومشرب وما شاكل ذلك ، فللفرد ذلك على شرط أن لا يضر نفسه في اتيانه إيّاه ، ولا يقوده طمعه إلى سلب حق الآخرين وسلب حرياتهم ، وربما أول بعض أهل الأديان والنحل والأهواء سبيلهم في بعض الأمور على ذلك وحكمت عليه العادة بالاغضاء عن كثير من المساويء ، ولكن لا تأخذكم العزة بالإثم وحاولوا إدراك الأحسن واتباع الأفضل فذلك حكم العقل السليم ، وتلك من وحي الفترة الصحيحة والخلقة الطبيعية الواقعية .

(١) راجع محاكم التفتيش التي أسستها الكنيسة كمحاكمة وحرق كل من خالف عقائدها دون ميرر باسم الشريعة وحاشا لدين الله من ذلك .

لبلوغ الحكومة العالمية المثلى وإدراك السعادة

أقول :

- ١ - ماذا يثمر الحب والمعونة المتبادلة؟ كيف يمكن خلقها في النفوس كجزء لا ينفك عنهم؟ .
- ٢ - كيف نوجد الشعور الحي والأجسام والعقول السليمة؟ .
- ٣ - كيف نخلق الوجدان والضمير والشعور والإحساس الواعي لإقامة العدل والإنصاف والبر والإحسان؟ .
- ٤ - كيف نقدر أن نكون أناساً مهذبين منزهين من الرذائل دائبين على الفضيلة؟ .
- ٥ - كيف نوجد الحنان بين أفراد البشر ذلك الحنان الصادق المنبعث من الأبوين لأبنائهم؟ .
- ٦ - كيف نوجد في أفراد البشر تلك الروح الفطرية من الخصال الحميدة التي يتصف بها بعض الأحياء كوفاء الكلب وكدم النملة وأمثالها؟ .
- ٧ - كيف نوجد في أفراد البشر العشق لسلوك الفضيلة والشجاعة الروحية والبدنية الإرادة النفسية ونكران الذات في سبيل بذل الخير العام والخاص وبذل العون والمساعدة لكل ذي روح دون مقابل؟ .

٨ - كيف نوجد في الافراد ، روح التواضع لتوقير الكبار سناً وعلماً ، واحترام الضعفاء ومعونة الصغار رحمة ورأفة وإشفاقاً بهم وقتل الحرص والجشع والجبن؟ .

٩ - كيف يجب أن نكون قدوة صالحة؟ وكيف يجب أن نبعث في الأفراد خلقاً سامية يكونون بها ثقة للمعاملة والمشورة ومحلاً للأمانة والاطمئنان مادياً ومعنوياً؟ .

١٠ - كيف نقدر إقناع الأفراد للإصغاء واتباع القول والعمل الحسن واستيضاح ذوي الخبرة كل في علمه وفنه؟ .

١١ - وكيف نستطيع بعث روح في ذوي الخبرة كل في فنه وعلمه بمد ما لديهم لسعادة أنفسهم وغيرهم من الأحياء؟ .

الجواب :

الجواب على جميع الأسئلة المارة وكل سؤال إصلاحى آخر المؤدى لسعادة البشر أفراداً وجماعات في شتى شؤونهم الحاضرة والمستقبل وقاية وعلاجاً ، إنما هو في جواب واحد تنطوي تحته كل الأجوبة التي تنتهي إلى الهدف المرموق والثمرة المطلوبة : بإقامة دين الفطرة دين الطبيعة دين الله ، الله وحده بالصراط المستقيم إليه ، وإقامة حدوده من أمر ونهي وفروضه وندوبه ، دين المنطق السليم ، دين العلم والعمل الصالح . دين القول والفعل النزيه ، دين البر والإحسان ، دين الفضائل الإنسانية ، دين العدالة والمساواة ، دين الاخوة والمعونة والتواضع والحكمة والصدق والتزاهة والأمانة والوفاء ، دين النظافة والعفة والسلامة والسلام ، دين الفتوة والشهامة والبسالة والإرادة ، دين الدعوة لكل خير والنهي عن كل شر ، الدعوة للسعادة والحذر من الشقاء كل ما مر ذكره له نصوص واضحة مبينة في كتاب الله وسنة رسوله .

وبالتالي دين التقوى الجامع لكل حميدة والورع الناهي عن كل ذميمة قال تعالى : ﴿ إِن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

خير الحكومات

تحدثنا قبلها عن الحكومات واتجاهها من الناحية الاقتصادية وقسمناها إلى ثلاث كتل :

١ - الديمقراطية . ٢ - الاشتراكية . ٣ - الإسلام .

والآن نعود إليها مرة أخرى لنعرض على بساط الشرح أهم الفروق فيما بينها والتحدث عن كل منها ، وإن لها وجهتين ، وجهة تجمع الحسنات ، تلك التي يتمسك بها المدافعون عنها ويستدلون بها على فضلها في مسالك الحياة ، ووجهه تجمع السيئات وبها يتمسك خصومها لدحضها . ونحن لا نشك أن لكل منها ذلك من محاسن ومساوئ ، غير أن من العدالة أن نحكم كقضاة مستعرضين الصفحتين ، وما طبق كل منها والآثار التي خلفته والنتائج التي أعطته ، وتمحيص ما وجه لكل منها من نقد وما تركته من خير وشر وأيها أحق أن يتبع ، إلّا جمع الأوفر والأقرب لبلوغ هذا الإنسان إلى القرار ، إلى مناهل السعادة وأبعدها عن الورطة في مهاوي الشقاء ، نجد الأهداف والغايات المطلوبة لجميعها تكاد أن تتقارب حتى تلتقي مع بعضها ، وما الخلاف إلّا بالمسالك والطرق المؤدية لبلوغ الأهداف ، وما الحياة السليمة القويمة إلّا بعد العلم الحاصل من التحقيق والتجارب والنتائج الحاصلة بعده ، أو كأننا رجال من الخبراء الكيميائيين أو الفيزيائيين في مختبراتنا وقد أدركنا بعد التجربة والتحليل والمزج أو التركيب على ما نهفوا إليه أو هو أقرب إلى ذلك وما معنى ما

هو أقرب ، فالأقرب إننا حصلنا على مادة نقية خالصة ١٠٠٪ أو فيها شوائب وكم هو في المائة ، تلك في الكيمياء ومثلها في الفيزياء وأخرى تجمع بين العلمين وتسندها العلوم الرياضية . قلنا تقريباً إلى الواقع وعلينا أن نكون بعد التحقيق أناساً واقعيين نتابع الحقيقة ونؤمن بها . ولا شك وأن لنا أن نعتبر كل مادة ونعطيها مكانتها من الأهمية من حيث الضرورة الماسة لها ودرجة نقاوتها ، وبعد أن أدركنا من هذا المثل المادي وتقربنا به لإقناع النفس نعود للموارد الاجتماعية ونطبق عليها الحياة الاجتماعية والمعنوية وكل شيء له ما يقابله من الموارد الطبيعية ونتساءل هل طبق كل من أرباب الكتل الثلاث ما أدلوا به من الآراء لبلوغ الهدف والغايات المشتركة؟ من حققها من تقرب إليها؟ من تخلف؟ ما هي العلل الموهنة؟ ألا زلنا نتخبط . ولا زلنا نتدمر.

١ - الرأسمالية والديمقراطية :

هذه الديمقراطية وما جاءت به من مناهج وخطط وأنظمة وقواعد وما أعطته من ثمار ، ما أعلمته من حرية الفرد الفكرية والبدنية والمعاملة والسياسة والعدالة والمساواة ، فقد وجدناها جميعاً مضاعفة مهضومة العوبة بأيدي عصابات تطلق على نفسها رسمية وشبه رسمية ، ومطلقة العنان تتحكم بالفرد والجماعات ، مرة تموه الحقائق وتزييفها وتطليها على الغفل ، وأخرى قاهرة جبارة ترهقهم بالقوة والغلبة ، والكل مقهور ومغلوب تحت نير وضغط القوة الحاكمة أو السلطة الجائرة ، وأخرى تحت نفوذ الكتل القوية من عصابات الشركات بما فيها الكارتل والتريست وغيرها ، أو في معرض الأهواء من العصابات السرية والأغراض الشيطانية والبهيمية تتوالى على هذا الإنسان المسكين أشد الأهوال من بني جنسه باسم الديمقراطية تارة ، والشيوعية أخرى والفاشيستية ثالثة ؛ كما مرّت عليه الدهور مقهوراً قبلها تحت نير السلطات المطلقة والدكتاتورية والعقائد الفاسخة ، والأهواء الشريرة من جهل مطلق إلى جهالة اجتماعية في

العقائد المتضاربة المتناحرة إلى العادات المستقبة والاستهتار والانجراف في الرذائل ، والادمان على الموبقات والاعتیاد على ما یسبب تبلیل الأفكار أو تحریف الأذهان أو السطوة على الأبدان أفراداً وجماعات ، بالأسلحة المادية أو الاستحواذ على العقائد والأرواح بالكتب المضلة والدعايات المخلة والمنبهات والمخدرات المذلة . تقول حقاً مبهجاً للخواطر وتفعّل منكراً أشد من الكبائر ، تطري سعادة الإنسان قولاً وتدعو للوحدة ومده بأنواع المعونة ، وتسومه شقاءً بالفتن والشقاق وسلب ما لديه من مؤنه . نفاق قائم^(١) وتلون دائم . هذه الديمقراطية اتخذت من الحرية مطية لإطلاق أيادي شركات الترسّ والكارتل والأحزاب ، لتفعل ما تشاء بالعالم في الافراد والجماعات للإستيلاء على مؤنة للأمم المستضعفة بالقوة والغلبة وبث الفساد والنفاق والإطاحة بحكومات مناضلة كادحة لنصب دكتاتوريات جائرة جارحة تغصب الشعوب حقها ونقتّر عليها رزقها ، تلقي فيها الفتن وتبث فيها الاحن ، وتثير فيها الحروب وتبليها بالخطوب وتمدها بأسلحتها الفتاكة ، لتسلب ثروتها وتمزق وحدتها وتخمد جذوتها ، بقصد فرض سيطرتها لسلب ثروتها وحد قدرتها ، ناسية أن الإنسان أخو الإنسان ، والديمقراطية تأبى الظلم وتأمّر بالبر والإحسان . فكأنها حسبت في عدوانها سبقاً وظلمها لها حقاً .

(١) هذا النفاق الذي هو أشد من الشرك على البشرية وكم حذر منه أهل الآراء وأهل الأديان منهم القرآن ونبي الإسلام وأئمة .

نرى القرآن كيف يصور لك هيكل المنافق ويفرق بين مظهره الخارجي الجميل وباطنه المحشو بالخبث كما جاء في سورة البقرة الآية ٢٠٤ : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ والآية ٢٠٥ منه : ﴿ وإن تولّى سعي في الأرض ليقصد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ ٢٠٦ منه : ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبش المهاد ﴾ .

ألا ترى هذه تنطبق على هؤلاء الأفراد والجماعات والدُول المتكالبين على مطامع

.....

= الدنيا ، والذين لم يألو أي جهد لسد جشعهم من أية موبقة فردية وجماعية ، لسلب ثروات الأفراد والشعوب وإدامة الحروب الطاحنة وسلب الحريات وتمزيق شمل الأمم ، وبث الفساد والتفرقة حتى بين العوائل وإحداث أهول الأسلحة الفتاكة المدمرة والنيران المحرقة ، تلك التي عمّت الجميع وشملتهم بضرارها وخرابها وإليك الآيات الأخرى المنطبقة على الكتلة الأولى المعبرة عن نفسها بالديمقراطية والمعتقدة بالعدل الإلهي أوامره ونواهيه؟ .

قوله تعالى في سورة البقرة الآية ٨ : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ ٩ منه : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ ١٠ منه : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ ١١ منه : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ ١٢ منه : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ ١٤ ، ١٥ ، ١٦ منه : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون ﴾ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ .

ويتبع ذلك الآيات ١٧ إلى ٢٠ منه ولا ترى في أي دين سماوي أو إنساني من يجيز الظلم والقسوة والاعتداء ذلك عهد عقده الإنسان مع الله في وجدانه وضميره ، ومن ظلم فإنما قد نقض ذلك العهد والميثاق .

وجاء في سورة البقرة ٢٧ منه : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ ولا ترى هؤلاء إلا يلبسون الباطل لباس الحق ويكتمون الحق نفسه حتى قال أيضاً في ٤٢ منه : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ هؤلاء الذين يحرفون القانون ويأمرون ويقولون بالعدالة وعملهم عكس قولهم يخاطبهم الله بالآية ٤٤ منه : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .

حتى لتجد هؤلاء يشيدون دور العبادة من كنائس ومساجد وغيرها لأغراضهم . وإليك ما أوضحتها الآية ١٠٧ من سورة التوبة ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون ﴾ .

=

== نرى القرآن يخاطب منافقي أهل الكتاب ويناشدهم بترك النفاق والتلون وتلبسهم الحق بالباطل بقوله في سورة آل عمران الآية ٧١ : ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ كما يؤكد ذلك في الآيات ٧٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ منه ، وترى المنافق يحاول أن يتلون ويكذب حتى على منافق مثله . فاسمع قوله في سورة الحشر الآية ١١ : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لأن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون ﴾ . ١٢ منه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ ١٦ منه : ﴿ فكان عاقبتهما انهما في النار . ﴾ الخ .

وترى النفاق يدخل على يد المنافقين بأساليب وأشكال دقيقة وكثيرة وأعمال المنافق دائماً مناقضة للإنسانية والدين والوجدان . ومهما حاول المنافق أن يتظاهر بالفضيلة والإيمان فلا بد أن تنكشف حقيقته وتتجلى موبقاته . كما جاء في الآية ٦٠ من سورة النساء : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الله وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به . ﴾ الخ . والآية ٦١ منه : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ . ٨١ منه : ﴿ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول . . . ﴾ الخ . وقد يبلغ المنافق لإدراك رغباته من فرد أو جماعة أن يتظاهر له بالمحبة والوداد والإخلاص حتى يغري المقابل ويجلب مودته وإخلاصه بيد لا يعمل ذلك إلا لمكر واحتيال ويقصد بذلك غايات دنيئة والوقية ، وترى من سورة آل عمران تحذيراً من أمثال هؤلاء في الآية ١١٩ : ﴿ ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ والآية ١٦٧ منه ، وهناك فريق من أمثال هؤلاء الفاسقين أو الكفرة أو أعداء ذوي الإيمان وخصوم الإنسانية يحاول اطراء أعوانه وأمثالهم والخط من كرامة أندادهم من ذوي المزايا الرفيعة والخلق السامية والضمائر الحية أو المخلصين من المتقين فيجادلون الأغيار دفاعاً عن أقرانهم رغم علمهم بهم . أو ترى الدفاع يصدر من جاهل غير مأخوذ على عقله أو مشتبه في أمره فمن يعرف حقيقة خائن منافق كذاب ويدافع عنه قد

= خان الله والناس وخان نفسه فهنا نرى الآية ١٠٧ من سورة النساء تصرح بذلك : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ﴾ و١٠٨ منه : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ﴾ و١٠٩ منه : ﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً ﴾ .

نرى في سورة التوبة كيف يعبر القرآن عن حقيقة المنافقين ونرى فيها حقائق تنطبق كل الانطباق على السياسات العامة والاعتداءات والتجاوزات المخالفة للخلق الرفيعة والضمير الحي والأديان الإلهية بالأمرة بالمعروف والنهي عن المنكر . جاء في سورة التوبة ٦٧ : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ ، وفي ٦٨ منه : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ... ﴾ الخ .

ذلك جزاؤهم في الآخرة وأما جزاؤهم الدنيوي تجاه الأديان السماوية فهو جهادهم بكل الطرق من يد ولسان وقطع دابرهم كما جاء في ٧٣ من سورة التوبة : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ و٨٥ من سورة التوبة : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون ﴾ وجاء في سورة التحريم الآية ٩ : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ فنرى المنافق والكافر سواء بل نرى المنافق أحياناً أشد عذاباً كما جاء في سورة النساء الآية ٤٥ : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ تلك كانت من آيات القرآن المجيد فيما يحمله المنافقون من روح ، خبيثة ومقاصد دنية وطرق لوصولها مشينة . والآن اسمع ما أنذر به خاتم الرسل وحذر منه وصيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أولئك الصفوة من خلقه والكلام صفة المتكلم وكلام الملوك ملوك الكلام وما أبدع الآية الكريمة : ﴿ بشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ جاء في الجزء الخامس من نهج البلاغة عن الإمام علي بن أبي طالب لواليه محمد بن أبي بكر

= حينما أراد من يحذر من المنافقين نقل له عن رسول الله محمد بن عبد الله (ص) قوله :

(فإنه لا سواء أمام الهدى وأمام الردى وولي النبي وعدو النبي . ولقد قال لي رسول الله (ص) : إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيقسعه الله بشركه ، ولكن أخاف عليكم كل منافق الجنان ، عالم اللسان ، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون) .

وقال أمير المؤمنين علي (ع) في الخطبة ١٨٥ الجزء الثالث من نهج البلاغة يصف فيها المنافقين قوله :

(نحمده على ما وفق له من الطاعة وذاد عنه من المعصية ، ونسأله المنة تماماً ، وبحبله اعتصاماً ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خاض إلى رضوان الله كل غمرة وتجرع فيه كل غصة وقد تلون له الأدنون وتألّب عليه الأقبصون وخلعت إليه العرب أعتتها وضربت إلى محاربتة بطون رواحلها حتى نزلت بساحته عداوتها من أبعد الدار وأسحق المزار .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، واحذركم أهل النفاق . فإنهم الضالون والزالون المزلون يتلونون ألواناً ويفتنون افتناناً ويعمدونكم بكل عماد ويرصدونكم بكل مرصاد قلوبهم دوية وصفاحهم نقية ومشون الخفاء ويدبون الضراء وصفهم دواء وذكرهم شفاء وفعلهم الداء العياء حسدة الرخاء ومؤكدو البلاء ومقنطو الرجاء لهم بكل طريق صريع وإلى كل قلب شفيح ولكل شجو دموع يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء إن سألوا الحفوا وإن عدلوا كشفوا وإن حكموا أسرفوا قد أعدوا لكل حق باطلاً ولكل قائم مائلاً ولكل حي قائلاً ولكل باب مفتاحاً ولكل ليل مصباحاً يتوسلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم وينفقوا به أعلامهم يقولون فيشبهون ويصفون فيموهون قد هونوا الطريق واضلّعوا المضيق فهم لمة الشيطان وحمة النيران أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) .

ونحن إذا دققنا في الكتاب وما جاء عن رسوله وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعدنا إلى رجال السياسة في الكتل الثلاث الرأسمالية والاشتراكية ، والمنافقين من أهل الكتب الذين كما قال الإمام الشهيد الحسين بن علي (ع) عنهم : (الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم ، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون . =

هذه الديمقراطية أطلقت لنفسها عنان السباق لابتكار أهول المدمرات والأسلحة الفتاكة وفرض تجارتها بالقوة على الشعوب الضعيفة ، ملقية بينها الفتن لتفرض عليها شراء الانقراض من الأسلحة المتخلفة والاستعاضة منها كلما لديها من ثروات ، وصم أفواه الأحرار بالعقوبات الصارمة وأشد أنواع النكال ، وكيل التهم وبث الفساد المادي والمعنوي في الأرض بالنشر والدعاية والانجراف إلى الأوباء الاجتماعية ، والعودة إلى الحياة الوحشية ، من قتل العواطف والمروءات الإنسانية ، والأدواء للاعتياد على كل ما يسلب من الأفراد والجماعات قوة الإرادة وعزة النفس والمروءة والحنان والشفقة . ناسية أنها تقوم على خلاف الواقع الإنساني والحقيقة الاجتماعية ، إذ انها وهي تستمر بالقضاء المبرم على الضعفاء ، حتى إذا استأصلت دابرهم قامت المنافسة بين الأقوياء واستمر ذلك حتى التهم الأقوى الأضعف ، وانتهى الأمر للقضاء على الكل وبقاء الأقوى وحده ، وعندها على من تفرض بعد سيطرتها وتبيع غلتها وتوزع تجارتها البائرة ، إلا ما كان جديراً بها أن تزيد من قدرة شراء الشعوب المستضعفة لمساعدتها المادية والعلمية لإنتاج مواردها الأولية التي هي بحاجة إليها لتبيع لها حاصلاتها الصناعية؟ إلا ما كان الأجدر بها عوض الإكثار من الأسلحة المدمرة ابتكار ما يزيدها سعادة وبهجة من

= والواقع إن وجدت انحرافات من الكتلة الثالثة فينطبق عليه الحديث في المنافقين ، والقول ما خانك الأمين ولكن أوثمن الخائن ، وإننا في الواقع لم نجد يوماً ما من الحكومات الديمقراطية ولا الاشتراكية تلك السلامة المرموقة التي جاء بها نبي الإسلام وطبقها في زمن حياته التي حكم بها وطبق كتابه وسنته وعادت تنقلب بعد وفاته ، إلا ما أراد تطبيقه وصيه أمير المؤمنين علي عليه السلام في عهده وأطبق على مناوئته المنافقون باسم الدين . إن ما قلته وأقوله يلმسه أولئك الرجال المحققون المخلصون الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ذوو الضمائر الطاهرة النقية ، أولئك الذين لم تعم أبصارهم العصبية وتعكر عليهم الحقيقة الشوائب أو الجهل المطبق ، أو من استحوذ عليه الشيطان فأزله عن طريق الهداية والصواب .

العلوم والصناعات المستطرفة ونشر المعارف وصد الغارات والعدوان والوقوف أمام تكاثر الجرائم وتحديد النسل ، وكلما يقودها حقاً إلى الألفة والاتحاد والاخوة والانضمام إلى الوحدة الإنسانية ، وتنزيه النفس مما تصون به ذاتها والآخرين ؟ 'بيد اننا نراها وهي تورط غيرها وتموّه الحقائق وتبث الفساد وتنشر الرذائل تلك الموبقات والخدع ، وإذا بها اعتلت بتلك الأدواء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وإذا الفساد ينخر جسم أفرادها وجماعاتها ، والنار التي أضرمتها تلتهمها ولا تستطيع وقاية شرها ، رغم ذلك لا تفيق من سكرتها ولا تهتدي إلى طريق الصواب ، تلك هي الكتلة الأولى المدعية بحمل علم الحرية والثقافة والحضارة المنحرفة المماثلة المزيفة المخادعة الظالمة المناقفة الماكرة بيني الإنسان ، باسم العدالة والمساواة والحرية والاخوة والتعاون والتآخي ، ورغم كل ذلك الادعاء ثبت انها تبث الفساد وتخرب البلاد وتفتت الاكباد وتقتل العباد وتوصم الأحرار المصلحين بالشغب والعناد والصلحاء الناقدين بالفتن للجهاد تزجهم السجون وتسقيهم المنون ، تاركة كل متهمز رذيل وفاجر دخيل من كل صعلوك باع ضميره وشرير أطاع نظيره وحقير ناظم ومدعٍ مخاصم وأمير حاكم ومهلك قاصم .

فإذا ما فحصتها جميعاً بعين الحكيم العليم وتحريت دقائقها تحت العدسة المكبرة وبعدها بالعدسة المقربة ، لوجدتها كلها نشأت تحت أغراض من نفوس سقيمة زلوا عن الصواب والحقيقة وما راعوا بها إلا ما يشعر به الفرد الأناني المتعصب لمنفعة ذاتية محتملة آنية مؤقتة تثير الكوارث ، مستعيضاً عن منفعة أكيدة دائمة آمنة من النكبات والحوادث الحقيقية . (راجع شركات الترسات الأمريكية ذات مصانع الأسلحة والمتاجرة بالذهب الأسود) .

الحقيقة إن الديمقراطية والأحسن أن نقول الرأسمالية حكومة تاجرة ، تضع موازين التجارة الحرة وتبيح لنفسها لكسب أرباح مؤقتة مبالغاً بالتوليد مهما كان هذا التوليد معمرأ أو مدمراً للسلام أو الحرب يحتاجه الفرد

والجماعة أم لا ، وتعطي لنفسها كل الحق بيع ذلك في الداخل والخارج
بشتى طرق الدعاية الصادقة والكاذبة والخداع والحيلة حتى يبلغ درج
الإكراه وبث الفساد وإقامة الفتن وإثارة المخاصمات والتحريض على
الحروب ، إن كانت تجارتها الرابحة مواداً حربية مدمرةً وتكثير بؤرات
التدخين واستعمال المواد القاتلة من مشروبات كحولية أو مواد مخدرة سامة
أمثال الكوكائين والهيروئين واضرابها ، ونشر الدعاية والفجور بين الشباب
وحتى الصبيان والشيوخ ، من طريق المجاملات والآداب مرة أو الاحتيال
والتزوير أخرى أو الإكراه والعنف إن لزم ذلك . بين النساء والرجال
والافراد والجماعات لا يثنى عن عملها رحمة أو شفقة أو نظرة إنسانية ،
تستبيح كل الطرق لكسب ربح مؤقت ولو أطاحت بكيان أمتها وسمعتها ،
وعم الويل والنبور الأمم والشعوب ، متنافسة متناحرة مع أقرانها وأبناء
وطنها في الداخل أو أشباهها في الخلق والخلقة في الخارج ، في نظرتها
القريبة العاجلة أعمتها وأصمتها عن العواقب الموحشة التي تجر إليه نفسها
وذويها وأبناء جلدتها والشعوب الأخرى تنافساً مستمراً وكدحاً متزايداً وجشعاً
نامياً غير راحمة نفسها ولا مشفقة على غيرها ، مورطة ذاتها وغيرها أخص
الشعوب الأضعف بالاستحواذ على مقدراتها وأخذ زمام السلطة الحاكمة في
البلاد ، باغراء تارة والتهديد أخرى والاطاحة ثالثة ، ونصب من يتابعها من
أولئك الذين فقدوا الذمة والضمير والوجدان والحكمة ، وغير عادلة في
انتاجها الضخم ولا مراعية الضرورة والحاجة ولا العاطفة والرحمة ، افراط
في كل شيء مذموم فالانتاج الضخم سيان عندها ما ينفع أو يضر لكسب
دخل أكبر حتى لو أوردى بالقرب والبعيد ، افراط في الصرف وسيان عندها
الحسنات والسيئات افراط في البذخ المجدي والمضر ، افراط في المتعة
المفيدة والضارة ، افراط وبذخ في المأكل والمشرب والمكسب متعبة
نفسها وغيرها ، بذخ وافراط في المسكن والملبس غير هيابة ان ما تبذخه
عن حد الاعتادل عدا أنها يضرها ، فهو يسد فاقة الجياع البائسين من
اخوتهم في شتى بلاد العالم ، منهم من سلبهم قوتهم وسعادتهم وحریاتهم

وتركهم تحت كابوس القسر ونير العبودية من كل سلطان فاجر وأمير جائر وتاجر ماكر ومواطن غادر يسومونهم سوم العبيد ويذلونهم تذليل البهم ان تحيد ، ليس لهم حق رأي اعتراض يقومون به أو دهم ويوحدون به عددهم ، أو حق اعتراض على من جرّدهم ظلماً من حقهم ، لا مسكة لضمير يؤنبهم أو إحساس وعاطفة ترددهم أو نخوة تحجمهم أو أثره تصدهم ، تلك هي حكومات الرأسمالية ظلم قائم واعتداء دائم وجشع ملازم وخصام لا ترى له وئام وحرب لا ترى فيه سلام ، عقول طائشة أئيمة ، لا بد أن هائمة سقيمة ، حادت عن الحكمة والسداد وهوت إلى حضيض الفساد ، في قولها الصواب وفي أعمالها العذاب وجوها باسمه وقلوبها قاتمة ، يريك القريب بائناً والأمين خائناً ، والعفيف ماجناً والسلام شائناً ، يحرق الحرث والنسل في حساب الدرهم ، ويهدم البلاد ان أحس مغنماً لا قبيح في سبيل اكتسابه ولا حسن سوى الثروة المادية في حسابه ، كل متنقب بنقاب المتقي الكريم والمخلص الحكيم والناصح السليم ، حتى إذا انزاح النقاب ظهرت وجوه ضواري مكشرة وشياطين متكررة عجولاً في جشعة لجوجاً في طمعه ، حتى ليصبح أحياناً المقنوص في صيده ، والمغلوب في كيده ، والمصاب بسهمه ، والمسموم بسمه الذي أعده لخصمه ، تصفح جحيم المستعمرين ، واستعرض تاريخهم الأسود ، المملوء من العهد البعيد إلى العهد القريب بالموبقات والشجون ، بالنكبات بالتجاوزات بالمظالم بالفتن بسلب الحقوق المشروعة ، وإزهاق الأرواح البريئة والادعاءات الباطلة والدعايات السافلة ، يطمئنك بصدقه وأمانته وهو يعد لك الخيانة العظمى ، ويصفح عنك في التوافه ليقولك في الكبائر ، ويعرض عنك بالعفو ويهيك الحقير ليقدر منك ، ويسلبك أعز ما تملك ، ويقدس الله امامك ويتعفف ويدفعك إلى الشرور والفجور . تلك هي الرأسمالية المتحلية باسم الديمقراطية .

٢ - أما الكتل الاشتراكية - الشيوعية :

ومميزاتها القائمة على مصالح الجماعة وليس لافرادها رابطة تجارية

فيما بينهم ، فذلك ما تقوم بها الدولة ، وهي وإن خلت أفرادها من التجارة الحرة والاحتكارات ، بيد أظهرت التجارب على مدى الأيام أن شعوب هذه الدول الاشتراكية مسيرة ، بل ومكبلة تحت نير زمرة تتحكم بها ، وتقودها دون إرادة ومشورة ، كآلة صماء لا حول لها ولا قوة في إدارة شؤونها ، وإبراز آرائها ، وإدلاء أي فكر أو نقد أو اعتراض ، بل قد نزعته عن نفسها أية مسؤولية تجاه الفرد الآخر مهما تورط هذا في جسمه وماله أو داهمته نكبة طبيعية أو غير طبيعية ، ومعنى ذلك أن الإنسان في مثل هذه الحكومات فقد أجل وأغلى ما يحس به في قرارته في نفسه وذكرته ، ألا وهي حرية العمل والاكسساب المشروع والنزعة النفسية للتقدم وإبراز آرائه والنقد الحر ، لا أبداً فكل الطرق الحرة أمامه مسدودة ، وليس له إلا اتباع ما خطته وحددته له الدولة في مسيرته في جهوده ، في عوائده في نفقاته وثرواته وآرائه وأقواله وأعماله ، تلك من جهة ، ومن جهات أخرى تكاد حس العاطفة والمعونة والمساعدة المرجوة بين أفراد هذا المجتمع تكون مفقودة ، والدولة هي المصدر والمعاد تقدم على قدر وتحاسب الأفراد كما مرّ أن حادوا عن مناهجها رأياً وقولاً وعملاً تحت رقابة وكبت دائمين ، بينما تجمع الدولة الفائض الذي فترته على أفرادها لتقوم به وتعمل كل ما تعمله الشركات الكارتل والترست من ضخامة الانتاج في شتى ما تقوم به الدولة الرأسمالية وشتى مساوئها ، من انتاج المدمرات وبث الجواسيس وخلق الفتن وبذل الجهود للسيطرة على الشعوب الأضعف لاستنزاف ثرواتها واستنهاض أفرادها في وجه حكوماتها ، وإثارة القلاقل والحزازات ودس العقائد المخالفة ، ومدها بالأسلحة وتدريبها على العصيان ، وخلق عصابات مناوئة في الدولة والأمة والشعب الواحد ، وإلقاء الفتن بين العائلة الواحدة والمدينة الواحدة والدين الواحد والعنصر والوطن الواحد ، تتبع خطى الدول الرأسمالية حذو النعل بالنعل ، بل أشد جهداً أو أكثر بذلاً وأقوى خصومة تجاريها في جلب التعاسة وبث الويلات وإثارة الحزازات والاغتيال والغارات دون أن يردعها حس للرافة وشعور بالعاطفة .

بل أشد بعداً في الضمير الحي والوجدان وحس المسؤولية الدينية التي يتمتع بها أكثر شعوب العالم الرأسمالي المعتقدة بالله مستهترة ومستخفة بالدين وأعوانه ويوم الدينونة . يوم القيامة والحساب والرقابة الغيبية الإلهية والدعوات الدينية بالحب والرحمة ، ونشر الدعايات المذهبية المليئة بالفضائل في المعونة والألفة والبر والإحسان والعفو والغفران والكف عن الرذائل من الكذب والنفاق والخصومة والشقاق وسفك الدماء ونكبه الأبرياء وهضم الحقوق واث الفساد .

٣ - الحكومات الدينية :

هي الحكومات المتمركزة على العقائد السماوية الإلهية، الفطرية ، الطبيعية ذات الرسائل المنبعثة من الرسل المتمركزة في العدسة الجامعة لها في شخصية أبي الرسل (إبراهيم الخليل)^(١) . الجد الأعلى لموسى (ع) وعيسى (ع) ومحمد (ص) .

وإبراهيم الخليل (ع) هو الذي دعا إلى عبادة الله وحده ، وهو الذي حطم أصنام قومه ورزقه الله على الكبر اسماعيل الجد الأعلى لمحمد (ص) وإسحق أبا يعقوب (اسرائيل)، الجد الأعلى لموسى (ع) والجد الأعلى لمريم ابنة عمران أم عيسى (ع)^(٢) . هؤلاء هم خيرة الرسل ذوو الشرائع السماوية ، أولو العزم الداعون لعبادة الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

سيرة هؤلاء تختلف اختلافاً بائناً عمن سبق . فصيلة هؤلاء إلهية بين

(١) راجع القرآن المجيد سورة إبراهيم الآيات ٣٥ إلى ٤١ ، وسورة النحل الآيات ١٢٠ إلى ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٣ جاء في القرآن الكريم : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ الخ .

الخالق والمخلوق ، ذلك الخالق الحكيم المبدع العادل القدير المحيط
الواقف على السرائر والضمائر الحاكم على الأرواح والعقول والنفوس
والشاهد على الخفيات والناظر إلى أرق الأحاسيس والمشاعر والمدارك
لأقصى النوايا والأقوال والأفعال ، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم المجازي
للخير والمقاص للشر ، ذو الكمال المطلق الداعي للفضيلة والناهي عن
الرذيلة .

هؤلاء الأنبياء والرسل كل منهم إنما هو بشير ونذير بشير لمن أطاع
الله ورسوله وسلك الصراط المستقيم ، واهتدى وهدى وأطاع الله ورسوله ،
متمثلاً بأوامره ومتنبهاً عن نواهيه وملبياً دعوته وأخلص نيته وزكى روحه ،
وردع نفسه وجوارحه عن الموبقات ، عن الظلم ، عن الخيانة ، عن
النفاق ، وقبلها عن الشرك ، باذلاً في سبيل الله وأرضائه ما له ونفسه ،
منكراً ذاته في سبيل اسعاد غيره وبث المحبة والرفقة والمعونة المادية
والمعنوية لخلق الله في سبيل الله ، ناهجاً خير السبل ومرتدعاً عن كل
موبقة وزلة وخطيئة وظلم روحاً ونفساً في ضميره ووجدانه باطناً وظاهراً ،
ليس كالخائف من القانون وحسب ويعمل سراً ما شاء على خلاف المؤمن
بالله في دينه . تلك هي التقوى والزهد والورع ، ذاك صاحبها يرى الله
بقلبه وروحه في كل نواياه وأقواله وأعماله .

هذه الرابطة العميقة هذه الدعوة البليغة ، هذه النظرة الماحصة
المتغلغلة في النفوس هي أرق وأدق من الحب الغريزي بين الوالد والمولود
والعواطف والإحساسات والحنان المنبعثة من الأمهات لفلذات أكبادها هي
أبعد مدى من رعاية الأب الحريص على افراد عائلته ثقة فوق كل ثقة ،
ونزعة فوق كل نزعة ، ومودة منشؤها العلم الباطن ، والإيمان المتأصل ،
والتقوى المستحكمة في الروح في الذات في النفس ، فالمرء قد يخادع
غيره بدهيهات ، ان يخادع الله وهو يدرك أنه معه في روحه ، في دمه ،
أقرب إليه من حبل الوريد ، واقف على أسرارته ، بل وأخفى ، ومحيط
بأعماله وأفعاله ومحاسب ومقاص إياه في دنياه وآخرته ، وما من كبيرة ولا

صغيرة إلّا وأحصاها ، والجزاء إن لم يكن عاجلاً فهو آجل ، وإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً . فأين تلك الحكومات من هذه الداعية للخلق الحميدة والفضائل العديدة والآراء السديدة؟ حكومة العدل والبر والإحسان المشمولة بركة العاطفة الإنسانية والمنبعثة من طهارة الضمير والوجدان ، إلى الحب الأصيل والمعونة المتبادلة المستندة للتقوى ، للزهد ، للورع والقناعة والثروة المعنوية والإرادة الحكيمة والانتاج المجدي ، إلى العلم والعمل المثمر للمستخدم والمستهلك والضابط للغرائز البهيمية والسائق بها تحت إدارة ودراية^(١) وإرادة العقل السليم الواعي ، إلى الحياة السليمة ، إلى الفضيلة ، إلى الوحدة في العقيدة الصالحة الجامعة أصلاً وذاتاً فطرياً وطبيعياً للخير ، منبع الأنوار والمباهج والخلوص والصفاء والصدق والوفاء والحب والولاء والسعادة والهناء . ذلك هو دين إبراهيم الخليل ، وهذه شريعته المنتقلة إلى بنيه اسماعيل واسحاق وأولادهم واحفادهم والذين اقتفوا أثرهم من الأنبياء والرسل من ذريتهم الداعين إلى الله الأحد الصمد ، مبدع الأكوان وما فيها ، الواقف على السراء والضراء ، المتمركز على العدالة والأمر بها والداعي إلى المحبة والبر والإحسان والصالح إليها ، مرسل الرسل قادة وقدوة لخلق الله الذي أوجب طاعتهم يحملون هدايته بما يوصيه إليهم ، والهادي برسله عباده لطرق الحق والموضح لهم الابتعاد عن طرق الضلالة تحت إحساس الضمير والوجدان ، وبما وهبهم من بصيرة وإرادة وقوى مميزة وجعل لهم قصاصاً في هذه الدنيا ، وأخرى ليوم يجمعهم فيه بعد موتهم ليشملهم بعدله الحسنى لمن أطاع وأحسن والردى لمن صد وافتتن . فكانت العدالة أصلاً من أصوله في العقيدة وميزاناً لحكمه عند القصاص في الخبيثة والحميدة وإسداء الخير خير خصلة

(١) راجع الآية ٥٩ من سورة الأنعام : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلّا هو ... ﴾ الخ . والآية ١٥ من سورة ق : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ .

يتحلى بها الإنسان ، يرضي به وجدانه ويستتر به جنانه ويوسع به بالحب
سلطانه ويكسب بها من القريب والبعيد امانه ويزيد في الملمات
والمعضلات أعوانه ، فيها ظهرت سريرتهم وعليها كانت سيرتهم وبها
فاضت كُتبتهم وسننهم ، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحريض
على التقوى والتحذير من النفاق بما بشر وأنذر .

فهذا التوراة ويليهِ الإنجيل^(١) ويختمها القرآن ، وما أحسن الختام
وأكمله ، جمع وأعاد ما ضاع وتشتت وأجمل وفصل من الأحكام والعضات
فما نسخ وأثبت والتي سنورد منها على سبيل المثال ليقف منها القارئ
ويقارن ويستخلص الصادق الوفي والمخلص التقى ، من الكذاب المدهان
والفاسق الخائن .

ويمتاز دين إبراهيم الخليل والأديان السماوية التالية له والسائرة على
هداه ، بأنها دين الفطرة ، دين الطبيعة ، دين العقل والمنطق السليم ، دين
الوحدة والتوحيد ، دين العدالة والمساواة دين الاخوة والمروءة والعفو
والغفران والأمان والسلام والوثام ، دين الرأفة والشفقة والمحبة . وبالتالي
دين السعادة وهو يتميز بأصول ثلاثة :

١ - التوحيد^(٢) .

(١) جاء في الكتاب المقدس (الله محبة) يوحنا ٤ : ٨ وجاء في المزمور ١٤٥ : ١٦ عن
الله (تفتح يدك فتشبع كل حي رضي) وفي التثنية ٣٢ : ٤ والمزمور ٣٧ : ١٠
و١١١ : ٣٦ و١٠ : ١١ قوله : (وأما الودعاء فيرثون الأرض ويتلذذون في
السلامة) .

(٢) التوحيد أصل في الأديان السماوية في التوراة والإنجيل والقرآن فالعهد القديم يؤيد
ذلك وإليك العهد الجديد بأن الله واحد لا شريك له . راجع مرقس ٣ : ١٢ ويوحنا
٢٠ : ١٧ و١٧ : ٣ ، وكورنثوس ١٥ : ٢٨ و٨ : ٥ ومزمور ٨٣ : ١٨ راجع
دائرة المعارف الكاثوليكية ١٩١٠ المجلد الثامن الصفحة ٣٢٩ كما الأصنام
والتماثيل راجع الخروج ٢٠ : ٤ ، ٥ وكورنثوس ٥ : ٧ وتثنية ٧ : ٢٥ .

٢ - النبوة ويتبعها الوصاية نصاً .

٣ - العدالة^(١) ويتبعها الاعتقاد بيوم القيامة (المعاد).

- (١) ونذكر ما جاء في العهد الجديد : ان الله عادل وراجع بذلك : تثية ٣٢ : ٤ واشعيا ٢٣ : ٢٢ وخروج ٢٠ : ٥ و٤ ج ٣٤ : ٦ والمعاد (يوم القيامة) رومية ٦ : ٥ وأعمال ٢٤ : ١٥ ولوقا ٢٣ : ٤٣ وجاء عن حسن اتحاد الناس وبلوغ السعادة : أعمال ١٠ : ٣٤ و٣٥ و١٧ : ٢٦ كما نص صراحة عن قيام حكومة عالمية صالحة :
- اشعيا ٦٦٩ و٧ وتدمير كل سلاح مخرب ومدمر (حزقيا ٣٩ : ٩ و١٠ مزمور ٤٦ : ٨ ، ٩ أو ٤٥ : ١٠٩) وأشاد بالأبرار (رؤيا ٥ : ١٠ و١٤ : ١ و١٢ : ١٠) .
- وجاء في الولاء والمحبة (مزمور ٤٥ : ١٦ و٤٤ : ١٧ يس) وإن المحبة مظهر لتلاميذ المسيح (أيوحنا ٤ : ٨ ، يوحنا ٣ : ١٨ ، غلاطية ٦ : ١٠) وعن محبة الإنسان للإنسان : (يوحنا ٣ : ١١ و١٢ ومتى ٥ : ٢١ ، ٢٢) .
- وان العطف يشمل الجنين لذا كان الاجهاض مخالفاً للتحقوى : (خروج ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ : ٣ يس) ونقدم نبذة مما ورد في القرآن . والقرآن ملي بالتشريع للأصول والفروع من الأوامر والنواهي والنصائح الثمينة والعضات البليغة في التوحيد والرسالة والولاية والمعاد والعدالة والبر والإحسان وكلما فيه السعادة وفيه العلم والحكمة لمن صغى وتدبر . قال تعالى : ﴿ وبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ ، وفي كل باب من أبوابه تنتهي بالفرد والجماعة إلى الحياة الدنيا والحيدة والآخرة السعيدة فيه الحب والألفة والتعاون والمساواة والعدالة والعفو والمغفرة والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى من كذب وخداع ونفاق وخيانة وفسق وفجور ، ومجمل القول لكلمة يسوق المرء للفضيلة وللحياة الهنيئة السليمة ويبعده عن الرذيلة والحياة المريرة الأليمة ، وأصول المعاملات وجميع ما يحتاجه في الموارد الحقوقية والجزائية والإدارية والاقتصادية وغيرها مما مر . وسوف نورد نبذة من كل موضوع ونكتفي بالمجمل عن المطول والقليل عن الكثير كي لا يضيق بنا الكتاب .
- فقد ورد كثير في التوحيد ونشير إلى نبذة منه وهو الأول ، سورة إبراهيم الآية ٥٢ منه : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب ﴾ والإسراء الآية ٢٢ منه قوله تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إله آخر فتعبد =

.....

= مذموماً مخذولاً ﴿٢٣ منه : ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه...﴾ الخ . ٣٩ منه : ﴿ولا تجعل مع الله إلـه آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ وسورة الإخلاص كلها في توحيد الله عز وجل قوله تعالى : ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ وكثير غير ذلك .

الأصل الثالث : انه عادل ومن عدله المعاد والقصاص للخير والشر يوم القيامة . وقد نزلت فيه سور كثيرة نذكر منها ما نزل في سورة النحل الآيات ٢٢ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٨٤ ، ٩٠ منه قوله تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل...﴾ الخ . وما ورد في الميعاد منها الآية ١٠ لسورة الإسراء .

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ وسورة لقمان الآيتين ٣٣ و٣٤ وسورة عبس من الآية ٣٣ للآخر وسورة الكهف ٤٨ منه : ﴿وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعداً﴾ و٤٩ منه : ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ والآية ١٠٣ منه : ﴿قل هل ننشكك بالآخسرين أعمالاً﴾ و ١٠٤ منه : ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ .

وجاءت أثنى النصائح والنواهي في سورة الإسراء في الإخلاص لله وللوالدين الآيتين ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ : ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً...﴾ الخ . و٢٦ منه : ﴿وأت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾ و٢٧ منه : ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ و٢٩ منه : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعبد ملوماً محسوراً﴾ و٣١ منه : ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً﴾ و٣٢ منه في منع الزنا : ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ وفي القتل ٣٣ منه : ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله...﴾ الخ . و٣٤ في مال اليتيم : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ كما جاء عن الوفاء بالعهد ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾ و٣٥ منه في حق الناس في البيع والشراء وفيها قوله تعالى : ﴿وأوفوا الكيل إذا كتمم وزنوا =

.....

= بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴿ ٣٦ منه منع الدخول فيما لا يعني المرء ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴿ ٣٧ منه في التواضع : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴿ ٣٩ إلى ٤٤ في توحيد الله ومثله سورة لقمان الآية ١٣ وإلى وصايا كثيرة أخرى في الإسراء ولقمان بل كثير من سور القرآن الأخرى وفي شتى الشؤون الاجتماعية وأخص الأخلاقية كآية ٥٣ من الإسراء ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴿ .

٣ - وجاء في الأصل الثاني وهي الولاية بعد الله الآية :

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴿ فالأولياء ثلاثة : ١ - الله . ٢ - رسول الله . ٣ - من قدم الزكاة من المؤمنين في حالة الركوع وذلك وصي رسول الله كما وردت بذلك الأحاديث (راجع المفصل عنه في الأجزاء من الأول إلى الرابع من موسوعتنا المحاكمات بإسناده) تلك هي الأصول وتلي بعدها الفروع من الأوامر والنواهي وقد مرّ الكثير منها ومن الأوامر الصلاة والصيام والزكاة والخمس والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكل منها نصوص قرآنية موجزة وأحاديث نبوية مفصلة ، وهناك وصايا ونصائح ثمينة كثيرة أمرة ونهاية في شتى شؤون الحياة كآيات ٩٠ ، ٩١ من سورة النحل في العدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴿ ٩١ منه : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴿ وراجع أيضاً الآيات ٩٧ ، ١٢٥ ، ١٢٨ سورة وفيها أثمن الحكم وما أبدع ما شبه به وطرىء القرآن المقربين إلى رحمته راجع الآيات ١١١ ، ١١٢ من سورة البقرة وضع دائماً التوحيد والإيمان والتقوى والبر والإحسان هي الميزة المفضلة للتقرب إليه وإن دين إبراهيم هو أساس دين أهل الكتاب راجع ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ وما نذكرها بالتالي : ٩٧ سورة النحل : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحبيته =

== حياة طيبة ولنجزيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿ . و ١٢٨ منه : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿ .

و ١٢٥ نحل أيضاً : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بالمهتدين ﴿ . وثبت القرآن إن الرسل الذين جاؤوا بعد إبراهيم الخليل (ع) ساروا على نفس العقيدة .

١٢٠ من سورة النحل : ﴿ إن إبراهيم كان امه قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين ﴿ .

١١١ من سورة البقرة : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴿ .

١١٢ من سورة البقرة أيضاً : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ .

١٣٥ منه : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿ .

١٣٢ منه : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه إسحق وإسماعيل ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴿ .

١٣٦ من سورة البقرة : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴿ .

١٣٩ و ١٤٠ منه : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى؟ قل : أنتم أعلم أم الله ؟ ﴿ الخ .

٦٦ من سورة آل عمران : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴿ .

ومن الآيات الجليلة في سورة البقرة الحاتة على الانفاق والمشوكة للبر والإحسان والتعاون والمساعدة .

الآيات ٢٦١ حتى ٢٧٤ تذكر ٢٦١ منه : ﴿ مثل الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنثيت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴿ .

==

٢٦٣ من سورة البقرة : ﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حلیم ﴾ .

٢٦٦ منه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه... ﴾ الخ . ترى كيف يحرض على الانفاق المادي والانفاق المعنوي ويمنع الأذى مع الصدقة ويمنع الانفاق الرديء والاحتفاظ بالطيب وإليك الآية ٢٦٨ منه كيف يشيد بالحكمة وأهلها :

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يتذكر إلا أولو الألباب ﴾ وترى الحكمة في اتباع العظات والنصائح الثمينة في القرآن جليلة واضحة ثم يعود في الآيات التي ٢٧٤ منه يشيد بالفضائل والمساعدات والتفقات المادية والمعنوية وبعدها في الآيات ٢٧٥ ينهي عن الاجحاف والظلم من الربا وما فيه من الموبقات والقصاص ويوصي بالارفاق والصدقة والمساعدات لذوي العسرة حتى ٢٨٠ منه وبعدها في ٢٨١ منه يقدم أصول المعاملات والمكاتبات والعهود وآدابها وترى كثيراً من الآيات المشوقة للمحسنين المؤمنين ، منها في سورة الإنسان الآيات ٥ إلى ٢٨ منه ، فيه انذار للكافرين وشارة للمتقين منها في سورة الرحمن والمرسلات وغيرها .

إلى هنا بعض ما لمحنا إليه في الحاشية من مختصر المجلد من الكتاب ، ونحن نأمل أن يسعدنا الحظ ببيان المجلد من السُّنة وسيرة محمد (ص) العظيم وما جاء به وقاله وعمله وخطه ونصح ووعظ .

ولمن شاء أن يتصفح تصفحاً عادلاً لأذهله ما جاء به من العلم والحكمة وما طبقه في زمن حياته وكيف انتجت تربيته النخبة من ذريته وصحبته ، وكفى بعلي المعترف بفضلته من العدو والصدیق ، حينما يقول ما أنا إلا عبد من عبيد محمد ، ومن أراد المزيد أن يطالع ما ورد في نهج البلاغة لعلي ونهج الفصاحة لمحمد (ص) .

وكما نزلت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آيات في القرآن نزلت بها أحاديث منها ما جاء في نهج البلاغة المجلد السادس منه في الكلمة ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ وفي وصف الفروض الكلمة ٢٤٤ قوله (ع) (فرض الإيمان تطهيراً من الشرك ، والصلاة تنزيهاً عن الكبير ، والزكاة تسبيحاً للرزق ، والصيام ابتلاءً لإخلاص الخلق ، والحج تقوية للدين والجهد عزاً للإسلام ، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام والنهي =

عن المنكر ردعاً للسفهاء ، وصلة الرحم منماه للعدد ، والقصاص حقناً للدماء وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم ، وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل ، ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة ، وترك الزنا تحصيناً للنسب ، وترك اللواط تكثيراً للنسل ، والشهادات استظهار أعلى المجاحدات ، وترك الكذب تشريفاً للصدق ، والسلام أماناً من المخاوف ، والإمامة نظاماً للأمة ، والطاعة تعظيماً للإمامة ﴿ .

ترى كيف أوجز أمير المؤمنين علي (ع) الفروض وعلل فرضها وخير الكلام ما قل ودل ، والحق أن كلام الملوك ملوك الكلام ، وفيه ترى كيف ختمها الله بالإمامة وانها فرض من الله ونص منه في الكتاب والسنة فصلناها في موسوعتنا المحاكمات .

ولالإمام علي (ع) أقوال بليغة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صميم الإيمان والنهج القويم والصراط المستقيم وقوام الدين وأسلوب المتقين . قال جاء في الجزء السادس من نهج البلاغة الكلمة ٣٦٥ قوله :

(انه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم ويرى ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق ونور في قلبه اليقين) ، وقال كلمته ٣٦٦ .

(فمنهم المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه فذلك المستكمل لحال الخير ومنهم المنكر بلسانه وقلبه والتارك بيده فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ويضع خصلة ومنهم المنكر بقلبه والتارك بيده ولسانه ، فذلك الذي ضيع أشرف الخصلتين من الثلاثة وتمسك بواحدة ، ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده فذلك ميت الأحياء ، وما أعمال البر كلها إلا كنفته في بحر لجي ، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق وأفضل من ذلك كلمة عدل عند إمام جائر) .

وقال عليه السلام في كلمته ٣٦٧ منه :

(إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد بأيديكم ثم بألستكم ثم بقلوبكم فمن لم يعرف لقلبه معروفاً ولا ينكر منكراً ، قلب فجعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه) ومما قاله عليه السلام في خطبته القاصعة (٢٣٤) في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله :
(وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه وأيامه ووقائعه فلا تستبطؤا وعيده جهلاً =

والأصول الثلاثة هي أسس دين إبراهيم (ع) والرسول من بعده ، بيد ان طوارئ طرأت سببت في ضياع الكتب المقدسة ، التوراة والإنجيل على أيدي الغزاة والحكام المستبدين والمشركين ، ثم تشتت الكلمة وتشويه العقيدة مما طرأ عليها من آراء ومذاهب ، ومزقتها إلى فرق عن أصولها القويمة المارة مما سبب ظهور الإسلام بكتابه المقدس القرآن ، الذي أعاد الأسس القويمة بالأصول في التوحيد في كثير من آياته وسوره أخص سورة الإخلاص وما ورد من الآيات الجمّة في العقاب والثواب كالجزاء الصارم للكافرين بالله والمشركين به وما قرن ذلك بالقصاص في يوم الجزاء الحسنى للمحسنين والنكبة للمسيئين . قال تعالى في سورة

= بأخذه ، وتهاوناً ببطشه ويأساً من بأسه فإن الله سبحانه لم يعلن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحكماء لترك التناهي).

وجاء في الجزء الثالث من الخطبة ١٥٥ منه قول الإمام علي عليه السلام : (وان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلق الله سبحانه ، وإنهما لا يقربان من أجل ، ولا ينقصان من رزق . . . الخ). وترى من خطبته عليه السلام ١٢٩ من الجزء الثاني لنهج البلاغة كيف يتعرض للمنافقين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال عليه السلام : (لا يخدع الله عن جنته ولا تنال مرضاته إلا بطاعته ، لعن الله الأمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به) ولكم أمر الله عبادة في القرآن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونكتفي هنا بذكر آيتين منها ، قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ والآية : ﴿ كتتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

والقرآن من أوله إلى آخره مليء بأجمل الوعظ والنصائح وأصول الأخلاق الفاضلة والحياة الاجتماعية وكلما يحتاجه الفرد والجماعة من نظم وقوانين في شتى شؤونهم للحياة الهانئة السعيدة المنظمة المتكاملة .

الإسراء الآية ١٣ : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ ، و١٨ منه : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ ، و١٩ منه : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ ويتبع ذلك ٢١ منه .

كما نص الكتاب على الولاية والزامها على المؤمنين بالله وولايتهم لرسوله بولايتهم لوصيه وخليفته نصاً ، كما في آية الولاية قوله تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ ، وقوله (ص) في غدير خم : (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) وقوله (ص) : (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي) ، راجع بذلك موسوعتنا المحاكمات لدرك إسناده .

ولقد مرّ وذكرنا الفروق الاقتصادية بين الكتل الثلاثة :

١ - الرأسمالية ٢ - الاشتراكية . ٣ - الإسلام .

فكان الإسلام المظهر الكامل للديانة السماوية التي بدأها أولو العزم من الرسل ، أخص إبراهيم الخليل (ع) وموسى الكليم ، والسيد المسيح ، وخاتمهم محمد عليهم جميعاً صلوات الله . والمميزات المعنوية المارة هي المميزات التي تحوي طيها كل الفضائل ، وما الميزة المالية والاقتصادية المارة الذكر سوى حسنة من حسناتها التي يتميز بها الإنسان على سائر ما خلق الله ، بما أودعه الله فيه من العقل والعاطفة والحكمة المتسامية ، إنْ اُتدئ بهديها ولم يغلب عليه هواء وغرائزه البهيمية ، ومتى تغلبت فعندها تستخدم تفكيره الإنساني النامي لمصالحها المتسافلة ودناياه المتكافلة للحضيض ، كما وجدناها في الكتلتين الرأسمالية والاشتراكية المارتين ، وفقداهما الحكمة والعقل السليم في سلوكها بما يضر بها وبغيرها واستحوادها على هذا البشر المنكوب المتعثر

الزال عن جادة الصواب ، يورط نفسه بنفسه ويوقعها في المهالك ، جاراً معه أبناء جنسه فكأنه مقاد إليها قهراً . فلماذا؟ .

لماذا منه هذا السلوك؟ ورب سائل يقول : وأنت الذي تنسبه للكتلتين وما أصابها من النتائج المهلكة فقد أصاب الثالثة نفس النتائج بل وربما هي اليوم أضعف منها بالأمس ، وربما أجبت أنها انحرفت عن جادة الصواب وزلت وعندها تساوت في النتائج والخطايا والمساوىء ، وإذا ما محصنا ببصيرة فاحصة ودقيقة وجدنا الكتلتين كانت دخیلاً في إغفال الكتلة الثالثة وتألها عليهما مادة ومعنى منذ أن كانتا قبل اليوم تشكلان الحكومات المطلقة والدكتاتوريات المستبدة ، ولا ننسى رغم ما أصبحت حكومة الدين منحرفة مخذولة فهي بقدر ما تحمله من العقائد الدينية تحمله من الرقة والرفقة لبني نوعها ، لأن ذلك من طبعها ودأبها ودينها ، وإن وجدت يوماً روحاً باطنية تتحلل الطيبات وتكافح الموبقات وتشمل الضعفاء خيرها وتقف دون المظالم مدفوعة بالعاطفة لا القانون ، فإنما هي ما تحمله من التقوى المذهبية وما يوحى لها ذلك السر الخفي للتقرب لمن تكن له الطاعة لبلوغ الخير في الدارين وتخشى معصيته لدرء الشر والقصاص .

بل استطيع أن أقول لك : ما خانك الأمين ولكن أوّتمن الخائن . وشتان بين منافق يتظاهر بالعصمة ، ومغفول مأخوذ على أمره أو ملحد لا يؤمن بالله ويوم القيامة ، مؤمن معتقد من قرارة نفسه بالله مطيع أوامره منته عن نواهيهِ . هذا من جهة ، ومن جهات أخرى ترى منشأ الكتلة الثالثة من البداية مصدرها الوحي الإلهي الكمين والضمير والوجدان والفضيلة والإحسان ، قامت منذرة للمنغمسين بالموبقات ، وحائه على الحسنات ، لصد المظالم والردائل والمخاصمات والتعديات ومنع الكذب وقمع النفاق وصد الخيانة وقطع دابر المنكرات ، مهما كانت مادية أو معنوية وإثارة العقول لتحكيم إرادتها وتعظيم العلوم والحكمة وذم الجهل والبطش والرعونة ، وإعادة الحريات المسلوبة ، حرية الأبدان وحرية الأفكار ، حرية

الأعمال والأقوال وإظهار الحقائق وتساوي الأفراد ونشر المعارف الإنسانية ،
شريعة التوحيد لإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى رُوح الله
ومحمد خاتم الرسل حبيب الله (الذي بشر به التوراة والإنجيل) .

تلك التي قامت من الطبقات المستهانة لشدة أواصر العدالة بين
الأفراد والجماعات المستضعفة ، وإن الداعين إليها لم تخدعهم المناصب
ولا الثروات ، ولا الوعد ولا الوعيد ، أمناء صادقون جادون مصممون
مضحون مخلصون ، أحرار محررون ، يحفزهم الضمير الحي والزهد
والتقوى يبذلون النفس والنفيس مما يملكون بما تغمرهم من العقيدة بالله
الصمد واتباعهم ومؤيديهم أبرار متقون .

بينما نجد الكتلتين الآخرين قامت اما من بين البرابرة السفاكين ، أو
الغزاة الطامحين ، أو قطاع الطرق الجشعين أو الخونة المنافقين . تعرفهم
من سابقتهم وسلوكهم وآثارهم واتباعهم واذنابهم ومن تابعهم وشايعهم ،
والطيور على أمثالها تقع .

وإن قامت حكومة باسم الإسلام وعملت ما عملها الأولان فهي منافقة
كذابة ، فهي زمرة تقبعت بقبع الأخيار ، وتكُن نوايا الأشرار وقلوبهم مليئة
بالكيد والشقاق والكذب والنفاق ، فهم كما قال الشاعر :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب
هم أشد من المشركين خطراً ، ومن الزنادقة الملحدين ضرراً . وسم
من شئت وعد إلى أعماله وثماره وما أعقب وما فعل ومن حرم ومن
وصل ، ثم تعال معي مرة أخرى إلى الكتل الثلاث وطبق مناهجها على
حكومة الطبيعة والفسطرة ، في العدالة ، في التساوي في الفضيلة في
الدخل والتوزيع في نشر الحقيقة ، قبول المنطق والإدارات الصالحة
المترابطة المستحكمة والتضامن ثم طبقها على حكومة جسم الإنسان الحي
المار مثله ، من وحدة العمل المشترك والمصالح العامة والخاصة وتضامن
الحجيرات وكبّها على عملها وبذل الأجهزة المنظمة في مسعاها في الخدمة

العامة والخاصة والوعي الذي تبذله كل حجيرة وكل جهاز وكل مركز واشتراكها في العمل الصحيح والنية الصادقة مع المخ والمخنيح الحاكم الراعي والمسترعي والقائد والمقاد وعلى حد السنة المحمدية (كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته) . هذا يخدم ذا وإذا يخدم ذاك ، والكل يخدم الفرد والفرد يخدم الكل ، هذا يتلقى الأنباء يسلمها صادقة وذلك يستلمها ويوزعها صادقة ، العطف والرحمة والاسعاف عندها وظيفة ، والبر والإحسان والصلة فيها غريزة ، والدفاع عن حياضها خصلة مستأصلة ، والإحساس والشعور فيما بينها أثره ووراثه إن تألم السن أو تألمت العين أو أي جارحة أصابها كلها أو بعضها الألم ، هبت كلها لكفاحه ، وإن جاع مدته جميعها يد المعونة لنجاحه ، وإن غزاها غاز تألب الكل لصدده ، وإن قرّت العين بمنظر أو الأذن بسمع أو الذوق بمطعم طرب الكل مشاركاً له في سعيه .

تلك ما أودعها الله في خلقه وتابعه عليه انبياؤه في نسقه ، تلك هي حكومة الله في العالمين من اتبعها سلك طريق الصواب ، ومن تخلف عنها زلّ للهوان والعذاب .

ونحن ان أعدنا السور والآيات القرآنية في الأموال وأصول توزيعها وحث الأفراد على البذل في سبيل الله وعدم كنز الذهب والفضة (الأموال) بقصد اشغالها واشغال الأيادي العاملة بها أو توزيعها وبذلها في قوله فيمن يكتنز الذهب والفضة ولا ينفقها للمحتاجين وما ينذره الله به في يوم القيامة ، ومن جهة أخرى منع الربا أو إباحة التجارة والحث على العمل ﴿ ليس للإنسان إلا ما سعى وإن سعيه سوف يرى ﴾ تلك في المساعدات المادية ، وأما المساعدات المعنوية فهي الأخرى كثيرة وثمينة كما جاءت الآية ﴿ كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تعطي أكفها كل حين بأمر ربها ، وكلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قول معروف ومغفرة خير من

صدقة يتبعها من أذى ﴿ والآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى ﴿ وجاء في الأحاديث النبوية قوله (ص) : (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم) ، وقد كان (ص) مثال الأخلاق والفضيلة حتى وردت فيه الآية : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴿ ، وقد دلت عليه أقواله وأفعاله وسلوكه .

أعظم ميزة لحكومات الله : التقوى :

إن العلل والأمراض الاجتماعية تكاد تنحصر في الإنسان لسبب واحد هي : تحكم غرائزه الجامحة التي لا تحد وعلى الأخص أن تغلبت على فكرته النامية المدبرة واستخدمتها لأغراضها .

أقول فكرته ولا أقول عقله لأن العقل هو الجوهرة التي مصدر الحكمة فلا يمكن أن ننسب له عيباً .

قلنا السبب هو الغرائز ، ولا يخفى علينا أن أنانية المرء وغريزته لذاته في حب الظهور والغريزة الجنسية وحب البقاء وجمع الثروة وحب الأهل وحب الاجتماع وغيرها ، هي سبب كل هذه المشاكل والعدوان والمخاصمات والظلم والاعتداء والتجاوز ، هي علل الجشع والكبرياء والطمع ، وهي علل القتل والغارة والنفاق والمعصية وكثرة الخطايا والانحرافات عن العدالة والاستقامة والمساواة والتعاون ، ولا يقف دونها سوى التقوى ، والتقوى أم الفضائل ، الإيمان واليقين بالله وقدرته وقصاصه في الخير والشر والتواضع والقناعة ، ونكران الذات والإحسان المادي والمعنوي والعقيدة بأن الله محيط شاهد قدير ناظر محاسب مقاص شديد العقاب عند المخالفة عن أوامره ونواهيه ، رؤوف رحيم عند الطاعة والاستغفار والتوبة ، كل هذه فوق الرحمة فوق العاطفة وأرق من الوجدان والضمير . حتى لنجد الله قد أقر التقوى ودرجتها بالميزان الأوحد لأكرام عباده وتفضيلهم الواحد على الآخر ، قال الله تعالى في سورة الحجرات

الآية ١٣ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

وجاء في البقرة في الآيات ٢ ، ٣ شرحاً للمتقين : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، و ٤ منه : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ و ٥ منه : ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ويخالف المتقين ما جاء في الآيات ٦ إلى ١٩ منه والآيات ٤٣ ، ٤٤ ٤٧ من سورة المائدة بين كافر وظالم وفاسق من أولئك الذين لم يحكموا بما أنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وفي كل من هؤلاء من الكافرين والظالمين والفاسقين يوجد المنافق الذي دلت عليه الآية ٣٠٤ بقرة : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ ﴾ . والمنافقون في أسفل درك من الجحيم كما ورد في الآية : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ .

ولا نستطيع أن نضع الكتلتين الآيتين القديمة من الحكومات المطلقة والدكتاتورية والحديثة الرأسمالية تحت اسم الديمقراطية والاشتراكية ، مهما سميت من شيوعية وفاشية ، إلا خارج المتقين لعدم رعاية مصالح غيرهم وحتى مصالحهم ، إلا ما يدر عليهم درا أنياً من المنافع ، وإن جر ذلك إلى إهلاك غيرهم وسبب المجازر والمظالم .

أما المتقون وهم درجات فهم الكتلة الثالثة من الحكومات وكل متقنع بقناع غيره يظهر ما لا يبطن ، فهو ألد الخصام ومن الطبقات الأولى الكافرة أو الظالمة أو الفاسقة والمنافقة .

ومن مزايا حكومة المتقين رعاية ، دونها عاطفة الأبوة والأمومة والقربة والصداقة والوجدان والضمير ، نعم دونها كل ذلك .

فالتقي من يثق بالله ويثق بأنه عليم محيط بروحه وكل جوارحه وأفكاره وأقواله وأعماله ، واعتقاده ان الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وإنه يحاسبه ويعاقبه عليها ، وأنه مأمور بالعدل والبر والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كل تلك سبيل الهداية والسعادة والألفة والانضمام إلى حكومة عالمية تحت رعاية من تجمعت فيه كل شروط التقوى والعلم والحكمة ، فأين أفلاطون من هذه الجمهورية؟ .

ولقد حاول أفلاطون في جمهوريته كل المحاولات أن يجعلها كاملة جامعة وقد ذكرناها باقتضاب وكيف حاول أن ينتخب لرياستها وزعامتها أبعدهم نظراً وأجمعهم أثراً وأنشطهم فكراً ، بيد اننا نراه في أواخر أيامه يراها ناقصة ولم تؤتِ الظروف ليصلح النقص ، وليت شعري هل أدرك نقصه حقاً؟ وهو لم يطبق أفكاره ونظرياته عملاً ولا ينكر أنه كان من أبرز الرجال الفلاسفة والحكماء المدركين إلى حاجة العالم المتخاصم المتبلبل المنحرف إلى نظام وإلى منظم ، وإن أفلاطون كان من الطبقات الارستقراطية وراثياً فوضع حكومته على تلك الشاكلة وحاول أن يقف صدىً دون الانتهازين لقلب هذه الحكومة بشتى النظريات ، حتى بلغ درجات الخرافة وتلقين العامة أموراً خارقة تسبب خضوعهم وسوقهم للطاعة ، ولم نجد قبله ولا بعده من استطاع أن يثبت قدرته الحكيمية قولاً وعملاً لتشكيل تلك الحكومة الصالحة سوى فرد واحد ، نشأ يتيماً أماً بعيداً عن أي علم وأي محيط علمي أو تربية مرموقة اجتماعية أو سياسية أو عملية ، يمكن أن يقال انه اكتسب منها شيئاً ، وهذا الفرد المنحدر من سلالة إبراهيم الخليل ، ذلك النبي الإنساني الحكيم كأنما تجمعت فيه كل المحاسن والفضائل المرموقة التي حاربها من قبله في جمعها وتطبيقها من الحكماء والفلاسفة المفكرين والأنبياء المرسلين ، تجمعت فيه نقية خالصة مشعة منذ صباه ، بآرائه الصائبة ، ونظراته الثابتة وصدقه الفريد ورأيه السديد ، وكان الأقدار شاءت أن يكون بزوغه من محيط أبعدها من الحضارة والثقافة والمدنية منهلاً وأشدها في الجهل والعصبيات والفقر محفلاً ، لتكون تلك

إحدى معاجزه الإلهية الجليلة ، وأبرز إلى مواهبه النادرة العلية ، فيشر وينذر ، فتهب الجموع متألبة عليه ومشينة إليه ، بما لديها من حول وطول فيقاومها بالحكمة والسداد والصبر في الجهاد ، والدعوة إلى الرشاد ويجمع من الشتات لمة ومن الضعاف همه ، ومن البطاح قمه ، يقاوم بها خصمه ، ويشد بها حزمه يقابلها بالدليل المتين والكتاب المبين والسعي الرصين ، باذلاً غاية جهده لرضاء الله وحده وإيفاء وعده وإتمام أمره وقصده ، حتى بلغ بعد الجهود والمصاعب ، والخطوب والنوائب ، بما جاء به من خوارق ما أوضح به الحقائق ، ودفع عنها المآزق ، ومهد سبيل العدالة والمساواة وقضى على المنازعات في الألقاب وشرو العصبية ، ما وجد الدهر مثيله هادياً ، وكعدالة قاضياً ، وكاهله هداة ، وكصحه كماء ، وكدولته في القسط والبر والإحسان دولة وللحق كمثلهما جولة وصوله ، ولولا القدر المحتوم والقضاء المبروم بحتفه وموته لشمّل الدنيا بسعادة حكومته ، ولولا ما غلب الأمة من النفاق بعده ونبذ وصيته وخيانة عهده ، والحيلولة دون إحلال من أعلن الكتاب ورسوله بالاستخلاف والولاية على الأمة من بعده لما وجدت منغصة وغمة فأيامه في الدهر خالدة ، وسيرته لو سارت لكنت على الدنيا سائدة ، ولكانت الدنيا أمة واحدة ، حياتها وارفة سعيدة ، ومناهلها صافية رغيدة ، عدلها شامل ، عزها كامل ، جمعت محاسن الطبيعة وسارت بالفطرة في الشريعة .

وربما سألتني على من نص الكتاب ولمن أشار رسول الله . أقول : هو الفرد الأوحّد الذي سبق الجميع بإيمانه ، وجمع بعد رسول الله كل فضيلة ورائية ، وحسنة ذاتية ، وتربى في أحضان الفضيلة في أحضان النبي ، في أحضان الوحدانية أدوارها ، ونال من معانيها أسرارها ، وضحي في سبيل الإسلام حتى أدرك ثمارها ، ونزلت في فضله آيات الكتاب مختارها^(١) ونصت بولايته بعد الله ورسوله الآيات واضحة ، ومن رسوله

(١) آية الطهارة قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم =

على مناصرته وآل بيته ناصحة ، أبو الأسرة الطاهرة ، والفضائل الباهرة ، من جمع كل حكمه أشار إليها أفلاطون في جمهوريته للزعامة ، ورفع الله ورسوله فيها مقامه ، الشجاع الباذل والعالم العامل والتقي الكامل ، والحاكم العادل ، أخو رسول الله ووصيه في صغره والكبير ، ومن خصه بزواج ابنته الزهراء دون البشر ، وأعلن أن عترته من ذريته فهم الخمسة أهل الكساء^(١) والذي فرض على الأمة لهم الطاعة والولاء^(٢) وأعلن إمارته وخلافته له في كل فرصة سنحت وإن محبته وطاعته تجارة رابحة ، وكل مخالف له ومعاند فهو منافق ومن حاربه فقد حارب الله ورسوله فهو محادد لهما كافر وظالم وفاسق . ذلك هو الرجل الأول بعد النبي (ص) ، هو علي بن أبي طالب نفس رسول الله (ص) في آية المباهلة ونظيره في آية الطهارة . ومن شاء الوقوف على بعض سيرته فليراجع أجزاء نهج البلاغة وشرحها لابن أبي الحديد الشافعي المعتزلي . واكتفى هنا بقطرة من بحره وفصل من عهده وأمره لمالك الأشتر حينما ولّاه مصر . وما أجل هذا العهد الذي جمع طرائف العلوم والتقوى والحكمة ، ونوادر الحياة الاجتماعية السعيدة للأمة ومباهج الطبيعة الإنسانية في نظمه ، في كل جملة منه عقد جمان وفي كل فصل مناهل السلامة والرفاه والأمان . ولعمري واني أعرض للقارئ الكريم فصلاً من فصوله ليرى عظيم نظره فإن شاء المزيد للعهد استقصى أثره .

= تطهيراً ﴿ وأجمع المفسرون أن أهل البيت خمسة : وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم .

(١) في آية الولاية : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ نزلت في علي وأجمع على ذلك المفسرون .

(٢) من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر أو ظالم وفاسق راجع الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ من سورة المائدة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : (ثم اعلم يا مالك ، إني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وإن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر من أمور الولاية قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فإن الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت أو كرهت ، واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم والطف بهم ولا تكون عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فإنك فوقهم ، ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك وقد استكفأك أمرهم وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنك لا بد لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفوه ولا تبجحن بعقوبة ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة ، ولا تقولن إني مؤثر أمره فأطاع ، فإن ذلك ادغال في القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير ، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإن ذلك يظامن إليك من طماحك ، ويكف عنك من غربك ، وفيء إليك بما عذب عنك من عقلك ، إياك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته ، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال) .

ثم مضى يتكلم في الانصاف والعدل والتحذير من الظلم ، ويعد تكلم عن سلوكه مع الرعية وحذره من مشورة البخیل والجبان والمحرص لأنها تجمعها سوء الظن بالله . ثم شرح له كيف ينتخب وزراءه ، وانتقل في كيفية معاملته للمحسن والمسيء ، ثم تلاها بكيفية اتباع السنن الصالحة . ونصحه بمجالسة العلماء وتكثير مدارسهم ومناقشة الحكماء في

صلاح أمر البلاد ثم عاد لتقسيم طبقات الرعية ، وتقسيم عمال الدولة فيهم وبيان عمل وأهمية كل من جنود وكتاب وقضاة عدل وعمال الجبائية والتجار وأهل الصنائع والطبقة السفلى أهل الحاجة وكيفية إبلاغه حقه وكيف ينتخب منهم لكل مقسم ويمتحنهم ويمحصهم ، وإعطاء كل ماله وما عليه ، وأمره باتباع حدود الله في كل صغيرة وكبيرة وكيف عليه أن يراقب عماله وثم يتفقد أمر الخراج (جباية الأموال) وعماله الجابون ومن يجاب منهم وكيف يجب أن يسير من عدل وبر وإحسان ، ثم الدقة في انتخاب الكتاب وحفظ الأسرار والتمسك بالأمانة والدقة في الثبوت واستخبارهم بالتجربة لا لمحض حسن الظن ، ثم أوصى بالتجار وأهل الصناعات وشرح حالهم وأوصى بهم خيراً مع تفقد الصالح والطالح منهم ، ثم عاد للطبقة السفلى وهو يقول : (ثم الله الله في الطبقة السفلى وفيهم القانع والمعتز) وأوصى بهم خيراً كثيراً ، وكيف يجب الدقة في سد عوزهم والسماع إلى قولهم ثم عاد لذوي الحاجات يوصي بهم ، ثم أوصى بالاصغاء والمقابلة لعماله والطلابين للمقابلة ثم وصاه في اجراء فرائضه الدينية لله ثم عاد يوصيه بأن لا يقاطع الرعية ويتفقدهم دون أن يمنعهم بحجابه ، وحذره من الخاصة والبطانة أن يغفلوه لمصالحهم ، ومن دقائق الأمور ، حيث يقول : (ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك لله فيه رضاء ، لأنه بذلك دعه لجنودك وراحة لهمومك وأمناً لبلادك ولكن الحذر من خداعه) وأوصاه في العهود والوفاء بها ان عقدت وحذره من سفك الدماء بدون حقها وحلها ، ثم عاد يوصي بالرعية وحذره من الاعجاب بالنفس وحب الاطراء ، والمن على الرعية وخلف الوعد إن وعدهم ، وحذره من العجلة في الأمور قيل أوانها أو التآني عند امكانها وعدم للجاجة متى تنكرت ، وعدم الوهن متى توضححت ، وحذره ان لا يستأثر فيما للغير فيه أسوة ولا يتغابى ، ثم بدى يعظه بالكتاب والسنة والسيرة الصالحة لرسول الله (ص) من تابعهم ، ثم دعى الله لهما وللأمة .

إن من يتصفح القرآن وسيرة محمد (ص) وسيرة صحابته المتقين

وسيرة سيدنا علي (ع) وآل البيت في أقوالهم وأفعالهم وأخص علياً في خطبه وسيرته وعظاته لا يجد لها في عالم الحكام والساسة بعد رسول الله محمد (ص) نظيراً ، ويرى في نهجهم أقصى ما يتوخاه الحكماء والفلاسفة من الرجاء والأمنيات لحكومة عالمية مثلى ترتكز في أصولها وقواعدها ومناهجها على العدل والحق المرموق والبر والإحسان المعشوق والسلام والأمان الدائم والحب والهناء اللازم لما ميّز الإنسان عن غيره من ذوات الحياة عقلاً وبصيرة وغرائز تنازعه مثيرة ، اقترنت الأمور بالجبر تارة وبالاختيار أخرى ، والعزيمة بالقضاء والقدر سراً وجهراً ، واختلطت أنظمة وقوانين الطبيعة والاجتماع فلا تقدر لها حصراً ، فأعيتة الحيل وظلت تتجاذبه المتناقضات بين الخيبة والأمل ، تافت النفوس لمصدر مبدع الكائنات ، يستمدون من لدنه عوناً ونصراً ، ومن الواقف على الأسرار والمغيبات ما غفلوا عن صده جهلاً وقهراً ، وأعياهم عقلاً وفكراً ، آنذاك أسعفهم الأحد الصمد بحنانه من أرضه وسمائه ، ومدهم بخيرة من رسله وأنبيائه ، فكانوا لعباده هداة وبأمره سعاة ، ومن اقتدى بهم أدرك من التيه والضلالة النجاة، دعاة وقدوة لكل فضيلة ، وسراة مزكون عن كل رذيلة ، منزهون ومن تابعهم أمن من الزلل ، وإلى الحياة السعيدة يدرك بهم الأمل .

هؤلاء هم الكتلة الثالثة وهذه حكومتهم - الحكومة العالمية المثلى -

الكتاب الرابع

البحث والتحقيق في أرقى المجتمعات الحيوانية
ذات الحياة المنظمة كالنحل والنمل والأرضة

النحل

عادات وأخلاق ومزايا وصفات النحل وأنواعه

كانت هذه الحشرة مرموقة منذ العصور القديمة بحيث كانت محل مطالعة من قبل علماء اليونان وقبلهم وبعدهم ، بيد أن البحوث المفصلة والمسهبية والتحريرات الدقيقة عن حياتها وخصالها تشعبت في القرون الأخيرة وساعد على ذلك ما استخدم فيه من الصناعات والأدوات الدقيقة للإشراف على سير حياتها في داخل بيوتها^(١) وما ساهم به البشر لتربية هذه الحشرة وتكثيرها ومؤازرتها على تصنيع الخلايا وتجهيزها بالبيوت المناسبة ، وإيجاد وانتخاب أحسن المراعي ودراسة أوضاعها الاجتماعية داخل الخلايا وخارجها وما وضع في هذا من الشروح والكتب الجمة التي يضيق بذكرها وذكر مؤلفيها بحثنا هذا . وقد توصل الإنسان إلى دراسة مسهبة عن حياة هذه الحشرة وما تحمله من عناصر القوة والضعف^(٢) وهذه

(١) تعمل لها خلايا صناعية يجعل لها من الناحية الخلقية أبراباً سوداء ذات صفائح زجاجية بحيث يكون بالإمكان دراسة البيوت من ورائها بسهولة ودون خطر . وقد لا يروق للمرء في تباطؤ حركتها من وراء الزجاج ما يراه من الحركة الضعيفة لها داخل بيوتها كالرائي من أعالي الجو وهو في الطائرة حركة السيارات وغيرها على وجه الأرض غافلاً أي مجهود جبار تبذله .

(٢) من نقاط ضعفها أن أقل دخان يشار حول الخلايا يترك النحل بما فيه من النحل المدافع عن الخلايا والعامل أو غيرهم صامتاً ساكناً بدون حركة ومقاومة .

الخصال والعادات قائمة فيها منذ ملايين السنين لا نجد لها أثراً للتقدم وللتوسعة كما نجده في الإنسان الذي يحاول أن يغير حتى قوانين ونواميس الطبيعة لإرادته ، ولو بلغت به التجربة للقضاء على نفسه وربما طرأت تغييرات في حياة النحل منذ آلاف وملايين السنين بيد أن هذه التغييرات إنما هي بالنسبة للتغييرات الجوية الطارئة والتي من فطرة وغريزة هذه الحشرة ان تكيف نفسها بالنسبة للبيئة ، وحسن ورياءه المناخ أو الحر والبرد ، وما شاكل ذلك من العوارض الطبيعية .

الثقافة الاجتماعية :

وأهم ما يتصف به النحل إنما هو صفة الحكومة والحياة الاجتماعية^(١) والاقتصادية والأعمال المنظمة والتخصص في الأعمال فطرياً ، بما تحمله كل نحله منذ الخلقة وتنقسم إلى طبقات وعلى رأسها :

١ - الملكة :

وهي الكل في الكل ، فهي أم الجميع ، وهي رمز الوحدة والأمن والاستقرار والنظام . هي التي تضع جيل المستقبل وتملأ خلايا الحضانة بالبيوض التي تحت اشراف الحاضنات والمربيات التي بمرور الزمن تصبح نحلاً . وهي رمز الشفقة والحنان . ولها عملها الجبار في حفظ بقاء الأسرة والنوع . فالنحل يتحمل كل شيء وكل كارثة وكارثة طبيعية وغير طبيعية تنزل به فتقضي على أفراد وطعامه مهما بلغ من الشدة من إنسان أو مهاجمين خارجيين غيره أو أوضاع ونكبات طبيعية يتحملها ولا تؤثر أو توقف سير حياته ونظامه ولا يربكه أو يقعده عن عمله أبداً ، بيد أنه إذا حس بأن كارثة أو مصيبة نزلت بالملكة في الداخل أو الخارج وانتشر النبا

(١) ومن صفاتها ما تحمله من الروح الاجتماعية التي لا يمكنها أبداً أن تعيش لوحدها فهي أقدر على تحمل الجوع والعطش من أن تعيش منفردة وهذه الميزة أقوى فيها بكثير مما هو عند النمل .

بسرعة بين أفراد النحل تفسخ نظامها واضطربت أوضاعها ، وقعد كل فرد عن عمله وأهمل وظيفته ومعنى ذلك أنه فقد الحياة وفقد كل شيء ، فهي حقاً ما دامت قائمة فهي رمز الحياة ورمز النظام والمثابرة ومصدر الرأفة والقرار والعمل .

مدى سلطان الأم :

الأم ملكة مطاعة كما ذكرنا ما دامت قائمة بوظيفة الحمل والوضع ، فإذا فقدت هذه الصفة وهذه الميزة لأي سبب ، وأخص منها السن القانوني وأصبحت عاجزة عن أداء وظيفتها فقدت صفة الزعامة وتخلت عنها لأميرة من الأميرات التي تتزعم مسند الملوكية ، ومتى ثبت لياقتها طبيعياً حكم على أية أميرة أخرى بالابتعاد عن الأسرة أو القضاء عليها في الداخل ، وهذا نظام طبيعي فطري قضت به على وقف منشأ الخصام والنزاع بين أفراد الأسرة الواحدة أمام الأفراد الذين يحملون صفات الزعامة من الأميرات ، ولا شك أن الملكة المنتخبة هي أليق الأميرات من ناحية الصفات الطبيعية . وحيث أن هذه الصفة طبيعية عند الأميرات غير مكتسبة مثل البشر فلا يمكن بعد انتخاب الملكة نقل الأميرات في سلك المحافظين أو العمال أو المربين لفقدن تلك الصفات ؛ لهذا لا مناص إلا التخلص منهن .

٢ - يلي الملكة في الميزة الأميرات ، وقد ذكرنا بعض الشيء عنها خلال بحثنا عن الملكة بأن الأميرات عبارة عن مجموعة من النحل تحمل كل ميزات الملكة للحمل والتلقيح والسيادة والزعامة كما تفقد الصفات الأخرى التي تتصف بها الطبقات الأخرى . وهذه الأميرات تولد من الملكة التي تعتبر أمها وتشاد لها مساكن خاصة ، وتفرق عن الملكة أنها لا تزال باكرة و بانتظار يوم التلقيح والقيام بأعمال الأمومة والملوكية متى فقدت الملكة قوتها وصفاتها لأي سبب وأصبحت عاجزة ، وطبعاً لا يستفاد إلا من

واحدة منها ، والباقيات كما مرّ تقضي عليها الملكة المنتخبة بالطرْد أو القتل كي لا تصبح عالة على إمارتها ومزاحمة لغيرها من جهات عديدة^(١).

٣ - الذكور :

والذكور مجموعة من النحل ليس لها أي صفة وميزة حميدة سوى أنها تحمل قدرة التلقيح متى دعت الحاجة إلى ذلك ومن بين هذه المجموعة إنما ينتخب بوقته ذكر واحد تنتخبه الملكة من بين مجموعة الذكور في يوم يسمى يوم المعاشقة ، تتلاقح معه في الجو الخارجي عن الخلية وفي الهواء الطلق وفي حالة الطيران ، وفي أعلى طبقات الجو ، ومتى تم التلقيح انتهت وظيفة الذكور التي لا تحمل غير صفة التلقيح ، وهي تصبح بعد هذا كلاً على الأسرة إذ إن من صفاتها السيئة أنها لا تعرف غير الأكل والاستراحة دون أي عمل آخر ، ولهذا متى انتهت عملية التلقيح نرى أن الذكر الذي انتخبته الملكة وفرغ فيها ما يحمله من الحويتمات يسقط بعد عملية التلقيح مقضياً عليه وأما الباقون فمن عاد منهم قضى عليه جوعاً بسبب انتهاء المهمة المسندة إليه ، فترى العمال والخدم المكلفين بتقديم الطعام له خلال وطول المدة تركوه جانباً دون إطعام حتى يموت جوعاً وعندها حملوه من الخلايا ونبذوه خارجاً .

٤ - الطبقات الأخرى من العمال الذين يخرجون إلى الخارج إلى المناطق الزراعية ويتخبون العسل ويستخرجونه من النباتات ويعودون بما حصلوا عليه وهم يختلفون من حيث العمل حسب أعمارهم وطاقتهم ،

(١) وسيتاتي ذكر عدد هذه الأخيرات وإن لكل منها خدم من العمال والمحافظين والممرضين والطاعمين وغيره ، فتلك تقوم بمصالح أخرى ، ومن جهة ثانية قد تزاحم الملكة وتنازعها وأمثال ذلك الذي نجده في الحكومات الملكية القديمة ، وكيف أن أحد أسباب تدهورها هم كثرة الأمراء بمرور الزمن وما يخلقوه من القلاقل .

ويقسمون إلى أقسام ومن بينهم المختصون بانتخاب غذاء الملكة التي يختلف نوعه عن باقي العسل وهو الذي يكسبها القوة والقدرة على القيام بأعمال الحمل والولادة الأخيرة الأخرى ويعطيها القوة والقدرة الفائقة وطول العمر بالنسبة لجميع أفراد النحل .

٥ - المحافظون والبوابون والدايات والجنود المدافعون والخدم وجماعة أخرى تختص بشؤون الملكة كتنظيفها والاعتناء بها وغير ذلك ، ومنها القائمة بالنظافة والشؤون الصحية داخل الخلايا .

٦ - الحاملة لآلة اللسع من حامض الفورميك كسلاح للدفاع عن كيانها ضد المعتدين المخالفين ولسعها عند الضرورة بصورة فردية أو جماعية .

٧ - الاختصاصيون بالبناء والعمال في مقر الملكة وقصور الأميرات ومحلات الحضانة وبيوت الذكور والعمال والممرات اللازمة وحمل التهوية اللازمة وحفظ درجة الحرارة والرطوبة ، كل ذلك توضع أسسه منذ أول شروعه بتأسيس الخلايا كمهندس معماري فني لا يخطئ أبداً في تصاميمه آخذاً كل الاحتياطات اللازمة للمستقبل القريب والبعيد . فهي دائماً ومبدئياً تبت في شؤونها العمرانية والاجتماعية وتضع كل تصاميمها منذ البداية بصورة متقنة لا تدع فيها مجالاً للضعف والفشل كما وجدناها كيف تنتخب الملكة وبعد انتخابها وانتهاء عمل الملكة الأولى تنحيا عن الحكم بصورة قطعية وتفويض الأمر للملكة الجديدة وحذار من أن تقع منازعات على الزعامة في المستقبل من طرف الأميرات يسمح للملكة بعد التأكد من لياقتها وقابليتها للعمل والحمل وقدرتها على إيجاد الناشئة الجديدة . نعم بعد التأكد من ذلك يترك لها الأمر لتقضي على كل أميرة وقطع دابرها حسماً لأية منازعة قد تقع بعد ذلك . كما نجدها تحتفظ بمجموعة كبيرة من الذكران ذوي البطون الكبيرة وتخصص لكل منها عاملين لخدمته وإطعامه أحسن الأغذية . وكل ذكر ليس له أية قابلية للعمل أو أي

تخصص آخر سوى قدرته على اجراء عملية التلقيح مع الأميرة الجديدة المنتجة في المستقبل حفظاً للنوع وصيانة لبقاء الجمهورية أو قل الدولة أو الامارة. وقد يكون بإمكاننا أن نسميها ملوكية وديمقراطية على أحدث ما يتصورها البشر ، وقد يمكننا تسميتها اسماً خاصاً بها لا من نوع التقسيمات والاصطلاحات التي استعملها البشر حتى الآن فنسميها ملوكية طبيعية فطرية فذة ، يعمل افرادها بجهد ونشاط وتسودهم الطاعة التامة والانقياد الفطري تجاه واجباتها . قائم كل فرد وكل جماعة بما عهد إليه دون أن يتقاعس عن عمله أو يتجاوز على حق الآخرين ، وهذا النظام وهذه الطاعة فردية وجماعية تنطبق على كل واحدة منها حسب تخصصه الجسمي والطبيعي والغريزي شؤون ووظائف لا تحيد عنها يقوم بها ما دامت قائمة فيه ، فإذا فقدت أو انتهت المهمة المطلوبة منه وفقدت الأسرة الحاجة إليه أصبح وجوده عبثاً ، فأهمل أو تجنب هو وانزوى حتى الملكة نفسها .

تنحي الملكة :

فالمملكة بعد أن تفقد قدرتها على عملها الطبيعي للتلقيح والإدارة تخلت عن العمل طبعاً بعد أن تنتخب أميرة من بين الأميرات لتحل محلها ، وهنا محل تأمل : هل هي التي تنتخب أو هناك سلطة أخرى مسيطرة تضطرها لذلك وتترك القصر والأمر والنهي وتنزوي حتى تموت ؟ .

مآل الذكور :

فالذكور عندما ينتخب من بينها ذكراً ، ويجري هذا بعملية المعاشقة مع الملكة ويفرغ فيها ما يحمله من لقاح حين عملية الاقتران المزوجة في الجو الواسع وفي أعالي الفضاء يختر صريعاً وميتاً ويعود الجميع إلى الخلايا ، وبعد هذه العملية من التلقيح والمعاشقة والزفاف الممتاز بيومه وساعته والذي تحتفل به جميع أفراد النحل يعودون إلى مقراتهم وفي هذه اللحظة يقوم جماعة بحفظ الملكة وتنظيفها والاعتناء بها ، ومراقبون آخرون لحفظ سلامة الأميرات في بيوتها خوفاً من التعدي عليها إلى حين التأكد

من سلامة الملكة وسلامة حملها والتأكد من نجاح عملية التلقيح بصورة مرضية ، وبعد أن يطمأن الجميع من لياقة هذه الملكة في جميع الوجوه على أداء وظيفتها من الناحية الصحية والبدنية ، وانها سوف تؤدي وظيفة الحمل والولادة وسوف تضع ما تحتاجه الخلية من المواليد لأنها هي الوحيدة التي يجب أن تملأ كل الخلايا الخاصة بالمواليد ، يجب أن تترك في كل واحدة منها نطفة وتعهد بتربيتها إلى حاضنة ، نعم بعد التأكد من كل ذلك تصل الأوامر القطعية للخدم المكلفين بتغذية الذكور على ترك تغذيتهم ، ولأن هذه لا تعرف هي ان تطعم نفسها بنفسها وقد سارت إما طبيعياً أو عادة على أن يطعمها الآخرون ، وقد انقطعوا عن خدمتها وتغذيتها فهي بمرور الزمن تموت جوعاً ، وكلما ماتت واحدة نقلت جثتها ونبذت خارجاً ، وقام الخدم والعمال بخدمات جديدة يعهد لهم بها وتخلصوا من مجموعة كبيرة من المتبشرين من جماعة هذه الذكور التي لأهم لهم سوى الأكل والاستراحة .

القضاء على الأميرات :

كما أنه سمح للملكة القضاء على خصومها من الأميرات دفعةً لعدة أضرار ربما تكون في مقدمتها الخوف والمنافسة على الزعامة في المستقبل . ويلي ذلك الاستفادة من خدمها في الأعمال الأخرى والاستفادة من قصورها للأميرات المستقبل .

إن ما نراه في نظام النحل نرى نظاماً يفوق نظام البشر اتقاناً وصرامة ونرى أموراً تنافي في الوهلة الأولى شؤون العاطفة البشرية والعدالة أحياناً مثل القتل العام للأميرات وترك الذكور يموتون جوعاً ولكن أليس هذا هو العمل الناجح ولو تركوهم على ما هم عليه إلا يخل ذلك بنظامها واجتماعها ويضرها اقتصادياً ، أليس هذا إجحافاً بحق الآخرين من العمال والخدم والمحافظين . وقد يترك للأميرات والذكور الخيار لهم بالخروج والحياة الحرة خارج الخلايا والأسرة طالما لا فائدة ترجوها بعد ذلك ولكنها

تفضل بعد هذا الموت بعد أن اعتادت على حياة الترف ولهذا فإنها هي نفسها قضت على نفسها .

المقارنة بين حياتها وحياة البشر :

لا يمكن أن نرى حادثة واحدة تلك التي تقع للبشر فيما يخص المخاصمات والمنازعات بين أفراد الأسر المالكة للوصول إلى الحكم في حياة الملكة والمنازعات بين الملكية والجمهورية والانقلابات الدموية والعقائدية الاشتراكية والديمقراطية والدكتاتورية ، تلك التي يستفيد منها على الأكثر فرد أو أفراد على الحكم مهما كان اسم حكومتها ، وأرهقوا الأكثرية وخرجوا على القوانين الموضوعية والنظم الطبيعية والاجتماعية والأخلاقية ، وجروا معهم الظلم والعدوان واعتدوا على حريات الأفراد والجماعات في الداخل والخارج ، وعبروا عن أعمالهم مهما كانت غير عادلة ، عبروا عنها ، لأعمال الإنسانية ، ووصفوها بكل الأوصاف والميزات الحسنة وأوصموا غيرها من المخالفة بكل دناءة وخسة مهما بلغت من السمو في العدالة .

وأكبر ميزة للنحل الذي يمتاز به على البشر هو : قيام كل طبقة وكل فرد بعمله وعدم تحديه لغيره . والنحل منذ بدء الخليقة على سيرة طبق القانون الطبيعي بصورة متقه عجيبة فحفظ لأفراده واجتماعه حسن السلوك من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل شيء ، بيد أن الإنسان طالما تحدى القانون الطبيعي ولا زال يتحداه وجاء بذلك بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، باسم الديمقراطية والاشتراكية والنازية وما جاء به من العقائد والقوانين أسماء ومغتريات وأنظمة يحول مجرى القانون الطبيعي ، إشباعاً لغريزته من الجشع السياسي والاقتصادي ، الاستئثار بكل شيء لنفسه والتجاوز على حقوق الآخرين ، ففقد بذلك سعادته وحرته في كل شيء . فهل إن الحرية تقضي أن يسلب الدكتاتور حرية الأفراد ، ويسلب حرية نفسه في التمتع بالاجتماعات إلا محاطاً بالمحافظين والحراس ليل

نهار؟ وقد حاول الإنسان أن يجبر الـويـلات حتى على النحل وبقية الحيوانات ، ويجبرها إلى التجاوز على قوانينها ، وأن يعودها على ما لم تكن اعتادته من قبل ، وهذا ما لا يمكن حمله إلّا من طريق واحد هو مساعدتها على ما هي عليه لا على مخالفتها لقوانينها ، وكان الأخرى به أن يستفيد منها وهي أتقن منه نظاماً وحكمة وأكثر بكثير مما هو عليه من الخروج على كل النظم والقوانين .

إن النظام القائم بين أفراد النحل نظام قام على التعاون ، كل على قدره ، وأعظمها تضحية أكثرها قوة . فالأم هي منبع الحياة وهي مصدر ومنشأ الجماعة ، بها ومنها قامت جماعة النحل وهي أكبرها جسماً وأطولها حياة وأكثرها سهرًا وأشدها حباً للأفراد لأنها أمهم والجميع بنوها ، لهذا هي محل آمالهم وأمانهم وطاعتهم ، لها طاعة حب ، بل انها أهل لهذه الطاعة بإخلاصها وتضحياتها ، فإذا صادف وإن أحسوا بفقدانها أحسوا بفقد حياتهم ، والقضاء على كيانهم كلهم بما فيهم . وانقطع كل عن عمله خارجاً وداخلاً فلا يساوي ذلك مصيبة مماثلة ، فهم يتحملون كل كارثة يصبر وثبات سوى فقدان الملكة ، أعني أمهم .

فهل يستطيع البشر ان ينشئ حكومة مبناها الحب الصحيح الواقعي واللياقة الذاتية الطبيعية وتعاون الأفراد المنقطع النظير ونظامهم المتقن ودأب كل على تخصصه وسعيهم المستمر واشتراكهم بعد ذلك بما في المخازن ، لا كل نفسه ، بل الكل للجميع ؟ هذا إلى أخذهم بنظر الاعتبار لكل أمر محتمل استعداداً للمستقبل مهما كان أمده قصيراً أو طويلاً ، ما مرّ ذكره من ذكر الأميرات ومعاملة الذكور ، ومن جهة ثانية إحساسهم بالوقائع الطبيعية ، فمن هطول الأمطار والثلوج قبل أوانها واتقاء أخطارها والصمود في بيوتهم وحفظ البناء في المحلات الصالحة من الخارج وعمل اللازم عمله في الداخل للتهوية وحفظ درجة الحرارة .

وفي ظل هذه المزايا الكبيرة الباهرة يكاد أن يكون النحل من أسعد

الحشرات بل الحيوانات الحية إن خلصت من شر الإنسان وويلاته وتجاوزاته رغم ما يستفيد من عسلها ويستفيد من عملية تلقيحها الاصطناعي يحمل المواد اللقاحية من شجرة لأخرى في البساتين فتكثر وتحسن نكهتها وتزيد عطور أزهارها .

وهنا طبقة من العمال والخدمة التي تختص برعاية عشرة آلاف من البيض وثمانية عشر ألف دورة وستة وثلاثين ألف نحله صغيرة وستة آلاف أميرة هؤلاء العمال خصصوا منذ تكوينهم لهذا العمل الشاق . فهو شاق لهم أو عادي؟ ومن عين وخصص لهم هذا العمل؟ ومن يدري وربما أن سعادتهم بهذه الخدمة وأداء الوظيفة المحولة لهم ليس هؤلاء فقط بل كل طبقة من النحل يجد نهاية اللذة في الجهد والسعي في عمله وفي عمله الخاص دون كلل أو ملل بصورة منظمة وباستمرار ، وما دامت هذه الوظائف قائمة تكون الأسرة أو الجمهورية أو الملكية قد أدت لمجموعها ولافرادها الخدمة الكاملة الصادقة العادلة المؤدية لسعادة الفرد والمجموع ، فإذا فرضنا وإن أخل أحدهم من جهته بعمل تُرى ماذا يحصل لكل فرد وللمجموع وبالتالي للخائن الذي أخل بوظيفته؟ هذا وإذا تجاوز إلى أكثر من ذلك وتداخل في أعمال الآخرين واغرى هذا واشغل ذاك وتجاوز على الثالث كما يعمل البشر؟ ويا ترى أليست العقابة غير الشقاء وغير الخيبة والاضطراب والخسران للجميع للسيد والمسود وذلك الشقاء الذي يسود البشر؟ فهل آن الأوان أن ينقضي ويسلك السبيل الطبيعي والمنطق السليم ويهتدي ويقتدي بحشرة صغيرة في حياتها المنظمة البسيطة؟ لا شك وأن هذه الحشرة في سيرها المعتاد المحافظ المبني على الجهد والمعاوضة خلصت من أهم أسباب الشقاء كالحرص والجشع ومن الحسد والكبرياء والظلم والاستبداد وكل ما من شأنه التعاسة والشقاء ، وكل ما يعود على النفس بالحسرة والندامة . وبالعكس هي تحمل الحكمة والصبر وروح الكد والمثابرة والاخلاص والإطاعة وخدمة النوع . انظر إلى هذه السعادة ، إلى تقسيم الأعمال وإلى الاشتراكية الطبيعية في العمل في السيادة في

الأكل والشرب وفي كل شيء ، وإلى ما يسوقه لهم هذا إلى كل فرد وإلى المجموع من الراحة والمتعة ، ولو قدر للبشر أن يسير على هذه الشاكلة ، كيف كانت حياته مليئة بالسرور والبهجة!

رمز الوحدة :

قلنا إن الملكة هي الأم وهي رمز الوحدة ولم الشتات والشمل ومصدر الطاعة والنظام والألفة والكل أولادها وبناتها والعمال كلهم من الإناث بناتها ، وإذا اقتضت الضرورة فبالإمكان انتخاب واحدة منها وإطعامها الطعام الخاص للملكة لتكوين قواها وتجهيزها بما للملكة من مؤهلات ، وإذا فرضنا لأي سبب من الأسباب ، بسبب مرض أو حادث طبيعي في الخارج أو الداخل ، أصيبت الأم الملكة بعارض اقعدها عن عملها ، وقلنا سابقاً أن النحل يدرك ويتنبأ بعض الحوادث ، وقد يكون نوع من التنبؤ ان الملكة لم يبق من عمرها سوى بضعة أيام أو ساعات ، وإن عارضاً أصابها وأقعدها ، أو بسبب الهرم ، مما يقن به الاختصاصيون من الخدم أو الندماء أو أطبائها وممرضيهها ، وأعلنوا هذا الأمر دون اتخاذ الحيلة وانتشر الخبر قبيل انتخاب خلف لها ، دون انتخاب منظم يلم الوحدة ، ولو لأمد قصير حتى انتخاب ملكة جديدة ، وقلنا قد يكون ذلك بناء على وقع جدي أو صدمة آنية لم تترك لتلافي الأمر ، كما لو حاول إنسان اقتناص الملكة من مقرها ، فماذا يحدث يا ترى؟

نعم ترى ان النبا خلال فترة قصيرة انتشر في أقصى نقاط الجمهورية بين افرادها في الداخل والخارج وترك كل وظيفته . العامل ترك عمله وناقل العسل إلى المخازن ترك وظيفته ، والمحافظون تركوا حفظ المخازن الأبواب ، والمستخدمون والمربيات وكل فرد منها ترك عمله ، فاضطربت أوضاع المملكة واحتل كل شيء ، كما أن المدافعين عن كيان المملكة والجمهورية تركوا وظيفتهم فشملت الفوضى هذه الوحدة المتراسة ودب الضعف إلى هذه القوة المستحكمة واشتغل المتطفلون والمعتدون

والمتجاوزون من طبقات الحشرات للتسلل إلى داخل الخلايا والمخازن والعبث بما شاءوا أو القضاء على من أرادوا ، فإن دامت هذه أمداً طويلاً قُضي على هذه الجمهورية بالفناء ، وإذا قدر وإن عادت الملكة المفقودة إلى مقرها ولو بعد فناء أكثر الخلايا والافراد ونهب كل المخازن ، نعم إن عادت أسرعوا بإعادة النظام والسعي للترميم والإصلاح وإعادة الجمهورية إلى ما كانت عليه بالسرعة الممكنة .

وإذا فرضنا أن الملكة لم تعد ولكنهم استعاضوا بها بإحدى الأميرات وقامت بواجبها ، عادت الحياة أيضاً إلى مجراها الطبيعي بمرور الزمان . ومن هذا نرى كم في الوحدة من أثر بليغ لاكساب السعادة وتقدم الأفراد والمجموع ، وكم في التفسخ من دمار مهما بلغت الأفراد بالكثرة ومهما كان فيهم من أخصائين . فهذه المملكة كما ذكرنا لم تفقد من أفرادها أحداً ولا فقد أي عامل آخر من عوامل قوتها ولم يدخلها أي ضعف غير فقدانها الملكة ، تلك التي كانت رمز وحدتها والرابط بين جميع أفرادها ، لهذا قبل كل شيء يلزم بذل كل الجهود لحفظ هذه الوحدة المتراصة وضبطها بشتى الوسائل ، والحرص على سلامة الملكة لحفظ الأفراد والجماعات أرواحهم وممتلكاتهم من تسرب عوامل الضعف والانحيار الذاتي في الافراد واتقاء هجوم المخربين من المتسللين والمتجاوزين على كيان المملكة . ولعل أفراد النحل بلغ بها الذكاء أو بلغت بها الغريزة إلى إدراك هذه الوحدة وأثرها البليغ في شتى شؤون حياتها الممثلة في ملكتها الأم ، لهذا تراهم يتفادون بأنفسهم وسعادتهم وأموالهم لحفظها وسلامتها وإعادتها وإعادة خليفتها إلى مقر الزعامة والحكم ، لتستقر أوضاعهم وتعود لهم الحياة الطبيعية ، وبسبب هذه القوة المتراصة تعود لهم حياة النجد والسعي وبها تعود لهم مباهج الحياة وملذاتها ، وبها يلذ لهم روح الكفاح عن حياض الوطن عن أنفسهم وأولادهم وأموالهم وعزتهم . ولتساءل عما تحمله النحلة من الأفكار قبل فقد الملكة وحين فقدانها وبعد ذلك . ما هو الدافع لسيرها وثبوتها؟ هل هو الحب لأُمها أو الامتثال الأسمى؟ أم هو

الإيمان المطلق بوجودها وأمرها ونهيها؟ أو علل وأسباب أخرى؟ مهما كانت فالنتيجة تكاد تكون واحدة ، ألا وهي أن الملكة كما ذكرنا هي العامل الأقوى لِلْمُ كلمتها وجمع شتاتها . ومصدر قوتها وحياتها ، فالملكة الأم لا يمكن أن يستعاض عنها أبداً كما يمكن أن يستعاض بفرد أو أفراد من العمال والخدم وغيرهم^(١) أو جعل بعضهم في مقر الآخر باعتبارها واحدة وذات مزايا فائقة وهذا ما يجب رعايته في حياة البشر . ولطالما وجدنا أوضاعاً مشابهة في حياة البشر كما نشاهد أحياناً في الحروب ، حينما يقضي على زعيم البلاد مهما كانت قوية كيف يؤثر ذلك على تدهورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ومجمل القول إن النحل منذ أقدم العصور وهو يسير طبق أنظمة طبيعية خاصة لا يحيد عنها ، باسم العقل أو الغريزة وهذا السير ضمن سعادتها ونظامها وحياء النوع وبقاءه من الإبادة ، وهو رغم إحساسه بالألم والابتهاج والجوع والعطش والحب والبغض ، كل ذلك لا يؤثر على عواطفه لينحرف عن القانون الطبيعي .

ومن أبرع هذه الغرائز التي لا يمكن أن تخلو من حكمة وتفكير هو إذا فرضنا وتقرر تعيين ملكة جديدة ، فالقديمة كما قلنا تنزوي لأي سبب ذاتي أو صادر من مقام آخر جماعي أو فردي ، ولكن الذي يستدعي النظر أنه إذا ما قام نزاع بين الملكة القديمة والملكة الجديدة استوجب رعاية السيادة الجديدة وحد سلطة القديمة بصورة سرية^(٢) ومستترة كي لا تثير شعوراً وسخطاً عاماً إلى الوقت الذي يتخلصون منها حفظاً لسلامة الأسرة

(١) إذ أن الأم ، كما ذكرنا ، محل ثقة الجميع ومنبع الحكمة والذكاء والمتخصصة لإدارة شؤون أسرتها بما تحمله لهم في شتى الأحوال والمزايا والمعرفة علمها بأفراد أسرتها وعطفها وحنانها لهم وملكاتهما العقلية والجسمية التي تمتاز على كل فرد منهم وفرط ذكائها ودرابته بكافة شؤون وقواعد وقوانين الأسرة ومتطلباتها كفرد فوق أفراد أسرتها. المتممين إليها .

(٢) حفظاً للجماعة والأسرة والمملكة وإدامة بقائها وبقاء النوع وحفظاً لبقاء الأصلح .

وشد كيائها ودفعاً لعوامل الضعف من فوضى واضطراب ، لأن مقام الملكة الشامخ وإن اسند إلى غيرها ولكنها الأم للباقيين ويعرفها من في المملكة ، ولولا تعيين خلف لها لاضطربت أركان المملكة كما ذكرنا سابقاً ، ويكفي لعظمة مقامها الشامخ قبل تعيين خلف لها أنّ يفقدها تفقد المملكة كيائها وتعرض للتخريب والسلب والنهب ، وبوجودها وحفظها مهما أصاب الأفراد الآخرين وبسوتهم وذخائرهم من قتل وهدم وإبادة وتخريب ، كل ذلك سيعود إلى تشييده وإعادته مع حفظ سلامتها ، والنحل الذي يعرف أنه لا يمكن سرقتها وانتشالها تعويض أم أخرى مكانها ، كما فعل الإنسان على سبيل التجربة ، فكان عاقبة الملكة الجديدة الموضوعة مكان الأم الحبس حتى الموت ، بيد أن علماء النحل أوعزوا ذلك إلى عادات الزنبور . سيان الأم من جهة حينما نرى تبديل مقرها وأعضائها تتوحش وتزوي وتتجنب هذا من جهة ومن جهة فإن عادة النحل بالنسبة لها وطبقاً للمثل المعروف : يكاد الغريب أن يقول خذوني .

هذه الحالات النفسية هي التي تجعل الملكة الجديدة تفضح نفسها بنفسها ، ولكن بعض علماء النحل جربوا أنهم بعد إخراج الملكة من الخلايا جاؤوا بملكة أخرى وحبسوها مدة لوحدها ، حتى شعرت بالجوع والغربة ، لأن النحل شديد الميل للاجتماع . وبعد مدة وضعوها في مقر الملكة المفقودة ، وهي بالنظر لجوعها ووحشتها في الانفراد ، تظهر ميولاً لجماعة النحل ، وإن كانوا غريبين عنها هذا من جهة ، ومن جهة ثانية تستقبل بلهفة لشدة جوعها ما يقدم لها من الطعام ، وهذا الاستيناس والألفة يؤلف بينها وبين افراد النحل ويأنسون بعضهم وتبقى بينهم حية . وهنا قولان : الأول ، يقال إن النحل إنما يعرف ملكته لسلوكها وانقيادها وعدم توحشها ، ذلك السلوك الطبيعي الذي سارت عليه الملكة الجديدة . والرأي الثاني يقول إن النحل في المرة الثانية أيضاً عرف أن هذه ليست ملكته الحقيقية ، بيد أنه وقد فقد ملكته الأصلية وشعر من هذه الألفة والحنان فرجح قبولها حفظاً لجمع شمل المملكة . واقتنع بذلك ، وكيفما

كان فقد كانت التجربة تجربة ناجحة . ومن حيث الواقع ان قصد الطبيعة هو حفظ نسل النحل وسلامته ، فإذا تأكدت الملكة من جهة ونحل الخلية من جهة أخرى ان الأمور في التناسل وحفظ النوع سيبقى جارياً كما يرام ، قام الجميع كما كان في عهد الملكة القديمة وحفظ نظام الخلية .

ومن الحقائق التي لا يمكن نكرانها أن النحل يقدس ملكته ما دامت تقوم بواجباتها ، فإن هي أهملت أو تقاعست لأي سبب كان ولو لبضعة مرات ، حتى لو كان اصطناعياً ، كما يحاول علماء النحل اجراءه على سبيل التجربة ، نرى أن النحل يسوق ملكته (أمة) لترى حفتها في احدى غرف البلاط الملكي ونصب أخرى محلها .

يمكننا قياس ذلك مع قدرة السلطة الحاكمة عند البشر .

الديمقراطية الموجودة عند النحل لانتخاب زعيم يقوم بوظائفه قيماً حقيقياً ، كيف يعمل معه عندما يجده تقاعس عن واجباته مهما كان السبب ، فمن هو المنفذ الواقعي عند النحل فرداً أو جماعة ؟ وهل هو أمر غريزي أو قائم على التعقل أو كلاهما ؟ وطالما وجدنا أموراً استثنائية عند النحل تدل على التفكير فمثلاً لو ادخل فار أو حلزون الى الخلية قضت عليه النحل حالاً واخرجوه خارج الخلايا ، وان لم تقدر احاطوه بالشمع واقبروه جانباً من الخلايا ، كما يضعون حواجز سمعية في بعض المداخل لمنع دخول الحشرات المؤذية . فالملكة لها المقام الاسمي عندهم ما دامت تؤدي واجباتها ، وهي رغم سلطتها العظمى ومقامها الاسمي فهي اسيرة مقيده بيدهم اذا شعروا بفتورها عن اداء واجباتها الخاصة .

فالاحترام المقام لها انما هو نظام عام مقدس وقانون طبيعي ، وما دام يصدر فيها باعتبارها تخدم الجميع والكل حتى الملكة يخدم الواحد الآخر ويخدم الجميع ، ولا يقعه عن واجبه سوى الموت ، وان تقاعس كما مر أقصى من الجامعة بأي نوع من أنواع الاقصاء مهما كان مقامه .

فأي حكومة متقنة مقرونة هذه وهل بإمكان البشر ان يقيم كهذه الحكومة ؟ والنحل دائب وكامل في دأبه في أي ناحية من حياته ، حتى الحياة العمرانية فهو يزيد أو ينقص الخلايا حسب الحاجة ، ويزيد وينقص في البلاط الملكي حسب الحاجة والجميع منظم ومدبر في أي شأن وأمر مهما كان كبيراً أو صغيراً ، حتى في أمر الملكة ، فمن وضع لها هذا النظام ؟ ومن هو المسيطر الأعلى والحاكم المطلق والمدبر الحكيم وراء كل ذلك ؟ ومن الدلائل التي تبرهن بها بان النحل يقوم باعماله الى ابعد التفكير والتأمل وان التصميم على وضع الخطط صادر من خبراء اخصائيين وأوامر صادرة من مصادر حاكمة واقعية ، فهي اذا ارادت ان تغير مكانها أو سعت لبناء خلايا جديدة ارسلت الى كافة الاطراف ، يرسلها وخبرائها ، وبعد أن تبت في أمرها على الاستقرار في الجهة المطلوبة انطلق افرادها لتلك الجهة فان كانت جاهزة سكنوها ، والا خططوا ووضعوا التصميم وقام كل جماعة بعمله ونقلوا ما يحتاجون على قدر من ماء وشمع وغيره ، وقسموا اعمالهم بين الافراد كل حسب تخصصه ، فكان منهم المخطط والبناء والعمال وغيرهم ينجزون ذلك بدقة فائقة تفوق ما يقوم ؟ .

صنع الخلايا :

قلنا أعلاه ان النحل بما له من الخبرة والتخصص منذ أول ما يقوم بالبناء وتشيد الخلايا يراعي مبدئياً كخبير ومخطط كلما يمكن ان يحتاج في المستقبل . فهو يراعي الأصول الصحية ومتانة البناء وانتخاب الشمع الصالح والمخازن الملائمة لكل نوع من محتوياتها والمساكن ومن يسكنها ، الى مراعاة سهولة المرور والعبور للخدم والعمال والأميرات والملكة كل بحسبه ، بما يحتاج كل منها ، وايجاد مخازن مناسبة وغرف ضرورية وطرق ومعابر ومئات الأمور الأخرى التي لا مجال لذكرها الآن ، كل تلك يضع تصميمها منذ البداية بما تحتاجه من تهوية وطقس ملائم .

أما الخلايا الاصطناعية التي يصنعها الانسان فتحتم عليه ان يراعي فيها
الأصول الطبيعية التي يقوم به النحل والا تركته واضطرت هي نفسها لصنع
ما نحتاج اليه .

النقد الموجه للنحل والانسان :

يحسبه البعض قليل الفطنة جشعاً او ابلهاً مستدلين بانه يزج نفسه في
طعام او شراب دون خبرة ودراية ووعي كافٍ لدرجة أنه قد يموت فيه
ودخوله في محلات لا داعي لدخوله واستمراره ومحاولته للخروج من نافذه
زجاجية دون ان يعي ان النافذة الزجاجية غير قابلة المرور منها . على أن
هذا النقد اذا وجه للبشر ادركنا ان للبشر اغلاطاً أعظم وانحطاطاً الى
السفليات اشد . منها اعتياده على كلما يقربه لدرجة الموت واحط درجات
الشقاء من مسكرات ومخدرات ومنبهات وافراطه من الأمور الجنسية
وتعرضه لافتك الامراض التناسلية مع علمه ودرايه وقصد واردة . ومنها
اشعاله نيران الحروب وقيامه باعمال متناقضة بين الغريزة والعقل وتجاوزاته
على غيره من بني جنسه وكافة ما خلق الله من حيوان ونبات . ومن
الغريب اننا نصف أنفسنا بالعقل والفكر والارادة وقد استخدمنا العقل في
سبيل الغريزة فكنا في وحشيتنا ابعد بكثير وفي قساوتنا أشد من اشد
الحيوانات ضراوة ووحشية وقساوة لا على غيرنا ولا في سبيل سد رمقناً
فحسب بل تجاوزنا في ذلك على أبناء جلدتنا وحيانا على أقرب الناس
الينا ، لا لشيء بل ارضاءً لكبريائنا واستهانة بمقدسات الغير . واذا اقتضت
الظروف استعملنا اشنع وأهول المنكرات باسم العدل والانسانية وحكمنا
كما شئنا واطلقنا ما شئنا عليها من الفاظ . وما القنابل الذرية على نيازاكي
وهوريشيما ، وما الفتك بملايين اليهود من رجال ونساء وأطفال قصر ابرياء
في عهد النازية الا مثال صغير من ذلك ، فهل بإمكاننا أن نأتي بمثل حتى
صغير جداً عمله وحشي تجاه بني نوعه على هذه الشاكلة ؟ .

وقد نتقده النحل تجاه عمله نحو الملكة والأميرات والذكور ، ولكن

يمكن توجيه ذلك توجيهاً منطقياً ومعقولاً ، بحيث لا تكون ولا نعتبر مقصورة في عملها ، بعد أن علمنا أن حياة الفرد في مملكة أو جمهورية النحل تقوم على المساواة والعمل المتقابل . ولنا إن النحل كثيراً ما يتنبأ عن الحوادث الطبيعية قبل أوانه وربما كانت عنده مقاييس دقيقة في ذلك أو حس وشعور آخر لا يوجد لدينا بإمكانه أن يدرك أن ملكته يعرض لها علة أو مرض أو شيء آخر يؤدي بها للهلاك بعد بضعة ساعات أو أيام ، وهذا ما يدعوها إلى نصب غيرها ثم حمل الملكة القديمة إلى مستقر تهدأ به ولا تعمل إلى أن تلقى حتفها وأن لها علمها سلفاً بهذا الموت الحتمي . إذن في مثل هذه من الظلم أن نصمها بالظلم . وأما الذكور فما يدرينا بعد أن أصبحت في غنى عنها أو عزت لها بذلك ومثلها الأميرات ، لهذا لا داعي ولا ضرورة يدعوها لإطعامها وما قدموه لها سابقاً كان على سبيل الاحتياط والضرورة حفظاً للنوع ، ولكن حيث انتهى الأمر واطمأنوا على حياة النوع لا تجد داعياً لبذل جهود وطاقت لا لزوم لها ، ولماذا بذل هذه الخدمة وترك عاملين وأكثر لكل نحلة بطرة لا تشتغل ولا فائدة منها ، فالأحرى تركها ونفسها وعلى نفسها أن تقوت نفسها ، فمن منها عملت لنفسها عاشت ، وإلا ماتت جوعاً هذا في العمال وأما في الأميرات فإن إطعامها من جهة لا داعي له ، ومن جهة ثانية فإن وجودها يكون خطراً على المملكة ، فالأحرى إما أن تدخل في زمرة العمال أو تخرج إلى حيث تريد ، وفي غير ذلك فإنها تعرض نفسها للخطر ولهذا نرى قسماً من العمال والأميرات تترك المملكة وتخرج وتنجو بنفسها . والحقيقة هذا أمر لا يخالف العدالة والمنطق السليم ، فإذا كانت هذه فروضنا صحيحة ، فإن مملكة النحل مملكة لا ينقصها شيء من المنطق السليم ، وكل شيء عمله مطابق للقانون الطبيعي والمنطق السليم .

حواص النحل :

النحل مجهز بحواص تختلف عن حواسنا فهو يفقد السمع ولكنه

يتفاهم وينشر أخباره بما لديه من حواس وزوائد ، لهذا نراه يعود إلى المحل الأول إذا كان فيه طعام كما نراه يعود مرة أخرى مع جماعة وتتزايد هذه إذا كان الطعام كثيراً ومن النوع الذي رغب له النحل . وقد وجد علماء النحل أن لزنبور العسل نحو اثني عشر ألف زائدة وخمسة آلاف حفرة في أطراف بدنه ويمكن أن يكون لكل منها عمل خاص تقوم به ، ومع هذا فإن النحل يقسم أعماله في الداخل والخارج من الخلايا ، ولكل منها تخصصاً في عمل ما يقوم به منذ الصباح الباكر .

بناء الخلايا :

ويعمل النحل أربعة أنواع من الخلايا .

- ١ - الخلايا الملكية وهي على شكل استثنائي يشبه البلاط .
- ٢ - خلايا الذكور وهي كبيرة واطئة .
- ٣ - خلايا صغيرة للعمال والمخازن .
- ٤ - خلايا رابطة بين الكبيرة والصغيرة .

والنحل يبدأ البناء من الأعلى . وهناك أنواع من النحل بالنسبة لتخصصه : فمنهم اللبان . والعامل والمهندس والبناء والمخصص للحضانة والتنظيفات والمحافظين وغيرهم . ويتخلل الخلايا الممرات ويكون البناء منشورياً ذا زوايا تتصل ببعضها وجدران مجاورة لبعضها ، بناء محكماً حافظاً لمحتوياتها . وإذا ما فحصت الخلايا وممراتها من حيث الدقة الهندسية لما وجد فيها نقصاً ما . فهل النحل يعرف هذه الدقة في الحساب والهندسة؟ وهل يجوز أن نقول إن هذه الدقة جاءت عفواً ولا تزال عفواً في جميع أعمالها؟ كيف وهي مصنوعة بحيث لا تجد خلية لا تستفيد من الضياء ولا تبقى خلية صنعت عبثاً لا يستفاد منها، لا يشك المفكر إلا أنها صنعت بنظر مهندس قدير . ولقد أثبت النحل في جميع أعماله هذه الدقة ، حتى أنه عندما يقسم بيوضه في الخلايا لا تجد البتة

انه اشتبه أن يخلط بيوض الذكر بيوض الانثى ، لا ولا تجد اشتباهاً واحداً بل كل جنس يضعه في خلاياه الخاصة به كما ويغذيها بغذائها الخاص بها . وأروع من ذلك أن الأم حين الوضع تعرف ما ستلد لتضعه في حفرة ومكانه .

نمو النحل وتعليماته :

ويتدرج النحل في الكبر فيتقدم لمعرفة سلوك الطرق والممرات ، ثم يتأهل للخروج والدخول والذهاب والإياب لنقل الطعام ، كل هذه لها أصول يتمرن عليها تدريجياً شيئاً فشيئاً قليلاً قليلاً ، حتى لا يغلط أو يشبه في تعيين أهدافه ومراكز طعامه ومذاخره . والأمر الذي نحن نسميه تصميمًا إنما هو عند النحل منهج ملزم باتباعه .

الطبيعة تكثر النحل :

في كل مرة يخرج النحل من الخلية تترك قلة منها لحفظ الخلايا وما فيها ، وحينما تخرج الأميرات مع الملكة يصحب كل أميرة جماعة من العمال غالباً ، ويذهبون لتشكيل عائلة جديدة ومنهم من يتبع الملكة أو يتركها ، كل ذلك يسير طبق سنن وأصول كما يكون اتجاههم واستقرارهم حسب خطة وقواعد خاصة . ومن تبع الملكة وبقي في الخلية أصبح تحت رحمة الملكة الجديدة لتقضي هذه عليها في الساعة المعينة ، إذ أن المحافظين يحافظونها إلى أن يثقوا أن الزواج الناشء ليلة الزفاف ناجح ، ومتى تأكد الجميع ، أو قل الجهة النازرة لذلك ، إن الملكة حملت ما تحتاجه الخلية سمح للملكة الجديدة أن تقضي على جميع الأميرات لتنفرد بالحكم وتأمين شر المزاحمين .

الاستثناءات :

وجد في بعض خلايا النحل أن هناك أكثر من ملكة واحدة تعيش في المملكة الواحدة ، حتى انه وجد في إحدى الممالك النحلية أن تسعين أمًا

تعمل وتعيش فيها وهي من نوع نحل آبيس تعيش في سورية وأنواع أخرى مشابهة لها في قبرص .

وقد وجد أن النحل يطور نفسه حسب المحيط فإذا نقل من محيط إلى محيط آخر أشد برداً وأطول شتاء يضطره للانزواء نجده يزيد في جمع العسل ، وبالعكس إذا وجد الفصل معتدلاً والأزهار دائمة فهو يقلل من ذخائره أو يترك جمع العسل بتاتاً كما جرب ذلك في كثير من المناطق .

وطالما أن للنحل مثل هذه الحساسية والشعور اما عقلياً أو غريزياً فهو قابل للتطور في كثير من جهات أخرى . وكما أن في كل نوع من الحيوانات وحتى الإنسان افراداً ليست لهم لياقة العمل وهم عالة على غيرهم فهم يعيشون كطفيليات على كد غيرهم . نجد مثل ذلك في مملكة النحل إذ هناك نوع منها لا يستطيع أن يعيش إلا طفلياً على غيره وعلى ما يجمعه الغير من أفراد النحل ، وأحياناً يكون خطراً عليها وهذا النوع يعتبر وحشياً بعيداً عن الحضارة . كما أن هناك نوعاً من الزنابير تعيش نصف متحضرة فهي تعمل وتشتغل ، بيد انها لم تبلغ درجة الاتقان في أعمالها في بيوتها ونظامها فهي كالإنسان النصف المتمدن . وهناك أنواع أخرى تعيش وحيدة وهي أيضاً قليلة الحضارة كما وان هناك فصائل أخرى متعددة تختلف عن بعضها بمزايا متباينة .

الختام :

لو استطاع الإنسان أن يعيش كالنحل في حياته البسيطة مراعيها بضعة أمور رغم كونها في منتهى البساطة إلا أنها في غاية الأهمية لضمان استقراره وسعادته وسلوكه ، كيف كانت حياته؟ نرى أن النحل يسير طبق قانون طبيعي موحد لا يحيد عنه في حكومته وسياسته بالنسبة لطبقاته وأفراده ، فكل طبقة وكل فرد فيها لا يحيد عن عمله الموكل به ، وهو دائب عليه بصورة لا ينفك عنه ولا يد له بعمل آخر ، هذا مع حفظ النظام والطاعة المبنية على الحب المتبادل بينه وبين أمه وإخوته وأخواته . فذاك

مكلف بحفظ الأمن ، وهذا وظيفته مراعاة النظافة وتطبيق الأصول الصحية . وذلك يعمل بالبناء ، وهذا بالتمريض ، وغيرهم بتجهيز الطعام ونقله لتغذية الأفراد المشغولين داخل الخلايا ، وقلة أخرى مكلفون بإطعام الملكة وأخرى بإطعام الأميرات أو إطعام الذكور ، وهكذا ، ومجموعة عهد إليهم إحضار طعام الملكة المختار المخصوص بها ، وجماعة كانت وظيفتهم ملأ المخازن هذا مع مراعاة كل منها بالكمية المقدمة والنوع المخصص .

٢ - التساوي الاقتصادي : فلا ترى أن فرداً أو جماعة يجمع أو تجمع لنفسها كلاً فالكل يخدم الكل وما جمعه فهو للكل .

٣ - الحرص المتناهي على حفظ النوع وسلامته واتباعه خططاً ثابتة ومعينة ومتقنة مراعية في ذلك المستقبل القريب والبعيد ودقة فائقة متوخية فيه كل نقص قد يقع في المستقبل . في نوع بناء المساكن وعدد الخلايا وأنواعها وممراتها وأحوالها الصحية وسلامة أفرادها وسعادتهم وسهولة الحركة والنقل .

ورعاية التغيرات الجوية في الأزمنة المختلفة ، ولا يقل عن ذلك الدقة والنظام الذي يتبعه المتخصص بجمع العسل وتحضيره ونوعه وكميته ؛ وكل جماعة تتبع نفس الدقة والمهارة في الأمر الذي اختصت به ، وحتى الملكة الأم وهي أعظمها تضحية وخدمة ورعاية وتكليفاً إذ على عاتقها يقع حفظ النحل وتعيين طبقاته في المستقبل ، وهي رمز الوحدة والاتحاد والقدرة والنظام والإدارة ، وهي مبعث الحب والحنان والعدل والمساواة ، بيد أنه يظهر أن لها المقام الأسمى ما دامت تؤدي ما عهد إليها من الواجبات والتكاليف ، فإذا ما بلغت بها الشيخوخة الدرجة التي يقعدها عن العمل أو مرضت وخانتها قواها ، صدرت الأوامر بتنحيها وإحلال غيرها محلها طبق رسوم واحكام . ولأن لا يعرف من هو المصدر لهذه الأوامر والمنظم لهذه الأنظمة التي هو فوق أوامر الأم الملكة . هل

أن هناك مصدراً أعلى فوق الملكة يراعي المملكة ، أم أن هناك مجالس مؤلفة من عدة أفراد منها الأم؟ إن الأم والأفراد كل بحسبه منذ بدء خلقته تسير طبق أنظمة خاصة تتحكم بها في كل عهد وكل زمان ومكان بحيث تلزمها ذاتاً وغيرة على اتباع هذا السلوك . إن هناك أموراً تدل على التفكير وأساليب منطقية لا يمكننا تجاهلها . انزواء الملكة وتركها للحكم . وإبادة الأميرات من قبل الملكة الجديدة ، وانقطاع العمال المكلفين على اطعام الذكور عن عملهم مباشرة بعد ليلة الزفاف ، وتلقيح الملكة هل كان مشروطاً من قبل على الأميرات انه يجب عليها أن تغادر مساكنها بعد ليلة الزفاف ، وتكون أسراً جديدة مع الذكور فتقاعست عن واجبها ، فكانت النتيجة أن صدر عليها حكم الاعداء قتلًا وعلى الذكور جوعاً حتى الموت؟.

وإن لم يكن شرطاً ، فهو حقيقة واقعة ، إذ كل أميرة تركت الخلايا وكونت لها حياةً جديدة خلصت من هذا العقاب الصارم . فهل كانت على أقل تقدير عالمة بهذه العواقب؟ ولماذا لم تتركها قبل ليلة الزفاف؟ وإذا تعقلنا وتعمقنا في الأمر وجدنا أن النظام السائر عليه النحل هو نظام كامل دقيق بالنسبة لها ، لهذا لو أمكن أن يتبع البشر بالنسبة له مثل هذا لبلغ

صحيح أن البشر يختلف عن النحل بنمو عقله وغرائزه وتشكيلات جسمه وآرائه ، بيد أنه يستطيع ان يجمع إن شاء كل تلك الحسنات والحسنات الاخرى التي يتصف بها غير النحل ، وأن يضرب بكل المساوىء عرض الحائط ، وإن اعترف العقلاء الذين أعياهم إصلاح هذا البشر إن البشر بإمكانه أن يعيش سعيداً أكثر من كافة الحيوانات على أن يحد الغرائز ويجعل قيادتها بإرادة العقل لا أن يستخدم العقل لإشباع الغرائز . هذا ربما كان السبب الوحيد لويلات الإنسان . وما أحلى الحياة الجماعية وأسعدها للبشر إن قامت الحكومة على أساس الحب المتبادل والمصالح المتبادلة . والاحساس بالحاجة الأدبية والعلمية ، والعقل السليم

المتزن في الجسم السليم منبعث من وجدان حي سليم ، عدل إنسان رباني كامل التهذيب خال من عوامل العنف والخوف ، هذه الحياة القائمة على الشعور بالمحبة والاحترام والامثال الأدبي بين الآباء والأبناء وكثير من الحيوانات والحشرات كالنحل والنمل والأرضة ما تقدمه الأم في التعاليم المقرونة بالمودة والحنان لأولادها ، وما يقوم به الأولاد من الطاعة أو يطلبه هؤلاء من آبائهم أدائه على أساس الحاجة أو ما يجري بين العشيقين والمحسنين لبعضهم حتى بين الإنسان وبعض الحيوانات كالكلاب . ولما تجده بين المتفوقين أديباً وأخلاقياً أو دينياً على غيرهم وشعور الأغيار بهذا التفوق وامثالهم لهم على هذا الأساس ، وما ينتج على أساس هذه من الطاعة المتبادلة .

ما يتصف به بعض الأفراد من رجاحة في العقل ويصبحون محلاً للمشورة كالحكام والعرفاء في القديم وفي الجديد ، ومثلهم المتخصصون في فنهم من أطباء وفنيين ورجال الاجتماع وغيرهم ، كل في فئة ، تعاليمهم لازمة الاتباع عما يبدونه عن تخصصهم للأغيار ، ومثلهم آراء القضاة والحكام الذين عرفوا بالقسط والعدل والرأي الصائب ، كقضاة ومراجع التقليد في الفقه الجعفري وقضاة انكلترا ، وأمثالهم الذين أجمع الناس على تبهرهم في الفقه والأصول ومراعاة أصول العدالة والمساواة ، ومثلهم أئمة الدين الذين قطع الناس على تقواهم ، وعلمهم الذين ينظرون لله ويخافونه في كل كبيرة وصغيرة ويرجون ويخشون في حكمهم ونهيهم يوم الجزاء . تلك أمثلة يستطيع أن يقتدي بها الإنسان وتكون منهاجاً وقواعد لسلوكه في الحياة .

النمل

قلنا إن الطبيعة تركت في كل شيء أنظمة وقوانين وقواعد ، سواء كانت هذه حية أو غير حية ، وعلينا مراعاة ذلك ، ودون أن نتغاضى عن أي منها سواء كانت هذه بعيدة عنا أو قريبة خارجة عنا أو داخلية ، مادية أو معنوية ، مراعاة كل ذلك في حياتنا المادية والمعنوية مطبقين أقربها لنا ، فإن جهلنا القريب فالذي يليه بالقرب مهما كانت تلك وفي أي ناحية من نواحي حياتنا الاجتماعية والصحية وروابطنا بأنفسنا . وخارج هذه النفس ، والبحث عن تلك القوانين والقواعد الطبيعية التي باتباعها نعود في أي مورد وجهة إلى الحقيقة الواقعية ومنها السلوك الاجتماعي والروابط الاجتماعية في الإدارة والمواصلات والاقتصاد وفصل القضايا الحقوقية والجزائية والصحة والمرض (أصول الوقاية والعلاج) وأصول التغذية وكل شيء تتطلبه الحياة ، لهذا أوردنا نظام الحكومات والحياة الاجتماعية بين بعض الكائنات الحية التي تعيش مثلنا في حياة جماعية ، فتكلمنا عن النحل ونبهنا بذلك بالكلام عن النمل ، وأخيراً البحث عن حياة الأرضة ، ثم البحث عن الحياة الجماعية للحجيرات في البدن الإنساني ، وتمركز كل قسم منها في ناحية ما وما تشكله من نسيج وجهاز وتشابه وتضامن هذه مع بعضها وسلوكها تجاه نفسها وغيرها ، وبعد ذلك الاستفادة من الحياة الأحسن والسلوك الفردي والجماعي الأصح واللازم اتباعه والأنسب في سير البشر . ولنا في حياة النمل وسلوكه الفردي والاجتماعي وتضامنه وكده ونظامه المتقن في شتى شؤون الحياة منبع فياض .

النمل :

يعتبر النمل على صغره من الحشرات التي يعتد كثيراً بسلوكه بما يحمله من مزايا ويضمه في حياته من الأسرار المدهشة وما تختص به من صفات ، الأمر الذي دعا قادة الفكر منذ القديم كأرسطو وبيني - ادواني - سوامرون - لنيه - ولليام كولد وغيرهم من القدماء البحث عنه وما ورد في الكتب القديمة المقدسة مثل القرآن عنها كما وردت في سورة النمل الآية : إذ قالت نملة :

﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجوده ﴾ مما يدل أن النمل يفكر وأن النمل يخاطب بعضه بعضاً .

ونذكر من العلماء الحديثين في القرون الحديثة الأخيرة رنة انطوان ، دشولد دور مور في كتابه « تاريخ حياة النمل » في سنة ١٨٦٠ وبعد ذلك سنة ١٩٢٥ حصل على مذكراته ويلر الأمريكي ونشرها في نيويورك ، وكان رومور وهو فرنسي قد كتبها زمن وفاة لويس الخامس عشر عن عمر يعادل ٣٢ سنة . وقد ذكر أن النمل يستطيع أن يعيش سنة بدون غذاء في أرض رطبة .

ومن العلماء لواندون ، وسارل لوند أكبر الفلاسفة والعلماء الطبيعيين على الأخص في الحشرات ، وبير هور صاحب كتاب « أصول حياة النمل الوحشي » ، واسمان الألماني الذي قضى ٣٠ سنة في التحقيقات العلمية وله بحوث مسهبة . ومن علماء الحشرات الاستاذ مورلود ويلر وويلتريك وشارل دالت .

ويجدر بنا أن نبث بصورة موجزة عن صفات ومزايا وأسرار النمل لنقف على سلوكه وحياته الاجتماعية ونوع حكوماته ثم مقارنة ذلك بالإنسان .

العائلة النملية :

تتألف هذه العائلة من :

أ – الملكة وهي أنثى ومصدر التوالد وإيجاد الأولاد وتعيش حوالي ١٢ سنة .

ب – يلي الملكة الذكور والإناث .

ج – العمال وهم خنثى (لا ذكر ولا أنثى) مثل النحل ويعيشون ٣ – ٤ سنوات . وللذكور والإناث أجنحة تبقى لهم ما داموا بكمراً لم يتلاقحوا ، فإذا ما تلاقحوا سقطت أجنحتهم . ويختلف النمل عن النحل أن للنمل أمهات عديدات في البيت الواحد ، في حين أن النحل كما مرّ ذات أم واحدة لجميع من في الخلايا ، وهي الملكة ذات السلطان .

ويعيش ملايين النمل في مملكة واحدة ذات بيوت وإمارات كثيرة ، وسيأتي ما تتصف كل منها في الأصول الاجتماعي والعمرائي والإداري وطبقاتها ، ومراعاة قواعد وأنظمة كل منها ، وطاعتها العمياء وانقيادها ودأبها في أعمالها تحت سلطة لا يعلم للآن مديرها ورئيسها ، وتحت سيطرة أية قدرة وقانون تسير أمورها ، لهذا كثرت نظريات العلماء في تلك ، وما أقرب ذلك شهاً بنظام الحجيرات في البدن الإنساني في بعض الوجوه ، ومثل ذلك نحل العسل . لولا أن الحجيرات للبدن الواحد تمتاز بثبوتها وفواصلها في البدن الواحد ، وما لتأثير القوة الكهربائية في ضبط هذه في الجذب والدفع بالنسبة للفواصل الموجودة ، وما أشبه هذه الفواصل بالفواصل الموجودة بين الكرات السماوية بالنسبة لحجمها ومدى الفواصل بينها . هذه الحياة الصغيرة ما أشبهها بتلك الحياة الكبيرة . يقول العلامة ويلر لو فرضنا أن في قدرتنا أن نضغط الجسم الإنساني بحيث يجمع ما به من الحجيرات والقوى الكهربائية وأزلنا الفواصل لا ترى سوى جسم صغير هو بضعة مللترات مكعبة ، وليس هذا العمل بالمستحيل ،

فقد أوجدت الطبيعة ذلك في كثير من السيارات مثل (كوكب الشعراء اليماني) والأقمار التابعة للسيارة زحل بحيث أن لتراً من الماء لو نقلناه إلى أحدها أصبح له وزن يساوي خمسين ألف كيلو غرام .

ترى من هو الذي يعلم النمل والنحل عمل بيوتها وخلاياها ، وعدد المساكن والخلايا الحجم اللازم لكل منها حينما تراها دائبة على عملها؟ وعندها نقول يا ترى من هو الباعث على قيام الحجيرات في البدن الواحد في حالة الجوع ، والعطش ، والخوف والفرع وكل إحساس إرادي أو غير إرادي وشعورها بالشبع والارواء عند تناول الفرد المقدار المناسب وإجراء القدر الضروري والعمل اللازم؟ ترى كيف أن جميع جوارح البدن تشترك في هذا الاحساس وتفاوت من أجله؟ إننا في الواقع لليوم عاجزون عن تشخيص القدرة العظمى والقوى المبدعة والمنظمة والمسيطرة في البدن الإنساني بالنسبة للحجيرات ، ومثلها في بيوت النمل وخلايا النحل بالنسبة لهذه الحشرات . وما أعجزنا عن تشخيص ما يشابهها في الأجرام والكرات السماوية ، إذا ما أحصيناها لوجدنا الشمس لا تساوي حجيرة بل أقل من حجيرة لو قارنا الحجيرة للبدن الإنساني والشمس إلى مجموعة الأجرام الكونية .

ونزداد عجباً حينما نشاهد العمل المنظم الفني عند النمل المبني على تصميم سابق لتأسيس مأوى أو طعام أو غير ذلك ، مع أخذ كافة جوانب الاحتياط والانتخاب من عود وحشيش وشراب وانتخاب المكان المناسب بالنسبة للطقس والرطوبة والرياح وغير ذلك . ذلك الرشد ، تلك الحكمة ، هذه التعاليم هذه المعرفة ، هذا النظام الفردي والاجتماعي ، من هو الموجه والمدبر والمسيطر؟ هل هي تمشي حسب تعقل أو غريزة أو كليهما؟ وأي غريزة تجعلها تنتخب الأنسب والأحسن؟ أم هي تمشي حسب رأي وعقل وإدراك؟ وإذن لماذا هي باقية كما كانت عليه منذ آلاف السنين؟ هل هي مقيدة بعقائد ، أو تحت سلطة لا تسمح لها أن تحيد عما هي عليه؟

هذا ما لا يمكننا الجواب عليه : هل هي شبيهة بحجيرات البدن الواحد الموجهة إلى هدف واحد لخدمة عامة وخاصة؟ عامة كمجموع ولمجموع الحجيرات ، وخاصة كل لنفسه؟ لا شك انها تتفق مع الحجيرات من جهة وتبتعد عنها من جهات ، فالنمل كالحجيرات ذات تخصص وكل دائب على عمله الخاص .

طبقات النمل :

إن النمل مقسم إلى طبقات ولكل منها اختصاص يختص به ، فمنهم من اختص بالبناء فهو يجيده ويتقنه أكثر من غيره وليس لغيره القيام به ما دام هذا موجوداً ، ومن النمل من هو مختص بالحمل والنقل ، ومنها المحارب مجهز بوسائل الدفاع والهجوم ، ومنها من اختص بأعمال التناسل وحفظ النوع وغير ذلك . وهنا التخصص ليس على أساس التربية والتعليم ، بل لما يحمله من مؤهلات جسمية حيث يأتي تفصيل ذلك ، فمثلاً إن النمل المحارب يمتاز بقوته وشكل فكاه ورأسه وقواطعه وما يحمل في جسمه من آلات القطع والبتير والإبادة ، وهكذا غيره وما يحمله في عمله الخاص ، فهو مثل الإنسان في التقسيم ، ويختلف عنه أنه الإنسان قلما يراعي المؤهلات الجسمية في ذلك وإنما يقوم على أساس التربية والتعليم من جهة أو على أساس العنعنات العائلية وما يحمله من طباع وخلق موروثه أو مكتسبة . فلم يكن الحمال أحياناً أشد قوة وأمتن عضلات من المهندس ، ولم يكن الضابط له مؤهلات جسمية أكثر من غيره غير التدريب والتعليم وما يجهز به من أسلحة . وهل أن النمل يتأثر بالتربية والتعليم وعندها يمكن وضع العامل مكان المحارب وبالعكس؟ ما هو الداعي أن يسير النمل على هذه الشاكلة من النظام وأن تكون حكوماته بهذه الشاكلة من الجمهوريات؟ .

يقول الاستاذ هوبران أصل النظام بين النمل يقوم على أساس الحب والطاعة . ويقول الاستاذ اسيان مبني هذا الحب في اقامة النظام

الجمهوري إنما هو ذكاء النمل ، وهذه الغريزة الباعثة للحب بينها وبين أفراد النمل وغير النمل هي الباعثة لأصل النظام بينها .

من العجيب أن النمل يتفادى في سبيل جنينه أكان في بطنه أو بعد ولادته دفاع المستميت ويحافظ على حفظه ويدافع في كافة موارد الخطر دفاعاً شديداً ، كأنما يتوقف حياة كل النمل على حياته ، وما أشبه هذا الدفاع بدفاع حجيرات البدن الواحدة تجاه بعضها عند حصول خطر تجاه نقطة في البدن . وما تقوم به كافة الحجيرات في الدفاع والهجوم والألم والسرور وبذل الجهود وبلوغ الخير ورفع الشر بشكل جماعي .

خصائص النمل :

تعتبر النملة على عكس ما عرفها القدماء متناهية في الكرم والسخاء ، مجدة ، كدودة من أجل غيرها ، صبورة دائبة ، تقدم ما تجمعه في بطنها الذي يشبه المعدة والذي يؤلف أعظم أقسام جسمها لتغذية أبناء جنسها بحب غريزي ، دون أن تطلب عوضاً عن ذلك أو تحسبه ديناً ، فهي مجبولة على ذلك بل ان النملة تقدم ما تحمله حتى لغير أفراد فصيلتها وقبيلتها وحضيرتها ، وحتى لو كانت عدوة لها ، فهي تقدم لها أو لهم ما عندها من طعام قبل المعركة وعند نهاية ذلك تعود للحرب .

التوالد :

الأنثى ضعف حجم الذكر ولها أجنحة ، ولكل أنثى غالباً ستة أزواج ، ويتم التلقيح والمعاشقة في حالة طيرانها في الهواء . وبعد أداء التلقيح تموت الذكور وتنزل الأنثى وتسقط أجنحتها ثم تقوم على تنظيم وتنظيف نفسها ، ثم تذهب إلى مقرها وتشرع لتبيض وتعيش بما جمعتها في جسمها من الطعام ، وتبيض أولاً عدة بيضات لا تلبث أن تفقس وتصير حشرات فتغذيها أمها ، وتبقى بضعة أشهر أخرى وربما امتد ذلك إلى سنة ، وهي باقية في محلها ، وفي كل مرة تبيض بضعة بيضات وعندما

تجوع تأكل واحدة أو اثنين منها ، وتغذي الأخرى حتى تبيض آخر ما عندها ، وهؤلاء يكبرون ويشتغلون وبعد ذلك لا تشتغل الأم بل على أولادها تهيئة غذاءها وهكذا تتشكل العائلة . ومن العلماء الذين طالعوا حياة النمل . هوير . كوك بيشمان وجان في كتابه (لاسيوس) وقول وغيرهم قد وجدوا أن للنمل نحواً من عشرين ألف نوع لحد اليوم . فمثلاً يوجد نوع من النمل يسمونه كاربارا يعيش في إفريقيا الجنوبية له ملكة ذات حجم كبير يساوي ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ حجم النمل العادي منها ، وتحمل عندما تريد أن تطير في الهواء للملاقحة اثني عشرة نملة كبيرة على أرجلها . ويبض النمل صغير بدرجة لا يرى بالعين المجردة ويحتاج إلى مكبرة .

عمر النمل :

الذكور من النمل تموت كما مرّ بعد عمل التلقيح . والعمال تعيش ٥ - ٦ سنوات ، والاثني تبقى حية لتعمل دورين أو ثلاثة أدوار من أعمال التفريخ وبعدها تموت . ويختلف النمل في حياته عن النحل بأنه يعيش طويلاً بلا غذاء حتى ليكتفي بوجود رطوبة مختصرة في مقره .

وتختلف انثى النمل عن انثى النحل انها بعد التلقيح قد تذهب إلى غير مقرها الأول ، وهي أينما ذهبت يستقبلها نمل تلك المنطقة بشوق .

بيوت النمل :

تختلف بيوت النمل باختلاف أنواعها وربما تشابهت هذه بنظائرها ، كاختلاف البشر ، فمنها ما هي في غاية النظام والترتيب حيث نرى في مساكن المخازن المنظمة وعمل البيض وبيوت الحضانة والاصطبلات والصالونات ومحلات الصغار ومحلات الكبار ، كل على حدة ، وبيوتها ذات مناخ وحجم يناسبها ، كما نجد منها ذات نظام يدل على ذوق ورقي ودقة لحفظ الطعام والذخائر ، وأصول رعاية فراخها وبيضها . بينما نجد قسماً منها مهممل غير منظم وذا حياة مبشرة ، وما أشبهه بطبقات البشر من

حيث النظافة أو بحجيرات الجسم الانساني . فنرى في الإنسان السليم حجيرات وأنسجته تقوم بنظام مرتب كل بوظيفته ، بينما أجسام الناس السقيمة لا تقوم حجيراتها كلها أو بعضها بوظائفها المنظمة ، وعلى العموم يمكن تقسيم أنواع بيوتها إلى ثلاثة أو أربعة أنواع ، وهي غالباً تعيش تحت الأرض وكثيراً ما تكون طبقات حتى تصل إلى عشرين طبقة ، ومنها التي تعيش في الغابات يكون ارتفاع بيوتها ما يقارب المترين وسعته عشرة أمتار ، ومنها ما تنظم مجاري التهوية وتحافظ على طقس مناسب وتراعي أصول الصحة والنظافة ، ومنها ما تعيش مجموعات في مساحات نحو ١٥٠م^٢ منظمة ومرتبة في جميع شؤونها ، ومنها ما تفقد ذلك النظام كما نشاهد ذلك في حياة البشر المثقف وذو الحضارة المتوسطة والبدوية والبشر الذي يعيش أقرب إلى الوحوش في مجاهل افريقيا وبعض الجزر . وقد نقل عن المستر كوكو قميس في تبسلوانيا انه اكتشف أن النمل عملت مدينة لها مسافة تساوي نحواً من أربعين هكتاراً تحوي على ١٦٠٠ بيتاً منظماً عمقه ١م وسعته أربعة أمتار وفي كل بيت ما يقارب ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ نملة . ولا يهم النمل الليل أو النهار بالنسبة للضيء . وهو يحافظ جداً على نظافته اليومية الخاصة والعامة بالنسبة لجسمه وبيته ومملكته ومهتم بالأعمال الرياضية . وشديد الحرص على نظام البيت . وأصول التغذية ورعاية أفراد العائلة . وهو في أصول التغذية يسلك طريقين :

أولاً ، ما يجمعه ويحمله بين فكيه ويأتي به لمخازن بيته ويجري عليه ما يلزم أجراؤه لا مكان حفظه لأمد طويل ، مراعيًا درجة الحرارة وإمكان حياته في الحر وعدم إمكان ذلك في الفصول الباردة .

ثانياً : ما يحمله من الغذاء في بطنه في كيس خاص ومنه يقدم طعاماً لذويه وأبناء جنسه وحتى لغيرهم من الغرباء ، إذ النمل كريم جداً ، ومن صفاته الخلقية العالية أنه يود مساعدة الغير حتى لو كان عدوه فيقدم له عن طيب نفس ما يحمله عندما يراه بحاجة لذلك .

استراحة النمل :

حينما تأتي النملة إلى مقرها بحملها الثقيل الذي أتعبها غالباً ، أو قل بعد التعب أو الفراغ من العمل المجهّد ، يستقبلها أفراد اختصوا بهذا ، فيأخذون ما تحمله بين فكيها ، وما هوفي كيس بطنها ، ثم تجري لها التنظيفات مما علق بها من الأوساخ والقذارات وتمرغ اطرافها ، وتقاد إلى مقردها الهادئ للاستراحة والنوم العميق .

سكان الأشجار :

ما مرّ بحثه كان عن سكان طبقات تحت الأرض . وهناك أنواع من النمل تتخذ من جذور الأشجار بيوتاً ، فهي تحفرها وتعمل بها طبقات ذات سقوف وأعمدة وحواجز رقيقة مصقولة كأنها من مادة العظام القديمة . تقيم هذه الطبقات بصورة منظمة فتؤلف منها قرية أو مدينة داخل شجرة أو مجموعة من الأشجار متقاربة . كما أن هناك نوعاً يعمل بيوته في قشور الأشجار وهذا النوع يستعمل هذه البيوت بصورة مؤقتة حيث يهاجر ويترك بيوته لجماعة أخرى من النمل تهاجر هي الأخرى إليها .

بيوت النمل الاصطناعية :

قام جماعة من العلماء والباحثين عن حياة النمل أمثال هوبر ، أو فول ، لوبرك واسمان ، ميس أول ، شارل ترافت ، ويلر ، كوفر وغيرهم بأساليب متعددة وكل بطراز خاص ولمجموعة خاصة من النمل على عمل مساكن اصطناعية من الزجاج والخشب والجص والاستفادة من التراب الرطب على شاكلة بيوتات النمل ، مراعين في ذلك الحجم والنمط الخاص بها ، وبذلك سهلوا دراسة حياة النمل وكشفوا كثيراً من أسرارها بعمل ذلك وإسكان الكل فيها .

النمل المحارب :

النمل أكثر من كافة الحشرات تمدنا ونظاماً وكثيراً ما رأينا في طبقات النمل طبقة قوية تمتاز بطراز جسمها الذي خصته بها الطبيعة، تقوم بالدفاع عن الطبقات الأخرى ، وهذا أصل اجتماعي لمن يعيش بصورة جماعية وتوجد هذه الصورة أكثر بين النمل ذوي الأجنحة . وقد يوجد هذا الدفاع عند النحل (زنبور العسل) ، وذلك عندما يصبح عرضة لغارة جماعية من الأغيار (من النمل الغرباء) حينما ينسكب العسل لسبب ما .

والنمل أكثر الحشرات عدداً من النحل والإنسان ، مجهز طبيعياً بتجهيزات بدنه الدفاعية والهجومية القوية ، بما في ذلك في فكّه وأسنانه وذنبه اللاسع ، وطبعاً فيما بينها اختلاف في الشدة والضعف ، وبهذا تستطيع القضاء على غريمها بقطع أعضاء الأخرى أو لسعها وإفراغ سمومها فيها ، وهذا اللسع لا تستعملها إلا عند الضرورة .

فنون النمل الحربية :

يمتاز النمل بفنونه الحربية الموجودة عند الإنسان في الدفاع والهجوم ، بل وتمتاز على الإنسان في كثير من الأحيان لدرجة يكتسب الإنسان منها خبرة وعلماً في هذه الفنون ، وتختلف هذه باختلاف أنواع النمل شدة وضعفاً ، فهي تعرف معارك الميدان والحملات الصاعقية والحملات الجماعية وحرب الرّيات والخنادق والهجمات الفجائية غير المترقبة واستعمال الخدع الحربية والاستبسال والحروب الهادئة واشغال مراكز الاعداء بصورة أكثر وأدق مما هو عند الإنسان ، وتستعمل الدفاع السامي والحروب والهجمات المستميتة ، كما تعرف الانسحاب المنظم السريع . والنمل رغم كونه هادئاً فهو يعتبر أشد الحيوانات لياقة في الدفاع عن معاقله . وهو رغم ما يحمله من سلاح قوي فهو يحترم أفراد وأموال الآخرين نهاية الاحترام . ومع هذا يوجد بين النمل أشد قوة وأكثر

تجهيزاً ، ويعطي لنفسه حق التجاوز فيما يجده بين الآخرين ، ورغم ذلك فهذا الصنف يعتبر أذكى أنواع النمل وأكثره حضارة ، وقد وجد في هجوم قبيلة على أخرى ان الغاية إنما الاستيلاء وتصرف البيت بما فيه من إناث وبيض وأطفال ، كما وجد أن من دافع كان هدفاً للهجوم ، ومن لم يدافع فله الخروج سالماً إلى حيث شاء . وعلى المهاجمين الغالبين تربية أطفال الأسرى حيث فيما بعد يصبح الأسرى جزءاً من هذه القبيلة الغالبة ، ويكتسبون أخلاقهم ، وان كانوا من حيث الفطرة الجسمية مختلفين لأن النمل يختلف ذاتاً من حيث الذكاء والنشاط والقدرة الجسمية والفكرية ، وليس أخذ الأسرى من شيم وخصائص النمل بصورة عامة إلا بصورة استثنائية ، وهو من شيم النمل الخيلي ، والنمل المعمارك يمتاز بفكيه وعضلاته القوية ، وهو بحاجة ماسة لاستخدام الأسرى لأنه عاجز عن إيجاد الطعام ، كما انه عاجز عن بناء المساكن حضانة الفراخ ولا بد له من الخدم وإلا مات جوعاً هو وفراخه ، وعكس ذلك العمال لهم خاصة فائقة للخدمة ، وهم ذوو عواطف رقيقة ويدهم معونة واحياء النوع الخامل من النمل الذي لا يعمل بمدهم الطعام .

إن النمل الخيلي له قابلية فائقة ومدهشة لخوض المعارك والتضحية بما له من الغريزة المعنوية والبناء الجسمي فهو لا يعرف التراجع . وبغية وصوله للنصر يقضي على الصغير والكبير وحتى على القريب والصديق المقاوم حتى يدرك بغيته من الغنائم .

وهناك نمل أحمر دموي اللون شديد المقاومة والدفاع في مختلف الميادين والمعارك إلا أنه لا يطبق المقاومة أمام النمل الخيلي .

الثورة على الأسياد :

كما يحصل عند البشر ثورة الأسرى يحصل مثله عند النمل ، فتتهيج وتثور من شدة ضغط المؤسرين وظلمهم . كما يوجد نوع من النمل هادئ وحليم جداً في حياته الاجتماعية وجنى التغذية والتربية ، بيد أنه غالباً ما

يقع تجاه غارة المهاجمين ، فيكون ضحية للأسر والعسف ، وحينما يضيق به الرحب من شدة وطئه الأمرين يثور بما لديه من حول وطول وقوة ، كأنه كتلة واحدة وتقضي على تلك الشرذمة الطاغية وتطردها ، ولكن غالباً تبوء بالفشل ويقضي على نهضتها بعد تكبدها خسائر فادحة . كما يقع أمثال ذلك في حياة البشر .

الملكية عند النمل :

النمل كالإنسان تمتلك البيوت والطعام والأولاد والأسرى والمزارع المجاورة وغير ذلك ، وتشابه بعض الناس فتجاوز على حقوق الآخرين وتقع بينهم معارك دامية ومنها ما يقع بين النمل العادي ونوع من النمل العائش على الأشجار وأكل ألبابها المسمى بالنمل الأبيض، وحتى أن النمل العادي يأكل ذلك النمل وتفصيل ذلك في كتاب لوركنيون تحت عنوان المعركة بين النمل .

عواقب الحرب والاختلاط الاجباري :

مرآثارها عند النمل كما هو الحال عند البشر . فقد جربوا عندما يجمعون أنواع النمل سواء من نفس الجنس أو فصائل مختلفة ، تقع في البدء بينهم معارك تكون دامية أكثر كلما ابتعدوا واختلّفوا عنصراً ، وبعد مدة تختلف حسب تباعدهم وأحياناً يومين أو ثلاثة أيام ، بعدها تهدأ أوضاعهم ويسود السلام ويقومون بصورة جماعية لبناء مسكن أو عمل ، كما يتأثر الواحد من أخلاق الآخر وعاداته . حتى لتجد النمل المعارك (الخيلي) المار ذكره والمختص بدخول المعامع والمعارك فحسب ، والذي لا يعرف حتى تهيئة طعامه يتعود العمل مع العاملين وهكذا يلين طبعه الوحشي . وهذا عينه نجده بين البشر إذا حصل لهم مثل ذلك . وإذا محصنا علة الهدوء والسكينة بعد العراك كان السبب تغلب جماعة وانحدار أخرى وإطاعة المغلوب لأوامر وسيطرة الغالب وعندها تصدر أوامر الغالب وتعود الحياة إلى مجاريها .

النمل الوحشي :

هناك نوع من النمل الوحشي في البرازيل وافريقيا الجنوبية والمكسيك وغيرها من آكلة اللحوم ، وهي لا تعتبر مهاجمة بل بقصد الأكل والتخريب ، إذا حلت مكاناً لا تبقي من الحيوانات الصغيرة والكبيرة غير العظم رغم كونها عمياء ولم تخلف غير التخريب . فهي تتقدم كجيش جرار وليس بطاقة أي كائن أبداً المقاومة أمامها . تسير بقيادة ولأهداف معلومة وتشبه حملتهم بغارة لآلاف الذئاب الكاسرة الجائعة على قطع من الغنم ، بل وأشد إذ هم يأكلون ويحملون ، وكانوا قديماً في المناطق الموجودة بها هذا النمل يقدم لها المحكوم عليهم بالاعدام فلا تبقى منه سوى الهيكل العظمي . ومن غرائزها انها إذا قتلت في منطقة تركتها وهذا ما يعمل المزارعون في البرازيل .

وعندما تزحف جيوش النمل فهي لا تبقي في طريق سيرها على حي حتى لو كانت قرية قضت عليها بما فيها . ولم يكن لهذا النمل بيوت منظمة كغيره فهو دائماً في حالة حركة .

روابط النمل :

كيف تعرف النملة العمياء العائشة في الظلام وكيف تشخص ذويها وبنيتها وتهتدي طريقها وغير ذلك؟ .

لا يستطيع أحد الجواب القطعي على ذلك لآن ، بيد أن المجربين لاحظوا سبعة ثقوب على خرطوم أوفك النملة ، فقطعوا أحدها فعندئذ ضلَّت طريقها إلى الدار ، وقطعوا الأخرى ففقدت تشخيص ذويها ، وعندما قطعوا الثالثة ضلَّت طريقها ، وعندما قطعوا الكل فقدت تشخيص كل شيء ، فقالوا إن حاسة الشم هي التي تهديها في كل ذلك ، وهذه الحواس تختلف قوة وضعفاً باختلافها من حيث الفصيلة والسن والجنس أكان ذكراً أم أنثى ، في حين أن هذه الحواس موزعة على جميع البدن في

بعض الحشرات . فمثلاً الفراشة تعرف طعم الأشياء بأرجلها ، وكل رجل تشخص ما لا تشخصها الأخرى وعند بعضها حساسية قوية جداً بحيث تقدر من تشخيص الشيء على بعد أميال ، أو تتأثر في الزمان القريب أو البعيد وتتأثر من العوامل الكهربائية والمغناطيسية أو قوى الطبيعة الأخرى المكتشفة من قبل البشر أو التي لم تكتشف بعد ، وأمور أخرى لم يتوصل إليه البشر بحواسه وعلمه لليوم . وهذه الإحساسات التي توصلوا إلى بعضها لها أثرها الكبير عند النمل والحشرات بحيث أن فقدانها يؤثر على تلك الحاسة . فالطرف الحساس في النمل يقوم مقام العين وحاسة الشم واللامسة والناطقة وغيرها من الحواس ، وما أسرع ما ينتشر أي خبر على وجود صيد أو حدوث خطر على البيت بين العائلة والقبيلة الواحدة من النمل ، وقد أجريت مختلف التجارب على ذلك ، ووجد كيف أن النمل يشترك في المساعدات الجماعية ويسهل الصعب في العمل أو الحمل والنقل وكل شيء لا يطبق عمله بانفراد . رغم ما تجده من مساعدات النمل لنوعية تجد إذا مرض أو قتل أحدهم قادوه خارج البيت وتركوه ، ومثله النحل إذا مرضت نحلة أخرجوها من البيت وأحياناً القضاء عليها ، وهذا ما كان يعمل به بعض البدو في القبائل البدوية قديماً ، عندما كان يصاب أحدهم بمرض مسر مثل الجدري فيتركون عنده ماءً وطعاماً ، ويرحلون عنه حذر العدوي ووقاية لبقية أفراد العائلة والقبيلة ، وبذلك يفقدون الفرد لسلامة الجماعة التي سيصيبها نفس المرض . وقد يكون للنمل ذلك الشعور والمدى الصادق بمرض الموت لمريضهم ، أو هي غريزة طبيعية تحفظ بها سلامة النوع .

وشاهد أن جنود النمل لا تغير أهمية لإنقاذ غريق أو جريح في ساحة الوغى في الدفاع والهجوم . بيد أننا أحياناً نشاهد بعض الأنواع تراعي أفرادها في طعامها وحتى تبقى تمرض مجروحها وعلى الخصوص الملكة وحتى بعد موتها . هذه الصفات موجودة عند البشر البدائي في أمر

عدم الاكتراث بالآخرين وعدم مد يد المساعدة ، إلا عند أولئك الذين يحملون الروح الأخلاقية الفاضلة ، أو المتدينين الذين يرجون بإحسانهم الجزاء الأوفى في الآخرة .

قلنا إن النملة عمياء لكنها تهتدي إلى طريقها ، ويقال إنها تفقد حس السمع ، غير أنها مجهزة بحواس أخرى ، يقال انه حس الشم الذي يقدر ان يميز بين أنواع الروائح لشتى الأشياء ويقدر مسافاتهما ، كما أن بعض الحيوانات مثل الطيور المهاجرة والخيول وغيرها لها حواس يسمونها بالحس الثاني عشر لا توجد عند البشر .

الوعي عند النمل وتربية الدواجن :

قسم من النمل كالإنسان البدائي القديم حتى عندما كان يعيش في الغابات ، كان يحاول أن يعيش في أماكن قريبة ومن الصيد البري أو البحري أو يقوم بتربية نوع من الحيوانات . هكذا نرى أقساماً من النمل كل حسب غريزته وعاداته ، فمنها ما تجاور الأماكن القريبة من الحشرات التي يستفيد من لحمها أو من حليبها ويحافظ عليها ويرعاها . كما نشاهد قسماً من النمل السمي (الآسيوي) يأتي بأغنامه وحشمه إلى مسكنه ، ويعمل لها حضيرة ويقص أجنحتها ويقوم بتربيتها ويعتني بنظافتها ويحميها من التعديات ، كما يحمي مسكنه وفراخه وأمواله ويحافظ عليها في الحر والبرد ويقوم بتنظيف اسطبلاتها والخب . كما يجمع بيوض بعض الحشرات ويأخذها لبيته ويعمل على تفريخها وعندما تصبح افراخاً يعتني بتربيتها اعتناءه بفراخه . وقد وجد أن بعض النمل يستفيد من نوع من الديدان الأرضية بعد تدريبها ليركبها كالفرس ويحافظ عليها من الأغيار باعتبارها ملكاً له . كما وجد في الهند قبل هطول الأمطار ان النمل يحمل قسماً من الديدان التي تصير فيما بعد فراشه ويقوم بتربيتها كأنه عالم بذلك .

النمل يستفيد من الزراعة :

وهناك نمل يعيش على أشجار الغابات وعلى نوع شجرة تسمى (پارازيت) وتعمل بيوتها ظاهرة إلا أنها قوية تجاه العواصف والأمطار ، وتقوم على تربية نوع من النبات حيث تستفيد من جذوعها لبناء بيوتها .

وهناك نوع آخر من النمل يقوم على زراعة نوع من النباتات التي تحمل أوراقها إلى حضيرتها ، والبعض تجمع نوعاً من الحبوب عند مدخل بيوتها وتغطيها بالتراب وعند هطول المطر تخرج فيستفيد النمل من لبانها لطعامه ومثل هذه الأخيرة توجد في شمال الجزائر وفرنسا . وفي المناطق الباردة لا يدخر النمل طعاماً لشتائه ، وفي المناطق الحارة يدخر لشتائه ويرتب الحشيش والبذور والطعام الذي يجمعه ، ويحاول أن لا يفسد والبذور لا تخضر وأحياناً يكسرها ويحافظ عليها في المذخر طيلة الشتاء ويخرج الفاسدة وغير المفيدة منها .

النمل الحائك للنسيج :

اكتشفت منذ ثلاثين ونيف سنة في المناطق الحارة ويقدها البعض من السكان لأنها في المناطق الزراعية تدافع عن الزرع ، فهي ضد الحشرات المؤذية حيث تقضي عليها وتعمل بيوتها على أوراق الأشجار ، حيث توصل عدة من الأوراق الكبيرة ببعضها بنسيج تعمله من لعابها ، كما تعمل منه بيوتها ذات الطبقات وكما تربط بذورها بهذا النسيج . وهي إن أرادت إيصال ورقة بعيدة عملت من أنفسها حبلاً يوصلها نملة بأخرى حبلاً على قدر ما تشاء ، طويلاً يبدأ من النقطة التي بها الورقة وتثبتها إلى المحل الذي تريد إيصالها إليها ثم تقوم بربطها بالنسيج المذكور وعملها هذا مدهش حقاً . وقد وجد أن بعض النمل يحاول المستحيل حتى يدرك بغيته فهو يبتكر العبور من على سطح الماء والعبور من فوق النار وحتى ما لا يتصوره البشر من عظم التضحية والمثابرة مما يدل على فكر وتدبير سابق .

ذوات المذاخر :

في المناطق الحارة والمعتدلة يوجد نوع من النمل الذي يعيش على النبات وأخص منها الفواكه يجمع في بطنه العسل ما يساوي ٣ - ٤ ، أضعاف وزنه وأحياناً يصبح كحبة عنب ويأتي به ويدخره في بيته الذي يعمل بطبقات داخل الأشجار بطول ٣ م وعمق ١ م وعرض ١/٢ م وتبقى النمل أشهراً ثم تموت ، ويقوم النمل الصغار باستفراغ العسل منها ثم حملها بعيداً عن مساكنها .

ويستفيد سكان المناطق من عسل هذه ، وقد شوهد هذا النمل أحياناً يمتص من خلايا النحل من العسل لدرجة الافراط حتى الموت ، ولا يمكن تفسير ذلك بسهولة وعلى كل فهناك أسرار أعمق وأدق للنمل لم نتوصل إليه . والنمل في الإمارة أو المملكة الواحدة ينقسم من حيث التخصص والأعمال فهو داخل البيت له وظائف خاصة بكل نوع ومنها ما لا تخرج للفضاء الخارجي ، فهي إذن تختلف شكلاً وحجماً وقيافة .

النمل يطفىء النار :

في بعض المنشورات والمجلات ذكرها موريس مترلنج في كتابه « النمل » بأنه جرب أن نوعاً من النمل المسمى « روبا » كل واحدة من مجموعة ستة منها لها قابلية اطفاء النار .

اتقاؤها من ضرر الماء :

كما وجد انها إذا وجدت ماء يهددها تلقي فيه تراباً إلى أن تملأ الحفرة وهذا يدل منها على فكر وتدبير .

النمل الطفيلي :

ويسمى بارازيت فوانكل وهو نوع من النمل ، وينقسم بدوره إلى عدة أقسام حسب العمل الذي تقوم به وهي تعيش على كد غيرها ، فهي إما أن تسرق أو تغير وتسلب حقوق الآخرين في غارتها ، أو تحتال على

الغير ، فهي طفيلية على النمل ، وقد ذكرنا سابقاً صفات ومزايا النمل الراقية في الجد والمثابرة وحب النوع والبر والاحسان ، بيد اننا نرى في ندرة منها شذوذاً لم يستطع للآن تفسير ذلك ، رغم مطالعات ذوي الفن حول ذلك ، حتى شوهد أن من هذا النمل الطفيلي على صغره يتسلق بيوت النمل ويدخل مساكنها ويصل بيوت الحضانة والبيض ويتقرب إلى الملكة الأم ويسرعة فائقة بما يحمله من فك قاطع يقطع رأسها ، وعندئذٍ تهرب بقية الأمهات ، وفي هذه الفترة من الذعر والخوف تستولي على البيوض والذخائر . وما أشبه ذلك بما يحصل لبعض البشر وبنفس الشاكلة سيات منه الإنسان العائش على حالته البدائية والأشبه بالوحشية ، وما نجده بين الأمم المتحضرة وأشدّها تحضراً تلك التي باسم الحضارة والمدنية تسلب ممتلكات غيرها وثروتها وتعويضها بالويل والدمار والقتل والفقر وتلقي بينها التفرقة والنفاق . والفرق بين المتوحشة والتمدنة إن التمدنة تقوم بأساليب أشد فتكاً وأوسع نطاقاً وانها تسلب ثروة أمة أو دولة وتقضي على الآلاف عوض الأحاد .

وحسب ما انتهت إليه التحريات أن هناك نوعين من الطفيليات :

١ - نوع يعيش على السرقة والغارة والحيلة والنصب لسد جوعه وامرار ، معاشه .

٢ - نوع آخر يرد بيوت النمل ويعيش بين أفرادها وجماعاتها ، والنمل يقدم له عن طيب نفس أنفس طعامه وغذائه حتى يفضل على نفسه وأولاده ولا يعلم للآن علّة ذلك . وعند البشر نفسه من النوعين طبق النمل بالنمل تماماً . وربما كان النوع الثاني من طراز الذين يعيشون على الشعر والأدب والدين وتهذيب الأخلاق من الذين لا نشاهد بالعين المجردة سعيهم المادي وعملهم بالمشاهدة ، وإنما عملهم يقوم بالتربية الروحية والعقلية والفكرية . الخ .

كما أن هناك حشرات طفيلية غير النمل تعيش على كد النمل أو

عليها نفسها . فالتى تعيش عليها نفسها كذلك التى تعيش على الحيوانات والإنسان كالقمل والبرغوت والبق وما شابه ذلك . والتى تعيش على كدها كما فى البشر الذى يستفيد من الكلاب والطيور المغردة فى صوتها أو محاسنها وظرافتها وجمالها ، وفى الطفيلية من يكمن فى طريق النمل العامل وعندما يأتى هذا بحمله من الطعام لأطعام فراخه يتسلق هذا الطفيلي ويلتصق ببطنه ويمتص ما يريد من الغذاء والنملة لا تمنع بتاتاً ، ومنها ما تفيد النمل حيث تقضى على الحشرات المضرة والمزاحمة للنمل وتدافع عن النمل ، وكثير من هذه الطفيليات ذات خرطوم طويل ومخالب معقوفة وقد وجد منها مجموعة فى المناطق الحارة قد تصل إلى ٣٠٠ نوعاً ، وهى تتصف بالكسل والعيشة على كد الآخرين ، ويظهر أن النمل يحب هذه الطفيليات ورغم ذلك فهى خطيرة جداً لأكلها غذاء النمل وأحياناً أكل النملة نفسها ، ومنها ذات أنواع كبيرة وصغيرة ، ويظهر أن النمل رغم ما تكون له من الأخطار فهى لا تحمل تجاهها حقداً وربما أحياناً تعطف عليها كما نعطف نحن على القطط وبعض الطيور أو الكلاب ، غير أنه على العموم هى تختلف عنه لأنها مجبولة غريزياً على هذا العطف والكرم تجاه الأغيار . ونحن وجدنا الذين يحملون عنصر الأنانية وحب الذات ولا نمد يد المساعدة إلا بأمل ومقابل شيء ، فنحن نكرم بعض الحيوانات الطفيلية مثل الكلب لأننا نستفيد منه والهرة لملاطفتها ، وأما التى نشعر بضرر منها كالقمل والبرغوت وأي حشرة صغيرة أو كبيرة ، فلا نألو جهداً من إبادتها والقضاء عليها سواء كانت من الحشرات الصغيرة المار ذكرها ، أو الأكبر كالفأر ، أو الأكبر منها أيضاً كالثعلب وابن آوى والأرانب الوحشية التى تفتك بمزارعنا ، كما أن هناك طائفة من البشر يعيش طفلياً على كد الآخرين ، وهؤلاء على نوعين أو ثلاثة النافع والضار والمعتدل ، ولا نقدر أن نحسب المعتدل أحياناً إلا ضاراً لأن وجود هؤلاء الأفراد لمجرد عدم كدهم وسيرهم مع أفراد البشر يعتبر ضرراً يلزم اما تهذيبه أو التخلص منه .

وبالتالي، يمكن القول بأن النمل أوسع نظاماً ، وفي أكثر الموارد أسعد حظاً في حياته ، من أكثر المخلوقات ، ومنذ ملايين السنين وهو يعيش على هذه الوتيرة المنظمة ، في حين أن البشر يتقلب في حياته . ورغم ما نراه اليوم من التقدم العلمي والصناعي فهو أقل سعادة من العهد الأسبق .

والنمل مجهز طبيعياً وغريزياً بما يكسبه مناعة وقوة أمام الصعوبات والشدائد وعوارض الطبيعة ، فهو في حرز من كثير مما ينتاب البشر من الأمراض الجمة كما أنه مقاوم أمام الحر والبرد والجوع والعطش بدرجة فائقة . وبما يحمله من الغرائز السامية ، شديد العطف ، كريم النفس ، ولا نجد نملتين في عائلة واحدة تتشاجران ، كما نرى ذلك في خلايا النحل حينما يسمح للملكة بالقضاء على الملكات والأميرات الأخرى حتى في نفس الخلايا المكونة للعائلة الواحدة ، وقد وجد أن العوائل والقبائل النملية المتجاورة كثيراً ما تساعد جيرانها في كل شيء حتى في نقل الأثاث والمهاجرة .

وتشعر النملة بالسعادة كلما وجدت مناسبة لمساعدة الأغيار ، ولا يثبط عزيمتها السوانح والمشقات ، في حين أن السعادة عندنا نحن البشر إنما تحصل في تخفيف الآلام التي تلم بنا .

وللنملة ميزة فائقة في التصاميم الجماعية والعائلية ، وهي تعيش سعيدة على ما تسديه من المساعدات للآخرين ، مساعدة تبلغ بها لدرجة الفناء .

مقارنة الإنسان بها وبغيرها :

الأمر الذي لا جدال فيه ان نظام العالم يرتبط بقوانين طبيعية واجتماعية واقتصادية ، بما فيه من حيوان ونبات وجماد وغيره ، من صغير وكبير ، يرتبط بمبدأ واحد وتحت قانون واحد لا زلنا نجهله ، وما نعلمه

إنما هو بنسبة ما نشغله من مكان وزمان ، في المكان والزمان غير المتناهي ، لهذا العالم وبما أوتينا من حواس وقوى ضعيفة محدودة وناقصة .

فالكل يتساءل عن المبدأ والمصير والعلة والغاية والنتيجة . ما هو الفرق بيننا وبين باقي الحيوانات بما فيها النملة والنحلة؟ نحن ندعي أننا ذوو عقل وغرائز وهي ذات غرائز ، فما هو الفرق بيننا؟ ومن هو المتحكم في الحياة؟ أهى الغريزة أم العقل أو كلاهما؟ .

وهل هناك حد فاصل يفصل بينهما؟ وهل هي ذات عقل أيضاً؟ ومن منا أكثر صواباً ومن منا أكثر إرادة وتحكماً وقوة؟ ما هي الحواس والخصال التي تملكها وما هو سعة علمها وقدرتها ونسبة ذلك لنا؟

والحقيقة إننا نجهل كل شيء . ورغم عقولنا فنحن نجهل لماذا جئنا وإلى أين نسير . وتتحكم بنا فراداً وجماعات قوى لا طاقة لنا من مقاومتها . ويكفينا ما نجده على مدى حياة البشر من الصراع والتزاع المرير الفردي والجماعي الذي يستنكره العقل السليم ، صراع يتنافى مع روح العدالة والإنسانية والوجدان . كلنا نتساءل : لماذا؟ وكلنا يبقى صامتاً جاهلاً .

نعمل أعمالاً إذا كانت النملة والنحلة وغيرها ذات عقل ومقياس لحكمت علينا بالجنون والوحشية بكل ما لا يمكن تطبيقه على الفكر والمنطق والعقل . فهل آن الأوان أن ينصاع المرء وأن تنصاع الجماعات لنداء الوجدان والضمير وتسير بوحى العقل ونور الحكمة؟ لماذا لا تسير وكل منها تطلب السعادة وهذا طريقها الواضح؟ .

من عجائب الحياة اننا رغم عقولنا فنحن كالحيوانات الأخرى ، عرضة لافتراس أصغر الحشرات والجراثيم غير المرئية ولا حد فاصل بالنسبة لقوة الجسم وضحامته . وهكذا الحيوانات فقد تقتل الحشرات

الصغيرة الكبيرة بسمها ، كذباب تسي تسي ، ولما تتعرض الحيوانات الضخمة مثل الفيل والكركدن لنوع من البعوض لا يبقى لها غير العظام . وكأن الطبيعة تركت الخصام والتعدي والتجاوز بين المخلوقات ناموساً من نواميسها . وليست حقيقته القدرة والقوة بالنسبة للصغير والكبيل إلا لما تركته وجهازته به الطبيعة من سلاح وغريزة وخصال . وأشدّها تجاوزاً على حقوق الآخرين من بني جنسه وغير بني جنسه إنما هو الإنسان . ويرر تجاوزه كما شاء . والذي طالما استخدم الناس لعقله وتفكيره في سبيل اشباع غرائزه الفتاكة حتى بنفسه وحتى للقضاء على نفسه وذويه .

وإذا عدنا لحياة النملة والنحلة واستخلصنا النتيجة والثمرة الحاصلة وجدناها أكبر سعادة وأقل آلاماً من هذا الإنسان . وإذا عدنا لتقسيم الأعمال بين هذه الحشرات لوجدناها لا تقوم إلا بعمل هو من تخصصها فالعمار هو غير الزارع والزارع غير المستخدم والمرضع وهكذا كل يعمل بما يحسنه ومكلف به . ولكن الإنسان طالما وضع الشيء في غير موضعه .

ولو بحثنا في خصال الحيوانات لوجدناها على اختلاف أنواعها لا تتعدى ولا تتجاوز على الغير إلا لسد جوع أو عطش أو جمع ذخيرة محدودة كما في النمل والنحل . غير أن الإنسان هيهات أن يكتفي بما يكفيه ليوم أو سنة أو حتى ما يكفيه لطول حياته ، فهو لو أعطى الأرض أراد السماء أيضاً ، ولو أعطى المجموعة الشمسية تجاوز لغيرها بدافع الغريزة التي طالما تغلبت على العقل وحملته أشد الأتعاب والآلام وعذبت الوجدان عذاباً يهون معه الانتحار والحرمان من الحياة .

الأرضة

هي من الحشرات الذكية التي تعيش عيشة اجتماعية كالنحل والنمل ، غير أنها تختلف والنحل كونها على طرفي نقيض من حيث نوع الحياة . فحياة النحل تحت الضياء والفصول الجميلة وفي أجمل المناطق المزدانة بالحشائش والزهور والهواء الطلق ، في حين أن هذه تعيش في ظلمات وأماكن بعيدة عن العيون ، كما لو شبنهاها بالأطمار الأرضية والسجون الموحشة . والنحل للآن يتسابق البشر لتكثيره لما فيه من الفوائد الجمة ، وهذه بالعكس . ولهذا كان توجه علماء الحشرات بصورة مفصلة ومسهبية لدراسة النحل وكانوا أسبق لدراسة النحل عن هذه ، ورغم هذا فقد تخصص علماء كثيرون لدراسة حياة هذه ، وقسموها إلى مائة وخمسين فصيلة ، اكتشفوا منها ما يربو على ١٢ - ١٥ نوع تختلف باختلاف المناطق والقارات ، وهي مجردة من كل سلاح أمام أعدائها ، بالنسبة للنمل والنحل ، ولكل منها وحسب المناطق التي تسكنها أسماء وفروق في شكلها ومعيشتها . وقد ذكر في العلة وراء عدم دراستها ، وهناك علل أخرى ، إن أهمها تعيش بعيدة عن مركز العلماء الطبيعيين والعلماء المختصين بعلم الأحياء ، وأخص منها حياة الحشرات ، وأخص منها أوروبا ، فإن هناك منها ما لا يقاس بالنسبة إلى ما يوجد منها في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا بعيدة عن فحول العلماء وبعيدة عن الأجهزة الضرورية لدراستها . ومن جهة أخرى إنها تختلف عن زنبور

العسل الذي بالإمكان صنع خلايا له ، وعن النمل من صنع بيوت زجاجية له ودراسة حياتها من وراء ذلك بصورة جلية ، وبيوتها العائقة والتي أشد صلابة من الصخر والسمنت وقد لا تتأثر بالصلب وتنزل امتاراً إلى عمق الأرض ، وكثير منها تدافع عن بيوتها بصورة جمعية وبلسعات تحتاج إلى وقاية قوية منها . منها ما تختار أماكن يابسة وأخرى رطبة وأخرى على الأشجار ، وفي كثير من المناطق الأفريقية والأمريكية يضطرون لمد سكة الحديد وشق الطريق لاستعمال الديناميت لقلع هذه الأبنية التي قد يبلغ ارتفاعها إلى ٦ - ٨ أمتار وبدرجة لا تتأثر من عبور وإقامة الحيوانات الضخمة على ظهرها مهما أقامت حتى ان هذه البيوت تبقى قائمة وتنمو عليها الأشجار . وإن هذه الحشرة المبيدة لكل شيء لا تتعرض لبنائها وما نشأ عليه كأنه بناء مقدس ، وهذه المادة التي تبنى بها وتصبح أقوى من السمنت تخرجه مائعاً من جوفها ، ولها تخصص وخبرة كل فرد منها في نوع البناء ومكانه وشكله . هذه الأبنية لها متانة وصلابة ومقاومة فوق القصور أمام الأمطار الاستوائية الشديدة . وأما مدة دوامها فقد وجدت انها بنيت من أقدم العصور ولا تخليها إلا بسبب مرض يقضي عليها . وللقضاء على هذه الحشرة استخدم نوع من النمل الذي بعد معارك طاحنة يقضي عليها .

ملكته :

ولهذه الحشرة ملكة وملك فالملكة يبلغ حجمها ٢٠ - ٣٠ ضعف الحشرة العاملة لهذا يعمل لها مقر خاص تبقى فيه ويختفي الملك في ناحية تحت بطنها الكبيرة دون أن يقدر الخروج منه ، في حين أن العمال بقدرتهم المرور بحرية في الممرات . . إن هذه الحشرة لا تقدر الحياة بدرجة برودة تتجاوز ١٦ ، لهذا نرى انها مهما كانت درجة الطقس الخارجية فهي تقوم بعملية داخل المخايء بحيث تبقى درجة الحرارة بين ٨٠ - ٨٥ فهرنهايت ، وتنزل الحشرة إلى أعماق الأرض لصنع مخايء

وغرف لها يصعب جداً الوصول إليها ، وحين الوصول تكثر التجمعات هناك ، ويشاهد هناك في المخازن قطع الخشب والحشيش الناعم ويظهر أن الحشرة عندما يقل طعامها بسبب ما ، تضطر لأن تأكل من نفس البناء الذي صنعتها من عصارة وإفرازات باطنية في جوفها . وتترك فتحات في الطوابق العليا المؤدية إلى سطح الأرض بصورة احتياطية حينما تفاجأ بما يسبب فناء وموت عدد كبير منها لنقلها إلى سطح الأرض المواجه لحرارة الشمس لنشرها ، وبعد جفافها تستفيد منها للتغذية . كما وجد أنها عندما يبلغ عددها النسبي أكثر من اللازم تجمع الزائد من نفس الحشرة في مخازن حية لتستفيد من أكلها ومن لحمها الطري ، وربما كانت طبيعة الأرض أو أكل نوع مشترك بينها وبين بشر تلك النواحي مما نجده حتى في ساكني تلك الأسقاع من البشر ، أنهم يأكل بعضهم بعضاً . ذلك ما بحث عنه في مساكن الحشرة في الكنفو البلجيكية .

وقد تحير العلماء في تعليل إيجاد الرطوبة اللازمة لهذه الحشرة ، هل هي تأخذ ذلك من أصول الأشجار مع العلم انها تعيش في أحر الأماكن وأكثرها جفافاً ؟ أم هي تستفيد من أكسجين الهواء وهيدروجين النبات وتشكل الماء وتعمل ما تحتاجه من المائع لبناء مساكنها؟ وغذاؤها من سلولوز النبات والأخشاب تحليلها لتغذيتها بواسطة طفيليات في جوفها ، أو خارجة بمساعدتها تحليل السلولوز وتغذاه بعد موتها وتتجاوز اعداد هذه الطفيليات الملايين .

تختلف هذه الحشرة عن النحل في حياتها الاقتصادية والاجتماعية ، فهي أكمل من النحل في هذه الناحية ، فنحن نعلم أن السلطة في النحل بيد الاناث ، فمنهم الملكة ومنهم العمال والأميرات ، وأما الذكور رغم كثرتهم فهم دون فائدة تذكر وهم عالة على الجميع إلا ما يجري لواحد منهم ليلة الزفاف مع الملكة ، وبعدها يقضي عليهم جميعاً ، فقطع جناح من جناحهم وطردهم من البيت وتركهم بيد القدر حتى يموتوا جوعاً ، أما

هذه الحشرة فإنها تنقسم إلى عدة أقسام ، ومن بينهم العمال وهم خليط من الذكران والإناث وييدهم اعاشة الجميع ، فكل عامل يقدم طعام الجائع من الطبقات الأخرى بإشارة واحدة مما يخزنه من الطعام في جوفه ، وإذا ماتت الحشرة أو نزعت جلدها القديم التهمت كغذاء بلحظة واحدة ، وأما نظافتها فيجري بصفة عملية إذ أن إفرازاتها تستعملها اما في الصناعات الخاصة بها أو للتغذية ، فالإفرازات يستفاد منها لإحداث الأنابيب أو الغرف أو المقصورات للملكة والملك أو عمل فتحات للضيء أو التهوية ، ولها قدرة فطرية على الصناعات الكيماوية من احتياجاتها ، فهي مع انها عمياء وتفقد حس الشم تشعر بكل ما في الطبيعة ملداً لها .

العمال :

والعمال قسمان ، قسم أكبر حجماً وذو قواطع تصلح للسير لمسافات بعيدة وقطع الأخشاب وحملها للداخل وهم أقلية ، والأكثرية أصغر حجماً وعملها الخدمات الداخلية في ايجاد الطعام كما مرّ لجميع السكنة وخدمتها والعمل الداخلي وتنظيم وتنظيف ما تحتاجه المملكة وتعتني بالحضانة والتربية والشؤون الأخرى الداخلية .

الجنود :

وعلى طبقة العمال طبقة الجنود من حيث الأهمية

وتلي طبقة العمال طبقة الجنود من حيث الأهمية ، وهي من الذكور والإناث ، وهذه عدة أقسام ومنها ما تحمل في رأسها مائعاً تزرقه من بعد عدة سانتيمترات على أعدائها فتفلج حركتها . هذا إذا أضفنا إلى ما اتصفت به من عظمة ابنتها وقلاعها ومهارتها وإبداعها بالنوع والتمتانة ، التي تريده بدرجة لا يقدر ألد أعدائها من النفوذ إلى داخل مدينتها ، مع العلم انها لا قدرة لها غير ما ذكر على الدفاع ، وانها خير طعمة للنمل وكثير من الحشرات الطفيلية ، ويعتبر النمل ألد أعدائها ولهذا يقضي بعض

السكان على الحشرة باستخدام أنواع خاصة من النمل ، وربما كان النمل خير حشرة حفظتنا من شر هذه الحشرة وحددت حياتها في بعض الجهات . لهذا ترى هذه الحشرة إذا ما حدث ثلم في جدار إحدى بيوتها رمتها في طرفة عين ، وإذا ما عملت منافذ للتهوية أو للخروج جعلت عليها أشد الجراس والمدافعين ، وإذا ما هاجم الثلم نمل أو غيره وجد أن المدافعين مدوا خراطيمهم ليذرفوا المائع على المهاجمين ، في حين إن آخرين أعلنوا الخطر في الداخل فجاءت النجدة بمحافظين جدد ومرممين لسد الثغرة ، وخلال هذه الفترة يضحون على قدر المهاجمين بالتضحيات حتى يتمكنوا من سد الثلمة ولو على بعد . وهم يقاومون لدرجة فناء كل الجنود ، وقلما يستطيع النمل من التغلب على جميع البناء لسرعة ما يبذله العمال لترميم وشدة ما يبديه الجنود للدفاع . لأن بذلك مصير حياة أو ممات المملكة . ويظهر أن هذه الحشرة ذات سمع ، وتسمع الأصوات إذ عند الهجوم يسمع من المدافعين في الخارج والداخل أصوات مرتبة كدق الساعة ، ويعتبر عدد الجنود نحو خمس أفراد المملكة ، وفي أخرج ساعات الخطر بإمكانهم أن يعملوا ما يروق لهم مع السكان ، بيد أنه لا يكون ذلك وكأنهم يسيرون طبق قوانين دقيقة ومقدسة ، حتى وجد أن عددهم إذا زاد عن المقدار المقرر قضوا على الزائد كما مر ذكره ، والجنود قد تقوم في غير وقت الدفاع والهجوم بأمر عامة والقضاء على الزائد إنما يتم بعدم تغذيتها وموتها جوعاً إذ ليس بإمكان ١٠٠ عامل أن يقابل جندي . والعجيب كيف يحسب ويعد الزائد وما هو السبب؟ هل تلك قضية اجتماعية أو اقتصادية أو صحية توجب ذلك تلك من الأسرار الغامضة للآن .

وتختلف هذه الحشرة عن النحل والنمل انها ذات صوت تتفاهم مع بعضها ، وانها تسمع بعضها ، وانها رغم وسعة رقعة المملكة تتبع ملكاً واحداً ونظماً واحداً .

العائلة المالكة :

ويتألف أولاً من الملك وهو صغير خجول خائف يختفي طي بطن الملكة .

الملكة وهي مهيبة الجسم بالنسبة لبقية الأفراد ، بحيث يبلغ طولها في بعض الأنواع ١٠٠ ملليمتر ومحيطها ٧٧ ملليمتر ، في حين ان الافراد بطول ٧ ملليمتر ومحيط ٤ إلى ٦ ملليمتر والام سمينه كثيرة التوالد بصورة مستمرة تضع في كل ثانية بيضة ليلاً ونهار بدون انقطاع ، ويتناوله الخدم للحضانه ويحيط بفمها مئاث الحاملين للغذاء بصورة مستمرة ، في حين تحيط بها ألوف أخرى تتناول افرازاتها الجلدية والبدنية بشهوه فائقة وتحيط بها ألوف المحافظين لئلا يصاب جلدها الأبيض الناعم الرقيق المقدس بأذى ، وجماعات أخرى من الجنود المحافظين الصغار حذر حصول خطر على الملكة يواجهون الخارج وظهورهم للملكة ، ويتقدم أولئك بصفوف منظمة محاربون أكبر جسماً ذوو الأنابيب الحاملة للمائع المار ذكره في الحروب . وحينما تفقد الملكة (بعد ٤ - ٥ سنوات) قدرتها على الحمل والبيض قطعوا عنها الطعام وماتت جوعاً ، ولكن بأمر من يكون ذلك؟ وذلك سر من أسرارها . وعندما تلفظ الملكة أنفاسها الأخيرة التهمتها الحشرات بلهفة عجيبة وعينوا في الحال مكانها أخرى لتقوم بنفس العملية والملكة لا تخرج بتاتاً من بيتها الضيق الذي تملأ فضاءه .

التزاوج :

بالإمكان أن نقول ان هناك نوعاً رابعاً غير العمال والجنود والعائلة المالكة التي حكم عليها القدر ان تبني تحت الأرض مدى عمرها ولا ترى ضياء الشمس يطبق عليها أعظم الأنظمة والقوانين الطبيعية . هناك قسم آخر يتألف من الجنسين وتتجاوز الملايين ذات أجنحة وهذه ذوات نظر وأجنحة لا تستطيع هضم السلولوز لفقدائها الطفيليات المعائية ، لذا هي

عالة على غيرها وليس لها سوى التجول في الداخل حتى اليوم الموعود ، وهو يعتبر يوماً في آخر الصيف في المناطق الاستوائية ، وبينما هي داخل تلك المخابىء المسدودة ، ولا توجد سوى منافذ الهواء إذا بنا نجد ألوف الثقوب - تفتتح في القمم المواجهة لسطح الأرض ويهرع المحافظون إلى النوافذ وفي اللحظة الموعودة يسمح المحافظون لخروج هذه الملايين ذات الأجنحة لتقوم بعملية المعاشقة ، في حين ان الثقوب تسد حال خروجها لمنع المهاجمة ولتسد طريق عودة الخارجين لثموت إما جوعاً أو على أيدي النمل أو الطيور أو الحشرات الأخرى ، وحتى الإنسان له سهم أوفر منها لأكله إما نيةً أو طبخها ، باعتبارها من ألد الأطعمة وتعرض كثير منها للبيع ، ويمكن القول إن أفراداً من هذه الملايين بطريقة من الطرق بعد التزاوج والمعاشقة تدخل ثانية إلى الدهاليز وتكون ذخيرة ليوم الحاجة لنصبها عند الحاجة مكان الملكة التي فقدت خواصها .

ويمكن التساؤل في علّة هذه التضحية من الملايين؟ تلك أيضاً من الأسرار التي لم نتوصل لتفسيرها إذا علمنا أن هذه المملكة تسيّر طبق أنظمة اقتصادية واجتماعية دقيقة .

وقد وجد أن هناك في بعض المناطق وفي مملكة واحدة أكثر من أم كل مستقلة عن الأخرى ، فتوجد اثنتان أو ثلاث وتوجد ست كما وجد ، إن الزواج قد يقع بين أكثر من مملكة وقد يتجاوز ست ملكات في مملكة واحدة ، والملكة تكون من التي كانت لها أجنحة وشاهدت أشعة الشمس كما مرّ . ولا يمكن أن يكون الملك إلا وطنياً (غير أجنبي) وتختلف هذه الحشرات في درجة التقدم والمدنية فمنها المنحطة ومنها المتمدنة كثيراً أو أعلى درجات التمدن .

ويظهر من حياة وسلوك هذه الحشرة انها أوسع مجالاً وأقدر على العمل الذي تريده من النحلة في إدامة حياتها ، حتى انها تستطيع عند مساس الحاجة ان تطوّر نفسها ، وتكون لها أجنحة وعيون وغير ذلك ، كما

لها قدرة كيمياوية في صنع المواد الضرورية لبيتها وتغذيتها ودفاعها ، ولها القدرة على معرفة الضروريات والدقة الفائقة في أحوال الملكة واتخاذها الاحتياطات كما مر ، وقطع غذائها بمحض انها تصبح عديمة الفائدة ، واتخاذ كل الاحتياطات اللازمة لإدامة الحياة من تحضير ملكة أو ملكات ، وكأنها مختارة من ايجاد النوع الذي تريده من البيض للجيل القادم والعدد اللازم (توجد بعض هذه الخواص في زنبور العسل) ، وقد تبلغ أنواع الطفيليات الساكنة مع هذه الحشرة في مملكتها نحو ٤٩٦ نوعاً تقريباً ، ولم يتوصل البشر إلى دراستها ومفعولها . وهي تعيش بين درجة حرارة فوق العشرين لأن البرد يبيدها وتحت ٣٦ لأن الحر يقتل طفيلياتها التي هي قوام حياتها .

أضرارها :

يمكن القول أن منطقة تعيش بها هذه الحشرة لا يستطيع الإنسان أن يقيم بها ، لأنها تبيد كل شيء من خشب ونبات وأكل وما صنع من آلات ولباس وحتى أعظم الأشجار وبالخفاء وبعد فوات الفرصة ، وكم وصفت قضايا في منتهى العجب وتحير العقول لهذه الحشرة من إتلاف أعظم الأشجار وأثاث البيوت والألبسة أو السقوف ، وحتى محتويات العلب الصلبة والحديدية لأن الحشرة بإمكانها إحداث الثلم في الحديد والقصدير والرصاص ودخول العلب والقناني ذات الأغشية المعدنية ، وبإمكانها الصعود من القناني الملساء بإفرازها المائع على القناني في الملساء وفقدان هذه صفة الصقل ، وطالما أكلت ألبسة وأسلحة أشخاص يدرسون حياتها وطالما قضت على الحوانيت بما فيها من المأكولات .

وحتى وجد ان هذه الحشرة أكلت التصاوير وإطاراتها ولم يبق سوى الزجاج الذي أحكمته بلعابها إلى الحائط كي لا يسقط ويكون فرقة لأن جميع أعمالها في الخفاء . وحتى انها مرة أكلت سفينة اسبانية سنة ١٨٨٧ رست على شاطئ ميناء فرول . كما انها سنة ١٨٤٠ دخلت خمس توت

عاصمة جزيرة سنت هلن بواسطة مبعد وابادت في مدة قصيرة نصف المدينة وهدمتها . وسببت سنة ١٨٥١ اندحار فرنسا امام الانكليز في جزيرة انتيل بسبب نفاذ مهمات غذاء الفرنسيين على يد هذه الحشرة ، وهي في جزيرة فرموزا تسبب تخريب الأبنية السمنتية . وهذه الحشرة تزداد مقاومة أمام المتفجرات الديناميتية وتعود بسرعة تبني بشكل أقوى وأعمق .

القوة المبدعة :

الحياة الداخلية لهذه الحشرة إذا ما فحصناها لهذا الحد الذي توصل إليه البشر في البناء في الحياة الاجتماعية الصحية الإدارية وفي كل صغيرة وكبيرة نجدها كاملة ، قد روعي فيها أبعد وأدق ما يلزم لمواصلة النوع والطبقات كل بحسبه ، وتتساءل بعد التأمل والتعمق عن النظم وعن القدرة الحاكمة المديرية والمديرة لهذه الملايين الصغيرة والطبقات المتميزة ذات الأنظمة والقوانين الوقتية المسهبة المنظمة الدائمة الحافظة لاستمرار حياتها ونشأتها وثباتها؟ من هو الحافظ لموازنة تلك من الاختلال والتدهور والاضمحلال؟ أهو الملك؟ أو الملكة؟ أو الجنود أو العمال أم الجماعة ذات الأجنحة من الذكور والإناث أم هناك جماعة منتخبة منهم؟ لا يمكننا إذا دققنا وتعمقنا في تفكيرنا أن نقبل أيأ منها . ترى كل طبقة منها بحد ذاتها ذات نقص تكملها الأخرى وليس لها حول ولا قوة على الأمر والنهي بصورة انفرادية ، لكل وظيفة لا تستطيع أن تحيد عنها ، وإذا ما حاد نزل عليه حكم القصاص بكل صرامة وشدة وتنفذ فيهم جميعاً أحكام بآنة عامة وخاصة لا تحيد عنها .

فمن هو ذلك المسيطر الخبير المنظم ؟ من هو الحاكم المطلق المبدع القدير؟ هو الملك؟ ذلك المخلوق الذميمة الخائف المنزوي تحت بطن الملكة الذي ليس له حول وطول؟ أم الملكة المسكينة المسجونة المسجاة المضحية بحياتها لإدامة حياة النوع المعتبرة كأداة للتوالد المستمر والعاجزة عن القيام حتى بطعامها وإذا ما عجزت أقل عجز أو تقاعست عن

واجباتها قطعوا عنها الطعام حتى الموت والتهموها التهاماً ذلك القانون الصارم في المملكة للقضاء على كل من لا يؤدي وظيفته أو تنتهي وظيفته للمملكة؟ أم هم الجنود والضباط المحرومون من الغريزة الجنسية والذين قد أوقفوا حياتهم على أهمية الاستعداد للدفاع والهجوم مع فقدهم آلة البصر وأهم شيء فقدانهم القدرة على هضم الطعام مثل الملكة فهم تحت رحمة دائمة للتغذية من العمال؟ .

أم هم الجماعة ذات الأجنحة والنظر من الذكور والإناث الفاقدين أيضاً للقدرة على هضم الطعام ، والذين هم وبصورة دائمة تحت رحمة العمال لتغذيتهم وهم بعد ذلك وبعد انتخاب أفراد منهم كاحتياط ليحل محل الملك والملكة يبعثون كلهم بمجموعهم مهما بلغ عددهم من عشرات ومئات الملايين إلى الخارج ليتمتعوا لحظة قصيرة وليصبحوا لقمة سائغة لأعدائهم أو يموتوا جوعاً دون أمل للعودة؟ لماذا؟ من هو الحاكم ولماذا لم يطبق عليهم ما يطبق على الملكة وغير الملكة من قطع الطعام والتهامهم في الداخل؟ أليس عجباً ومدهشاً؟ ما هو السر في هذا الاستثناء؟ .

لم يبق إلا العمال، المحكوم عليهم مدى حياتهم بأشق الأعمال من هضم الطعام وإطعام الباقين ، فهم رغم عملهم الجبار والذي يتوقف على حياتهم حياة جميع من في المملكة فهم أشد رقة من الرقيق والأسير المقيد . فمن هو إذن المنظم المسيطر؟ من هو ذلك الذي حفظ حياة هذه الحشرة آلاف السنين من الانقراض وأمدّها بالحياة والنظام؟ من هو الذي عيّن لها هذه الأنظمة والقوانين القاطعة من حياتها التي لا تحيد عنها؟ يحق لنا أن نتساءل وأن نندهش نحن البشر بما نحسب في أنفسنا من القوى العقلية والفكرية المميزة كيف لم نستطع أن نؤلف جمهورية تدوم مائة سنة إلا وتعرضت للطغاة من أفراد البشر فبدلت قوانينها وأنظمتها الطبيعية والمنطقية وجاءت بما تشتهي به أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وسنت

لأجراء اغراضها ما تحسبه لنفسها ساداً لمطامعها وأغراضها ومشعباً لغرائزها وجشعها غير مبالية ما تجره في الحاضر والمستقبل لها ولشعوبها والعالم من النكبات؟ وهذا التاريخ الحديث والقديم خير دليل وشاهد بما جرت به هذه الأفراد من الويلات والمصائب بما شنته من الحروب وجهزت له خيرات البلاد وخيرة الشباب للحروب وبما سنته في الداخل من أنظمة وأطلقت عليها اسم القوانين .

إن ما نشاهده في حياة هذه الحشرة كله يسير طبق نظام مرتب وثابت يدل على انها تسير على أرقى نظام منطقي طبيعي يلائم حياتها ، وهناك أمور لا نستطيع تمييزها وأسرار لم نبلغ كنهها لأننا نفقد الدراية والإدراك لأسرارها . قلنا من هو الذي سَنَ لها تلك الأنظمة؟ ومن هو الذي ألزمها؟ ومن الذي يواظب على اتباعها؟ من الذي يوحى لها بالهجوم والدفاع الذي تقوم به فرادى وجماعات في مملكتها على القدر اللازم من الخطر المدهم ؟ ومن الذي يهديها في الأمور الصغيرة والكبيرة ويدبر مصالحها على هذه الصورة الدقيقة من الحكمة والعناية الفائقة؟ كيف استطاعت على ضعفها ونقص حواسها أن تقهر البشر وتتغلب على أعظم المشاكل وتقوم بما يعجز عنه أعظم النحاتين والبنائين والمهندسين والكيميائيين؟ من أين لها هذا التخصص وهذه المعرفة؟ كيف جمعت كلمتها وافقت في العمل فبلغت من الضعف قوة قاهرة؟ أليست تلك عبرة للبشر العاقل لإيجاد حكومة يتساوى فيها أفرادها في أمورهم المعيشية والاقتصادية والفكر والعقيدة والطاعة المثلى ، وقيام كل بما عهد إليه في التخصص دون أن يتجاوز ويتحدى الآخرين للقضاء على هذا الجشع والطمع ، للقضاء على هذا التحايل والنصب ، للقضاء على الأنانية الشخصية؟ ومن اسرارها انها تستطيع أن تقدر نوع البيض لكل فصيلة قال بعض العلماء المتحرين أنها تقدر أن تنتج النوع الذي تريده والمقدار اللازم ، فإذا كان ذلك صحيحاً ، فمن هو الذي أعطاها هذه المقدرة التي فاقت مقدرة البشر؟ وربما كان من

أسرارها المهمة انها تستطيع أن تتنبأ ما يلزم اجراؤه وانجازه للمستقبل ، بما يلزمه من أدق الأمور الاحتياطية في جميع شؤونها .

قد يمكننا أن نجد أدق من هذا النظام في سير مجموعة حجيرات البدن الإنساني البالغة ستين ترليون حجيرة ثابتة في مقرها وتقوم كل باختصاصها وأعمالها بصورة مرموزة ومستمرة ليل نهار كل طبقة تسير بأعمالها بدقة ونظام ستأتي على ذكره .

صحيح أننا عقلاء مفكرون ، ولكن هل نعلم عن هذه الجمهورية البدنية العظيمة وما تحويه من أسرار؟ وهل بإمكاننا أن نغير مسار قوانينها وأنظمتها كحجم حجيرة حية في كل لحظة تموت وتقوم مقامها حجيرات أخرى؟ أي قوة عظيمة تلك التي تسيورها؟ أية قوة مبدعة تلك التي نظمتها وإدارتها وسيرتها؟ وكيف اننا في غفلة وأية غفلة عن سيرها وعاجزون منتهى العجز عن تدبيرها وتعادل قواها وتنظيمها ، والعجز كل العجز في الحيلولة دون فناء البدن ؟ ما هي مادة الحياة وكيف تزول ؟ اننا عاجزون عن ادراك ما هو داخل بدننا واعجز منه عما هو خارجه ؟ .

من الذي يوحى لنا بالحاجة للطعام والحاجة للماء والحاجة للنوم والحاجة للاستراحة من هو المدير والمبدع لكل ذلك التفكير؟ العقل ، القضايا الوجدانية ، وروابطها بالاجهزة ، وروابط الاجهزة بها وتأثير كل في نفسها وغيرها ، ليست هذه أبدع واعجب وأعظم من حياة النحل والنمل وهذه الحشرة ؟ سبحان من أبدع الكون بما فيه من عظيم الاسرار .

نعود لتساءل عن حياة هذه الحشرة ونقول عن اعمالها التي تقوم بها ، أهى لها مؤسسات منظمة قد تدبر امورها ذات ارادة قوية ورأى سديد لا تزعزعه الايام والسنين والقرون ، مقدسة عندها جميعاً ؟ ام ان لها مليكا يملك كل الطاقات العظيمة لتلك الانظمة واجزائها ؟ ام نقول انها انما تسير طبق غرائز منظمة تفرض عليها ما نراه وكما نرى في داخل النسوج

والحجيرات البدنية ؟ ان النظام الغريزي الجاري هو فوق تدبير العقل والتفكير ومهما كانت أكان مصدرها العقل أو الغريزة أو القوى والحواس الأخرى ، نتساءل من أبدع ذلك فيها وأوحى لها بذلك التدبير وحفظ نوعها من الابدادة ؟ لا شك أننا نقف عاجزين أمام هذه الاسرار الطبيعية الشيقة المنظمة الحكيمة التي يحق لاهل العقول والعلوم والفنون ان يطأطئوا لها الرؤوس ويتخذوا منها قدوة لسلوكهم في كثير من شؤون الحياة . اننا نبلغ منتهى العجب والاستغراب عندما نقف امام كل نظام منسق من هذه الحشرات وغيرها ونحاول ان ندرس حياتها ، فيا ليت شعري ونحن نقدر تفانيها وجهودها ونظامها معجيين ومبهورين لتلك ، لماذا لا نصلح نواقصنا على ضوء تلك ؟ ونتساءل : هل ان هناك من المخلوقات من يدرس حياتنا ويشاهد فينا المتناقضات ، وأموراً تخالف كل منطق سليم وأي قانون طبيعي وما أكثرها من البشر ؟ هل ان دراستها مثلنا ، وقفنا امام أمر منسق ومنظم تعجز عن تفسيره قلنا ان فيه سرّاً ، مثل التضحية السنوية لهذه الحشرة من ذوات الاجنحة والعيون الخارجة من مكانها الى الفضاء الخارجي لتفني جوعاً أو بيد اعدائها ؟ لماذا يكون ذلك ؟ ما هي العلة وما هي الغاية ؟ وأمر صدرت أم غرائز حكمت ام علل أخرى نجهلها ؟ أهي أصبحت عالة على مجتمعها أم هناك حكمة لا ندركها أو لذة قصوى تبلغها لعملها ؟ ولماذا نرى أن هناك في داخل مكانها تجمعها حية وتقتاتها تدريجياً ، اذا صدر عليها حكم بالموت لذنب أو علل أخرى ؟ اتلك تضحية وفداء ولها بذلك شعور ديني تريد به الزلفى في الآخرة أهو حكم هتلري حينما كان يقضي على جموع اليهود ؟ أم حروب لاشباع غرائز فردية ؟ وأمثال تلك ما نجده في زفاف نحل العسل والقضاء على الذكور والاميرات ؟ وأمثال هذه مما يمكننا توجيهه وتعليل بعضها بعقولنا ويخوننا الفكر في درك أخرى .

امتيازات الحشرة هذه على الانسان :

١ - تسلطها على أي عضو من أعضائها وبإمكانها ان تزيد أو تنقص ما تشاء من الذكور أو الاناث أو أي طبقة وفصيلة تريدها وتقضي على أي قسم ليست المملكة بحاجة لها .

٢ - استتباب الامن ومراعاة النظام والقانون الذي تجده في مدنها واحيائها ومملكته لا نجده عند ارقى مجموعات البشر .

٣ - دأبها المستمر على العمل عند العامل والحارس والجندي والام ، (الملكة) والملك وكل فرد وطبقة لا تجده في جسم حي آخر .

٤ - التضحية العظيمة في سبيل الواجب المعهود لها يبلغ أقصى درجاته .

٥ - الاعمال الجبارة بالنسبة لحقارتها وذماتها ، من أبنية ضخمة تمتد كيلو مترات بدرجة من الضخامة والمتانة بالكاد تفجرها المفرقات القوية ، بما تحويه من فنون الهندسة في المساكن والممرات والحجر وكل ما تحتاجه من تهوية ونور مع رعايتها أصول الصحة واحتياجات المستقبل ، وكل ما يمس بحياتها الصحية والادارية والاجتماعية وغير ذلك .

٦ - تعيش بهدوء ولا يرى بينها مشاجرة ونزاع ولا بد انها ازالته مسببات النزاع من جشع واحتيال وتعدي وحسد وتعديات جنسية والانانية بالمساواة في الملك والغذاء وكل شيء ، وقيام كل بواجبه تجاه نفسه والغير ، على أنها دقيقة الرعاية في جميع شؤونها وواجباتها الداخلية والخارجية العمال في عملهم واحضار الطعام ، والصناع والمهندسون في البناء والترميم ، والجنود الى التضحية الفائقة في الدفاع والهجوم والملكة بدأبها ليل نهار بوظيفة الولادة . نعم كل شيء يسير على أحسن ما يرام وعلى أدق ما يتصوره الفكر وبصورة مستمرة . كيف نعبر ذلك للرقي الفكري المتناهي أم ماذا ؟ اليس هذا التقدم ارقى من تقدم البشر من

جميع النواحي العملية والاجتماعية والادارية والسياسية ، ويفوق في كثير من مراحل نظام البشر وتقدمه ؟ فمثلاً لا يمكن أن ترى واحدة من هذه الحشرات تتشاجر مع أخرى من أفراد داخل مملكتها أو أي فرد من نوعها في كل العالم ، في حين انها تقف ببسالة حتى الموت فرادى أو جماعات للدفاع عن حياض نفسها وامنها ونوعها بشكل فائق من النظام العسكري والتكنيكي الدال على أقصى وامهر ما يمكن أن يحسب لفرد عسكري .

وقد حسب كثير من علماء علم الحياة والكتاب :

١ - ان حياة هذه الحشرة قد بلغ الدرجة القصوى في الرقي ، وان الانسان اذا ما استمر في حياته وتمدنه بدون نكسه فربما بلغ بعد الفين الى ثلاثة الاف سنة ما بلغته هذه الحشرة من التمدن والثقافة والسلوك ، ويستندون بما تمتاز به من العلم والقدرة عما مر ذكره فانها بامكانها رغم ضعفها أمام الحر والبرد ان تكيف حرارة جو محيطها التي تعيش فيه أبناء المملكة بالنوع الذي يلائمها ، كما انها تكيف كل قسم من حرارة محلاتها التي تعيش بها بما يناسب ذلك كمقصورة الملكة وغرف الحضانة وغير ذلك .

٢ - وانها تعطي كل جماعة طعاماً يناسبها فالجنود والمهندسون والعمال والأفراخ وهكذا الملكة التي بحاجة الى طعام أقوى وأكثر كل على قدر حاجته ونوعه .

٣ - انها تحتاج الى الماء وتأخذه من بخار الهواء بصورة لم يتوصل اليه البشر ، فكيف ومن أين تحصل على هذا البخار وهي تعيش داخل محلات مغلقة وفي مناطق حارة جافة ؟ .

٤ - انهم يتفاهمون فيما بينهم وينقلون الاخبار بطرفة العين الى أقصى المملكة ، ولكن كيف ذلك ؟ هل بكلام مثلنا ؟ أو بالاشارة ؟ أو فوق ذلك بقراءة افكار الآخرين ؟ بالوحي ؟ بماذا ؟ ولكن المهم انهم يؤدون تمام مقاصدهم بشكل احسن ، ولهم احساسات وشعور فائقة في

أداء أمورهم وواجباتهم بدقة فائقة ولم يتوصل البشر حتى الآن رغم تتبعه العلمي والاطلاع ما وصلت اليه هذه الحشرات . وكانها لها علم بعيد الشعور بما نسميه بالمغيبات فهي تعلم ساعة موتها وتسعى الى المحل الذي تموت فيه ، وهي بمقابرها ومخازنها لان النوع يستفيد من اجساد موتاه فهي تصل الى المحل حيث تموت بعد لحظات وهي تعيش لاداء وظيفة تقوم بها ، فاذا ما تمت وظيفتها استعدت للموت .

انها اقامت حياتها على مبنى احتياجاتها واقامت امتن وأقوى الحصون في العالم واعظم القلاع عندما شعرت بالحاجة اليها لتحتمي بها ، آمنة من الد أعدائها واشدهم النمل وغيره ، آمنة لم يتوصل لامثالها البشر لا في زكفريد ولا في ما جينو ، تلك التي حار البشر بعقله ودرايته وكبره في التغلب عليها . ومن الناحية الادارية والاجتماعية عاشت في سلام دائم فيما بينها وآمنة من الد أعدائها ، في حين ان الانسان لا يخشى من أي مخلوق ولا يحذر أي مخلوق اكثر من انسان آخر من تعدياته وظلمه وتجاوزه وانانيته ومساوئه ، التي لا تعد الا تدل على ان الانسان لم يبلغ بعد شأو هذه الحشرات اذا علمنا ان الجهل منبع من أعظم منابع الويلات ، واخص منه الجهل الاجتماعي فمن الهمها هذه القدرة ومن سيرها هذه السيرة ؟ وكم هناك من الاسرار والخفايا التي هي اعظم ، ولنا في الطبيعة قدوة وعبرة وأدب .

وتعتبر هذه الحشرة من أرقى الأحياء حتى النحلة والنملة ، لأنك لا تجد منها فرادي تخرج عن مملكتها وتضل طريقها وتقوم باعمال يدل على البلاهة وقلة الذكاء كما تجد ذلك احياناً في بعض انواع النمل والنحل .

الكتاب الخامس

الجنسية أو التبعية

الجنسية والتابعة

المقدمة :

كانت الأمور المثيرة في البحث عن حكومة عالمية مثلى يجد فيه الأفراد والجماعات حياة واقعية طبيعية ، يتخلصون فيها من أعباء ومشاكل هذه الحياة المعقدة التي خلقتها الاغراض الفردية أو زمرة من البشر قرروا فيه ما اوحى لهم غرائزهم وأهواؤهم لبلوغ مأرب وغايات خاصة عادت بزعمهم عليهم بالخير ، ولكنها باتت تحدد شيئاً فشيئاً من حرية البشر باسماء ما انزل الله بها من سلطان ، ولا ترضيها الحياة الفطرية السعيدة ، واذا بهم يضعون كما ذكرناه أنظمة أو تحتها لهم انفسهم واملتها عليهم اغراضهم ، فسموها قوانين ، وتشعبوا بها في مجالات زادوها يوماً بعد يوم ، حتى اصبحت متشابكة متخالفة تؤيد بعضها بعضاً أو تخالفه بقدر ما تسمح لهم لبلوغ مراميهم مهما ضاقت على هذا البشر المتعوس ، سعة الحياة ورحب العيش .

وحيث تلك الأهواء والغايات تتغير وتتبدل ، فما بدلون بقوانين يدلونها بين آونة وأخرى خفة وشدة بغية الوصول كل مرة إلى حالة خاصة وأمر خاص يريدون بها منافعهم ومصالحهم وهم في كل مرة يزيدون في مضايق العيش وشدة الخناق على سعادة الأفراد أكثر فأكثر .

ما أشقى هذا البشر وقد خنق نفسه بنفسه ، بأساطير وضعها ونسقها وزينها بأسماء وألقاب هي من صنع يده ووحى غرائزه مستخدماً عقله لبلوغ

مرايمه الدنية وشهواته العتية ، وتشعبت هذه الأنظمة والقوانين وكلما زادت زاد سخطه على الحياة التي لها قوانينها الثابتة التي إن شاء البشر أو أبى فهي سائرة ، وما شقاؤه وتعاسته إلا لتلاعبه بالقوانين الطبيعية وخلق ما يخالفها أو يحدها .

ومن إحدى تلك الأنظمة والقوانين التي ابتدعها وكيفها وأطلق عليها اسم الأنظمة والقوانين إنما هي قوانين وأنظمة التبعية والجنسية فقسم بقاع الأرض إلى مناطق وأقسام ، ممالك وإمارات ، مقاطعات ودول وشعوب وأمم ، لكل منها اغراضها وأهدافها ونزعاتها واضعاً لكل منها حدوداً وفواصل لا تعترف بها الطبيعة والفطرة ولا العقل السليم والمنطق القويم .

وإذا ما بعثت النظرة العميقة وتحققت تحقق الحكيم المدقق ما هي الفواصل التي تفصل الشعوب والدول والأمم عن بعضها ، أدركت الحقيقة . خذ منها وهي أقربها إلينا من دول إسلامية ، ملكية وجمهورية وإمارات في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وهم يعتنقون ديناً واحداً ومرامي وعمليات واحدة ، والشعوب الافريقية المجزأة إلى أجزاء صغيرة تفصلها عن بعضها البعض فواصل وضعتها الأغراض تعود عليها جميعاً بالضرر والقيود وتقييد الفرد والجماعة وتضر بكل فرد وكل جماعة ، ومثلها الشعوب الأوروبية المسيحيين والآسيوية والأمريكية ، وحاشا ان تكون الطبيعة قد حددت تلك الحدود ووضعت هذه القيود في الحد من النقل والانتقال من هنا إلى هناك ، ووضعت لها شروطاً من تعدها لقي الأمرين من عقاب صارم ومجازاة مريعة وتعذيب وإرهاق ، فما هو الفاصل الذي يفصل هذا القطر عن ذلك القطر، وهذه الإمارة عن ذلك القطر؟ ومن قال إن خيرات الأرض يتنعم بها شعب دون شعب وهم جميعاً يحملون نفس الشعور والاحساس بالسعادة والشقاء ، وكلهم يضمون نفس الأجهزة والأدمغة واللحم والدم والعظم ، وكلهم يحملون الغرائز البشرية ويتساوون فيها؟ .

أليس البشر كلهم متساوين بالدم والغرائز والعقل والشعور؟
ومحتاجين لنفس النوع من الطعام والماء والهواء ، ويحملون نفس المطامع
والأهواء ، ويرجون ويتأملون على حد سواء لولا اختلاف المناخ والطقس؟
فما هذه التفرقة ، والكل إذا عَمَّت التربية والتعليم وتساوت ، لأصبحوا
واحداً وفي حد ومستوى سواء؟ فما هذا التحديد؟ ومن وضعه؟ وما غايته؟
ومن أين نشأ؟ وكيف نشأ؟ وما هو الباعث؟ .

- ١ - أهى العقيدة (دين أونزعة) ؟ .
- ٢ - أهى العادات والعرف ؟ .
- ٣ - أم هى اللغة ؟ .
- ٤ - أهو اللون ؟ .
- ٥ - أم الجنس ؟ .
- ٦ - أهى الأرض (التربة) ؟ .
- ٧ - أهو الزى ؟ .
- ٨ - أهى المهنة والوظيفة ؟ .
- ٩ - أهى الخلقة ؟ .
- ١٠ - أم الأخلاق ؟ . .
- ١١ - أم هو التوالد والتقارب العائلى ؟ أم غير ذلك؟ .

هل بإمكاننا الاستفادة من هذا المجال من القانون الطبيعى فى بدن
الإنسان ودرسه وبحث المخلوقات الحية وسيرتهم مع بعضهم؟ هل لنا أن
نبحث فى المخالفات والموافقات الروحية؟ ما هى عقيدة أهل الآراء وأهل
الأديان فى ذلك؟ وعند مراجعة التاريخ الحديث والقديم ثم استنتاج نتائج
هى أقرب للواقع للعمل عليه .

الجنسية — أو التابعة

ما هي الجنسية أو التابعة؟

تلك التي اهتمت بها الدول في القرون الأخيرة ، وجعلت لها مديريات مهمة ودوائر واسعة ، ووضعت لها القوانين والأنظمة وصرفت لها المصاريف الباهظة ، وأتبعها بهويات يحملها الفرد تخول حاملها مزايا وصلاحيات لا تخول غيره ، وسرى هذا على الأفراد ما داموا في داخل قطرهم وأتبعته وميزتهم في الخارج بجوازات السفر ، ولكل حدودها وقوانينها لابن البلد يتمايز بها عن المقيم المؤقت أو الدائم الحامل لتابعة بلاد أخرى . وتركت لكل مواطن شروطاً وامتيازات تفرق بها عن المقيم المؤقت أو الدائم . فكانت هذه الأنظمة التي أطلق عليها اسم القوانين والتي ميّزت أفراد البشر في الشرق والغرب الواحد عن الآخر وأعطته صلاحيات وألقت عليه واجبات متقابلة كان لها دور مهم في سعادة وشقاء البشر في شتى حياته ، وخلقت للبشر عراقيل كبيرة قيدت كثيراً من الحرية الفردية والجماعية من جهة ، وميرت تمايزاً بيناً بين الشعوب والأفراد فأسعدت جماعات وأشقت أخرى ، وخلقت أجواء سياسية واجتماعية بعيدة المدى ، لها اثارها في الحياة الفردية والجماعية ، وإذا بك ترى السياسات تلعب دورها المهم في هذا المجال ، والمحرك والمحفز لذلك ربما كانت مطامح ومطامع سياسية اقتصادية أو اجتماعية عنت بها الحكومات للحد من تسرب الأغيار داخل البلد المستقل من الثغور والحدود للولوج أو الخروج هرباً من الخدمات العسكرية أو غير العسكرية أو تهريب الثروات الخاصة

والعامة أو إفشاء أسرار أو استعلام أسرار خاصة وعامة . لهذا ترى القوانين هذه في تغير مستمر في ناحية من نواحيها ولغاية أو غايات ومصالح عامة وخاصة لمنع أفراد القطر من الخروج أو منع الآخرين من الولوج على قدر ما يهم أولى الأمر من الزمرة الحاكمة وأشدها تعسفاً تلك المصبوغة بصبغات دكتاتورية يتحكم بها افراد لا يراعون فيها الصالح العام بل المصالح الخاصة لزمرة معينة .

والجنسية ما هي إلا دعوة جديدة لخلق العصبية القومية والشعوبية والتفرقة بين الأمم والطوائف من هذا البشر وتنابزها فيما بينها ، وخلق مشاكل للفرد والعائلة والجماعات وخلق روح في الأفراد والطبقات تمايز بها الواحدة عن الأخرى .

وهذا التمايز ما هو إلا مظهر من مظاهر قلة العلم والحكمة التي تميز بها الشعوب الجاهلة أكثر فأكثر أو الشعوب التي تعدد بقوميتها وتستحق القوميات الأخرى .

مظهر تمايز به القبائل البدوية والعوائل التي يسودها الجهل المطبق . والتي تثير في أفرادها نخوة كاذبة تدرك بها الميزة على غيرها وترى في قراراتها دون دليل أو برهان أو رأي صائب محض أنانية ، إنها أجل قدراً وأرفع درجة من غيرها بالاحساب والأنساب ، دون أن يكون للعلم والحكمة والفضائل والردائل أثر للشرف الرفيع أو لاعتداد بالذات ، وقد كانت هذه العصبية القومية على أشدها منذ القدم في شعوب يسودها الجهل والفقر والعادات والخلق المستهجنة في الشرق والغرب ، ولم يكن التوسع العسكري مظهراً من مظاهر التفوق العقلي ، وإن أدنى أحياناً بعد اشتداد الأزمات وسفك الدماء والتغلب بالقهر ، للغنى بعد المجازر والاثراء بعد الفقر والرفاه بعد الفاقة ، إلى نوع من التقدم مأخوذاً من الشعوب المقهورة الأوفر علماً مستحوذة على الغالبة بعلمها وحكمتها .

وقد ظهرت على أثر تلك المظالم في الشرق والغرب بوادر من المصلحين الداعين إلى أصول إنسانية وجدانية ، وإلى كبح جماح النفوس الثائرة الغالبة عليها أهواؤها من الغرائز لاشباعها دون رعاية عاطفة ورحمة ووعي عقلي ، للحد من جماح الطيش والاستهتار في الكثير ، وأدت تلك العصبية إلى ظهور مصلحين بين أفراد البشر من أنبياء ومرسلين وحكماء مصلحين . وكانت الجزيرة العربية من المراكز الجلية الواضحة لظهور تلك الحزازات والتنازلات ومركزاً من المراكز التي تجلت بها قبل ظهور الإسلام ، من تلك الحزازات والعصبية الفردية والقبائلية لما كانت فيه من جهل وفاقه .

وبالتالي ظهور ينوع للعلم والحكمة استنارت به البلاد وانتشر إلى الغرب والشرق ، مهياً بصرخات إنسانية وجدانية منطقية أقامت من في الأرض واقعدته ، وإذا الغافل يتذكر وذو الرأي يعي والنفوس تتنفس الصعداء ، وستشرح فيما بعد فصولاً مهمة منه : ذاكرين عناصر ودوافع الجنسية . ثم تقسيم بحثنا إلى الجنسية في الإسلام وقبل الإسلام وبعده .

لذا نبدأ عن أسباب التقارب والتباعد في البشر :

١ - معنوية . ٢ - مادية . ٣ - مختلطة .

١ - المعنوية :

كالعقيدة ، ودرجة المعرفة (من علم وحكمة) الأخلاق ، التقارب الروحي ، وهذا القسم كان أشدها أثراً وأبعدها تأصلاً ورسوخاً .

٢ - المادية :

كالوطن (أرض المولد أو الإقامة) ، اللون ، الجنس ، الزي ، التزاوج والتوالد والتقارب العائلي ، والنشأة والخلفة والتقاطيع الجسمية .

٣ - المختلطة :

كاللغة والمهنة والوظيفة ، المحيط والتربية ، العامة ، النعمة والشعور .

العقيدة :

للعقيدة المقام الأسمى للتقارب فهي بالأخير وإن عبرت عنها بالمعنوية بل هي النتيجة الحاصلة حتى في المادية والمختلطة وتكوين الإحساس العميق الراسخ الباطن الذي يوجه الفرد للسلوك والسيرة في الحياة تجاه نفسه وغيره وشعوره بالسعادة والشقاء في كل الظروف والمجالات ، وربما شعر الفرد في نفس الظروف التي يحس بها الآخرون شقاء يحس هو السعادة أو العكس نتيجة الاستنتاج الحاصل من شعوره كأن يشعر هذا العابد المتهجد في سلوكه وإيمانه بالسعادة ، ويترحم على ذلك اللاهي في مجالس الترف والملاهي ، أو ما يشعره الأخير في الأول ويحسبه شقياً وهو السعيد ، أو الحاملون عقائد مختلفة أخرى دينية أو سياسية أو اقتصادية وغيرها تجاه الآخرين . وقد ظهر وثبت أن العقائد الدينية والحزبية السياسية والاقتصادية والأخلاقية وغيرها هي أمتن الوثائق التي تقرب وتبعد الأفراد والجماعات الواحد للآخر وعن الآخر ، فقد جمعت المسيحية رغم ما فيها من المذاهب دولاً وأقطاراً مختلفة حول بعضها رغم اختلاف اللغة والمناخ وأحياناً الزي والخلق والأخلاق وغيرها من لون وعنصر . كما جمعت المسلمين من عرب وغير عرب في مختلف أقطار الأرض باسم الدين والعقيدة تجمعهم لرب واحد وقبلة واحدة وأصول واحدة ونبي واحد وكتاب واحد ، ويخالفهم ويضادهم كل الفرق التي تكفر بهذا الدين ، حتى قيل الكفر ملّة واحدة بينما نرى في الآية القرآنية العاشرة من سورة الحجرات قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أُخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخْيَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

وتتبع ذلك آيات أخرى تسند هذه الفكرة . وهذا المؤمن قد يكون

من أبيضها أو أسمرها أو أسودها أو أحمرها أو أصفرها دون طعن في
العنصر واللغة وكل شيء ، بل تجمعهم العقيدة الواحدة هي كلمة التوحيد
والأصول الأخرى المتبعة والتي مرّ ذكرها ، وهكذا المسيحية والبوذية
والكونفوشيوسية وغيرها .

ولم تتجل الوحدة في العقيدة الدينية فحسب ، بل هناك العقائد
الشيوعية التي تلتف حولها الدول الشيوعية والعقيدة الديمقراطية تجمع
حولها الدول والأفراد الديمقراطية . ومثلها الفاشية وكل منها تجمع حولها
أمماً ودولاً وأقطاراً من مختلف أركان هذه الأرض دون أن تعد الفواصل
والابعاد والحواجز ويكفي حمل العقيدة والفكرة . ويتقرب الواحد للآخر
على قدر ما تتوفر بينهم الشروط والمزايا وأصول تلك العقيدة وتبتعد على
قدر تخلفها عن تلك . إذ نجد أن الدين الواحد بعد أمد تشعبت منه
مذاهب فرقت جماعته في الداخل فهم بينهم ربما كانوا متنافرين ولكنهم
يتحدون أمام الأديان الأخرى ، كما نرى ذلك في المذاهب الإسلامية
والمسيحية وغيرها ، وكما نرى ذلك في الشيوعية وكيف انشقت داخلها إلى
مذاهب فهي تتطاحن فيما بينها في الداخل ولكنها تقف أمام خصومها
كوحدة تتميز بأصولها .

وهناك العقائد الفلسفية وغيرها تجمعها الفكرة والعقيدة الواحدة في
مختلف الدول من شرق الأرض وغربها .

المعرفة :

ومن أسباب التقارب العلم والحكمة والعقل ، المنطق ، والأخلاق
السامية متى بلغت في البشر لحد ما بدأ يزيل الفروق المادية بين أفراد
وجماعات البشر من الناحية المادية التي سيلي ذكرها من لون وشكل ولغة
وزي وأمثالها ، بل يقدر الفرد أني كان ومن أين جاء ومهما كان عنصره
ومرجعه ولونه وشكله وهيكله ولغته ، فهو يرى فيه القدرة وقوة الإدراك

والعقل المميز والمنطق ، وعندها يكون الكلام صفة المتكلم ، ذلك الكلام الذي يعتبر عن قدرته الفكرية ودرجة قواه المعنوية .

المعرفة التي تستثير بها الأفكار والعقول وتوقظ في الضمائر الوجدان وروح الإنسانية ومكارم الأخلاق والبر والاحسان والعدل والانصاف ونبذ للعداات المستهجنة والتقاليد المستقبحة ، وتعرفه طريق السلوك والصفاء ، وكلما نشطت تلك المعرفة ازداد حباً لأخيه الإنسان وإسداء الجميل مادة ومعنى من خدمة مادية وخدمة فكرية ومساعدات مؤقتة وأخرى دائمة . وهل تجد من هؤلاء إلا مصلحاً حكيماً أو نبياً حميماً أو سيداً كريماً ، لا يقفون أمام الإنسان موقف الند للند فحسب بل يتجاوزون بالفضل والإحسان لإصلاح أحوالهم المادية والمعنوية من البر والعطف والإحسان والكرم الخلقي ونشر السلام والتقارب والألفة والمحبة بين أفراد الجنس البشري والرحمة والشفقة إلى كل ذي روح حساسة تشقى وتسعد؟ كما قال الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر : (واليه على مصر في العهد الذي كتبه له) :

(الناس إما أخ لك في الدين أو شبيه لك في الخلق) ، هذه هي المعرفة .

وعكس ذلك ما تجده في المجتمعات الجاهلة من التجاوز والتعدي والظلم من الكبير على الصغير والقوي على الضعيف ، فلا تكاد تتجاوز دارك أو محلتك أو مدينتك أو مجتمعك ، إلا وكنت عرضة للغدر والاعتقال والتجاوز دون أن تكون منك بادرة وقصور . والظلم من شيم النفوس الجاهلة والفقيرة من المال والكمال . وإذا ما عدت إلى التاريخ واستعراض القديم بين المدن والقرى والقبائل لوجدت الغارة والغيلة والتجاوز بين الجارتين المدينتين والقريتين والقبيلتين ، بل وبين المحلتين في المدينة الواحدة وتجاوز أفراد هذه على هذه وغارة هذه على هذه في النفوس والأموال وحتى الأعراض دون ما مبرر ، حتى لتجد الرجل من هذه القبيلة

في كثير من الأحيان يجد القسوة والشدة من أفراد القبيلة أو القرية أو المدينة الأخرى دون أن يكون مذنباً وقد نجد الصبي لا يطبق المرور من زقاقه إلى آخر ، مجاور يلعب فيه الصبيان ، دون أن يكون عرضة لتجاوزاتهم دون أن يكون صدر منه ما يغيظهم ، وربما أدى الجهل إلى الخصام بين أفراد العائلة الواحدة . ومن درس التاريخ القديم أخص في البيئات الجاهلة أيد ذلك . فالعلم والحكمة والجهل والفقر هما من أهم وسائل التقارب والتباعد في أفراد البشر .

وهناك التقارب الروحي والأخلاقي قد يكون سبباً مهماً للتقارب والتباعد ، فالصفات المشتركة والعادات المماثلة تقرب بين الأفراد والجماعات والمخالفة تبعد بينهم . وقد قيل عدو المرء من يعمل عمله مما يخلق بينهم من روح المنافسة . أو يكون سبباً للتقارب إذا وجدت صفات روحية مماثلة بين فردين ، كأن يهوى هذا جمال الطبيعة ويمثله الثاني ، ويهوى هذا نوعاً من المطالعات والمداعبات أو النكات أو المصنوعات أو المخلوقات أو مشاهد وغير ذلك ، ويهوى الثاني نفس تلك فما يستمزجه هذا يستمزجه ذلك من ناحية روحية وأدبية ومادية بالسمع أو البصر أو الذوق أو الفكرة ، فترى التقارب بينهم واضحاً جلياً ، وبالعكس إذا حصل ما ينفر منه هذا يهواه الثاني وما يهواه الأول ينفر منه الثاني ، حتى قال الشاعر :

روحي الفدا لمعاشر أهل بصحبته انسجم

سيهون إجلالاً له أنى أطأطىء للقدم

إن شئت تعرف يا أخي على اليقين جهنماً

فجهنم الدنيا معاشرة المخالف إن لزم

وربما وجدت بين هؤلاء بسبب هذا التقارب أخوة تفوق محبة الأشقاء في الحب والتعاون والتأييد وقد قيل في ذلك : « رب أخ لك لم تلده

أمك» كما قيل : « إن الأرواح جند مجندة ما توافق منها ائتلف وما تنافر منها اختلف » .

وحقاً ذلك وقد قال الشاعر :

سعة الفلات مع الأعداء ضيقة سم الخياط لدى الأحباب ميدان
لو ضمني بيت نمل والحبيب به لكان لي فيه بستان وريحان
ومن هو الحبيب سوى من أجدر فيه بغيتي من صفاته وروحه؟ إما أن
تكون مادية أو معنوية ، ولا أشك بالمعنوية إلا وهي المثلى إذ هي وحدها
التي تكون بها الألفة الدائمة والحب وهذا التقارب الروحي قد يخلق
حبيين بين أفراد قبائل أو مذاهب أو مدن أو قطرين متنافرة ، كما قال
الشاعر وهو يتغزل بحبيته :

هي شامية إذا ما استهلت وأنا ضدها سليل يمانى
هل رأيتم يا اخوتي أو سمعتم إن ضدين قط يجتمعان
فأقول إذا كنتم ضدين من قطرين ولكنكما شقيقان بالنفس والصفات
والأرواح .

فالصفات المعنوية المارة الذكر تكون هي الصفات الأساسية للتقارب
والتباعد ، وحتى بعد شرحنا الصفات المادية والمختلطة فسوف نجدتها
واحدة ، أي إنما هو ما يعود إلى الحس والشعور من شوق وحب وألفة
ونزعة للتقارب ، وعلى عكس ذلك أيضاً ما يجده في تباعد إنما ما يحس
به من نفور مادي يتحول إلى نفور بالذوق وتنافر في الشعور واختلاف في
الطباع وكلها معنوية .

٢ - المادية :

الوطن - ما هو الوطن؟ .

أهي الأرض التي ولدت بها أنا؟ أم أنا وأبي؟ أم آبائي وأجدادي؟ أو

التي نشأت بها؟ أم التي غذتني؟ أو التي فيها أصدقائي وأحبائي وأهلي؟
أم التي أتحسس بالحب والحنان لها؟ أو غير ذلك؟ .

ربما ولدت في مولد أبي أو آبائي وأجدادي أو ولدت في مدينة أو قطر آخر لسبب من الأسباب ، كأن أكون ولدت من أب كان سفيراً في بلدة صديقة أو غير صديقة ولدت بها ، أو جاءت أمي لزيارة ذلك القطر كالحاج لمكة وهو في إحدى الأقطار الإسلامية النائية كاندونيسيا ، أو كان تاجراً أو كانت أمي تلميذة في إحدى الأقطار النائية عن بلدها ووطنها الأصلي ، كأن تكون أمة تركية وأبوه مصرياً وكلاهما جاء لتجارة أو ثقافة إلى أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو أوروبا أو اليابان وحصلت الولادة بها ، أو حصلت الولادة في أرض أخرى سواء وطن الآباء أو غير الآباء كما مرّ وأصبحت النشأة في أرض أخرى .

هذه النشأة كم دامت؟ أم كانت في سن الطفولة الأولى وقبل أن يحس الطفل بمحيطه وقبل المعرفة الأولى أم دامت لبعد التمييز؟ لتبقى له ذكريات ، أم دامت لعهد الصبا والنشأة الأولى وبدء الصحبة؟ أم حصل معها أصدقاء من الصبيان قبل عهد الدراسة وفي دور الحضانة؟ أم هي كانت في العهد المدرسي الأول في الابتدائية ، الثانوية ، الجامعية وانقسمت وتشعبت كأولاد السفراء - ذلك من حيث السكنى والأصدقاء والغذاء والهواء والطعام ، والمحيط والتربية والتعليم ، ودرجة الذكريات ودرجة الحنان ، أي منها الوطن؟ .

ماذا نقول لقريشي الأب والأجداد تربى في أرض نائية. أخرى لنسل أو نسلين أو عشرة أو عشرين ، في أرض عربية أرض تركية أو صينية أو أوروبية ، وتعود على أخلاق أهلها؟ .

أهولاً يزال قريشياً؟ وماذا نقول لأعجمي جاء وتربى بأرض عربية لنسل أو نسلين أو عشرة أو عشرين ، في أرض عربية أرض تركية أو صينية أو أوروبية وتعود بأخلاق أهلها ، ونسي أخلاق محيطه الأصلي وعاداتهم

وكل شيء سوى ما يقال عن آبائه وأجداده؟ أهو لا يزال أعجمياً؟ وهل إذا عاد القرشي بعد مئات السنين من بلاد أوروبية أو صينية أو هندية أو غيرها وهو لا يزال متخلفاً بنفس الخلق من عادات الأرض التي ولد بها وتربى أهو قرشي أم صيني؟ أم أنه غير قرشي ولكن أبناء قرشيون؟ .

إن هذه التفاصيل المارة الذكر تفاصيل واقعية فكيف يجب أن تعالج وكيف يجب أن تحدد؟ كيف يعني ابن الوطن في العراق مثلاً بعد الحكم العثماني؟

أصحح أن كل من كان ينتمي إلى الحكم العثماني هو عراقي؟ وكل من كان لا يقبل بالسيطرة العثمانية فهو غير عراقي وإن جاء الأول من عهد قريب من اليونان أو تركية أو أرمينية أو أفغانستان أو أي بلدة عربية أو غير عربية يقبل مواطناً؟ أما ذلك الذي ولد من آباء وأجداد نسلأ بعد نسل أكان أصله قرشياً أو عدنانياً عربياً كان أو أعجمياً فهو غير عراقي لمجرد أنه لم يقبل التبعية العثمانية في عهد الاحتلال العثماني ، ولمحض التخلص من نير السلطة الحاكمة وتخلصاً من تعسفاتها ، فهو غير عراقي؟ فيتحلى الأرمني أو الشركسي أو اليوناني الدخيل الذي كان يوماً ما تحت السلطة التركية بالجنسية العراقية ، وتنزع من هذا المواطن العريق الذي ما أراد أن يخضع لحكم أو سلطة حاكمة مستعمرة وتجنس بجنسية هندية أو أفغانية أو غيرها؟ وإن كان يشعر الأول الذي خضع للحكم العثماني أنه يوناني أو شركسي أو أرمني أو هندي أو صيني أصيل من آبائه وأجداده وحن لبلد آبائه وأجداده ويفتخر بها ، وبالعكس يشعر هذا الثاني بالحنين لبلدته التي ولد ونشأ بها وتغذى بتربتها وحوله الزمرة والجماعة من أصدقائه من بني البلد ويحن إلى هذه الأرض حنينه لأمه ولمن حوله حنينه لإخوته وهو متماسك معهم عقيدة وديناً ، وقد رأى أن فيها مولد آبائه وأجداده وفيها مقابرهم وآثارهم .

أصحح أن يثبت الأول في الوطنية وينفي الثاني منها؟ .

اللون :

الأبيض الآري والسامي في أوروبا وأمريكا وشمال الجزيرة العربية وإفريقيا وإيران والهند وباكستان وأفغانستان وأستراليا .

الأسمر الآري والسامي في شمال إفريقيا وجنوب الجزيرة العربية والهند وباكستان .

الأحمر الهنود الحمر في أمريكا الشمالية والجنوبية .

الأصفر في شرق آسيا .

الأسود في إفريقيا وأمريكا من الجنس الحامي .

كم نرى بسبب اللون تمييزاً عنصرياً أخص منها في أوروبا وأمريكا وربما في أنحاء العالم الآخر ، وهي ميزة ظاهرة وكثيراً ما تجد هذه الميزة داخل الدولة الواحدة وربما كانت هذه الميزة نفسية أو اجتماعية خلقية كما هي أخلاقية بين أفراد الشعب الواحد ، تلك التي تراها في كثير من الدول الجامعة للشعوب الآرية والحامية كالولايات المتحدة الأمريكية وإفريقيا ، والسامية والحامية كما في السودان وشرق إفريقيا .

ورغم هذه الظاهرة النفسية نجد بعض الحكومات تساعد هذا التمييز العنصري بين أفراد الشعب والقطر الواحد كحكومات إفريقيا الجنوبية ، وما يلاقيه السود من جور البيض ويقابل ذلك ما يلاقيه البيض من السود في شرق إفريقيا ووسطها ، وهذه الظاهرة المادية يعاب عليها من مثقفي البشر لما تخلق من الأجحاف والعداء ، وبالتالي من النكبات وكم كان لها مساوئ إنسانية على طول التاريخ البشري وكانت لها منازات ومشاحنات وفتن وصدمات على كاهل أفراد البشر مبعثها الجهل الاجتماعي والهمجية الكامنة في قلوب البشر الذي ابتعد عن الاصغاء للعقل والضمير الإنساني الواعي .

وإذا محصنا ودققنا الحقيقة لوجدنا أن الثقافة لا تختص بلون ومثلها الفضائل والسجايا الحميدة والعلم والجمال الخُلقي والخُلقي ولا عكسها ، وربما وجدت السمو والرفعة في لون وترى بالوقت نفسه عكس بنفس اللون كما تراه في الألوان الأخرى أيضاً .

إن اللون لا يدل أبداً على مميزات دائمة للحسن أو القبح أو الشر والخير ، فالتربية والمحيط والعلم والجهل والثراء والفقر والمناخ والطقس لها أثرها الفعال ولطالما كانت شعوب صفراء في أوج الحضارة وفي الوقت الذي كانت الشعوب البيض في حالة بربرية ، وكم كانت تزدهر البلاد الإسلامية بالعلم والثراء والسلام والطمأنينة ، في حين كانت أوروبا وأمريكا في بحبوحة من المحنة والشقاء وترزح في جهل مطبق وغير ذلك ، فاللون ليس عبءة مميزة يجب عدها نموذجاً وأصلاً نفرق به أفراد البشر للتساوي في الحقوق وشرطاً مميزاً بين الأفراد والجماعات يقدر ما كانت للأثر الروحية من الأهمية .

الجنس والعنصر والدم :

والأصح أن نعبر عن الثلاثة بالعنصر، قاصدين بها الأصل في الجنس والدم كأن نقول عنصراً أرياً أو سامياً أو حامياً أو أحمر (الهنود الحمر الأمريكيين) والجنس الأصفر . فهي وإن امتازت أحياناً ببعض المميزات الشكلية واللونية بيد أن هذه المميزات تتغير بمرور الزمان وتتكيف من تأثير درجة حرارة المحيط والمنافع والطقس نسلاً بعد نسل ، عندما يتبدل عليها ذلك كما تتأثر نفسياً بالمحيط والتربية وفي جميعها تجد أجهزة البدن الأصلية والمستوى الفكري والنفسيات والروحيات ، وإن وجد فيها في الآونة الأولى بعض التبدلات البسيطة بسبب المحيط والتربية الطويلة الموروثة والمكتسبة ، بيد من حيث الأصل لا ترى مميزات فكرية مميزات في الأجهزة البدنية تخالف الواحدة الأرى سوى هذا اللون والشكل ، وكثيراً ما تجد المستوى الفكري بنفس التذبذب في جميعها

ويكاد يكون بتأثير المحيط والتربية والمناخ بنفس المستوى عند بقائه أو تغييره على جميع العناصر على حد سواء . إن الحالات الموروثة والمكتسبة فيهم جميعاً على نفس المستوى من التبدل والتغيير بتأثير التطورات الطبيعية وغير الطبيعية ، وبالنتيجة ليس لنا أن نميز عنصراً على عنصر لعل أصلية ثابتة فيه إذ ربما وجدت من الأفراد في عنصر حامي تفوقاً من الناحية الاجتماعية والعقلية والمظهر البدني والفكري على العنصر الأري وبالعكس . ومثله بين العناصر الأخرى . ويقدر ما يشعر الفرد من الجماعة والأفراد تجاهه من الابتعاد والتقرب ويحس منهم ألفة وجباً أو نفوراً وبغضاً يكيف نفسه بل تتكيف نفسه بالولاء والاخلاص لهم والعكس بالعكس .

إن التنازلات والتفاخرات من فرد أو جماعة على مثلها لا تخلف سوى مثلها من الانعكاسات تلك التي تحصل دائماً في المجتمعات الانسانية الجاهلة من الجهة الاجتماعية وتكثر في مجتمعات متدهورة خلقياً حيث تكثر الحزازات والمشاحنات ، وتكون تلك بسبب العنصرية كما تكون بسبب العقائد المارة . وما سيلي ذكره .

الواقع الذي يدليه المنطق والعقل السليم لا تجوز الفواصل إلا على قدر المعرفة والخلق ودرجة الشعور الإنساني للخدمة العامة والخاصة في الفرد والجماعة .

الزّي :

في اللباس وطرز التجميل في الرأس والوجه والبدن من الشعر والتقاطيع ، وإذا عدنا إلى ما اعتاد عليه الأفراد في مختلف الأقطار مما ذكرناه من اللباس في البلاد الأوروبية والصينية والهندية والعربية والإفريقية والاسيكيمو ، في المناطق الحارة والباردة والمعتدلة ، من ارتداء أنواع الأزياء أو مثلها طرز حلاقة الشعر أو إرساله أو تجميله أو تقصيره أو إهماله أو تزيينه في الرأس أو الوجه أو باقي نواحي البدن أو استعمال الآثار

الدائمة أو المؤقتة في نواحي البدن ، من وشم وكي وثقب الأنوف أو الأذان أو غيرها ، مما يترك أثراً دائماً أو مؤقتاً كالاصباغ وما شاكل .

نرى أن لكل جماعة آثاراً وعاداتٍ وعرفاً تتميز بها جماعةً وأفراداً دون أخرى ، ليست لها ما يميزها تمييزاً آنياً إذا كانت آنية أو باقية على الفرد دون سرايتها إلى نسله كما يفعلها في حالة الوشم والكي والثقب للأنوف والأذان ، بغية التجميل أو استعمال الحلى ، هذه كلها رغم كونها من العادات التي يمكن إصلاحها وتبديلها فهي لا تكون في الواقع فارقاً أساسياً للتمييز العنصري الذي يؤثر على سلوك الفرد تجاه أخيه الإنسان ، ويقدر أن لا يعيرها هو أو غيره أهمية ، والتي بنظر العقلاء ليست أموراً أساسية لحياة الفرد ، أو أثرها على الغير كالمعاملات والسلوك والأخلاق والسيرة .

وهذه بالإمكان وأخص منها اللباس تغييره حسب المحيط ومثلها التجملات البدنية المؤقتة المار ذكرها ، فهي يمكن تطورها حسب ما هي في البيئة وعندها لا تبقى فروق مميزة ظاهرية أو باطنية ، منها يحسب لها ما يدل على تمييز في الفرد بين الأفراد الأخرى ، يخرج كعضو مماثل لتلك الجماعة . وربما كان اللباس الذي بالإمكان في أي وقت تعويضه وتبديله أثراً بالغاً قوياً للتمييز ومثله الهيكل الناشئ من طرز الشعر من إرساله وقصه أو تجميله وأمثال ذلك ، طرز لباس المرأة في المحيط والرجل ، أثراً تحسب لها بعض الشعوب حساباً يخرج الفرد من مواطن إلى أجنبي ولنضرب لذلك أمثالا ، كاستفادة من لباس أوروبي في وسط الجزيرة العربية كمكة أو جدة أو بالعكس لباس العربي في أوروبا ، أو لباس الياباني أو الصيني في شمال إفريقيا أو الهندي في تركيا وأمثالها . ومثلها طرز اللحي . فترى للشعوب الأوروبية طرزاً خاصاً تختلف عنه الشعوب الصينية في شعر الوجه والرأس ، وتختلف عن كليهما الشعوب العربية ، وعن جميعها الشعوب الهندية التي لا يجوز لها أخص بعض المذاهب منها قص الشعر للرأس أو اللحي ، كما ترى أصول الزينة للرجال والنساء الأوروبيين تختلف عن الهندية والصينية والعربية والسود في أواسط إفريقيا

ومثلها ليس النساء وأصول التستر للنساء والرجال في مختلف شعوب الأرض في الحل والترحال والإقامة والسفر وداخل البيوت والخارج ، وكثير أمثال تلك التي تميّز قطراً عن آخر وشعباً عن آخر، وجميع تلك يمكن خلال مدة قصيرة التطبع والسير عليها والقضاء على تلك الفواصل بحيث لا يبقى لها أثر يذكر ، سوى ما ظلّ منها باقياً كالثقب في الأذنين والأنف عند الهنود وغيرهم وتشقق الخدود والعارضين عند بعض الزنوج والوشم عند شعوب أخرى على الوجه أو الصدر أو اليدين تلك التي لا يمكن إخفاؤها . ومن الصعب محوها ، تبقى آثارها ومميزاتها في الفرد بيد أنها لا تنتقل كميزات اللون في النسل .

فالذي له تأثير نفسي على الابتعاد والاقتراب بين الأفراد لما يحسون فيه من الموافقة والمخالفة لطباعهم وعاداتهم ، ويحسب لها البعض أثراً بليغاً في تمييز هذا عن غيره ، على الأخص أن تبع ذلك بعض مميزات أخرى تفصله في اللون أو العقيدة أو السلوك أو ما شابه ، وأما إذا وجدها فتعود بنوعها وبعدها وقربها من عادات القوم .

التزاوج والتوالد والتقارب العائلي :

وللتزاوج أبعد الأثر في التقارب وقد قيل في النساء لسبب التزاوج أنهن يقربن البعيد ويبعدن القريب . فالزوجة شريكة الرجل في حياته المعنوية والمادية لا أقرب منها إليه ، فهي بقدر ما تحمله من قوى عقلية وإدارية تزداد تقرباً من زوجها حتى يبلغا كنفس واحدة تجمعهم كل المصالح والمنافع المشتركة ، أخص ان أخلصت وأكثر ان أنجبت الأولاد - إذ قبل أنجابها الأولاد من السهل جداً قطع هذه الصلة والعودة إلى الحالة الأولى وتبديلها بغيرها ، بيد انه بعد انجاب الأولاد فقد جاءت حلقة رابطة محكمة تشد بالولد الثاني بحلقة ثابتة الاستحكام ، وهكذا تزيد كلما زادت هذه الولادة . بيد انه يفوق كل ذلك الاقتران والموافقة الروحية بين الزوجين فوق كل رابطة .

ومذ يحكم الزواج بين شخصين نراه يحكم الرابطة بين العائلتين والقبيلتين برابطة سببية ، تبقى هذه الرابطة قائمة ما دامت الزوجة في الحياة ، وإذا مات أحد الزوجين قام الأولاد المنجبون باحكام هذه الرابطة إلى الأبد بالتوالد .

وهذا التوالد على أشده بين الأبوين وأولادهم ، فهم الفرع الأول وبينهما وبين أبنائهم ، فالأبناء فيما بينهم أخوة أشقاء ، وكلما توالد وتباعدت الفروع من أولاد فأحفاد فأولاد أحفاد ثم أحفاد أحفاد ، هكذا دوايك نرى القبيلة تتشكل من فروع وفروع الفروع حتى تصل الأصل ، وكلما قربوا للأصل كانت الرابطة النفسية والمحبة والعلاقة أشد تلك بالنسبة للأحساب ، وهناك أصدقاء الآباء للأبناء وبالعكس .

وما يحصل من التزاوج والتقارب بربط العوائل والقبائل والقرية والمدينة . فابن القبيلة ينتمي إليها وله رابطة توالديه ، وابن القرية ينتمي لقرية أو المدينة لمدينته والقطر لقطره . هذا التقارب العائلي له أثره البالغ في الافراد والجماعات البدوية أكثر فأكثر ويقل بين الشعوب المدنية والمتقنة ويقوم مقامها حسن التفاهم والتقارب الفكري ، حتى قيل (رب أخ لك لم تلده أمك) ، وهي حقيقة واقعية حاصلة من التقارب الفكري والروحي بين فردين أو جماعة يحس الواحد بالآخر من الحنو والتقارب أشد بكثير مما يحسه بأقرب اخوته .

ولطالما وجدنا التقارب بين صديقين والتعاون بينهما أكثر بكثير من أخيه ، حتى قد يكون هذا الصديق من قرية أو مدينة أو قطر آخر يتميز بكل الصفات عن هذا سوى الفكرة والعقيدة فحسب .

النشأة :

مرّ ذكرها في الوطن (الأرض) .

المحل الذي ينشأ فيه الفرد ويتعرّج والمحل الذي يحمل من ذلك

المكان ذكرياته الماضية التي تبقى عالقة في ذاكرته ، ممتدة من أيام طفولته وصباه وشرح الشباب وعهد الشباب ، وبعده حتى الكهولة والشيخوخة مع اقرانه واخوته وبين عائلته ومحيط محلته ومدرسته ومركز اللهو واللعب والتجوال في افراحه وأتراحه ، ومن عطف عليه وأعانه ومن آذاه وأهانته وما أبهجه وأسرته ونكده وأضره .

تلك التي تبقى عالقة في ذهنه وتجول في خياله وجنانه تتداعى إليه خواطرها وتمر على ذاكرته مناظرها ، فيشتاقها ويهفو إلى آثارها الراسخة فتعج فيه كوامنها ، خاطفة ناطقة صارخة فيحن للماضي لو يعود ويتمنى من اخلائه كل ودود .

لا يشك أن المرء إذا تنوعت حياته وتبدل محل سكنه وتغيرت محلات إقامته فهو يهفو لأعذبها صفاء وأخلصها وفاء وأقلها شقاء وعناء وأكثره أحبه وأقلها عداء .

ربما كان هذا التنوع في السكنى في مدن أو قرى أو أقطار مختلفة فهي جزء من حياته . فلمن ينتمي وأين هو ووطنه ؟ أهو الذي ولد فيه وهو لا يذكر منه شيئاً؟ أم وطن آبائه الأقدمين أم الأقربين؟ أم الذي نشأ فيه؟ وأي من تلك التي نشأ فيها؟ أهى الأطول نشأة أم الألد والأعظم منه وإن قلّت مدتها وصغرت رقعتها؟ .

الخلقة والتقاطيع الجسمية :

خلق الناس مختلفي الخلقة والتقاطيع ففيهم الكبير الجسيم ، والصغير الذميم والسمين والنحيف والقوي والضعيف والجميل المليح والذميم القبيح . والأبيض والأسمر والأصفر والأحمر . بيد اننا نرى الأذواق فيما مرّ غير متساوية في الانتخاب ولا سواسية في الاختيار ، فكم من ترك الأبيض واختار الأسمر وكم من تارك المعتدل القويم إلى الطويل الضخم؟ قال الشاعر :

تعشقها شمطاء باد عيونها وللناس مما يعشقون مذاهب

ومنهم من لم يرقه الأبيض والأحمر والأصفر واختار الأسود فقال :
الناس تعشق من خال بوجنته فكيف بي وحبيبي كله خال
وقال مجنون ليلي :
يقولون ليلي سودة حبشية ولولا سواد المسك ما انباع غاليا

والحسن وإن كان له حدود ومثله القبح بيد هناك التقارب في الأرواح
والطباع . فتقارب الأرواح لبعضها والطيور على أمثالها تقع فيتقارب
المتماثلون ويتباعد المتخالفون ، ولطبيعة الأرض وعادات وخلقة الساكنين
وتشابههم تجذب بعضها البعض ، ولكن هذا ليس بدليل ، على أن الذي
يختلف خلقه إلى الحسن وكمال الخلقة والجمال الطبيعي فيهو الأثرون
ويستمزجه الأغلبون ، فهذا أيضاً ليس دليلاً لتقارب أهل المدينة أو القرية
أو الوطن الواحد . والخلقة لها خصائصها في النفوس وما ذكرناه من
الأشعار إنما هي قبلت في الشواذ ولا يقاس على الأغلبية ، والأصل أن
الأغلبية تهوى تغريد البلبل وصداحه ، والنادر من يهوى نقيق الغراب ،
والأغلبية تذوق الفواكه الحلوة الناضجة ، والنادر من يفضل الحامضة
الفجة ومثلها من يفضل الأسود على الأبيض والحامي على الأري .
وهكذا .

المختلطة :

كاللغة المهنة ، أو الوظيفة والتربية ، النعمة والشعور .

اللغة : كل لغة إنسان فاللغة وسيلة التفاهم والتعبير ، والتقارب لا
يدرك المرء أثر اللغة في حياته إلا إذا ابتلى وتغرب في بلاد لا يفهم
لغتها ، أو صادف أن احتاج إلى الكلام مع أفراد أجنب ، أو اضطرته
الحاجة للإصغاء إلى الحاكي والتلفزيون أو غيره واستفهام عرض أو شريط
أو أفلام أو رسالة أو كتاب .

واللغة واللهجة كلما كانت مماثلة بعثت في المتحادثين روح التقارب البلدي أو القروي أو الوطني ، وربما كانت المفهوم والدليل الأول لتعرف الشخص من أي بلدة وقطر، ودرجة ذكائه وعلمه وحكمته أو جهله وغباوته . لذا قيل : الكلام صفة المتكلم . وقيل أيضاً المرء مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه - وربما يبقى المرء مجهولاً للغير حتى ينطق وعندها تعرفه من هو . ومن أين هو وكيف يجب أن تعامله أو تدانيه أو تباعده . فقد نقل عن الإمام الشافعي : انه دخل عليه رجل وكان الإمام وحده في غرفة الاستقبال وماداً رجليه ، ومذ أقبل عليه ورأى سيماء وبزته وهيكله ما يبين عليه الوقار والاحترام آنذاك ، ولما لم ينطق الرجل ، جمع الإمام رجليه ، وقابله بلطف واحترام ، وما أن جلس الزائر صبحه بالخير ، وبعدها سأله عن حاجته ، فقال : لي سؤال فقهي أحب أن تجيبني عليه . قال الإمام : تفضل وسل :

الزائر : متى يفطر الصائم؟

الإمام : متى غابت الشمس .

الزائر : وإن لم تغب؟

الإمام : إذن يمد الشافعي رجليه .

وقد ذهبت كلمة الإمام الشافعي هذه مثلاً على جاهل ذي هيكل أو بزة موقرة ، يجهل مواقع القوة والضعف في الكلام ، وكيف يسأل ويجيب ، وكيف يحاور ، أو تراه يصدقك ، وأنت تحدثه ما لا يليق ، أو يكذبك أو يخاصمك أمام الاستدلال والمنطق القوي في البديهيات ، لذا قيل :

كلم المرء بما لا يليق فإن صدق فلا عقل له . أو حدث المرء بما يليق فإن كذب فلا عقل له .

فاللغة تعرفك مرة المرء من أي بلد ، وأخرى مقدرته العقلية العلمية . بيد أنه لا تدل هذه اللغة مهما كانت متينة اللهجة لابن البلد

درجة وطنيته وتفانيه لتلك البلدة ذات اللغة، إذ ربما نشأ هذا الفرد بغية دراسة علمية أو معاملات تجارية أو شؤون اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها، فأتقن اللغة وعبر عنها واستمالك، وهو يوطن ويكن غير ما يظهر.

وربما وجدت آخر لا يحسن اللغة بدرجة من سبق لأنه تغرب لنفس الأغراض عن وطنه إلى بلدة أخرى، وعاد بعد حين وقد تأثرت لهجته ولغته من البلاد التي أقام فيها طويلاً، وإذا بك لا ترى فيه ما تجده في الوطني وهو أشد حباً ووطنية من سابقه، فاللغة ما هي إلا أداة أو وسيلة، أو أخرى مظهر من مظاهر ما يتجلى بها ابن البلد بين بني وطنه، وصفة محببه ومقربة له منهم للتفاهم والتعبير، وليست وحدها الدليل القاطع والبرهان الواقع على ثبوت وطنيته، وربما بدت للوهلة الأولى وأثبتت وطنيته أمام النعرات والتعصبات والمنابزات العائلية والقبائلية عند البعض الذين يحسبونها شرطاً من شروط الحياة والسلوك.

نحن نعرف حق المعرفة أن هناك كثيراً من الصفات القائمة بين بعض القبائل والفرق في مختلف أنحاء المعمورة، أخص منها بين القبائل البدائية البدوية البعيدة عن الحضارة والثقافة العالية، وما تحمله من الاعتداد بالنفس والعائلة والقبيلة، رغم جهلها وفقرها، حتى لتجد من العار أن تزوج بنتاً لها لرجل غريب مهما بلغ من الشرف الذاتي والدرجة العلمية وسمو الأخلاق، وهذه تذكرني بقصة جرت للعلامة الفيروز آبادي صاحب قاموس اللغة العربية، هذا العالم المحقق يصل قبيلة عربية ويتزوج إحدى نساها وهي تأبى أن تزوج إلا عربياً أصيلاً قريباً. ذات يوم مساء يخاطب زوجته قائلاً: اقتلي المصباح (يقصد بذلك اطفئي المصباح) فتستنكر منه هذه الجملة قائلة إنها عجيبة. كان هذا نذيراً له بالشر والبدء للتحقيق عنه فيما إذا كان أعجمياً، فأجابها إن للعرب قبائل وطوائف وأقطاراً ومدناً ولهجات شتى لا يستطيع أن يتقنها عربي في ناحية

ما ، وان جهلك بالكلمة لا يدل أنها أعجمية ، وهناك الكثير من اللغات التي تجهلونها وقد وضعت بأشعار وأمثال عربية . فقالت : اتل لي منها .

ففكر وهو المحقق المتبحر في اللغة العربية وهو ينتمي لفيروز آباد من بلاد فارس ، وما نطق به أعلاه كان حقيقة فهي وغيرها ربما جهلت الكثير من لغات العرب ، بيد أنه أراد أن يقدم لها كلاماً يقطع بجهلها به إلى الساعة التي يستطيع التخلص من المأزق وترك القبيلة ، فأتى بأبيات شعرية ضمنها كلمات فارسية قد صاغها صياغة عربية . قائلاً :

ان الأناكير سارت بعدما سبزت واشرورنت بعدما كانت تراشيشا

والأناكير جمع أنكور وهو العنب بالفارسية ، وسارت تعني نضجت وسبزت تعني اخضرت ، واشرورنت تعني حلت ، وتراشيشا تعني حامضة . وفحواها - إن العنب نضج بعد ما كان أخضراً وحلّ بعدما كان حامضاً . وقيل إنه بعدها ترك القبيلة هارباً .

منه نستدل أن اللغة كانت عند الأقوام البعيدة أخص منها البدوية وأمثالها رمزاً ودليلاً على الوطنية ، لكن اليوم التي كثرت فيها المعارف ووسائل السفر وتعلم اللغات والازدواج من الغرباء والدراسات في الأقطار النائية ، لم يبق للغة ذلك الرمز الحصين والعلامة الوثيقة على الوطنية .

الحرفة والمهنة والوظيفة :

ذو مختلف الأعمال والمشاكل من شتى أنواعها الفكرية والبدنية ، بما فيهم من مهندسين وأطباء وإداريين وعمال وصناع على مختلف شعبها وأنواعها ، وما يتبع ذلك من ذوي المكاسب التجارية ومزارعين ما لا يعد ويحصى .

قيل سابقاً : عدو المرء من يعمل عمله ، وربما تمايز هذا في البيئات الجاهلة ، بيد اننا نرى عكس ذلك اليوم بسبب التطور العالمي في

المواصلات ورفع المستوى العلمي والصناعي ، وبما نشأ من اتحاد وتعاون بين كل طبقة خاصة من عمال وزراع ومهندسين وأطباء يضم أصنافهم ويوحد قواهم في المدينة الواحدة والقطر الواحد ، حتى امتدت إلى ضمها في الأقطار الأخرى ، فترى دعوة الجمعيات الطبية في مختلف الدول لبعضها البعض ومثلها الجمعيات الأدبية والهندسية وشتى الفروع العلمية والمهنية ، بما حصل من وسائل للتقارب هذه من تلك ، وإذا كان هناك تضاد اقتصادي في بلدة أو محلة بين أفراد من ذوي المصالح ، بيد أنه في الوقت نفسه تجمعهم المصلحة وتوحد بينهم للدفاع عن حقوقهم وتشدهم رابطة مشتركة تجمع شملهم ، فمحيط ونادي ومؤتمر ونقابات وأصناف كل منهم تضم الأفراد من نفس الحرفة أو المهنة أو العمل ، لشد أواصرهم والبحث في مجالاتهم والاطلاع عما يعرفه الواحد للآخر ورفع النواقص ، وهي اليوم غيرها بالأمس فترى التقارب بسبب وسائل النقل والارتباطات والمواصلات السلوكية وغير السلوكية والراديو والتلفزيون والصحف وأمثالها تقترب لتوجد العناصر المماثلة لبعضها ، فتكون كتلاً ووحدات متشابهة مهما كانت بعيدة الثقة بيد أنها قرية الصلة ، واننا بعد أن كان كل فرد قائماً بنفسه ثم تقارب في المدينة ثم في القطر الواحد ، وأمس اليوم تتحد بين عدة أقطار سياًتي يوم تكون هذه كلها في جميع الكرة الأرضية ذات مهمة واحدة وغاية واحدة تعمل الواحدة للأخرى ، لا يميزها عن بعضها التخوم والحدود السياسية والاقتصادية ، وتربطهم رابطة وهدف واحد هي خدمة تلك المصلحة والمهنة والعمل .

ثم الاستفادة منه للجميع وإذا فازت في البدء المراحل الأدبية مثل اليونسكو ثم الطبية ، فسوف نراها تشمل كل الوحدات وسوف تشمل كل الحكومات والأقطار والأمم سوف تتقارب وتتقارب بعضها من بعض بحكم العلم والحكمة والمعرفة والتفاهم ، وتهيئة الوسائل في المواصلات والمفاهيمات ، حتى تصبح يوماً ما حكومة عالمية واحدة تعمل لسعادة الإنسان حسب قدرته العلمية والعملية ولا تميز بين أفرادها إلا على أساس

خبرته وانتاجه الفكري والبدني وإخلاصه وسعيه . ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وإن سعيه سوف يُرى ﴾ .

فترى مما مرّ تقارب التجار من التجار والبقال من البقال والمهندس من قرينه المهندس الكهربائي للكهربائي والمعماري من المعماري والطبيب للطبيب ، كل من صنفه وطبقته والسياسي للسياسي والاقتصادي لزميله والأديب للأديب والفيلسوف لمثله ، وهكذا بحكم الحاجة والضرورة والاستفادة ، والطيور على أمثالها تقع .

هذا هو قانون طبيعي وبديهي . وهناك من المهن ما تكمل الأخرى وتؤيدها وتحتاجها ، كحاجة الطبيب للصيدلاني وحاجته للمواد الكهربائية وحاجة علماء التغذية لعلماء الكيمياء ، وهذه أحياناً للأدوات الميكانيكية والكهربائية والمعماري والجميع للمزارع الذي يمدهم بالغذاء ، وقد كانت في الأزمنة القديمة قد يؤثر وضع الاقتصادي من بلدة مجاورة على أخرى قريبة منها وتوسعت هذه حتى أصبح الوضع الزراعي والاقتصادي يتأثر من الجيران القريين ، أما اليوم وقد أصبح العالم يتحسس من الشرق والغرب فهذه بنكلاديش وتلك افريقيا يتحسس بمجاعتهم وغضب الطبيعة عليها الشرق والغرب ، وإذا بالمساعدات تنهال من العالم كله لها من كندا والاقطار الأمريكية والأوروبية والآسيوية وغيرها .

فالحرف تتقرب لبعضها بقدر ما تماثلها وتشاكلها وتبتعد عنها بقدر ما يكون الفارق بين مصالحها وتعاونها بعيداً . بيد انه لا يمكن أبداً أن تقول انها لا حاجة بها بتلك مطلقاً .

هكذا تصبح المهنة والحرفة والعمل سبباً من أسباب التقارب والتعارف والألفة ، وعلى قدر أهمية صاحبها يهتم العالم بالفرد .

وقد يعتبر العالم كله أن فرداً خدم البشرية فرداً منه دون أن يميز بينه وبين المواطن ، وهكذا نرى بعض الشخصيات العالمية منذ القديم يفتخر

به العرب والعجم مثل الحكيم ابن سينا ، ففي الوقت الذي يحيي العرب ذكرى ميلاده يقيم ذكرى ميلاده الفرس والروم وغيرهم ، ولا نشك أن هذه الندرة لا يقاس عليها ، بيد أن من يخدم خدمة يتساوى النفع لأفراد العالم يحس نحوه العالم كله على قدر ما أسداه له من الخدمة ، أمثال باستور وأديسون وكل من اكتشف دواءً ضد داء أو اخترع شيئاً يستفيد منه مجموع البشر ، وكلما زادت الثقافة الاجتماعية والعلوم الإنسانية في جماعة من البشر كالحكماء والفلاسفة والأدباء من ذوي الآراء والأنبياء والرسل ، من ذوي الأديان كانوا يدعون البشر لتقليل الفروق الاعتبارية المادية والعود إلى الفروق المعنوية من المعرفة والمعرفة والثروة العلمية والفضائل والقضاء على الجهل والفقر .

المحيط والتربية :

التربية المؤثرة في الافراد هي تربية العائلة والمدرسة . وبالإمكان الإضافة إليها ما يكتسبه من مجالس الاقران خارج المدرسة والبيت ، وما يجده من معايشرة الناس والمجالس التي يحضرها ، ومطالعة الصحف على اختلاف أنواعها واستماعه الراديو والتلفزيون ، ولكل قطر نهجه وسلوكه في جميع المجالات الأدبية والاجتماعية وما يكتسبه الفرد في مدارج سني حياته ، والأفراد الذين يعاشرهم يتحسس بالحنان والمحبة لهم من حسن معاشرتهم له ، أو البغض والنفور لسوء تلك ، وتأثير تلك في ذاكرته ونفسه منه بهم ومنهم إليه من دواعي وبواعث الألفة أو النفور وخلق بذور العلاقة والارتباط لذلك المحيط والجماعة التي قضى أمداً من حياته بينهم ، وهذا الأمد وطوله وقصره ونوعه وكيفيته مما اكتنفه وراق له واعتاد وتطبع عليه واشتاق لذكراه والأفراد الذين أثروا على نفسه ومال إليهم ويهوى لقائهم ، من مجموعة هذه وما تضمه من ذكريات لجماعة أو جماعات قضى رداً بين أحضانهم طفلاً وصبياً ويافعاً من آباء وأقارب وأصدقاء ومربين وزملاء المدرسة ، وما تلقاه منهم من تربية وتعليم وقصص وأحاديث وقضى معهم

أياماً ممتعة ومختلفاً من صور الحياة وأشكالها التي بقت عالقة كلما أوجت له الخواطر وتداعت الأفكار وحن للتقرب إلى بعض مما يقربه إلى تلك البقاع أو نفر من بعضهم فابتعد مما قاساه من البعض الآخر . وتكاد أن تكون التربية أخص منها منذ بدء الدراسة الابتدائية والثانوية ، وقبلها محيط العائلة والبيت ، هذه من أشد الدواعي والعلاقة النفسية بين الأفراد والمحيط الذي قامت فيه تلك التربية ويضاف لها مدة التربية وما لاقاه الفرد من الحياة الاجتماعية والاقتصادية من رغد العيش ونعيمها أو نكدها وجحيمها وحلاوة أو مرارة وسلام أو سؤام وحسن وقبيح وصفاء وعناء مما يقربه أو يبعده نفسياً وبدنياً أو يقضيه روحياً فيميل تارة لخيرها ويهوها ويفر أخرى من شرها ويأبأها ، فيصدق عليه قول الشاعر :

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وقومي وإن شحوا عليّ كرام

فيتعد عنها لما لاقاه من جورها وجور بعض أهلها وفي القلب منها حب وهوى لبعض ما لاقى فيها من عذوبة ورغد ، وهو لا يتعد إلا وقلبه يخفق حناناً ولا يترك إلا وفي نفسه هيجان يعاوده من حين إلى حين ويا للذكرى والخواطر ، وربما كان هذا الابتعاد من قرية لأخرى أو مدينة لأخرى أو قطر لآخر على قدر الصدمة وقدر ملقى الصدمة ونوعها وأشدّها صدمة ترك مقر ولادته ونشئته ومحيط أقربائه وأقرانه وزملاء دراسته وإخوانه ، لعل يطول سردها ويختلف نوعها ولا يهون شرحها سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو علمية أو عقائدية ، تارة مرغماً وأخرى شبه مرغم ، يضطر لسكنى بلاد أخرى فيقصر أو يطول مقامه والعمر مراحل ، والتربية أحياناً هي مصدر الشقاء إذا كانت فاسدة أو مصدر السعادة إذا صالحه .

هكذا يكون للتربية أثرها على مجرى حياة الفرد سعادة وشقاء وحساً وشعوراً في الحياة ومع من ولمن وأين ولأي أمد ، في ظروف إرادية أو اختيارية أو قهرية ، إجبارية تصعب قيادتها طوراً وتسلس أخرى فيشد

صاحبها في الأولى ويعود في الثانية كما يريد وله في الأولى أقارب وأخلاء ، وربما ترك في المقام الثاني من أصحاب وأولاد أو ارتبط في الأخيرة ارتباطات جديرة بالاهتمام كالزواج هو أو ولده أو أنجب بنين ، وأصبحت في الأخيرة روابط نفسية قهرية تبقى عالقة في ذهنه ، فهو بين اثنين إن جاء هذه حن للأولى وإذا به معذب الهوى محير اللب . وإذا به حين يغادر من الثانية للأولى يقول في رسالته لا خلاء له في التالية :

قطعت الدرب مرحلة وأخرى على عجل لنلحق بالمسير
أجبه قد نزحنا قبل عنهم وافراحاً يحن لهم ضميري
وحلفنا عيوناً ذارفات أهاجت في الفؤاد لظى السعير
وضلّ القلب مكتئباً ولولا الفراق لكان في أقصى السرور

تلك آثار من التربية والمحيط في الفرد ، وهل لك أن تقول لما جمعته بين هذا الحد وذاك بحكم القانون الطبيعي والذي يريد البشر تغييره بأنظمتهم ومقرراته الشخصية وأغراضه ونزعاته الآنية غير آبه بهذه القلوب وتلك الضمائر وهذا الحنان وتلك النزعات الثابتة المستقرة في النفوس والضمائر المتعطشة .

العادة :

لكل امرء من دهره ما تعود ، والعادات قاهرات .
تختلف هذه العادات في الفرد ، فربما كانت عادات اجتماعية أو طبيعية ، أو في الطعام أو الشراب أو غيرها .
هذه العادات ربما كانت حسنة أو قبيحة مستهجنة ، فقد تكون مفيدة أو مضرّة ، وقد يكون الفرد بعاداته في المجتمع مكروهاً وغريباً ، أو يكون بها أهلاً وحبباً .

فالاجتماعية إما انها مستحبة ، كمجالسة نوادي الأدب والنوادي العلمية والمحاورات والمناظرات والمباحثات الأدبية والفلسفية والاقتصادية

والسياسية والمطالعات والتحرير والكتابة وتحري الراديو والتلفزيون لنفس الغايات والقيام بالخدمات الإنسانية للفرد والجماعة والبر والإحسان قولاً وفعلاً والنضال في سبيل الوعي العام والخدمة الخاصة والعامة وإقامة الحفلات ويذل مجهودات مالية وبدنية دائمة لنفس الغاية ، وأمثال تلك مما يعود عليه وعلى الفرد والمجتمع بالفائدة .

وأخرى مستقبحة مضرّة له ولغيره ، كاعتياده وسهراته في مجالس القمار واستنفاد ما عنده أو كسب المكاسب المستقبحة وإقامة جمعيات مخلة بالشرف مضرّة بالاجتماع بغية الحصول على الثروات غير المشروعة وكلما هو يخالف الأخلاق العامة والخاصة والقوانين من جمعيات سرية أو مستقبحة مذمومة مستحققة تضره وتضر بالصالح الخاص والعام وتسبب قلقاً له ولغيره .

وعادات طبيعية فاضلة ، كالسباحة والاستحمام والرياضة والألعاب الأولمبية وركوب الخيل والنوم الطبيعي والجلوس المبكر وإقامة مظاهر الفروسية والنشاط البدني والروحي ، وأمثال تلك له ولغيره والإدامة على مراقبة العيون والأسنان والجهاز الهضمي وكلما يخص الإنسان ذاته .

وعادات مستقبحة مضرّة ومخرّبة للفرد والمجتمع ، من الاستفادة غير المشروعة للأمور الجنسية والعادة السرية بشتى أنواعها ، والاستفادة من شؤون طبيعية للتخريب والتجاوز والاعتداء على النفس والغير بالقهر والغلبة .

وهناك العادات في التغذية للأكل والشرب والتدخين والتزريق ، وهي أيضاً مستحسنة ومستقبحة ، فالاعتياد على خشونة العيش والطعام ، الطبيعي ، والاعتدال في الأكل والشرب على حد قول العربي : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » . هذه خير جملة صحية جمعت طيها الصحة والعافية ، ويجب أن يضاف له : « ولا نأكل ما يضر ولا نستمر على شيء يضرنا بعادته » .

فالمأكولات الطبيعية وأخص الطازجة والاعتدال في الأكل ،
والاعتدال في تناول (دون إسراع) والاعتدال والتأني في المضغ وترك
المواد المثيرة والمشهية من توابل وأمثالها والمشروبات المهيجة من كحولية
وغيرها وغير الطبيعية كالمثلجات في غير فصل الشتاء .

والاعتیاد على نظافة الفم والأسنان والأيدي ، والاعتیاد على مضغ
الطعام جيداً دون الإسراع ، والاعتیاد على تناول اللقمة المعتدلة والابتعاد
عن طعام شديد الحرارة أو البرودة والابتعاد عن طعام شديد القساوة ، وإن
المثل الحكمي : إننا نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل ، عندئذ لا يكون همنا
بطننا بل الغاية منه للبقاء أولاً والتمتع المعتدل ثانياً ، والابتعاد عن الحرص
والجشع في الأكل ، وبعبكسها ينطبق المثل : من كان همه بطنه كانت
قيمته ما يخرج منها .

أما العادات السيئة الأخرى فهي التي كدستها الحضارة المزيفة
للإنسان فأعطته حلاوة مؤقتة ومرارة دائمة ، كالاعتیاد على مأكولات
ومشروبات ومدخنات وتزريقات أصبح لها رقاً وعبداً مملوكاً ، تفتك فيه
وتسلب منه كل حرية وقرار وإرادة أمثال المواد المخدرة كالأفيون ومركباته
المرفين والهيروثين والكودائين والكوكائين ومركباته والمواد الكحولية من
شديدها وخفيفها قليلها وكثيرها والتبغ وأنواعه واستعماله الأقل ضرراً
الاعتیاد على القهوة الشاي . وهناك الكثير من شديده إلى ضعيفه .

كل تلك عادات مستحكمة ، وهناك عادات كثيرة جداً وقد قيل : إن
أحد السلاطين خَلَف أباه على العرش ، وكان شاباً ذكياً ، وكانت تأصلت
فيه عادة مستقبحة منذ الطفولة وكان يخشى أن يعرفها أحد فندب طبيبه
وأسر إليه : إنني اعتدت منذ الطفولة أن آكل الطين ولما كان ذلك مستقبحاً
اطلب منك باعتبارك أمين لسري أن تعمل لي دواء أستطيع به ترك ذلك
ولتكن كتوماً ، ولما وجد الطبيب ساكتاً ، قال له : سأعطيك لذلك أمداً ،
ثم أردف قائلاً : سأهلكك لذلك أسبوعاً ، فأجابه الطبيب : على السمع
والطاعة .

وفي الوقت المحدد ، حضر الطبيب في مجلس الملك فاستدعاه الملك ، وأجلسه إلى جنبه فرحاً ، وقال : هل وجدت الدواء؟ .
نعم يا مولاي ، رد الطبيب .
فبدأ البشر على محيي الملك وابتدره بلهفة : وما هو؟
وإذا بالطبيب يلقي كلمة الفصل البالغة المليئة بالحكمة : نعم سيدي هي إرادة الملك .

آنذاك بدت على محيا الملك كل بوادر الإرادة مستحسنًا كلمة الطبيب الحكيم ، وقال : قد نجح دواؤك عندها صمم وترك .
هناك عادات مهما كانت محكمة لا تفيد معها سوى قوة إرادة الشخص وتصميمه ، ولم تكن غايتنا هذه من البحث وإن جرنّا البحث إلى هنا .

فالعادة في المرء تقربه إلى الأفراد والمجالس والمجتمعات والبيئات التي تكثر فيها أمثال تلك ، وتبعده عن سواها التي لا يجد فيها زملاءه وأقرانه من ذوي تلك العادات . فالعادة إذن من الأصول التي تقرب الأفراد وتبعدهم عن محيط وأفراد إلى أخرى يجد فيها وفيهم مبتغاه ، هذا إذا تجمعت فيه أصول أخرى من التي مرت فهي تقربه أكثر وأكثر على قدر ما تحويه من تلك الأصول المارة الذكر من معنوية ومادية ومختلطة .

الجنسية والوطنية عند الحيوانات :

في النحلة ، في النملة ، في الأرضة ، في الطيور ، في الحيوانات الوحشية وفي الحيوانات الأهلية والمتأهلة .

فالنحلة في خلاياها ، بما فيها من عامل ومحافظ ومستخدمين وممرضات وأميرات وملكة وغيرهم ، تكاد تكون ذات غريزة متأصلة في حياتها برباطتها الوثيقة في محل ولادتها ونشأتها ، والجماعة التي بدأت حياتها معهم وهي تعرف كل واحدة منها ، وهيئات أن تفارق الجماعة

والإمارة والخلايا أو ترك وظيفتها ، إلا إذا قدر لها الفناء أو طردت طرداً باتاً من ذلك في نهاية الوقت المحدد لكل فرقة . فهنا الذكور المرفهون والمجهزون بالخدم لإطعامهم ، دون أن تكون لهم وظيفة سوى الانتظار ليوم تلقيح الأميرة (مر تفصيل ذلك في كتابنا الحكومة العالمية المثلى) حتى إذا جاء اليوم الموعد وخرج الكل مع الأميرة لتلقيحها وانتهى التلقيح من لدن أحد الذكور ، وتم بإفراغ ما لديه من قوى لاقحة ، ثم خرّ صريعاً وعادت الأميرة وعادوا معها حتى إذا تأكّدوا أن الأميرة تلقحت وإن حملها صحيح وانها ستملاً البيوت والخلايا الجاهزة بالبنين بذلك كان انتهاء وظيفة الذكور جميعاً ولا حاجة بهم ، آنذاك يهملون دون طعام حتى الموت أو الطرد إلى خارج الخلايا هكذا يهملون أو يخرجون .

وهناك الأميرات المنتظرات يوم اللقاح وعدمه وعسى أن تحل واحدة محل الأميرة العجوز فيما إذا لم ينجح لقاحها ، حتى إذا تمّ أو لم يتم قامت احداها مقام الأم اليائسة العجوز واطمأن الجميع ، ثم حكم على باقي الأميرات بالقتل أو الطرد حيث انتهت المهمة المتوخاة منها .

وعسى ان الواحدة إذا حصل لها المحل الجاهز أن تقوم بدور الأميرة وتشكيل الأسرة سيان في نفس الخلية أو خلية أخرى . . والنحل كما نرى يسير طبق نواميس طبيعية في خلاياه ، وهذه النواميس تسير منذ ملايين السنين ولكل نحلة رمز وآثار ترتبط به بالخلايا الأولى ووطنها الأصلي ولا تحيد عنها إلا على الشاكلة المارة . في الخلايا تولد وتترعرع وتعمل وتحیی وتموت على ذلك المنهج والناموس الطبيعي ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعائلتها وإمارتها التي تعتبر كعائلة كبيرة تتميز فيها عن باقي الإمارات النحلية ، دون أن تستطيع أن تتركها وتختار غيرها ، فلا هي ترضى ذلك الترك والاتحاق ولا الخلايا لأخرى ترضاه أو تقبلها .

أما الأرضة فمن يدرس صفاتها يجدها أشد ارتباطاً بإمارتها الواسعة الدقيقة المتينة المنظمة ولا تغادرها إلا مأمورة وراء الطعام كالنحلة أو

مدافعة دفاع المستميت فادية نفسها لإمارتها وجماعتها ولا تعود ، أو منبوذة بحكم النواميس كل آونة تطرد أو تنفى أو تخرج مجموعات من الإمارة كأنها محكوم عليها بالفناء لسبب من الأسباب فتكون طعمة لغيرها وتلقى حتفها وبغير هذه الصورة فهي ذات علاقة وثيقة لمملكتها كالنحلة وأشد ولا تفارقها إلا مقهورة .

النملة :

تشذ النملة عن النحلة والأرضة بأنها ذات عائلة خاصة تنتمي إلى مملكة من النمل ذات بيوت متعددة وعوائل عديدة ، وتمتاز رغم تعدد العائلة وكونها تتعاون في المملكة وتميّز أفراد مملكتها وتعزّز بهم .

وهناك أنواع من النمل يشذ عن هذه انها ذات طبائع متميزة ومتجاوزة على غيرها وشاذة في طباعها وعاداتها ، ورغم ذلك فهي أيضاً ذات طابع اجتماعي وتعاوني بين أفرادها .

هذا التعاون والانتماء إلى القبيلة والصلة القوية بين الواحد والجماعة منها تعطيها صفة الجنسية الطبيعية الثابتة والعلاقة المتينة من الفرد للجماعة منها .

بيد هذه الميزة لا تعطيها التعاون والانتماء لأنواعها وإماراتها الأخرى للانضمام إلى بعضها ، بحيث تؤلف الكتل الكبيرة ، كما نرى ذلك مثلاً في صفة الجراد أو صفة بعض الطيور كالبط والقلق والزراير والعصافير ، على حد قول الشاعر أن الطيور على أشكالها تقع . فترى الطيور على أنواع مختلفة ، منها ما تعيش مع بعضها بصورة جماعات كبيرة وكلما جاء سرب أو أفراد انضمت إلى اختها ، وهي ذات مواطن شتائية وربيعية وخريفية وصيفية تهاجر إليها كلما تغير المناخ واختلف الطقس ، بخلاف أنواع أخرى من الطيور التي لا تعرف الهجرة فهي مقيمة في أوكارها وأعشاشها ويختص كل ذكر وأنثى معاً ، وكلما أنجبوا أولاداً بلغوا مبلغ

الطيران انطلقوا من محل الولادة إلى محلات أخرى تتنخبها وربما غير الأبوان مقر سكناهما إذا وجدا من يزاحمها . هذا التغيير في المسكن عند المزاحمة ربما كانت ميزة حتى للنمل والنحل والأرضة ، بيد أن الفارق بين هذه وتلك إن إمارة النحل والأرضة تتبع كل منها الملكة الأم أينما ذهبت ، وعلى هذا نجد الجنسية فيها جميعاً لا يخص مقرأً أو موطناً إلا متى كان هذا الوطن أميناً على سلامتها ويخلو من المزاحمين والمعتدين والمتجاوزين ، وفي غير ذلك تركتها إلى حيث لها السلامة ومثلها الطيور المستقرة غير المهاجرة ، فهي باقية في مقرها الشهور أو السنين دون أن تهجر وتنتقل إلا إذا وجدت مزاحماً أو متجاوزاً كما مرّ . بخلاف المهاجرة التي تعتبر الهجرة ميزة خصيصة من خصائصها فالوطن إنما عندها المحل والمسكن الذي تقر سالمة أمانة فيه حتى إذا وجدت نفسها في مأزق أو معرض خطر عافته سالمة إلى محل آخر ، وإن لم تفعل فهي المقصورة منطقاً فكأن الغريزة أعطتها هذه الخصيصة العظيمة التي تقوم مقام العقل المدبر عند العقلاء ، حتى تعتبر بعض الشرائع كما سيأتي أن الخنوع والخشوع في محل يذل فيه الفرد ظلم من النفس تستحق عليه المجازاة الصارمة ، كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، أولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٩٧] .

هكذا نرى كثيراً من الحيوانات كلما داهمتها الخطوب وألمت بها المخاطر في بيوتها استعاضت عن تلك بما فيه نجاتها . وكذلك كلما أحست بمناطق تتوفر بها غذاؤها وراحتها انتقلت إليها تاركة الأولى لتوفر لنفسها الراحة والسعادة للمأكل والمسكن الأمين ذلك ما وهبها الله من الغرائز التي تنطبق مع العقل ، لحفظ الحياة وإدامتها .

ربما قيل إن الإنسان يمتاز بعقله وذاكرته وتداعي الخواطر فهو بحكم

هذه الذاكرة يحن إلى مسقط رأسه ومحل نشأته وزملائه في اللعب والمدرسة والمجالس الأدبية والمعاملة والمحيط الذي عاش فيه ، بيد ان هناك جواباً قاطعاً لدفع ميزة الإنسان على الحيوانات .

فالإنسان أولاً بحكم عقله ومنطقه وذاكرته الدافعة له حنان يقابله الشعور والميزة للمكان الأنسب والأصلح لإدامة بقية حياته إذا وجد في الأولى ما يتعس حياته لما له قدرة للتكيف بحكم الضرورة ، وبإمكانه اختيار الأنسب والأحسن وعندها تتغير حياته إلى حياة أسعد وأصلح .

ومن جهة ثانية ، عند مقارنة الإنسان مع الحيوان فالحيوان يحمل بحكم الغريزة مميزات تدفعه إلى حياة أصلح وأسعد له ، لطعام أوفر وأجود ومناخ أكثر مناسبة له ولذويه ، ومقام أهل بأسباب الراحة له ، وهذا ما نجده في أنواع الحيوانات على اختلاف أنواعها حتى الحشرات وكما مرّ الطيور وغيرها .

فالغريزة الحيوانية مثلاً في الأرضة منذ ملايين السنين قد جهّزت هذه الحشرة بمؤهلات بديعة للمعيشة بانتخاب البيئة الأصلح وتجهيزها بالامكانيات لتكوين ما تحتاج إليه من إصلاح مساكنها ومناخ المسكن من حرارة ورطوبة ونظافتها والقدرة على النفوذ إلى أصعب المحلات بغية الحصول على بغيتها بحكم الغريزة ، تلك الغريزة التي طالما قصر عنها عقل الآدمي إلى هذا اليوم .

نرى من مجموع ما مرّ أن الوطن لكافة الحيوانات مفضل ما دام مستجمعاً لمزايا الحياة الهادئة والمعيشة الوافرة ، ومتى ضاقت عليه الوسائل فالهجرة حتمية إلى الأحسن والأنسب بحكم الغريزة ، وللإنسان نفس ذلك بحكم العقل والغريزة . فدواعي الحب والبغض والشوق والنفور إنما هي مصالح ذاتية توجهها الغريزة في الاحياء والغريزة والعقل في الإنسان لعمل الأنسب والأصلح لإدامة الحياة والحياة السعيدة . وإذا قلنا الحيوانات ائتلافها مع بعضها أحياناً ، فإنما تأتلف الطيور إلى طيور من

جنسها ومثيلاتها ، كالحمام مع الحمام والعصافير مع بعضها أو اللقالق مع أنواعها ، وهكذا الضواري المتشابهة والحشرات المتشابهة ، وربما اقترب الكلب إلى الذئب أو ابن آوى وتزوجا لتقارب في حياتها ، ولكنك لا تستطيع أن تجد تآلف الضباء مع الضواري أو الاحياء المتخالفة في الطباع . والإنسان يعتبر صنفاً واحداً على اختلاف أجناسه في الدم والخلقة والعقل والمنطق والحركات والعضلات والأجهزة ، لولا ما طرأ له بسبب المناخ وسبل المعيشة على طول الأجيال المتتالية ، وما حصل بينهم من تطور في الحياة من شدة ورخاء وعلم وجهل وثروة وفقر .

فهل يجوز أن يلام بشر ان أوى إلى بشر مثله في الخلقة ما دام يجانسه وما دام يماثله وما دامت سبل حياته لديه ميسرة؟ .

هل يجوز لبشر أن يتناول على أخيه الإنسان وهما من عنصر واحد وجنس واحد ويضع فروقاً ما أنزل الله بها من سلطان ليميز هذا على ذاك لأمر غير طبيعية بل هي من تنازلات وعصبيات ولا يرتضيها العقل السليم والرأي السديد بعد أن سمعت (رب أخ لك لم تلده أمك)؟ .

وقد صحَّ ذلك ويعد أن أدركنا أن الجهل منشأ الحزازات والتعصبات والمنابزات والخصومات ، وإن العلم والحكمة والعقل مبعث الوثام والسلام والخير والبركة ، وإن المرء يجب أن لا يظلم نفسه بقدر ما يجب أن لا يظلم غيره ، وطلب لها الخير والسعادة كما يجب عليه ذلك لبني جنسه الإنسان ، وهذه أقوال الحكماء والمصلحين والأنبياء وأئمة البشر .

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في العهد الذي كتبه لمالك الأشتر (واليه على مصر) :

« الناس إما أخ لك في الدين أو شبيه لك في الخلق » .

يريد بذلك أن في كليهما عليك مراعاة عواطفهم وإحساساتهم وتوفير السعادة والصلاح لهم .

الجنسية والقانون الطبيعي في بدن الإنسان :

مرّ في كتابنا الحكومة العالمية المثلى أقرب مثل الحكومة الطبيعية المثلى في بدن الإنسان . أفرادها الحجيرات وإداراتها المهمة الأجهزة وفيها المراكز الأصلية التي لا يمكن إدامة حياتها بدونها كالمخ والمخيخ والقلب والكبد والجهاز الهضمي والرئتين الخ . .

وتليها الأجهزة المهمة التي يختل البدن بدونها وينقص كماله ، كالسمع والبصر والذائقة والحاسة اللامسة والشامة وغيرها .

ولكل من الأجهزة التي مرّ ذكرها والتي لم تذكر من الأعصاب والعضلات والغدد وغيرها ، لكل منها عمل خاص به ومناطق خاصة وأشكال تميّزها وصفات تغاير الأخرى . كما لكل منها وظائفها ولكل منها أهميتها في البدن على قدر ما تسديه من الخدمة لمجموع البدن أي لهذه الحكومة العالمية القائمة في الوجود ، ولكل جهاز حجيراتا المميّزة الثابتة بنوعها ووظيفتها ومركزها ومدة حياتها تميّزها عن وظائف وأنواع ومخصصات حجيرات الجهاز الآخر في نفس البدن الواحد ؛ وكل هذه الحجيرات مستقرة ثابتة غير متنقلة من محل لآخر تتعاون مع بعضها ، وكل جهاز يتعاون مع باقي أجهزة البدن ، وجميعها تتميز باستقرارها من حيث الحجيرة الواحدة أو الجهاز الواحد كل في منطقته وهذه السيرة تميّز الحجيرة كفرد في جسم الإنسان الحي عن الفرد في المجتمع الإنساني ، الجهاز يتميز بمكانة وعمله واستقراره ودأبه على العمل الدائم في جسم الإنسان الحي عن جهاز من أجهزة الدولة التي بإمكانها الحركة والتنقل إلى محل ومكان آخر أصلح له ولأفراده ومجموعة الأجهزة والأفراد في جسم الدولة العالمية المثلى .

بيد ان الإنسان استطاع أن يجرب فيما إذا فسدت منطقة أو قسم من جهاز لمجموعة من حجيرات قليلة أو كثيرة وبعض الأجهزة في الحال

الحاضر، كالكلية أو عضلة أو جلد وحتى القلب أن يرمم القسم الذي تلف بعضلة أو جزء منه أو جهاز أو جزء منه، يناظره بشروط تحفظية صحية دقيقة وبشروط المماثلة، وعندها يستقر القسم الذي قام مقام القسم المتلوف بوظائفه السابقة ويستقر البدن ويستعيز بما فقد منه بهذا الجزء الجديد الوارد، على شريطة المماثلة التامة ورعاية الدقة فيها وصحة وسلامة ما نقل وما نقل إليه، وإذا لم تنجح عمليات أخرى مماثلة أو مناظرة فالسبب في خلط أو اشتباه أو جهل من الطبيب الجراح لإجراء العملية كما يلزم.

وربما توقفت سلامة مجموع البدن على هذا الترميم، وهذا العمل وهذا النقل ويكون بعنوان هجرة مجموعة من الحجيرات من مقرها الأصلي إلى مقر آخر مماثل لها من حكومة عالمية إلى أخرى، وكلما كان النقل جيداً والمنقول سالماً توافق الجنسان على إدامة الحياة بالتوافق الدائم الحسن، وإن كان الأصل استقرار كل حجيرة وكل جهاز بعضاً وكلاً في محله، بيد أنه ربما استدعت الظروف الضرورية للمنقول والمنقول إليه سلامة الطرفين لهذا النقل.

أما إذا نقل مجموعة حجيرات لكل أو بعض جهاز إلى غير مقره ومماثله، أو دون حاجة ماسة كأن كان الجهاز تاماً أو المنقول معلولاً لم يحصل المطلوب من هذا العمل.

وقد يداهم البدن الإنساني خطوب وهذه الخطوب لا تعد ولا تحصى، كأن يحصل للمرء دهن يقضي على أهم أجهزته في بدنه الحي كالكلب أو الرأس أو غيره، وفي هذه الحالة تكون أجهزة هذا البدن لمدة ما سالمة من عين وأذن وكلية وقلب وعضلات، بينما هناك كثير من الأفراد بحاجة لبعض هذه الأجهزة، كالقلب أو الكلية أو بعض العضلات، وعندها يسرع الطبيب الجراح يرمم بهذه الأجهزة مما تلائمها بدقة وعناية جراحية وصحية فائقة، وإذا بالأجهزة الجديدة استقرت في مثل مكانها من الجسم الجديد وبدأت عملها من جديد.

ذلك نوع من أنواع هجرة الحجيرات من بدن إلى بدن آخر وكلاهما ذات ميزة مستقرة وإن كانت حية ومتحركة في مكانها .

بيد أنه هناك حجيرات أخرى في البدن داخل الجسم الحي منتقلة ومتحركة في ذلك العالم الجسماني ، الذي هو أشبه بالعالم الإنساني ، كما قلنا افراده الحجيرات ومجموعة يمثل مجموع البشر والمتحرك هذه ما هي إلا الكرات الحمراء والبيضاء وغيرها داخل الدم المتحركة بصورة دائمة ودائبة في حالة دورية شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً من الأعلى للأسفل وبالعكس .

هذه أيضاً قد تنقل عند الضرورة والحاجة وسلامة إنسان من واحد إلى آخر . ونحن نعلم أن العلم أثبت إلى الآن أن هناك أنواعاً من الدم في البدن الإنساني ولا يجوز إلا نقل النوع المماثل ، فنرى هذا الدم الحامل لهذه الكرات والحجيرات ، كيف تقوم بترميم ما يحتاجه البدن الآخر الذي قلت أو نفذت كمية دمه ، فجاءت هذه الغريبة المماثلة ودخلته وأصبحت أهلاً ومنبعاً للحياة لهذا البدن ، كما أنها هي حافظت على سلامتها وعادت حياتها من جديد .

هكذا ترى الهجرة والنقل والانتقال والتقارب جائز على شريطة المماثلة والدقة ، وإن تكون هناك مصالح مشتركة وأسباب ضرورية تدعو لها .

وهناك قصاص واحد على الطرفين لعل أصولية وجزاء يتلقاه القادم المهاجر المنتقل والمنقول له ، موطن الهجرة ، إذا حصل خلاف ما من عدم المماثلة لمكان النقل وعدم الدقة في سلامة العضو أو الجهاز والحجيرات المنقولة أو المنقولة له أو وضعها في غير موضعها ، عندها الكارثة العظمى والقضاء المبرم على الاثنين وحرمانها من إدامة الحياة . وعلى قدر الخطأ والاشتباه تحصل الآلام والكوارث الناتجة من ذلك .

التاريخ القديم والجديد والجنسية :

قامت الدول القديمة منذ القديم بقيادة حكومات دكتاتورية وسلطة مطلقة في الشرق والغرب ، على رأسها ملك دكتاتور مطلق التصرف بإدارة الأمور ، جل غايته توسيع رقعة حكمه وإدامته وثباته واستبداده دون منازع ، تحذوه غريزة حب السلطة وكسب منافع أكثر وسيطرة أوسع وإظهار ما أمكنه من القدرة والسطوة ومد نفوذه في داخل قطاعه الأصلي ، الذي يمتاز باللغة والعقيدة والعادات والأخلاق والزي ، وخارج ذلك القطاع من البقاع التي ضمها إلى نفوذه وترك فيها ولائه أو أمراء القطاع منها تجبيها الخراج وتمده بالمعونة العسكرية للهجوم أو الدفاع ضد أعدائه ، وكل من هذه البقاع المضمومة لها ميزتها أيضاً في اللغة والعقيدة والزي والأخلاق والحدود . وربما اشتركت في العقيدة أو اللغة واختلفت الواحدة عن الأخرى بالسلالة والعنصر والجنس كالسامي والحامي والأري وغيره . أو الزي والعادات والعرف والأخلاق وكثيراً ما كانت العقيدة أو اللغة أو السلالة هي الوسيلة المميزة بعضها عن بعض للتبعض في الحكم ورفع الأفراد والجماعات في الوضع السياسي والاجتماعي .

وظلت هذه الفروق والمميزات في طبقات البشر في ذبذبات تعلق وتدنو فيها بمرور الزمان وظهور حوادث تؤثر على رفع ميزة دون أخرى وعقيدة دون أخرى ، كما ظهرت العقائد الفلسفية في اليونان وتضاربت السلطات في تأييد عقيدة على أخرى ، ومثلها في الرومان ، وقبلها في مصر وفي الصين أو بلاد فارس ، لظهور الدين اليهودي في مصر وفلسطين ، والمزدكية في بلاد فارس والمسيحية في روما وظهور الدين الإسلامي في الجزيرة العربية وظهور المذاهب والفرق قبلها وبعدها وتميز كل على أخرى في المعاملة السياسية والاجتماعية وشمول هذه دون تلك بعطف السلطة الحاكمة التي يتبعها من يتبعها بالعقيدة ، والتي تعتبر أفرادها وجماعاتها هي قطب رحي قواها المعنوية والإدارية والسياسية فانكأت عليها

وميزتها بمميزات دون غيرها من الرفاه ، واكسبتها شرفاً أرفع ومقاماً أجل وضلت هذه المميزات كما مرّ حتى القرون الأخيرة ، حيث فرضت في إحدى قوانينها قوانين سمتها قانوناً ، هذا القانون يقدم وثيقة لمن شاءت السلطة وطبق شروط خاصة كالولادة أو السكنى أو غيرها ، تختلف من قطر إلى قطر ودولة ودولة ، تسمى هذه الوثيقة بالجنسية أو شهادة الجنسية ، وتم قسمتها إلى درجات الجنسية الأصلية والجنسية بالولادة أو الجنسية بإقامة مدة خمسة سنوات ، وأمثال ذلك ثم حصلت أفراد الدولة الخاضعة إلى سلطة تلك الحكومة بالتسجيل والعد والحصر منذ الولادة ودخول البلد ، وتكميلاً لذلك الحصر وضعت قوانين سمتها جوازات سفر ، وهذه الجوازات أيضاً قسمتها إلى جوازات سياسية وغير سياسية وعامة وخاصة ، تعطى لحاملها حق الذهاب والإياب طبق شروط ومدد . بالخروج والدخول إلى ذلك القطر وفرضت على غير ابن البلد أن يحمل مثل ذلك ولا يدخل البلد إلا بجواز خاص من السلطة وكل ذلك تحديداً لابناء البلد وضبطهم .

وقد كان البدء لهذا الوضع مثل هذه القوانين سياسية لتقوية السلطة الحاكمة في الداخل واعطاء ابن البلد ميزات أكثر من غيره ومنع التسربات عن الخارج .

وبلغت أحياناً كثيرة إلى سجن مطلق وحصر شامل لقطر كامل من أقصاه إلى أقصاه ، أو قبول أفراد لا يمتنون ولا يحرصون الحرص الحقيقي لتلك الدولة لمحض موافقتهم للسياسة وموافقة السياسة لهم ، أو نفي أبناء البلد بالولادة والإقامة من آباء وأجداد إلى خارج بلدهم من نساء ورجال وأطفال ، لمجرد مخالفة السلطة الحاكمة المسيطرة ، وكثيراً ما تجري تلك الأوامر لأغراض خاصة تشمل أفراداً يعدون بالأصابع لا المصلحة العامة ، وكثيراً ما تشمل الآلاف وعشرات الآلاف ومئات الآلاف الأبحاف وهضم الحقوق الثابتة والمكتسبة ، وكثيراً ما يفرض السجن من لدن السلطة الحاكمة على كافة أبناء الوطن بعدم مغادرة البلاد ومنع الواردين ، وكثيراً ما

تتجاوز إلى حبس الأموال والتصرفات والممتلكات الفردية والجماعية ، وتوضع قوانين وتمدد وتوسع وتقلص طبق المقاصد والغايات التي تريدها تلك العصابة بغية أغراضها الشخصية وكثيراً ما تفرض ضرائب مالية على من يريد الخروج والدخول دون مبرر منطقي .

هكذا نرى التفرقة والانقسام بين أفراد البشر ، وربما كانت الأغراض السياسية أدت إلى انشطار الشعب الواحد والأمة الواحدة أو العقيدة الواحدة أو القبيلة الواحدة وحتى العائلة الواحدة لاكتساب جنسيات مختلفة ، كما نرى الشعب العربي وانقسامه إلى دول مختلفة والأمة الإسلامية وانقسامها إلى دول وإمارات في الشرق والغرب وجميعاً ذوو عقيدة واحدة ، وهناك كثير من القبائل والعوائل منقسمة بين الدول المجاورة قسم إلى هذه وقسم إلى تلك ، وقد نجد أن شعباً وأمة ذات لغة وعقيدة واحدة منشطرة إلى أقسام وربما كانت هذه تعمل ضد تلك ، وتجبر الأفراد الذين يشعرون شعوراً واحداً في كل شيء في بعد من التودد والتواصل والزيارة لبعضها أشهراً وسنيئاً .

إن هذا الوضع غير الطبيعي الشاذ في الطبيعة منذ القديم والذي كلما مرّ عليه زمن زاد في الطين بلة وفي الطنبور نغمة وعلى الارهاق مضاعفات وأنعس حياة البشر بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، خلافاً لآراء الحكماء والفلاسفة وخلافاً للمنطق والعقل وخلافاً للأديان السماوية بل وخلافاً للطبيعة البشرية ، محكوم يوماً من الأيام بالزوال .

إن هذه الحكومات التي خلقها البشر أو خلقها الانتهازيون من البشر لتفريق قوى البشر العظمى إلى أقسام ، تناقض الواحدة الاخرى وتنهك هذه تلك وتسبب لهذا البشر نفسه القلق والتعاسة وتحول لأن يعيش حراً متكاتفاً متعاوناً . يجب أن يزول ولا بد للبشر أن يعيش إذا أراد أن يكون سعيداً طبق القانون الطبيعي متكاتفاً أفراداً الواحد للآخر ويسانده ويعاونه كأعضاء من جسم واحد وأجزاء من بناية واحدة يشد بعضه بعضاً

ويحكمه . وما نراه من الشقاء والتعاسة في البشر ما هو إلا من التفرقة القائمة بين أجزائه وأفراده خلافاً للقانون الطبيعي ، وخلافاً لمقتضيات العقل بل اتباعاً للهوى والغرائز الشاذة من أهل الأغراض ومرضى العقول .

أهل الآراء وأهل الأديان :

ذكرنا في الفصول السابقة بحثاً عن أهل الآراء والأديان في نوع الحكومة الصالحة ، وحيث أن البشر مد يده وتطاول إلى شتى شؤون الحياة تحت تأثير أغراضه وأهوائه ، دون رعاية الصالح العام وكلما نظر في مورد وترك فيه حدوداً ونواميس وأنظمة وسماها قوانين ، ظهرت له موارد أخرى حاول شمولها بالقيود التي يشعر بها إرضاءً لشهواته من تحديد الفرد والجماعة قصداً للهجوم أو الدفاع أو تأمين مصالحه كوقاية ، وقد كانت كما تخالج الرؤساء والقواد والأمراء والملوك إثارة الحمية والعصبية القومية والمنابزات وإثارة العواطف النفسية في هؤلاء لتأييده نفسياً أو سوقهم قهراً عند الضرورة ، وإذا بهم يثيرون قضية الأحساب والأنساب وكل يشيد بسلالته وعنصره ، وبمدها بامتيازات وشروط لاعتدادها بمجموعة تؤيده دون سواها ودحضاً للأخرى التي تخاصمه ، فظهرت الفواصل باسم المنايزة العائلية والقبائلية والامدينة والامارة والمملكة واعتداد بكل أفرادها وإبراز مفاخر ومآثر لهم خاصة دون سواهم ، وهذه وإن حصلت تلك العصبية أو ذلك الفرد منها مبتغاه ، بيد انه خلق المنافسات والخصومات والتجاوزات والاعتداءات والحروب الطاحنة بين أفراد البشر المتممين إلى نفس الجنس والعنصر، والمتماثلين بالخلق والطبائع والخلقة والحس والشعور من الناحية العامة . فكانت القبيلة تخلق لأفراد قبيلتها ما يميزها على سواها في العدة والعدد والمآثر والمكاسب في شتى شؤون الحياة . وعوض أن يبحث الفرد والجماعة عن ينابيع البر والاحسان والخلق الفاضلة للوصول إلى السعادة والكمال الإنساني نراه على العكس كانت أفعاله تلك سبب إثارة الفتنة والقلق في داخل البلاد وخارجها .

وإذا كانت القبيلة هي المثل المصغر ، فنجد اليوم اعتداد الشعوب بما فيها من دول وما تضمه من حدود مميزة وضعتها هي لنفسها ، وبما فيها من مبادئ وعقائد حزبية سياسية وفلسفية وأدبية ودينية ، كل منها يحرص على تأييد فرقة وجماعة ، ناسين أن الذوق واحد في هذا البشر وإن القبح والحسن من حيث الأساس المنطقي والعقلي سواء عند الجميع ، لو ضربنا العادات والعرف في الأمور المستهجنة ولو اتخذنا المنطق والفطرة البشرية في التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد يقال إن كل ذلك إنما هو نسبي فرب رذيلة عند قوم هي فضيلة عند أخرى . فأقول إن هناك عادات متخالفة عند الأقوام حسبوها من أصول الحياة الفطرية ، في حين أنها ليست كذلك وأما تلك الحقائق في القبيح والحسن والفضيلة والرذيلة تكاد تكون ثابتة بين جميع الشعوب المختلفة ، فمن يستطيع أن يفضل القذارة على النظافة ؟ ومن يفضل التقاطيع الحسنة الجميلة على المشوهة ؟ ومن يفضل العليل على الصحيح ؟ ومن يستطيع أن يغير الألوان وإن فضل بعضها حسب المناسبات لوناً على لون أو حامضاً على حلو ؟ ولكن في الواقع أن الأكثرية تعرف الجمال البشري في الوجه والتقاطيع ، ولكن هناك من يخالف البعض من بعض الوجوه ويكاد يكون هذا شاذاً ، ولا قياس على الشذوذ ، فالمطلوب في الماء أن يكون عذباً معتدلاً البرودة ، فإذا كان جماعة من البشر اعتادوا أن يتناولوا المياه ذات الأملاح الحارة أو الباردة فلا يمكن الاعتداد بذلك ، وإن الحقيقة أن البشر ذوو حواس محدودة في العين والسمع والبصر والشم وتحمل الحرارة والبرودة وغيرها ، وكلما تجاوز فيه الزيادة والنقصان كان غير متناسب بالسبب له ، وإن اعتياد البشر على شيء أو خصلة أو عادة ليست دليلاً على أن هذا هو الأصلح ، بل هناك حدود عقلية وفطرية يحددها الخبراء ذوو الخبرة والعلم في ناحية من الحياة ولهم وحدهم القول الفصل .

فما أرادته المتنفذون من القواد والأمراء والملوك ووضعوه باسم قانون أو نظام وشرعوه ونفذوه على مجموعة من البشر ليس دليلاً قاطعاً على

حسن ذلك التشريع ، خصوصاً وقد برهنت التجارب والأخص التاريخية وما يقوم به البشر من أولي الأمر فيها بالتغيير والتبديل في هذه القوانين ، في حين نعلم أن القوانين إنما نقصد بها قانوناً ان يكون ثابتاً غير متغير وله صلة متناسبة مع القوانين الأخرى مساعدة أو معاكسة ثابتة أيضاً ، وإن ما نجده من الاضطرابات في شؤوننا الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والصحية وغيرها إنما هي لأننا لا نطبق القانون الطبيعي اللازم في محله . أما جهلاً منا أو عناداً لإشباع غريزة من الغرائز تغلبت على المنطق السليم واجترأت على مخالفة الحقائق .

لذا نرى البشر يختلف في الحكم والتشريع . وإن المتحكمين على الأغلب في العالم منذ القديم وإلى اليوم لا زالوا في اغواء واصرار لبلوغ مأربهم باسم الصالح العام ، في حين انهم يقومون بما يفسد على هذا الصالح العام حياته وسعادته .

ومنذ القديم نرى وجود أقلية حكيمة مفكرة مستنتجة من وقائع الحياة وما تراه من التدهورات والمخاصمات والأضرار المادية والروحية الحاصلة للبشر بيد البشر نفسه ، من حروب مادية وحروب معنوية اقتصادية وسياسية منذ القديم وإلى اليوم ، تلك جميعاً يمكن إصلاحها دون ضرورة لمثل تلك الحروب .

ولنترك الماضي ومخازيه ونأتي إلى عصر النور ثم عصر الذرة وهذه الدول العظمى بما فيها ودون أن نذكر اسماً ، والجميع يرى ويسمع من هول ما تقوم به من المؤسسات العلمية وما تبذله بعضها في الحروب تجاه الأخرى ، كما قامت الولايات المتحدة وغيرها في الحروب الأخيرة في حرب كوريا وفيتنام وما ذهبت فيها من ضحايا نفسية ونفقات مالية وما جرت به على نفسها وعلى العالم من التضعضع والاضطراب وما لها من القوة والسطوة وكيف خرجت منها كما يعلم الجميع .

هل كانت نتيجتها عبرة رادعة لها ولا مثالها؟

كلا . وألف كلاً . لم تكن هذه بُدعاً وجديداً ولا زال البشري يكرر مخازيه باسم الاصلاح وباسم التقدم ، أي تقدم؟ فلو ان أمريكا بذلت ما بذلت من جهود علمية ومادية ومعنوية لمعونة البشر لبلغت هي وغيرها إلى غير ما هي والعالم عليه الآن .

هذه وأمثالها حدث بمفكري البشر وفلاسفته وحكمائه من أهل الآراء الجماعة الفذة من قواد البشر الروحيين ان يصرخوا الصرخات المتتالية ويضعوا المناهج والسير للحد من شقاء البشر وعلل ذلك الشقاء والسبيل إلى سعادته . لهذا وضع أفلاطون جمهوريته كما مر بعض المجل منها في رسالتنا المتقدمة ووضع الفارابي رسالته المدينة الفاضلة .

لم نجد في مدينة أفلاطون ما يوعز به لتحديد البشر وطوائفه ودوله أو حكوماته باسم الجنسية ، أو وضع جوازات للسفر للحد من حركة البشر من قطر إلى قطر وحبسه نفسه بنفسه ، وكلما نراه يشيد برعاية الثقافة العامة وسيطرة الحكماء واعلم الأمة وأقدرها شجاعة وعلماً وإدارة وعملاً وإحاطة وتجربة على شؤون الدولة ، ويحذر من حكومة الرعاع السفاكين باسم الديمقراطية والعدالة أو غيرها .

فمن أين جاءت الحكومات بهذه الفواصل والحدود والوثائق المزيفة لتشطر العائلة الواحدة والقبيلة الواحدة ذات اللغة الواحدة والعقيدة والدين الواحد والتالي العنصر الواحد لهذا البشر ذوي المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة في الشرق والغرب كما رأينا كلما أُصيبت جهة ما في هذا العالم أخص منها في عصرنا هذا إن من ضربته كل أفراد هذا البشر واضطربت نفوسهم وأرواحهم؟ .

فما هذه المزعجات أيها الإنسان؟ أيها البشر ، أهكذا يعمل الإنسان بأخيه الإنسان من الفجائع من القتل والتنكيل والتعذيب في الحروب ، في السجون ، خارج الدولة الواحدة وداخل الدولة الواحدة؟ من هو المسؤول ومن هو عليه المعول للإصلاح؟ .

أين الوعي العام؟ أين أبطال هذه الأجهزة المفكرة الناقدة من الشرق إلى الغرب ، في البلاد الشيوعية والبلاد الديمقراطية والبلاد الفاشية وبالتالي الدكتاتورية؟ .

ما ذنب الرجال العزل والنساء الثكالي والأطفال اليتامى؟ أتقتلون الآباء وتحرقون الأمصار وتزهقون الأرواح ثم تأتون بأطفالهم باسم الإنسانية وكسب الأجر؟ يا لبئس ما جنت أيديكم!

إلى متى وحتى متى؟ أنتم تتقدمون علمياً وتتأخرون وعياً ودركاً للحقائق وتزعمون وتموّهون! ألسنا نحن البشر بحاجة إلى قوة خارقة تهدينا السبيل وتسيرنا قهراً إلى الوضع الطبيعي؟ أليست أصغر الحشرات كالنملة والأرضة والنحلة أخرى بالحياة منا؟ أليست الضواري والسباع أعدل وأسعد حظاً من البشر؟ وهي ان تجاوزت فلا تتجاوز إلا لإشباع بطونها الجائعة واكتفت باقتناص ما يشبعها وافراخها ثم عادت هادئة ، إلا هذا الإنسان الذي يخزن مال الله الذي يعلم أنه سيخلفه ويزول من عالم الوجود وهو لا يألو جهداً من جمعه بتحطيم وتدمير العشرات بل المئات بل الألوف بل قل الملايين من أبناء جلدته موتاً وتعذيباً وترويعاً . تعساً وألف تعس لهذه العقول ! من أين جئتم بهذه الآراء؟ وتعساً وألف تعس بهذه النفوس النهمه ، والغرائز الشيطانية الرذيلة . كفى أيها الباغي التعس! كفك تعاسة ياتعاس أخيك! خذ السعادة من سعادته والحضارة من الارفاق به وإشباعه وإرضائه وإبهاجه! .

الأديان :

مرّ ذكرها في الفصول السابقة من كتابنا هذا (الحكومة العالمية المثلى) وأشهرها السماوية ، وهي التي قامت في سلالة إبراهيم الخليل عليه السلام من يهودية وكتابها التوراة ، والمسيحية وكتابها الإنجيل . وقد استأصلت التوراة الحكومات الدكتاتورية الغالبة مراراً ، حيث غزى

الآشوريون بلاد فلسطين وقتلوا وذبحوا وحرقوا وأسروا ودمروا الكتاب المقدس القديم ، ولم يبق له أثر إلى يوم تغلب الفرس على بابل ، وأطلقوا سراح الاسرى اليهود فعادوا بعد سبعين سنة لتحرير بعض ما بقي عالقاً بالأذهان ، ولكن سرعان ما عاد العاهل الروماني لغزو فلسطين وتدمير البقية الباقية وإزالة الآثار من الكتاب المقدس (التوراة) .

أما الإنجيل فلم يكن للإنجيل الأصلي (الذي نزل على سيدنا المسيح) أثر ، وما وضع منه وضعه بعض الحواريين وأتباعهم بعد عشرات السنين المتطاولة أو الأغلب سبعين سنة إلى مائة وخمسين سنة من ميلاد السيد المسيح عليه السلام وما وضع منه يفوق الثلاثين إنجيلاً ، وكل منها فيه متناقضات ، كما أن هناك التناقض بين واحدة وأخرى ، وليس فيها تعاليم تشريعية سوى أخلاقية ، فلم يبق من الكتب السماوية سوى القرآن وهو كتاب الإسلام . والقرآن حقاً شرع ديناً كاملاً ووضع أصولاً جامعة إنسانية متناهية في المستوى العقلي والمنطق ، وهو يشيد بالعلم والعلماء والحكمة والحكماء والفضائل والمكارم . ويمتاز على أهل الآراء وأهل الأديان الأخرى بما هو جدير بالتقدير وجدير بالاستماع وجدير بالاتباع ، فنحن كلما خضنا قضية تشريعية جزائية وحقوقية واجتماعية وأخلاقية وسياسية وطبيعية وجدناه عبر عنها بأقصر وأجود وأحكم أسلوب ، ثم لم يكن القرآن الكتاب النظري كجمهورية أفلاطون وغيرها والذي قبل نظرياً ثم بانث فيه نقاط ضعف ، وأخذ عليه من بعض نواحيه حتى من لدن مؤلفه (أفلاطون) الذي لم يسمح له القدر بتقيقه ولا تطبيقه .

ولم يكن القرآن وقع عرضة لغارات فاستؤصلت شأفته وأبيد من أصله أو حرف بعد عشرات السنين الطويلة ، ولا هو كالإنجيل الذي ليس لأصله من وجود ، بل وضعه التابعون من الحواريين مما بقت عالقة بأذهانهم وجادت به مذكرتهم وصاغته نفوسهم ، ولو صح أن يكون هو أو أقرب إلى الواقع لما تناقضت الأنجيل مع بعضها ، ولا حصول تناقض داخل الإنجيل الواحد منها .

ثم ما هي الأصول الفطرية والطبيعية والاجتماعية التي استفاد منها البشر باتباعه؟ .

أما القرآن فهو بالغ في الآراء السديدة والمناهج الفطرية الطبيعية المنطقية الواقعية التي يقوم عليها أسس السعادة للإنسانية جمعاء ، والذي خدم أهل التوراة وكتابهم وأهل الإنجيل وإنجيلهم وأوضح الحق فيها ، وقال عن السيد المسيح بما يتقبله العقل السليم ، وفي أمه ورسالته وشريعته بأحسن وأمتن وأبلغ ما جاء به الحواريون المؤسسون للنصرانية التي جاؤوا بها ، والذين خبطوا بها خبط عشوائية فشوهوها تشويهاً هي أقرب للوثنية منها والهمجية ، إلى الله مصدر الكمال والمنطق الأعلى .
اسمع لهذا القرآن العظيم حينما يقول :

﴿ وبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ .

انظر كيف تفوح الحكمة من معانيه والتربية العالية الاجتماعية منه .
وكيف يسوقك أن تتبع أحسن الكلام وتصغي لأحسن القول .

القرآن والجنسية :

تعال معي إلى الحكم البالغة في قوانين القرآن الأساسية للجنسية البشرية ومنع درجات الميزة والتفاضل لأبناء البشر وعلى أي مستوى ذلك المستوى الذي هو جدير بذوي الكفاءات أينما كانوا ومن كانوا وأنى كانوا أن يميزوا على غيرهم ، وعلى أي أساس ذلك الذي وضع أساس القانون الطبيعي في حقوق الإنسان وكيف يجب أن يتحلّى ويتجنس . لا على أساس الحسب والنسب والسلالات القبائلية ولا اللون ولا الزي ولا المهنة ولا أي شيء سوى واحد يقره المنطق السليم والكمال المطلق . كما ورد في الآية ١٣ من سورة الحجرات ، من القرآن الكريم ، قوله تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل

لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴿ خير الكلام ما قل ودل . ومن أحسن من الله حديثاً .

انظر كيف جعل التقوى وهي زبدة الفضائل في الفرد الإنساني ،
الميزة الوحيدة للفضيلة والمحاسن للإنسان في اجتماعه في دنياه وآخرته .
والآية ١٥ من السورة نفسها ، قوله تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا
بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ فالذي تعينه الآية
أنهم هم المؤمنون ، وتعال معي للآية ١٠ من نفس السورة قوله تعالى :
﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم
ترحمون ﴾ ، فالمؤمنون هم الذين وصفهم في الآية ١٥ من أي لون ومن
أي قبيلة أو مدينة أو قطر في الشرق أو الغرب من أسودها أو أبيضها ، كل
تلك لم تكن الميزة المفرقة بل التي ذكرها في الآيات المارة . ويؤيدها
بوصايا ثمينة على أثر معرفة ذلك فقد جاء في الآية ١١ منه .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً
منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا
تتأزروا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم
الظالمون ﴾ فالمؤمن بالله ومن يتصف بالاخلاص والتقوى هو وحده
المخاطب المندوب بعدم السخرية من بعضهم ، وهم المأمورون بعدم لمز
بعضهم لبعض في جميع أنواع الألقاب المارة الذكر .

هنا قضى الكتاب المجيد (القرآن) كلمته القاطعة من ترك الألقاب
والالماز بالأنفس ، لا تنسبوا أنفسكم بعد هذا كما كان في عهد الجاهلية
إلى قبيلتكم واحسابكم وأنسابكم ومدينتكم وألوانكم وأزيائكم وأي شيء
آخر أبداً ، فكل ذلك فسوق فلا جنسية مميزة للإنسان غير التقوى والإيمان
الجامعة للإخوة بين الأمة بين النوع الإنساني من أقصاه إلى أقصاه . ولقد
أكد ذلك حينما أتى بالآية التالية :

﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ .

لمن خاطب القرآن؟ ألم يخاطب أهل الكتاب؟ ألم يخاطب أهل العقل والمنطق الموحدين الحنفاء ذوي الآراء الصائبة من البشر الذين لا يشكون بخالق الكون وعظمته وصمديته وإبداعه؟ .

وأنتم أيها القائلون بالجنسية والحدود والفواصل اسمعوه عز من قائل كيف يخاطب البشر جميعاً دون استثناء وكيف يريه طريق الصواب كي يكون سعيداً ، وكيف يحذره من الذل والهوان وصدمة الوجدان ، فهو كما نصحه بالبر والإحسان للغير وحرصه على جلب سعادة الغير ، فرض عليه أن يوفرها لنفسه ، وإذا قصر ورضى بما يستوجب اهانتها أو تعذيبها أو ظلمها كان عرضة لنقمة الله وسخطه ، أخص منها إذا شعر أنه في بلدة مهان وإن مدينة أو مقرأ آخر أقر لسعادته بات عليه من الواجب المهاجرة إليها ، تخلصاً من الشقاء وطلباً للسعادة ، وإن لم يفعل فقد ظلم نفسه واستحق عذاب الله على ذلك .

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

تري كيف أشار إلى من ظلم نفسه ، وأنه كيف يجري عليه العقاب الصارم جهنم ويا لجهنم من سوء المصير ، نعم لأنهم ظلموا أنفسهم ولأنهم خضعوا واستكانوا مستضعفين ومهانين ، وتحملوا بل حملوا أنفسهم العار والنكبات وهو أشد العذاب تحملوه وضلوا صاغرين وقد ألقى عليهم الحجة لسوء عملهم ، فقال مخاطباً إياهم - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا؟ .

لم يخاطبهم بالصمود والاستكانة والتذلل لمحض التعصب الأعمى باسم الوطنية أو اسم الجنسية أو أي اسم ، وهكذا نرى رسول الله يحرض

المسلمين المضطهدين بالهجرة إلى الحبشة ، وبعدها الهجرة إلى المدينة وقد بقى في المدينة حتى بعد انتصاراته وهو القرشي . وقد جاء في نهج الفصاحة من الكلمات القصار لمحمد (ص) الكلمة ١١١٦ (البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً فأقم) .

ألم تجد أن رسول الله يقول لسلمان الفارسي وهو يخاطب المسلمين : لا تقولوا سلمان الفارسي بل قولوا سلمان المحمدي؟ ثم يقول سلمان منا أهل البيت .

ومن أين جاء سلمان حتى أصبح من أهل البيت وكيف أصبح سلمان المحمدي؟ ألم يكن سلمان فارسياً ومن أصل فارسي؟ ألم يكن أعجمياً؟ ألم يكن قبلها مملوكاً؟ ألم يختلف العنصران الفارسي والعربي؟ باللغة بالجنس والسلالة والدولة ، والتبعية؟ فما هو الحادي برسول الله أن يطريه وأن يتقبله من أهل البيت إلى أقرب الأقربين ؟

نعم ما هو إلا الإيمان . الإخلاص في النية والعمل ، إلا التقوى والتقوى وحدها يجب أن تكون المميّزة لرفع قيمة الإنسان وإكسابه القربى . وهكذا نجد الإسلام يضع الحجر الأساس لحقوق الإنسان ويميزه بالعقيدة وأي عقيدة؟ نعم الإسلامية ، الإيمان بالتوحيد وثبوت النية والجهاد لله أمام شُرور النفس والجهاد لله للذب عن حياض المسلمين في الدفاع والهجوم والجهاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسمو بالخلق الفاضلة ، كل تلك الفضائل إنما منشؤها العقيدة الإسلامية الراسخة الصحيحة المتأصلة قلباً وبدناً ولساناً ، وكل ما عداها باطل ، بل كل من تمسك بغير تلك كان تنازلاً بالألقاب ، من لغة ومكان وحسب ونسب وزبي ولون وسلالة كلها ، وكلها خارجة عما أمر به الإسلام ، فالإسلام يعتبر الناس كلهم مهما اختلفوا لوناً ونسباً وزياً ولغة وبعد المسافة جميعاً من أصل واحد ، لا يميز بينهم غير التقوى وإن أكرمهم أقرهم عند الله ، أكرمهم عند الباري المصور القدير الأحد الصمد مالك السماوات والأرضين .

فمن أين جاءت هذه الجنسية؟ وكيف وضعت هذه الامتيازات لأفراد قبيلة على أخرى أو مدينة أو قطر أو لغة أو لون أو زبي على آخر؟ .

نعم هناك ميزات أخرى لها بعد الإيمان الرفعة والتقدير ، كالعالم والجاهل والبريء والمجرم والمحسن والمسيء ، وهي من مراتب التقوى والإيمان عند الله ، فالعالم أشد رسوخاً في الإيمان من الجاهل وأشد إخلاصاً والبريء عن المساوئ والأجرام والقائم بالبر والإحسان ، هو الأتقى فتري كل ذلك إنما منشؤه الإيمان والتقوى ، درجات من درجات الإيمان ، ودرجات العقيدة هي الميزة الوحيدة في الإسلام والذي يجب أن يكون المميز الأصلي لرفع مقام الإنسان والإنسانية .

فالتقوى بنظر الإسلام هي كلمة تطلق على الفضائل الإنسانية ، ولها درجات ومراحل ، وهذه الدرجات هي الميزة والخصلة الوحيدة التي يعتد بها الدين الإسلامي لتقدير البشر وإعطائه المكانة على قدر تلك الدرجة .

والآن تعال معي لنرى وندرس هذه العقيدة من وجوه أخرى . وانها كيف ترفع هذه العقيدة ذاتها الفرد مهما كان من الوضع الاجتماعي ومهما كان نسبه وحسبه ، فلا رافع له عند الله لا أب ولا أهل ولا مدينة ولا سلالة ولا مهنة ولا كل شيء ، سوى الإيمان وسوى درجة ذلك الإيمان ، أي درجة التقوى ، والتقوى سيد الأخلاق بنظر نبي الإسلام قال سبحانه عز وجل في سورة التحريم الآية ١٠ :

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ .

وجاء في الآية ١١ منه ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ .

هذا الإيمان والصدق والاخلاص هي المبني لرفع الشخص . ونرى في سورة القلم الآية ٣٥ و ٣٩ قوله تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ؟ ﴾ وقوله تعالى في سورة الجاثية الآية ٢٩ : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ؟ ﴾ وقوله تعالى في سورة الزخرف الآية ٦٧ : ﴿ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض أعداء إلا المتقين ﴾ .

هكذا يميز الله المتقين لعقيدتهم دائماً عن الجميع فكان العقيدة بالإيمان بالتقوى بالفضائل بالتوحيد ، هي الميزة الوحيدة عند الله التي يلزم دوماً رفع المرء بها وانها وحدها التي تؤلف بين الافراد تأليفاً واقعياً دون سواها . فنرى بقوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض أعداء إلا المتقين . هنا ميز عقيدة الإيمان عقيدة الاخلاص والتقوى من بين العقائد كلها ، من العقائد سواء السياسية وغير السياسية سوف تؤول للخلاف والعداء بين أفرادها إلا المتقين .

ما أراد الإسلام بهذا ؟ .

إن الحقيقة الواقعية لكل من تعمق ومحص عن الواقع يجد أن الإسلام ذهب مذهباً بعيداً ودقيقاً لهذه الزمرة من أهل العقائد ، وجعلهم الصفوة الدائمة بالصفاء والتعاون والفضائل بين كل المميزات التي تقرب وتبعد الأفراد حتى بين العقائد . وكلما ذكرنا من معنوية ومادية ومختلطة ، وكان في الحقيقة ان الميزة التي يجب تمييز الفرد بها عن سواء دائماً وأبداً ، إنما هي الفضائل وذوو الفضائل المتأصلة الراسخة الواقعية ، وما سواها فهي ليست ميزة يعتد بها ، بل هي صفات وعنعات يمنعها الإسلام أن تكون فارقاً بين أفراد البشر كما جاء في الآية ١١ من سورة الحجرات المارة الذكر .

الآثار النفسية والروحية في التقارب والتباعد :

إحساس الفرد وشعوره بالمودة والحب والتقارب وبعدها الإخلاص في النية والقول والعمل ، إنما هي دوافع من مكنونات روحية نفسية استقرت ورسخت فيها بعد تهيؤ أسبابها من التوافق الروحي والتشابه النفسي والتناسق المنطقي والمنظر والمسمع والمذاق واللمس والإدراك الجميل للتقارب المتدرج في مراحلها حتى يشعر به الفرد أنه لاصق به بل إنها أجزاء تكمل الواحد الأخرى ولا يجد القرار بدونه ، فهو مهوي النفس ومكمنها ومبتغها في حالها ومستقبلها ، فالحرص عليه كالحرص على النفس ، والذب عنها كالذب عن النفس ، والإخلاص لها سلوة للضمير واقناع له ، والتحدث فيه يوافق الشعور الحي والنهج القويم .

تلك معنويات خالصة وعقائد زكية ترد النفس وتختلط بالروح من طريق الوحي الفكري والتسلط العقلي ، وهي المنتهى والغاية من الإيمان والبغية من العقيدة التي تغنى في سبيلها كل الماديات في الجسم مستحيلة جميعها إلى معنويات متسامية نزيهة رفيعة زكية تتجلى في صفوة الصفوة من المتقين الذين يفهم القرآن ، والذين يريد التوصل إليهم والتقرب منهم أفلاطون عند بحثه لانتخاب رئيس جمهوريته والذين يبحث عنهم الحكماء والعرفاء .

وهناك العقائد الواردة ومن طرف آخرين هي المادية المار ذكرها في الجنس والزي والعادة على اختلاف أنواعها ما ذكر منها وما لم يذكر ومحل السكنى والنشأة والمحيط وأمثالها .

فهي ليس لها الأثر الفعال إلا متى استحالت من ماديتها إلى المعنوية ، وبدا أثرها في النفوس وداخلتها واستقرت معنوية إلى جنب الأولى ، وهي ثابتة راسخة ما استحلت إلى الأولى ومذبذبة ما لم تلج الضمير وتستخرجها العقول الفذة الكاملة ، فتعود متضاربة متخالفة على

فحوى الآية الشريفة ٦٧ من سورة الزخرف ، قوله تعالى ﴿ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ .

فتبقى في النتيجة الحقيقة ناصعة جليلة وتزول كل الشوائب الممزوجة بها من الماديات ، وتبطل كلما ألصق بالمعنوية من أراجيف ووصفت به من مهازل وأكاذيب . ويبدأ التباعد بين الاخلاء الماديين المشتتين البعيدين عن الواقع المرائين المنافقين الذين قال عنهم الإمام الحسين عليه السلام : (الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معاشهم) ، هكذا ترى دائماً الحقيقة واحدة وباقية بيد أنها موزعة في أفراد البشر بصورة نادرة ، ومتى وجدت لا تأتلف إلا مع أمثالها ونظائرها ، وهي العنصر الواقعي ، عنصر الخلوص ، عنصر النزاهة ، عنصر التقوى والإيمان الذي لا يمكن الحصول عليه إلا عند النخبة الفذة والصفوة الصفوة من أبناء البشر . وإذا قال الشاعر :

فما أكثر الاخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل

فإن الشاعر إنما يريد البحث عن الأفذاذ ذوي الضمائر الحية الزكية والحاملين لروح الإنسانية الواقعية الأقرب إلى المعنويات والخلق السامية .

نعود إلى الجنسية والمرمى المطلوب منه إنما هو مرمي موهوم مفرق منفور منعه الإسلام على الشاكلة التي وضعتها الأنظمة الحديثة وأحكامه بنظم وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا ارتضتها الطبيعة أبداً ، وهي من أسباب العدا والتباعد والمخاصمات في البشر ، ليس لها أساس مما أدلى به منها في هذه التعاليم ويتخبط بها كباقي أعماله الاجتماعية الوحشية في إيجاد النفور والبغضاء والتعاسة بين البشر ، التي يجب أن تزال من صفحات الكتب ، وانها ستزول حتماً آنفاً ، وإذا بقيت فهي أحد الأسباب للقضاء على البشرية جمعاء لما تحويه من أسباب الفساد والتخاخم والتنازع والعداء .

وها اني أصرح وأهيب بافراد البشر وجماعاته ودوله وحكوماته الامتناع والابتعاد عن كل ما يسبب العداء والنفور والتباعد بين أفراد البشر ويفرق بين أفراد هذا العنصر الواحد الموحد في أجزائه وصفاته ، وتفضيل واحد على الآخر بغير مكارم الأخلاق من تقوى وعلم وحكمة وتواضع ونكران الذات وبر وإحسان وأمثالها ، والابتعاد عن وضع حدود تجمع مساوىء الأخلاق من تنابز وتنافس وتناحر وجهل وعقائد ما أنزل الله بها من سلطان وعقائد غير فطرية وطبيعية ، والعمل على ما يسند ويربط ويعضد الإنسان إلى أخيه الإنسان ، مهما كان وأنى كان ومن أين كان . وبعد هذا كله فلا أرى أبلغ وأعظم من القرآن وأصدق وأتقى من نبي الإسلام في قوله مما نزل عليه في الآية ١٣ من سورة الحجرات والآية ١١ منه المارة الذكر والتي نعيد ذكرها قوله عز من قائل .

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ١١ منه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ الحجرات : ١١ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في الكلمة ١١١٦ نهج الفصاحة : (البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً فأقم) .

وقال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في الجزء السادس من نهج البلاغة الكلمة ٤٣٤ (ليس بلد بأحق بك من بلد . خير البلاد من حملك) .

الكاتب في سطور

الاسم : جواد الخليلي حفيد الحاج مرزه حسين الحاج مرزه خليل
أحد المراجع التقليدية الشهيرة .

ولادته : في النجف بتاريخ ١٩١٤/٦/٢٤ شمسية الموافقة سنة
١٢٨٢ هـ في النجف الأشرف .

أسرته : اشتهرت في النجف الأشرف بالفقه والأصول والطب ولهم
آثار باقية مدارس علمية باسمهم في النجف .

نشأته : في العراق . اخص النجف .
دراسته : أدبية - علمية (في الطب والحقوق وعلم النفس) .

مسكنه وإقامته : العراق - إيران - ثم هاجر إلى كندا وأقام بها مع
أهله وأولاده .

أعماله الإدارية : في الشؤون الطبية والقانون^(١) .
هوايته : الشعر والمطالعة والكتابة .

نتاجه العلمي : ديوان شعره باللغة العربية في جزأين ، دائرة معارف
الأم والطفل (في التربية والطب في خمسة أجزاء ، العلوم النفسية في علم

(١) اثنتا عشرة سنة في منصب طبي ، و ٢٣ سنة قاضياً ، ويعدها محامياً ، وقبلها ويعدها مؤلفاً
وكاتباً .

النفس والتنويم المغناطيسي وتحضير الأرواح جزء واحد ، الحكومة العالمية المثلى في ثلاثة أجزاء ، موسوعة المحاكمات في عشرة أجزاء ، جزآن في حياة رسول الله محمد (ص) وجزآن في حياة علي (ع) وجزء عن أبي بكر (رض) وجزء عن عمر (رض) وجزء عن عثمان (رض) وجزء في الناكثين والمارقين والقاسطين ، وبعدها جزآن مفصلة وحوار فيما طرأ بسبب ما تقدم ونتج في الوضع الإسلامي والعلل والأسباب ومحاكمة المسيبين وانقسام الأمة الإسلامية وتدهورها .

أولاده : ستة أولاد وثلاث بنات : دكتور باسم طبيب جراح ، دكتور. عاصم استاذ جامعة في الهندسة الكهربائية . سالم في الهندسة المعمارية وحسين في الجامعة فرع العلوم في أتاوا وعلي طبيب من أتاوا وحسن في جامعة سُربروك بكندا طالب في الصف الثالث ، وبنات ثلاث ذوات شهادات عالية ومتزوجات وذوات أولادهم سلوى وسهام وعصام .

زوجته : كل أولاده من زوجته الوحيدة الهاشمية العلوية الحسينية ومن خير سلالاتها من الأب والأم ولها اليد الطولى في تربية بناتها وأدبهم وتدرجهم على المبادئ الإسلامية الرفيعة والرفقي العلمي - كما هي الساعد الأيمن في تهيئة الأجواء العلمية والأدبية والاجتماعية لزوجها ممزوجة بروح الاخلاص والتقوى والمودة . هي السيدة نجاة الحسيني بنت السيد أحمد الحسيني .

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
تصدير	٥
المقدمة	٧
الحكومة العالمية المثلى	١١

الكتاب الأول

حكومة الطبيعة أو الحكومة الفطرية - حد القوانين الاجتماعية - حد الطبيعة	١٧
القواعد الاجتماعية	٢١
الغاية من تطبيق الشؤون الاجتماعية على الطبيعة	٢٢
الأسئلة الثمانية	٢٤

الجواب على الأسئلة :

١ - هل توافق القوانين الاجتماعية الطبيعية في جميع المراحل والشؤون	٢٧
صفات الإنسان	٣١
٢ - هل توافق القوانين الطبيعية جميعها أو بعضها المنطق؟	٣٦
٣ - هل توافق القوانين الاجتماعية جميعها المنطق والمعقول؟	٣٧
٤ - هل في القوانين الاجتماعية ما يخالف الطبيعة والفطرة؟	٣٨

- ٥ - كيف نفسر الحالة الطبيعية الفطرية في الحيوانات في حياة الضواري وانها تعيش على سلب حياة الأخرى؟ ٣٩
- ٦ - كيف تسيطر الواحدة على الأخرى - مرة الصغيرة على الكبيرة وبالعكس - مرة القوي على الضعيف وبالعكس ٤٠
- ٧ - هل ينطبق في الأرواح والأفكار والعقول ذلك التنازع وتتغلب على بعضها؟ ٤١
- ٨ - ما هو الجزاء لمن يخالف قانوناً طبيعياً؟ أو يخالف المنطق السليم؟ ٤٣
- ماذا يحدث لو عملنا بما يوحيه العقل السليم وحسب؟ ٤٥
- أ - هل يمكن أن نعتبر الفكر غريزة بشرية؟ ٤٩
- ب - هل يمكن فصل العقل عن الفكر؟ ٤٩
- ج - كيفية استحصال القوانين الاجتماعية من الطبيعية؟ ٤٩
- كيف نجري الاختبار؟ ٥٠
- ما هي بواعث العلل الاجتماعية؟ إذن ما العمل؟ ٥١
- الإنسان: (أبداع حكومة عالمية مثلى في جسم الإنسان) ٥٤
- الدورة الدموية ٦١
- الحس ٦٢
- المقارنة ٦٦
- نموذج من الكفاح الفطري في جسم الإنسان ٧٠
- درجة حساسية المراكز . الترميم ٧١
- الفوارق بين المجموعة البشرية وبين المجموعة البدنية ٧٣
- الفروق بين الحجيرة والإنسان ٧٧
- المتشابهات والمتناقضات وأثرها - المتشابهات المعنوية ٧٩
- الحل المعقول والحكم الفصل - الإرادة القوية ٨١
- القانون الأساسي ٨٣
- قانون الجزاء ٨٤

السرطان	٨٩
أدناه نورد بعض الأسئلة	٩٣

الكتاب الثاني

الأمثلة التطبيقية	٩٧
علم الأخلاق	١٠٠
١ - المنطق السليم	١٠٣
٢ - تعلموا الحياة من الطبيعة	١٠٤
٣ - إن الطيور على أمثالها تقع	١٠٥
٤ - الابتسامة - القصيدة	١٠٧
٥ - التاريخ يعيد نفسه	١١٠
٦ - المخدرات كما تقلل الشعور بالألم تقلل الشعور باللذة أحياناً	١١١
٧ - الناس معادن	١١١
٨ - الكرة تنفجر وتنفسخ	١١٣
٩ - العقد	١١٧
١٠ - تداخل الخيوط - الرباعية	١١٨
١١ - التجربة خير دليل	١١٩
١٢ - طبائع البشر لجلب الخير مرة ودفع الشر أخرى	١٢٠
١٣ - عرقلة صغيرة تجر وراءها عراقيل	١٢١
١٤ - انتقال طبيعة المأكول للأكل	١٢٣
١٥ - قابلية اكتساب البدن والروح لصفات الخير والشر	١٢٤
١٦ - درجة الاعتدال - الزائد كالناقص	١٢٥
١٧ - الظاهر دليل على الباطن	١٢٧
١٨ - كيف تنشأ الصدمات وكيف تزول	١٢٩
١٩ - درجة الاشباع في الماديات والمعنويات	١٣٠
٢٠ - اغلاط الحواس والتعود عليها لا تضيع الحقيقة	١٣١

- ٢١ - الانقلاب جمعه انقلابات ١٣١
- ٢٢ - من هو المرء المهذب (الحكيم) ١٣٣
- ٢٣ - روح المصاحبة والصفات المكتسبة ١٣٦
- ٢٤ - بلوغ الهدف ١٤٠
- ٢٥ - نظرية هل تصدق؟ العلاج بالنوم الطويل ١٤١
- ٢٦ - فرّق تسد ١٤٢
- الوقاية خير من العلاج - ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ١٤٤

الكتاب الثالث

- ١٤٧ ذوا الآراء والأديان
- ١٤٩ المقدمة
- ١٥٦ الهند - البراهمة - البدرة
- ١٥٧ ذوا الفكر - ذوا الروحانيات
- ١٥٨ المهاكلينية
- ١٥٩ الاكيواطرية - حكماء الهند
- ١٦٠ الودائية - البودائية
- ١٦٢ الفروق بين البودائية والإسلام
- ١٦٣ ما يؤخذ على بودا
- ١٦٤ مذهب جين
- ١٦٥ أساس العقيدة الجينية
- ١٦٦ العقائد الصينية
- ١٦٧ مذهب تا أو
- ١٦٩ كونفوشيوس - تعاليمه
- ١٧٠ الكتب المذهبية - ما يؤخذ عليه
- ١٧٣ مذهب شين توفى اليابان
- ١٧٩ مذهب زرتشت - المبادئ الزرتشتية

١٨١	مذهب مهر
١٨٢	مذهب ماني
١٨٤	الصابئة
١٨٥	الفلاسفة (الحكماء)
١٨٦	العرب قبل الإسلام
١٨٨	الديمقراطية
١٨٩	الشيوعية — الفاشستية — اليونان
١٩٢	أفلاطون وآراؤه وجمهوريته
١٩٤	النقد والإصلاح عنده
١٩٥	الحلول النفسية
١٩٦	الحلول العملية
١٩٧	الحل السياسي
١٩٨	منزلة المرأة عند أفلاطون
١٩٩	الحل الاجتماعي
٢٠٠	تقسيم الحكومات عنده
٢٠٤	دين اليهود
٢٠٥	عقائدهم
٢٠٨	اليهود في الماضي والحاضر
٢٠٩	المسيحية
٢١٠	الأقانيم
٢١٢	الكتب المقدسة عند المسيحيين
٢١٣	أصول العقائد عندهم — شراء الخطايا
٢١٤	المحبة
٢١٥	الجبر والاختيار الارثوذكس والنسطوريون
٢١٦	الآباء المسيحيون — الخطيئة
٢١٩	تمجيد الإسلام لاسفار الأديان السماوية وتنزيههما

٢٢٤	المسلمون
٢٢٧	الإسلام
٢٢٩	القرآن
٢٣٠	الواجبات - الصلاة
٢٣١	الزكاة والخمس وحل المشاكل الاقتصادية
٢٣٣	تقسيم العالم لثلاثة مكاتب أعدلها الإسلام
٢٣٥	الصوم
٢٣٦	الحج
٢٣٨	الجهاد - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
	العقود - الأحوال الشخصية - الأطعمة والأشربة والصيد -
٢٣٩	القضاء - واجب الاعتقاد
٢٤٦	المقارنة بين العقائد والآراء المارة
٢٥١	لبلوغ الحكومة العالمية المثلى وإدراك السعادة
٢٥٣	خير الحكومات
٢٥٤	١ - الرأسمالية
٢٦٣	٢ - الكتل الاشتراكية
٢٦٥	٣ - الدينية
٢٨٠	التقوى

الكتاب الرابع

٢٨٩	المنظمات الحية
٢٩١	النحل
٢٩٢	الملكة
٢٩٣	مدى سلطان الأم - الأميرات
٢٩٤	الذكور - الطبقات الأخرى
٢٩٤	المحافظون - اللاسعات - الاخصاصيون بالبناء

٢٩٦	تنحي الملكة — مآل الذكور
٢٩٧	القضاء على الأميرات
٢٩٨	المقارنة بين حياتها وحياة البشر
٣٠١	رمز الوحدة
٣٠٦	صنع الخلايا
٣٠٧	النقد الموجه للنحل والإنسان
٣٠٨	حواس النحل
٣٠٩	بناء الخلايا
٣١٠	نمو النحل وتعليماته — الطبيعة تكثر النحل — الاستثناءات
٣١١	الختام
٣١٥	النمل
٣١٧	العائلة النملية
٣١٩	طبقات النمل — النظام الجمهوري
٣٢٠	خصائص النمل — التوالد
٣٢١	عمر النمل — بيوت النمل
٣٢٣	استراحة النمل — سكان الأشجار — بيوت النمل الاصطناعية
٣٢٤	النمل المحارب — فنون النمل الحربية
٣٢٥	الثورة على الأسياذ
٣٢٦	الملكية عند النمل — عواقب الحرب والاحتلال الاجباري
٣٢٧	النمل الوحشي — روابط النمل
٣٢٩	الوعي عند النمل وتربية الدواجن
٣٣٠	يستفيد في الزراعة — النمل الحائك
	ذوات المذاخر — النمل يطفىء النار — اتقاؤها من ضرر الماء —
٣٣١	النمل الطفيلي
٣٣٤	مقارنة الإنسان بها وبغيرها
٣٣٧	الأرضة

٣٣٨	ملكيتها
٣٤٠	العمال — الجنود
٣٤٢	العائلة المالكة — الزواج
٣٤٤	أضرارها للبشر
٣٤٥	القوة المبدعة
٣٥٠	امتيازات الأرضة على الإنسان

الكتاب الخامس

٣٥٣	الجنسية : (التابعة)
٣٥٥	المقدمة
٣٥٨	ما هي الجنسية
٣٦٠	أسباب التقارب والتباعد في البشر
٣٦١	العقيدة
٣٦٢	المعرفة
٣٦٥	المادية — الوطن
٣٦٨	اللون
٣٦٩	الجنس والعنصر والدم
٣٧٠	الزوي
٣٧٢	الزواج والتوالد والتقارب العائلي
٣٧٣	النشأة
٣٧٤	الخلقة والتقاطيع الجسمية
٣٧٥	المختلطة — اللغة
٣٧٨	الحرفة والمهنة والوظيفة
٣٨١	المحيط والتربية
٣٨٣	العادة
٣٨٦	الجنسية والوطنية عند الحيوانات

٣٩٢	الجنسية والقانون الطبيعي في بدن الإنسان
٣٩٥	التاريخ القديم والجديد والجنسية
٣٩٨	أهل الآراء وأهل الأديان
٤٠٤	القرآن والجنسية
٤١٠	الآثار النفسية والروحية في التقارب والتباعد
٤١٣	الكاتب في سطور
٤١٥	الفهرس

